







Princeton University Library



32101 057499368

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date  
stamped below. Please return or renew  
by this date.*

--	--







# الأمثلة

في نفس بركات كتاب الله المنزل

لجنة التأليف والترجمة والنشر

الأستاذ المحقق

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مجلد ثلثين

نقحه وأخرجها

الأستاذ محمد علي آذر شب

مؤسسة النشر الإسلامي (الطبعة)

بمقر المدرسين بقم المشرفة (إيران)

(RECAP)

BP130

.4

.M343

2 ' ٧٣

الكتاب: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (ج ٢)

إشراف: الاستاذ المحقق الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

تصحيح وتنقيح : الاستاذ محمد علي آذرشب

اللغة: عربي

الموضوع: تفسير

عدد الصفحات: ٤٠٠

عدد الأجزاء: ٢٠ جزء

الناشر: مؤسسه النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

الطبع: مطبعة مؤسسه النشر الاسلامي

المطبوع: ٣٠٠٠٠ نسخة

الطبعة: الاولى

التاريخ: ١٤٠٩ هـ.ق





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

\*\*\*

### الآية

١٨٨ - «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

### التفسير

هذه الآية الكريمة تنهي المسلمين عن ارتكاب إثم من أشنع الآثام هو سلب أموال الآخرين، والحصول على المال عن طريق غير مشروع وتحذّره من أكل أموال الآخرين بالباطل، ثم جرّهم إلى الحُكّام، وبعد ذلك إعطاء قسم من تلك الأموال إلى الحُكّام على شكل رشوة للحصول على بقية الأموال المغتصبة ظلماً وعدواناً، فهم بعملهم هذا يكونون قد ارتكبوا إثمين كبيرين: إثم سلب حق الآخرين، وإثم الرشوة.

والإسلام شدّد على مسألة الرشوة حتى قال الصادق عليه السلام: «وأما الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم»<sup>١</sup>.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لعن الله الراشي والمرتشي والساعي بينهما».

وفي الآية (٢٩) من سورة النساء تحذير كالتحذير المذكور في الآية أعلاه، حيث قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...».

الآية تؤكد أنّ الملكية لا تتحقّق عن طريق حكم الحاكم المرتشي، فهذه الأموال التي

حكم بها محرمة لا يجوز التصرف بها.  
وأكثر من ذلك، الحكم الظاهري الذي يصدره الحاكم الصالح، لا يجعل الأموال المغصوبة حلالاً أيضاً، مادام الطرفان المتنازعان يعلمان الحق، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن حكمه هو أيضاً لا يجعل المال حلالاً مادام الطرفان المتنازعان يعلمان أن صاحب الحق هو غير الذي حكم النبي لصالحه، بل لا بد أن يُعاد المال إلى صاحب الحق، وإلا كان في بطن غاصبة قطعة من نار كما جاء في الحديث<sup>١</sup>.

## وقفه

### وباء الرشوة

من الأوبئة الاجتماعية التي ابتلي بها البشر منذ أقدم العصور وباء الارتشاء، وكانت هذه الظاهرة المرضية دوماً موانع إقامة العدالة الاجتماعية ومن عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المتقدرة، بينما سُنت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم. الأقوياء قادرون بما يمتلكونه من قوة أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما لا يملك الضعفاء إلا أن يلوذوا بالقانون ليحميهم، ولا تتحقق هذه الحماية في جو الارتشاء، لأن القوانين ستصبح أعبوة بيد القادرين على دفع الرشوة، بيد المقتدرين، وسيستمر الضعفاء يعانون من الظلم والاعتداء على حقوقهم.

ولهذا شدد الإسلام على مسألة الرشوة وأدانها وقبحها واعتبرها من الكبائر، فهي تفتت الكيان الاجتماعي، وتؤدي إلى تفشي الظلم والفساد والتمييز بين الأفراد في المجتمع الإنساني وتصادر العدالة من جميع مؤسساته.

جدير بالذكر أن قبح الرشوة قد يدفع بالراشدين إلى أن يغطوا رشوتهم بقناع من الأساء الأخرى كالهديّة ونظائرها، ولكن هذه التغطية لا تغتير من ماهية العمل شيئاً، والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرمة غير مشروعة.

وهذا «الأشعث بن قيس» يتوسل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت أمير المؤمنين علي عليه السلام أملاً في أن يستعطف الإمام تجاه قضية رفعها إليه، ويسمي ماقدّمه هدية، فيأتيه جواب الإمام صارماً قاطعاً، قال:



«هبتك الهبول، أعز دين الله أتيتني لتخدعني... والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وأن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقيصمها. مالعلي ونعيم يفنى ولذة لا تبقى؟!...».

الإسلام أدان الرشوة بكل أشكالها، وفي السيرة أن واحداً ممن ولّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل رشوة قُدمت إليه بشكل هدية، فقال له الرسول: «كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟!» قال: كانت هدية يارسول الله. قال: «أرأيت لو قعد أحدكم في داره ولم نولّه عملاً كان الناس يهدونه شيئاً؟!»<sup>١</sup>.

ومن أجل أن يصون الإسلام القضاة من الرشوة بكل أشكالها الخفية وغير المباشرة، أمر أن لا يذهب القاضي بنفسه إلى السوق للشراء، كي لا يؤثر فيه بائع من الباعة فيبيعه بضاعة بثمان أقل، ويكسب على أثرها تأييد القاضي في المرافعة.

أين المسلمون اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل حقيقي عملي في الحياة؟!.

\*\*\*

## الآية

١٨٩ - «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

## النزول

روي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله إن اليهود يُكثرون مسألتنا عن الأهلة فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إن اليهود سألو رسول الله: لِمَ خُلِقَتْ هذه الأهلة؟ فنزلت هذه الآية، لتقول إن للأهلة فوائد مادية ومعنوية في نظام الحياة الانسانية.

## التفسير

هذه الآية نزلت للإجابة - كما ورد في سبب نزولها - على أسئلة بشأن (الهلال) وما يحصل عليه من تغييرات متدرجة كل شهر.

في الجواب يأمر الله سبحانه نبيه أن: «قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ». فما يحصل عليها من تغييرات منتظمة تدريجية، يجعل منها تقويماً طبيعياً يساعد الناس على تنظيم أمورهم الحياتية القائمة على التوقيت وتحديد الزمن، وكذلك على تنظيم أمور عباداتهم المحددة بزمان معين كالحج والصوم، والهلال هو المرجع في تعيين هذا الزمان، وبلاستهلال ينظم الناس أمور عبادتهم وشؤون دنياهم.

هذا التقويم الطبيعي ميسور لجميع البشر متعلمهم وأمتهم، في جميع بقاع الأرض، وبموجبه يمكن تعيين أول الشهر ووسطه وآخره، بل كل يوم من أيامه بدقة.

وواضح أن نظام الحياة الاجتماعية يحتاج إلى تقويم، أي إلى وسيلة تعين التاريخ الدقيق، ومن هنا وضع الله سبحانه هذا التقويم الطبيعي للناس في كل زمان ومكان.



### المقاييس الطبيعية

من امتيازات قوانين الإسلام أنّ أحكامه قائمة عادةً على المقاييس الطبيعية لأنّ هذه المقاييس متوفرة لدى جميع الناس، ولا يؤثر عليها مرور الزمان شيئاً. أما المقاييس غير الطبيعية فليست في متناول يد الجميع ولم يستطع جميع البشر حتى في زماننا هذا أن يستفيدوا من مقاييس عالمية موحدة. لذلك نرى أنّ المقياس في الأحكام الإسلامية يقوم في الأطوال على أساس الشبر والخطوة والذراع والقامة، وفي الزمان على غروب الشمس وطلوع الفجر وزوال الشمس ورؤية الهلال.

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا».

بمناسبة ذكر الحج في الآية باعتبارها من العبادات القائمة على توقيت الأهلّة، أشارت الآية أيضاً إلى عادة جاهلية ترتبط بالحج، إذ كان المحرمون -الذين أحرموا للحج- لا يدخلون بيوتهم من أبوابها، وإنما ينقبون في مؤخر بيوتهم نقباً يدخلون منه، ظناً منهم أنّ الإحرام ترك لكلّ عادة، ودخولهم من غير أبواب بيوتهم يركّز هذا الترك للعادات حين الإحرام<sup>١</sup>. الآية نهتهم عن هذا العمل وأكدت أنه لا ينطوي على برّ كما يعتقدون، وأمرتهم أن يأتوا بيوتهم من أبوابها الطبيعية.

وللآية أيضاً معنى واسع هو الأمر بإتيان الأعمال أياً كانت من طرقها الصحيحة، ونقل (جابر) هذا المعنى للآية عن الإمام الباقر عليه السلام<sup>٢</sup>.

وروي عن أنمة آل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الآية: «آل محمد أبواب الله وسبله والدعاة إلى الجنتّة والقادة إليها والأدلاء عليها إلى يوم القيامة»<sup>٣</sup>.

أي أنّ أحكام الدين ومناهج الإسلام للحياة الفردية والاجتماعية ينبغي أن تؤخذ من هؤلاء لأنهم تربّوا في أحضان الرسالة، ونشأوا في مدرسة الوحي الإلهي.

عبارة «ليس البرّ...» قد تنطوي على إشارة لطيفة أخرى هي مخاطبة السائلين بأنهم في سؤلهم عن الأهلّة بدل سؤلهم عن أمورهم الدينية الهامة كمثل الذي ترك باب بيته الأصلي، ودخل البيت من نقب حفره خلف بيته... ما أفصح هذا العمل؟!

٢ و ٣ - مجمع البيان: في تفسير الآية.

١ - تفسير البضاوي: ذيل الآية المذكورة.

## الآية

١٩٠ - «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

## النزول

عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج هو وأصحابه في العام الذي أرادوا فيه العمرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون عن البيت الحرام، فنحروا الهدي بالحديبية ثم صالحهم المشركون على أن يرجع من عامه ويعود العام المقبل، ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، فرجع إلى المدينة من فوره. فلما كان العام المقبل تجهز النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي لهم قريش بذلك وأن يصدوهم عن البيت الحرام ويقاتلوهم، وكره رسول الله قتالهم في الشهر الحرام في الحرم فأنزل الله هذه الآية لتبيح للمسلمين القتال إن بدأهم المشركون به.

## التفسير

القرآن أمر في هذه الآية الكريمة بمقاتلة الذين يشهرون السلاح بوجه المسلمين، وأجازهم أن يواجهوا السلاح بالسلاح، بعد أن انتهت مرحلة صبر المسلمين على الأذى، وحلت مرحلة الدفاع الدامي عن الحقوق المشروعة.

## لماذا الحرب؟ ومن نحارب؟

في هذه الآية إشارة إلى ثلاثة أسس توضح مفهوم الإسلام عن الحرب:

١ - جملة «قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» توضح الهدف الأساسي من الحرب في المفهوم الإسلامي، فالحرب ليست للانتقام ولا للعلو في الأرض والتزعم، ولا للاستيلاء على



الأراضي، ولا للحصول على الغنائم... فهذا كله مرفوض في نظر الإسلام. حمل السلاح إنما يصح حينما يكون في سبيل الله وفي سبيل نشر أحكام الله، أي نشر الحق والعدالة والتوحيد واقتلاع جذور الظلم والفساد والانحراف:

٢ - وبشأن الذين تجب مقاتلتهم تقول الآية انهم «الذين يقاتلونكم»، فلا تجوز مقاتلة العدو مادام لم يشهر سيفاً ولم يبدأ بقتال باستثناء موارد خاصة سيأتي ذكرها في آيات الجهاد.

ويستفاد من الآية أيضاً أن المدنيين - خاصة النساء والأطفال - لا يجوز أن يتعرضوا لهجوم، فهم مصونون لأنهم لا يقاتلون ولا يحملون السلاح.

لذلك نرى ريب الرسالة الإمام علي عليه السلام يأمر جنده قائلاً: «لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حجة أخرى»<sup>١</sup>.

٣ - أبعاد الحرب تحددها العبارة «ولا تعتدوا».

فال حرب في الإسلام لله وفي سبيل الله، ولا يجوز أن يكون في سبيل الله اعتداء ولا عدوان. لذلك يوصي الإسلام برعاية كثير من الأصول الخلقية في الحرب، وهو ما تفتقر إليه حروب عصرنا أشد الافتقار. يوصي مثلاً بعدم الاعتداء على المستسلمين وعلى من فقدوا القدرة على الحرب، أو ليست لديهم أصلاً قدرة على الحرب كالشيوخ والنساء والأطفال، وهكذا يجب عدم التعرض للمزارع والبساتين، وعدم اللجوء إلى المواد السامة لتسميم مياه شرب العدو كالسائد اليوم في الحروب الكيميائية والجرثومية.

يقول علي عليه السلام:

«فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم»<sup>٢</sup>.

من هنا تتضح تهاية الشبهات التي يوجهها الأعداء بشأن الجهاد الإسلامي، فما يطرحه القرآن بشأن أهداف الحرب وأطراف الحرب وأبعاد الجهاد المختلفة لا يدع مجالاً لشبهات المشككين ولطعن الطاعنين، وسيأتي بإذن الله مزيد من التوضيح في هذا المجال خلال تفسير آيات الجهاد الأخرى.

\*\*\*

## الآيات

١٩١ - «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ  
وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ  
قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ».

١٩٢ - «فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

## التفسير

في الآيات ١٩٠ - ١٩٥ عَيَّنَ اللهُ سبحانه واجب المسلمين تجاه كفار مكة، هؤلاء  
الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم، وصبوا عليهم ألوان الأذى والعذاب، واحتالوا عليهم  
بأنواع الحيل ليرجعوهم عن دينهم. وفي هذه الآية يتسع نطاق الحكم، ويسمح للمسلمين أن  
يقتلوا هذه المجموعة من الأعداء المحاربين أينما وجدوهم، وأن يشردوهم من مكة. كما أخرجوا  
المسلمين منها.

## «والفتنة أشد من القتل»

الفتنة في اللغة لها معنى واسع يشمل المكر والخديعة والفساد والشرك والإثم  
والفضيحة، ويقصد منها في هذه الآية الشرك الذي هو مصدر أنواع المفاصد الاجتماعية  
كالإختلافات والتفرقة والذنوب وسفك الدماء، والدليل على ذلك ماسيأتي في آية تالية  
حيث يقول سبحانه: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ».

الشرك وما يتبعه من ألوان المفاصد الاجتماعية كان مستشرياً في أرض مكة ملوثاً  
الحرم الآمن، وهذا الانحراف أفضع من القتل، من هنا ينبغي محاربة الشرك وإن تطلب  
ذلك قتالاً وسفك دماء، لا بد من اقتلاع جذور الشرك بكل ثمن، عن طريق الدعوة  
السلمية أولاً، ثم عن طريق الشدة والقوة.

ثم تؤكد الآية على ضرورة احترام المسجد الحرام حيث المكان الذي جعله الله آمناً

بناءً على طلب إبراهيم الخليل، فلا تجوز مقاتلة المشركين فيه حتى يبدأوهم بقتال. فإن بدأوا بالقتال فللمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم حتى في المسجد الحرام. ثم تصرّح الآية أخيراً أنّ هذا «جزاء الكافرين». فجزاؤهم القتل حتى لو سوّلت لهم أنفسهم عدواناً في ذلك المكان المقدّس، كي لا يتخذوا من قدسيّة المكان ذريعةً لمواصلة العدوان.

«فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

هذه الآية تؤكد على مفهوم سام يبعد الجهاد الإسلامي كلّ البعد عن روح الحقد والانتقام، وتؤكد أنّ هذا الكافر المحارب - لوتاب - يعود إلى رحمة الله وإلى حمى المسلمين ويصبح أخاً يرتفع عنه حتى ما يفرض على المجرمين من عقوبة وغرامة.

\*\*\*



## الآية

١٩٣ - «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ».

### التفسير

هذه الآية بيّنت هدف الجهاد الإسلامي. وأكدت أنّ الجهاد يستهدف رفع الفتنة ويستهدف تحرير الناس من عبودية ما سوى الله «حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ». فالجهاد إذاً لا يستهدف ما تستهدفه الحروب في المجتمعات الجاهلية، من تسلط واحتلال وغنيمة اقتصادية وعلو عنصري أو فئوي.

الهدف من الجهاد كسب رضا الله، وإقامة العدالة الاجتماعية، وحماية الجماعات البشرية المتورطة في حبال المكر والخديعة، وإزالة لؤثة الشرك والوثنية من المجتمع الانساني، وتطبيق أحكام الله.

وتضيف الآية على المسلمين أن لا يعتدوا على هؤلاء إن عادوا عن كفرهم وفسادهم ووثنتهم، وهو تأكيد قرآني آخر على ابتعاد الجهاد عن روح التشفي والانتقام. على المسلمين أن يفضوا النظر عن ماضي هؤلاء المحاربين إن عادوا إلى حمى المجتمع الاسلامي.

### وقفات

ويمكننا تقسيم الجهاد الاسلامي على ثلاثة أقسام:

#### ١- الجهاد الابتدائي التحرري

قدّم الله سبحانه للبشرية مناهج حياتها الكفيلة بتحقيق حريتها وتكاملها وسعادتها وتحمل الأنبياء مسؤولية تبليغ أحكام هذه المناهج الحياتية للناس. ومن الطبيعي أن يقف بوجه الأنبياء أولئك الذين يرون في الدعوة الإلهية خطراً على مصالحهم، عندئذٍ يحقّ للأنبياء

أن يزيلوا الموانع عن طريق الدعوة بالطرق السلمية أولاً وإن لم تجد لجأوا إلى القوة. بعبارة أخرى: يحقّ للبشر في كلّ المجتمعات أن يسمعوا دعوة الحق، وأن يكونوا أحراراً في قبولها ولو أرادت فئة أن تحرمهم من هذا الحقّ الطبيعي المشروع، وأن تحول دون وصول الدعوة إليهم ودون تحرّهم من القيود الفكرية والاجتماعية، فإنّ أنصار المنهج التحرّري يحقّ لهم أن يلجأوا إلى أية وسيلة لكسر السدود القائمة أمام انتشار نور الحرّية ومن هنا تتضح ضرورة «الجهاد الابتدائي» في الاسلام وغيره من الأديان السماوية. ولو واجهت الجماعة المؤمنة ضغطاً لإرجاعهم عن دينهم، فيحقّ للمؤمنين أن يلجأوا إلى وسيلة تدفع الضغط عنهم.

## ٢- الجهاد الدفاعي

قد يتعرّض فرد أو جماعة لهجوم يفرض عليهم فرضاً، عند ذلك تميز القوانين السماوية والبشرية للفرد أو الجماعة الدفاع عن النفس، والاستفادة ممّا وسعهم من قوّة على هذا الطريق، ومثل هذا الدفاع يسمّى بالجهاد الدفاعي. ومن ذلك غزوات: الأحزاب وأخذ ومؤتة وتبوك وحنين ونظائرها من الحروب الاسلامية.

## ٣- الجهاد من أجل دحر الشرك

الاسلام يدعو البشرية إلى اعتناق الدين الخاتم الأكمل، وهو يحترم مع ذلك حرّية العقيدة، ولذلك يعطي أهل الكتاب الفرصة الكافية للتفكير في أمر اعتناق الرسالة الخاتمة، وإن أبوا الاعتناق يعاملهم معاملة الاقلية الخليفة، ويتعايش معهم تعايشاً سلمياً ضمن شروط خاصة بسيطة ميسورة.

لكنّ الشرك والوثنية ليسا بدين ولا عقيدة، ولا يستحقّان الاحترام، بل هما نوع من الخرافة والحمق والانحراف ونوع من المرض الفكري والأخلاقي الذي ينبغي أن يستأصل مهما كلف الثمن. كلمة حرّية العقيدة واحترام أفكار الآخرين تصدق في مواقع يكون لهذه العقيدة والأفكار على أقلّ تقدير أساس من الصحة، أمّا الانحراف والخرافة والضلال فليست بأشياء تستحقّ الاحترام، ولذلك يأمر الاسلام بضرورة اقتلاع جذور الوثنية من المجتمع ولو كلف ذلك حروباً طاحنة، وبضرورة هدم آثار الشرك والوثنية ومظاهرها بالطرق السلمية أولاً، فإن تعذّرت الطرق السلمية فبالقوّة.

### لماذا شرع الجهاد في المدينة؟

نعلم أن الجهاد وجب على المسلمين في السنة الثانية بعد الهجرة، ولم يكن قد شرع قبلها. والسبب واضح، فهو يعود من جهة إلى قلة عدد المسلمين في (مكة)، والكفاح المسلح في مثل هذه الحالة هو الانتحار بعينه، ومن جهة أخرى، العدو في مكة كان قوياً جداً. فمكة في الواقع كانت مركز القوى المعادية للإسلام، وما كان بالإمكان حمل السلاح فيها. أما حين قدم النبي إلى المدينة فقد ازداد عدد المؤمنين واتسع نطاق الدعوة داخل المدينة وخارجها، وتأسست الحكومة الإسلامية بأبسط أشكالها، وتهدأت وسائل مقاومة العدو على صعيد العدة والعدو، ولبعد المدينة عن مكة استطاع المسلمون وهم آمنون أن يبنوا وجودهم ويعدوا أنفسهم لمواجهة العدو، والدفاع عن رسالتهم وأنفسهم.

### معنى الفتنة في القرآن

هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن معانٍ مختلفة منها:

- ١ - الامتحان والاختيار، كقوله تعالى: «أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ»<sup>١</sup>.
- ٢ - المكر والخداع، حيث يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا آدَمُ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ...»<sup>٢</sup>.
- ٣ - البلاء والعداب: «وَأَنفُسُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»<sup>٣</sup>.
- ٤ - الشرك والوثنية وسد الطريق أمام المؤمنين: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ»<sup>٤</sup>.
- ٥ - الإضلال وسلب التوفيق: «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»<sup>٥</sup>.

ولا يبعد أن تعود كل هذه المعاني إلى معنى مشترك واحد - كما هو الحال في أغلب المعاني المتعددة للفظ الواحد - وهو: الإحراق، ويقال: فتن الصائغ الذهب أي أذابه بالبوتقة ليبيّن الجيد من الرديء، الفتنة إذاً توحى بنوع من الضغط والشدة، وهذا المعنى مشترك في الامتحان والمكر والبلاء والشرك والاضلال، ففي جميعها يتعرض الانسان لنوع من الشدة والضنك والضغط.



## الآية

١٩٤ - «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

## التفسير

كان المشركون على علم بأنّ الاسلام يحظر الحرب في الأشهر الحُرْم «ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب» خاصة في حرم مكة والمسجد الحرام، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم ملتزم بهذا الحظر، لذلك أرادوا أن يشنّوا هجوماً مباغتاً على المسلمين في هذه الأشهر الحُرْم، متجاهلين حرمتها، ظانين أنّ المسلمين ممنوعون من المواجهة، وفي هذه الحالة يستطيعون أن يحققوا هدفهم.

الآية الكريمة تكشف مؤامرة المشركين وتحمل المسلمين مسؤولية مواجهة العدوان حتى في الأشهر الحُرْم، فذلك في الحقيقة ضروري لإعادة الحرمة إلى هذه الأشهر.

وعبارة «والحُرُمات قِصَاصٌ» تتضمّن جواباً رادعاً لأولئك الذين اعترضوا على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم لإباحته الحرب في الأشهر الحُرْم، وتعني أن احترام الأشهر الحُرْم ضروري أمام العدو الذي يراعي حرمة هذه الأشهر. أما العدو الذي يهتك هذه الحرمة فلا تلتزم معه رعاية الاحترام، وتجاوز محاربتة حتى في هذه الأشهر. وأمر المسلمون أن يهبوا للجهاد عند اشتعال نار الحرب كي لا تخامر أذهان المشركين ثانية فكرة انتهاك حرمة هذه الشهور.

ثمّ تشرع الآية حكماً عاماً تفرض فيه على كلّ فرد مسلم وكلّ جماعة مسلمة مواجهة الظالم والردّ على عدوانه بالمثل.

وهذا قانون كوني طبيعي، فخلايا البدن تقف بوجه اعتداء الميكروبات المهاجمة والنباتات تحصن نفسها بأشكال مختلفة أمام تحديات العوارض الجوية.

خلافاً للمسيحية الحالية التي تقول: «إذا لطمك شخص على خدك الأيمن فأدركه خدك الأيسر»، يقول الاسلام: «فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم». الاستسلام في منطق الاسلام هو الموت، والمقاومة هي الحياة. وهذا طبعاً لا يتعارض مع مسألة العفو والصفح عن الاخوان فلذلك مبحث آخر.

عبارة «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» تأكيد آخر على ضرورة عدم تجاوز الحد في الدفاع والمقابلة لأن الإفراط في المقابلة يبعد المواجهة عن إطار التقوى.

\*\*\*

## الآية

١٩٥ - «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

## التفسير

كما أنّ الجهاد بحاجة إلى الرجال الأقوياء المخلصين المجربين، كذلك هو بحاجة إلى المال والثروة، أي بحاجة إلى الاستعداد البدني والمعنوي وإلى السلاح والمعدات الحربية. صحيح أن العامل الحاسم في تقرير مصير الحرب هو الجندي بالدرجة الأولى، لكن الجندي بحاجة إلى الآلة الحربية. من هنا جاء تأكيد الآية على الإنفاق، وأنّ الامتناع عنه يلقى المسلمين في التهلكة.

وتزداد أهمية الإنفاق حين يهّم المسلمون بالجهاد وليس عندهم ما يحاربون به، كما يحدثنا القرآن عن أولئك الذين أتوا النبي يطلبون منه السلاح ليشاركوا في ساحة الجهاد وإذ لم يجدوا ذلك عادوا مهمومين محزونين: «تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ»<sup>١</sup>.

## الإنفاق يمنع الهلاك الاجتماعي

هذه الآية - وإن وردت في سياق آيات الجهاد - يمكن أن نستفيد منها حقيقة عامة واجتماعية، هي أنّ الإنفاق بشكل عام يؤدي إلى نجاة أفراد المجتمع من الهلاك . وبالعكس، حينما يترك أفراد المجتمع الإنفاق وتتراكم الثروة في أحد أقطاب المجتمع، تنشأ أكثرية محرومة بائسة، ولن يلبث هذا المجتمع حتى يحدث انفجار عظيم فيه يحرق الأثرياء وثروتهم ويتضح من ذلك ارتباط الإنفاق بإبعاد التهلكة.



من هنا فالإنفاق يعود بالخير على الأثرياء قبل أن يصيب خيره المحرومين. أي أنّ تعديل الثروة يصون الثروة، كما قال عليّ عليه السلام: «حصّنوا أموالكم بالزكاة». وفي نهاية الآية أمر بالإحسان: «وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين»، وانتقال من مرحلة الجهاد والإنفاق إلى مرحلة الإحسان، لأنّ مرحلة الإحسان أسمى مراحل التكامل الانساني. ومجىء هذه الآية في ذيل آية الإنفاق إشارة إلى ضرورة اقتران الإنفاق بالحسنى وبالابتعاد عن كلّ منّ وأذى للشخص المنفق عليه.

\*\*\*

## الآية

١٩٦ - «وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

## التفسير

- كلمة «الحج» وردت في عشرة مواضع من القرآن الكريم وفي كل واحد منها بين الله سبحانه جانباً من أحكام هذه الفريضة الهامة، من ذلك:
- ١ - الإعلان العام للحج عن طريق بظلال التوحيد إبراهيم عليه السلام بعد بناء الكعبة: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ»<sup>١</sup>.
  - ٢ - تشريع أصل فريضة الحج في الاسلام: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»<sup>٢</sup>.
  - ٣ - تعيين أشهر الحج: «وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...»<sup>٣</sup>.
  - ٤ - أعمال الحج ومناسكه كالأية التي نبحت فيها: «وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...»<sup>٤</sup>.
  - ٥ - فلسفة الحج الاجتماعية وفوائده، حيث يقول سبحانه: «ليشهدوا منافع لهم»<sup>٥</sup>.

وستنعرض لكلّ واحدة من هذه المسائل في موضعها.  
وفي آية بحثنا استعراضاً لجانب من أحكام الحج.

### موجز أعمال الحج والعمرة

حجّاج بيت الله الحرام يؤدّون عادةً مناسك العمرة أولاً بالترتيب التالي:  
يحرّمون من نقاط معيّنة تسمى «المواقيت» أي يتعهّدون فيها ترك مجموعة من  
الأعمال المحرّمة على الحرم، ويلبسون ثوبي الإحرام غير المخيطين، يرتدون أحدهما ويتزرون  
بالآخر، ثم يتّجهون ملتين إلى البيت الحرام حيث يطوفون سبعاً حول الكعبة، ويصلّون ركعتين  
خلف مقام إبراهيم، ويسعون سبعة أشواط بين جبلي الصفا والمروة، ثم يقصّرون - أي يقصّون  
شيئاً من أظفارهم أو شعرهم - للخروج من الإحرام.  
ومن أجل أداء مناسك الحج:

يحرّمون من مكّة ويذهبون إلى «عرفات» على بُعد أربعة فراسخ من مكّة في اليوم  
التاسع، ويقفون فيها من الظهر حتى غروب ذلك اليوم، منشغلين بالعبادة، وبعد الغروب  
يتّجهون إلى «المشعر الحرام» على بُعد فرسخين ونصف الفرسخ من مكّة، فيبيتون فيه، وعند  
طلوع الشمس يخرجون إلى «منى» قرب المشعر، وفي نفس اليوم - وهو اليوم العاشر من ذي  
الحجّة يوم عيد الأضحى - يرمون عموداً خاصاً في منى يسمى «جمرة العقبة» بسبع حصيات،  
ثم يضخّون بهدي، ويحلّقون للخروج من الإحرام.

وفي نفس اليوم أو بعده يعودون إلى مكّة للطواف وصلاة الطواف والسعي بين الصفا  
والمروة وطواف النساء وصلاته، وفي يومي الحادي عشر والثاني عشر يرمون ثلاثة أعمدة في  
منى تسمى «الجمرات الثلاث» كلّ واحدة بسبع حصيات بشكلٍ متوالٍ. ويبيتون ليلتي  
الحادي عشر والثاني عشر في منى. وبذلك يؤدّون مناسك الحجّ التي تحكي كلّ واحدة منها  
ذكرى تاريخية، وتعبّر عن رموز ذات مدلول تربوي واجتماعي. «سيأتي الحديث عن معاني  
هذه المناسك في تفسير الآيات المناسبة».

في مطلع الآية تأكيد على أنّ أعمال العمرة والحجّ ينبغي أن تكون لله «وأتقوا الحجّ  
والعمرة لله». من هنا لا ينبغي أن يشوب أعمال الحجّ رياء أو تظاهر.

ثم تقول الآية: «فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى» فإنّ الحرم إن منعه مانع من  
أعمال الحجّ والعمرة كالمرض أو الخوف من العدو، عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدى.



جدير بالذكر أنه إذا كان المانع مرضاً فعلى المعتمر بالعمرة المفردة أن يرسل الهدى إلى مكة لذبحه هناك ، وإن كان خوفاً من عدو فعليه أن يذبح الهدى حيث أحصر، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في «الحديبية». وإن كان المحرم قد أحرم للحج أو منعه مرض فيجب إرسال هديه إلى «منى».

«ولا تخلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله...».

من مناسك الحج: حلق الرأس، ويجب أن لا يكون ذلك قبل ذبح الهدى في المذبح. ويستثنى من ذلك المريض أو المضطر - لأسباب - إلى الحلق قبل الموعد المقرر، في هذه الحالة - أي في حالة الحلق على أثر مرض وغيره - تلزم الفدية، وهي صوم ثلاثة أيام أو إطعام ستة فقراء، أو ذبح شاة.

بقية الآية بيان لحكم الهدى: «فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج...».

أي إذا أردتم أداء حج التمتع حين الأمن من المرض والعدو، فعليكم هدي من الإبل أو البقر أو الضأن. وإن لم يتيسر ذلك لانعدام الهدى أو عدم القدرة على الشراء فصيام ثلاثة أيام في الحج - اليوم السابع والثامن والتاسع - وسبعة بعد الرجوع ليكون مجموعها عشرة.

«تلك عشرة كاملة»

واضح أن مجموع ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد الرجوع يساوي عشرة، لكن القرآن عاد فأكد بأنها عشرة كاملة.

بعض المفسرين قال: إن الواو تأتي للجمع، وتأتي أحياناً للتخيير بمعنى (أو)، ومن أجل رفع توهم التخيير أكدت الآية على الرقم «عشرة». ولعل في كلمة «كاملة» إشارة إلى أن صوم الأيام العشرة يحل محل الهدى بشكل كامل.

ويلفت النظر أن العدد «عشرة» هو من جانب اكمل الأعداد، لأن الأعداد تتصاعد من واحد لتصل إلى عشرة بشكل تكاملي، ثم بعد ذلك تتركب من عشرة وأحد الاعداد الاخرى لتكون أحد عشر واثنى عشر...<sup>١</sup>.

«ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام»

مناسك حج التمتع المذكورة تختص بالأفراد البعيدين عن مكة ولا تشمل الساكنين قرب المسجد الحرام (المعروف بين الفقهاء أنّ حج التمتع يجب على من كان مسكنه يبعد عن المسجد الحرام مسافة تزيد على ٤٨ ميلاً، أما سكنة مكة ومن يبعدون عنها في شعاع المسافة المذكورة فعليهم حج القران أو الإفراق) وشرح ذلك مذكور في كتب الفقه.

والآية محتومة بالأمر بالتقوى وبالتحذير من عقاب الله. ولعلّ هذا التأكيد يعود إلى أنّ الحجّ عبادة إسلامية هامة، لو تساهل المسلمون في أداء مناسكها أو نسوا روحها، فسيؤذي ذلك إلى أضرار كبيرة في كيان الأمة الإسلامية.

والحجّ هو تلك العبادة التي أسماها أميرالمؤمنين عليه السلام «علم الاسلام» و«شعاره»، وقال عنها في وصيته خلال الساعات الأخيرة من حياته؛

«الله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا».

أهمية الحجّ فهمها أعداء الاسلام أيضاً إذ صرح أحدهم: «نحن لا نستطيع أن نحقق انتصاراً على المسلمين مازال الحجّ منتعشاً بينهم»<sup>١</sup>.

وأحد العلماء قال: «الويل للمسلمين إن لم يفهموا معنى الحجّ، والويل لأعدائهم إن استوعبوا معناه».

من اللازم أن نذكر في نهاية هذا البحث أنّ حجّ التمتع - وهو الحجّ الذي يبدأ بالعمرة، ثم يحلّ الحاج بعد انتهاء مناسك العمرة، ويحرم ثانية للحجّ لأداء مناسك الحجّ - قد شرع في الاسلام، والآية أعلاه نص صريح في هذا التشريع، ولا يوجد دليل على نسخها. والأحاديث المنقولة في كتب الشيعة وأهل السنة في هذا المجال كثيرة، من ذلك مارواه كبار المحدثين الستة كالنسائي في سننه وأحمد في مسنده وابن ماجه في سننه والبيهقي في سننه والترمذي في صحيحه ومسلم في صحيحه أيضاً بشأن هذا الحكم، وأنه لم ينسخ، وأنه باقٍ إلى يوم القيامة. غير أنه نقل عن الخليفة الثاني عمر تحريمه لمتعة الحجّ ومتعة النساء، ووضح أنّ هذا التحريم لا يعبأ به أمام النصّ القرآني الصريح، وليس لأحد أن ينسخ الحكم المنصوص سوى رسول الله صلى الله عليه وآله. ولذلك لم يعبأ كثير من علماء السنة بهذا المنع ولم يرتبوا عليه أثراً.

## الآية

١٩٧ - «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ».

## التفسير

تذكر الآية أنّ للحجّ فترة زمنية معينة يجب أن يؤدى فيها، ولا يمكن أداؤه في غيرها من أيام السنة، وهذه الفترة كما تذكرها كتب الحديث والتفسير والفقهاء محدّدة في شهري شوال وذو القعدة والعشر الأولى من ذي الحجة (فجزء من مناسكه محدّد بالأيام التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة، والقسم الآخر من المناسك يمكن أداؤه خلال المدة المحدّدة).

«فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث...»

ثمّ تبيّن الآية الكريمة بعض محرمات الإحرام، وهي التي يجب على المحرم الذي أوجب على نفسه الحجّ أن يتجنّبها، ومنها المتعة الجنسية بألوانها، وهكذا الكذب والسباب والمفاخرة والجدل الكلامي المصحوب بالقسم عادةً. فالجوّ جَوَّ عِبَادَةٍ وَخُلُوصٍ وَانْقِطَاعٍ عَنِ اللَّذَائِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَادِيَّةِ، وَانْشِدَادٍ بِاللَّهِ وَسَمَوِّ بِالرُّوحِ إِلَى دَرَجَاتٍ كَمَا هِيَ، كَمَا أَنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ جَوَّ الْفِيَّةِ وَوِثَامٍ وَاتِّحَادٍ وَاخْوَةِ.

ثمّ تضيف الآية:

«وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله»

وهذا أوّل لطف إلهي يناله الصالحون، فالمرحلة الأولى من لذّة الإنسان المؤمن هي احساسه بأنّ ما يعمله في سبيل الله إنّها هو يعين الله، وهي لذّة أيّما لذّة.



«وتزودوا فإن خير الزاد التقوى»

هذه الآية أمرت بحمل الزاد. قيل: إن جماعة من أهل اليمن كانوا يجنون دون أن يصحبوا معهم زاداً للطريق، قائلين: نحن ضيوف الله وطعامنا عليه. وهذه الفقرة من الآية أمرت بحمل الزاد، لأن الله سبحانه هياً للجميع طعامهم بالطرق الطبيعية. والآية تشير في الوقت نفسه إلى مسألة معنوية هي زاد التقوى، فهناك حاجة إلى زاد من نوع آخر هو «التقوى».

والعبارة تنطوي على توعية المسلمين بالنسبة لعطاء الحج المعنوي وتفتح أبصارهم على ما في ساحة الحج من معانٍ عميقة تشد الإنسان بتاريخ الرسل والأنبياء وبمشاهد تضحية إبراهيم بطل التوحيد، وبمظاهر عظمة الله سبحانه، مما لا يوجد في مكان آخر، ولا بد للحاج أن يستلهم من هذه الساحة زاداً يعينه على مواصلة مسيرته نحو الله فيما بقي من عمره.

«واتقون يا أولي الألباب»

الحديث موجه إلى أولي الألباب والعقول، والتركيز عليهم بانتهاج التقوى لأنهم هم القادرون على التزود كما ينبغي من العطاء التربوي لمناسك الحج، والآخرون لا ينالون منها سوى المظاهر والقشور.

## الآيات

- ١٩٨ - «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ».
- ١٩٩ - «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

## التفسير

### النشاط الاقتصادي في موسم الحج

كان التعامل الاقتصادي بكافة ألوانه محضوراً في موسم الحج عند الجاهليين، وكانوا يعتقدون ببطلان الحج إن اقترن بالنشاط الاقتصادي، ولا بد للإسلام أن يقول كلمته في هذا العرف الجاهلي.

هذه الآية تلغي هذا العرف وتبيح التعامل الاقتصادي والتجاري في موسم الحج، وتسمح بابتغاء فضل الله في هذا الموسم، عن طريق العمل والكد.

النصوص الإسلامية التي تتحدث عن حكمة الحج تشير أيضاً إلى الجوانب الاقتصادية إضافة إلى الجوانب الأخلاقية والسياسية والثقافية، وتوضح أن سفر المسلمين من كل فج عميق إلى بيت الله الحرام لعقد مؤتمر الحج العظيم يستطيع أن يكون منطلقاً لتحرك اقتصادي عام في المجتمعات الإسلامية. وذلك يتحقق باجتماع الأدمغة الاقتصادية الإسلامية المفكرة قبل أداء المناسك أو بعده لوضع أسس اقتصاد سليم في المجتمعات الإسلامية، يقوم على أساس التعاون والتبادل الاقتصادي بين أبناء الأمة الإسلامية، والاستغناء عن الأجانب والأعداء، وبلوغ المستوى الممكن اللائق من الاكتفاء الذاتي.

من هنا، فهذه المعاملات والمبادلات التجارية من سبل تقوية بنية المجتمع الإسلامي أمام أعداء الإسلام، ذلك لأن أي شعب من الشعوب لا يمكن أن ينال استقلاله

الكامل دون أن يقوم على أساس اقتصادي قوي، ولكن النشاط الاقتصادي في موسم الحج ينبغي طبعاً أن ينضوي تحت الأبعاد العبادية والأخلاقية للحج، لا أن يقدم ويهيمن عليها. وواضح أنّ الحجاج لهم الوقت الكافي قبل أعمال الحج وبعده لمثل هذا النشاط.

يروى هشام بن الحكم أنّه سأل الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن العلة التي لأجلها كلّف الله العباد الحج والطواف بالبيت، فقال «... فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ولينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد ولينتفع بذلك المكاري والجمّال... ولو كان كلّ قوم إنّما يتكلمون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد وسقطت الجلب والأرباح...»<sup>١</sup>.

### «فإذا أفضم من عرفات...»

وهذا المقطع من الآية يتضمّن أمراً بالإفاضة، أي بالاندفاع نحو «المشعر الحرام» بعد الانتهاء من أعمال «عرفات» وفي «المشعر الحرام» الواقع على بُعد فرسخين ونصف الفرسخ تقريباً من مكة، بين منى وعرفات، ينبغي أن يشتغل الحاج بذكر الله سبحانه.

### «واذكروه كما هداكم»

وفي هذه الفقرة تأكيد على ذكر الله سبحانه في «المشعر الحرام» شكرياً على ما أنعم به من هداية... وذكراً يتناسب مع نعمة الهداية، بناءً على هذا يمكن أن يكون معنى «كما»: لما، أو: مثل ما.

المسلمون المعاصرون لزمّن نزول الوحي كانوا أقدر على فهم قيمة هذه النعمة الكبرى... نعمة الهداية. لأنهم ليسوا بعيدي عهد بظلام الجاهلية الذي كان مخيماً على جزيرة العرب. وكانوا يتلمسون بوضوح عطاء الهداية الإلهية، ويتفهمون بعمق هذه المنّة التي انتشلتهم من الشقاوة والضلال والضياع «وإن كنتم من قبله لمن الضالّين».

### لماذا سمّي الموقف «عرفات»؟

ذكرنا أنّ عرفات صحراء واسعة تقع على بعد أربعة فراسخ من مكة يقف فيها



الحاج من ظهر يوم التاسع من ذي الحجة حتى غروب ذلك اليوم. وفي سبب تسمية هذه الأرض بهذا الاسم قيل: إن إبراهيم عليه السلام قال حين أراه جبرائيل مناسك الحج: «عرفت، عرفت».

ولا يبعد أن تكون التسمية إشارة إلى حقيقة أخرى أيضاً، وهي أن هذه الأرض المشرفة التي تبدأ منها أولى مراحل الحج محيط مناسب جداً لمعرفة الله تعالى. إن الحاج في هذا الموقف يشعر حقاً بانشداد رוחي ومعنوي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

الحجيج في هذه الأرض القاحلة متجمعون بشكل واحد وبزّي واحد، قد هربوا من بريق الحياة وزخرفها وصخبها وضجيجها ولاذوا بهذه الأرض المشرفة المفعمة بذكرات الرسائل السماوية، حيث يحمل نسيمها نداء جبرائيل وصوت الخليل ودعوة النبي الخاتم، وصحبه المجاهدين. وتنطق أرضها بصور الجهاد والتضحية والانقطاع إلى الله على مر التاريخ. كأن هذه الأرض نافذة تشرف على عالم ما وراء الطبيعة، يرتوي فيها الانسان من منهل العرفان، وينساق مع تسبيح الخليقة العام، بل يعود أيضاً إلى ذاته التي انفصل عنها زمناً طويلاً فيعرف نفسه، ويعرف أنه ليس بذلك الكائن اللاهث ليل نهار وراء جمع الحطام والمتاع دون أن يرويه شيء بل إنه جوهر آخر كان يجمله قبل الوقوف في عرفات... نعم إنها «عرفات» وما أجل هذا الاسم! وما أعمق مدلوله!

وبشأن تسمية «المشعر الحرام» بهذا الاسم قيل: إنه مركز لشعائر الحج، ومعلم من معالم هذه العبادة العظيمة.

ومن المهم أن نفهم أن «المشعر» من مادة «الشعور»، ففي تلك الليلة التاريخية المثيرة (ليلة العاشر من ذي الحجة) حيث حجاج بيت الله الحرام قد أنهوا المرحلة الأولى من هذه الدورة التربوية في عرفات واندفعوا نحو المشعر الحرام ليقضوا ليلة يفترشون فيها الأرض ويلتحفون الساء، ضمن إطار أرض محدودة الأبعاد أشبه ما تكون. وهي تموج بالآف الحجاج. بأرض المحشر... في مثل هذه الظروف الزمانية والمكانية... وفي إطار الإلتزام بالإحرام وواجباته ومحرماته، تجيس في النفس الانسانية «مشاعر» خاصة تربط الانسان بالملأ الأعلى وتخلق به في أبعاد جديدة سامية... ومن هنا كانت تلك الأرض مشعراً.

«ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس»

هذه الآية الكريمة ألفت إحدى الامتيازات القبلية التي كانت تفتخر بها قريش في

الجاهلية، فهذه القبيلة كانت ترى لنفسها مكانة دينية خاصة بين العرب، وكان أفرادها يسمون أنفسهم «الْحُمس»<sup>١</sup> ويرون أنهم أبناء إبراهيم عليه السلام وسدنة الكعبة، ولذلك كانوا يترفعون على بقية القبائل العربية. ومن هنا فإنهم تركوا الوقوف في عرفات لأنها خارج الحرم المكي، وما كانوا يودون أن يحترموا أرضاً تقع خارج حرم مكة، ظناً منهم أن ذلك يقلل من شأنهم بين قبائل العرب، مع علمهم بأن الوقوف من مناسك الحج الإبراهيمي<sup>٢</sup>.

الآية الكريمة تأمر بوقوف الحجاج جميعاً في عرفات، ثم التحرك منها نحو المشعر الحرام، ومن ثم الاتجاه إلى منى دون أن يكون لأحد امتياز على آخر.

الإفاضة التي تأمر بها الآية إنما هي الإفاضة من المشعر الحرام إلى منى، لأنها جاءت بعد ذكر الإفاضة من عرفات إلى المشعر، ومسبوقه بـ (ثم) التي تفيد الترتب الزماني، ويكون مدلول الآيتين معاً الأمر بالوقوف الجماعي بعرفات، ثم الإفاضة منها إلى المشعر الحرام، ومن ثم إلى منى.

«واستغفروا الله»

والأمر بالاستغفار في اختتام الآية حث على ترك تلك الأوهام والأفكار الجاهلية، والاتجاه نحو تعلم دروس الحج في المساواة، و«إن الله غفورٌ رحيمٌ».

\*\*\*

١- الحُمس: هم الأفراد المتمسكون بالدين.

٢- سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢١١ و٢١٢.

## الآيات

- ٢٠٠ - «فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنُ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ».
- ٢٠١ - «وَمِنْهُمْ مَنُ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».
- ٢٠٢ - «أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

## التفسير

«فإذا قضيت مناسككم...»

عن الباقر عليه السلام: إنَّ الجاهليين كانوا يعقدون الاجتماعات بعد موسم الحج يذكرون فيها مفاخرهم الموهومة الموروثة من آبائهم، ويمجدون أسلافهم. والقرآن يؤكد في الآية على ذكر الله - بعد أداء مناسك الحج - وذكر نعمه السابعة، ثم يشير إلى ذكر الآباء في الجاهلية ويدعو إلى ذكر الله بنفس حماس ذكر الآباء ومفاخرهم في الجاهلية - على الأقل - بل إن ذكر الله ينبغي أن يفوق في الشدة والاهتمام ذكر الآباء. هذه الآية الكريمة تعلمنا أيضاً أنَّ العزة والعظمة في الارتباط بالله سبحانه، لا بمفاخر الآباء والأجداد الموهومة.

«فمن الناس من يقول»

بعد ذلك يوضح القرآن طبيعة مجموعتين من الناس وطريقة تفكيرهم: مجموعة لا تفكر إلا بمصالحها المادية، ولا تتجه في الدعاء إلى الله إلا من هذه المنطلقات المادية، فتقول:

«ربنا آتنا في الدنيا»

هؤلاء لاحظ لهم من المعنويات، ولا نصيب لهم في الآخرة مما يتمتع به الصالحون.



والمجموعة الثانية: اتسعت آفاقهم الفكرية وتعدت حدود الحياة المادية، فاتجهوا إلى طلب السعادة في الدنيا باعتبارها مقدّمة لتكاملهم المعنوي، وطلب السعادة في الآخرة. هذه الآية الكريمة توضّح في الحقيقة منطق الاسلام في المسائل المادية والمعنوية وتدين الغارقين في الماديات كما تدين المنعزلين عن الحياة. هؤلاء الصالحون يطلبون من الله أن يقيهم من عذاب الجحيم في الآخرة «وقنا عذاب النار».

«الحسنة» لها مفهوم واسع يشمل كلّ المواهب المادية والمعنوية، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم أنه سئل عن الحسنة في الدنيا والآخرة قال: «من أوتي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجاً مؤمنة تعينه على أمر دنياه وأخراه فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقى عذاب النار»<sup>١</sup>. وواضح أنّ هذا من تفسير المفهوم العامّ بالخاصّ، وبيان أبرز المصاديق، لا حصر الحسنة بهذه المصاديق.

«أولئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا والله سريعُ الحساب»

فكلا الفريقين لهم نصيبٌ ممّا كسبوا، الدينويّون الذين يريدون الدنيا فقط وهكذا الذين يريدون الدنيا والآخرة، لا يحرم منهم أحد، ولكن لكلّ فريق بقدر هدفه. هذا المفهوم يطرحه القرآن في سورة الإسراء أيضاً حيث يقول سبحانه: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ أُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كَلَّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا»<sup>٢</sup>. فالإنسان يجد ما يسعى إليه.

وتبقى مسألة «الدعاء» التي عبرت عنها الآية الكريمة بالكسب فهل من الممكن أن نطلق على الدعاء اسم كسب واكتساب؟!

من دراسة ٦٧ موضعاً في القرآن الكريم وردت فيها مادة «كسب» ومشتقاتها نجد أنّ «الكسب» استعمل في حصيلة الأعمال الجسيمة. وهكذا في حصيلة الأعمال الروحية

والقلبية أيضاً، كقوله تعالى في سورة البقرة.

«ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم»<sup>١</sup>.

وكقوله سبحانه في سورة النساء:

«ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه»<sup>٢</sup>.

فالدعاء إذأ نوع من الكسب والاكتساب.

أضف إلى ذلك أن الدعاء الحقيقي لا يكون باللسان فقط، بل بجميع وجود الانسان.

ويحتمل أيضاً في تفسير الآية أن كلمة «أولئك» إشارة إلى المجموعة الثانية فقط، التي تطلب الدنيا والآخرة معاً، وتمزج بين المادة والمعنى. فهي ليست بالمادية المحضة وليست بمنعزلة عن الدنيا، وهؤلاء هم الذين ينالون ثمرة مساعيهم، ويتمتعون بها، أما الآخرون فتذهب أعمالهم سُدى.

«والله سريع الحساب»

والفقرة الأخيرة من الآية تشير إلى سرعة حساب الله، وفي رواية:

«إن الله تعالى يحاسب الخلائق كلهم في مقدار لمح البصر»<sup>٣</sup>.

هذا لأن الله ليس كالمخلوقات، والمخلوقات هي التي يشغلها موضوع عن موضوع محدودية وجودها، وليس الله كذلك.

إضافة إلى ذلك، محاسبة الله لا ينبغي أن تستلزم زماناً لأن أعمالنا ذات آثار باقية في جسم وروح الموجودات المحيطة بنا وفي الأرض وأمواج الهواء، وتشبه في الحقيقة أجهزة ذات عدادات حاسبة تقرأ فيها كل لحظة مقدار أعمالها.

\*\*\*

١ - البقرة: ٢٢٥.

٢ - النساء: ١١١.

٣ - مجمع البيان: ذيل الآية.

## الآية

٢٠٣ - «وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

## التفسير

هذه الآية تواصل حديث الآيات السابقة بشأن ذكر الله في الحج وتعرض بقريته ماسبقها إلى الذكر في أيام التشريق، وهي الأيام التي تلي أعمال عيد الأضحى، وأقلها يومان وأكثرها ثلاثة أيام هي «١١ و١٢ و١٣» من ذي الحجة، ويتضح من اسم هذه الأيام أنها فترة إشراق الروح الانسانية في ظل تلك المناسك العبادية العظيمة.

والحديث نصّ على أنّ الذكر في هذه الأيام تلاوة التكبيرات التالية بعد خمس عشرة صلاة في هذه الأيام (ابتداءً من صلاة ظهر يوم العيد حتى صلاة صبح يوم الثالث عشر).

«الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام».

عبارة «فلا إثم عليه» قد تشير إلى تحيّر ذكر الله بين ثلاثة أيام ويومين، أي لا إثم على من تعجّل واختار اليومين بدل الثلاثة، ولا إثم على من تأخّر أيضاً، وهذا هو الظاهر الابتدائي للآية.

وقد يكون المعنى نفي الذنب مطلقاً عن حجاج بيت الله، أي أنّ الحاج - بعد أداء مناسكه عن إيمان وإخلاص ووعي - يُغفر له ما تقدّم من ذنبه وتزول رواسب المعاصي والذنوب من قلبه ونفسه ويتخرج من هذه الدورة التربوية خالصاً طاهراً نقيّاً، وعبارة «لمن اتقى» تؤيد ذلك.



## الآيات

- ٢٠٤ - «وَمَنْ النَّاسَ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ».
- ٢٠٥ - «وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ».
- ٢٠٦ - «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ».

## سبب النزول

نزلت هذه الايات في «الأخنس بن شريق» وكان رجلاً وسيماً عذب البيان يتظاهر بالاسلام ومحب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان كلما جلس عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقسم بالله على إيمانه وعلى حبه للرسول، وكان الرسول يغدق عليه من لطفه وحبه. وعندما نشب العداء بينه وبين قبيلة «ثقيف» هجم عليهم وقتل أحشامهم وأباد زرعهم.

وقال بعض المفسرين: إنه مرّ على مزرعة للمسلمين فأحرقها وأباد أنعامها، وبذلك أظهر ما كان يبطنه من نفاق، فنزلت الآية بشأنه.

ومن المفسرين من نقل عن ابن عباس أنّ الآية المذكورة نزلت في سرية «الرجيع» حيث بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجموعة من الدعاة الى القبائل المتوطنة أطراف المدينة، فدبرت لهم مؤامرة لثيمة استشهدوا فيها. وسبب النزول الأول أكثر انسجاماً مع مضمون الآيات، وعلى أي حال الدرس الذي تقدمه الآية عام شامل.

## التفسير

الآية تشير كما ورد في أسباب النزول إلى نفاق المنافقين وتحذّر النبي صلى الله عليه وآله عليه

وآله وسلّم منهم، وتقول له: إن بعض الناس يتظاهرون بالايّمان ويقسمون على أنّهم مؤمنون، بينما هم من ألدّ أعداء الاسلام، وما أن يغادروا النبيّ حتى يظهر ما كانوا يبطنونه، فيعيثون في الأرض الفساد ويبيدون خيرات الأرض، ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها، ويسعون في محاربة دين الله.

والله سبحانه يفضح هؤلاء ويكشف سريرتهم، وينبّه النبيّ على تحركاتهم المفسدة، ولو كان هؤلاء صادقين في إيمانهم لما أفسدوا، لأنّ الله يكره الفساد.

### «والله لا يحبّ الفساد»

تذكر أسباب النزول أن الرسول كان يكرم هؤلاء المنافقين ويرحب بهم، والسبب في ذلك هو أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان مأموراً بالتعامل مع الناس حسبما يظهره، ويقبول جميع الأفراد ما لم يصدر منهم انحراف ظاهري.

احتمل بعض أن يكون معنى «إذا تولى»: إذا حكم، لأنّ التوليّ من الولاية بمعنى الحكومة. ويكون معنى الآية حينئذٍ أنّ المنافقين -إذا حكموا- عاثوا في الأرض الفساد وأهلكوا الحرث والنسل وأشاعوا الظلم بين عباد الله، وهؤلاء لا يراعون بالنصح، بل يزدادون عتوّاً ولجاجاً وعناداً وانحرافاً، وهؤلاء لا يصدّهم عن غيهم إلّا نار جهنم «فحسبه جهنم ولبئس المهاد».

والآية تشير إلى واحدة أخرى من صفات المنافقين وهي التعصّب واللجاج التي تبلغ بصاحبها إلى أعلى درجات الإثم. «أخذته العزة بالاثم».

بينما الصالحون بعيدون عن هذه الصفة الخطرة وهم يتولّون مسؤوليّة الحكومة الإلهيّة على ظهر الأرض.

## الآية

٢٠٧ - «وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ».

### سبب النزول

روى الثعلبي مفسر أهل السنة المعروف في تفسيره: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد الهجرة إلى المدينة خلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وأداء الودائع التي كانت عنده، وأمره - ليلة خروجه إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار - أن ينام على فراشه، وقال له: اتشح ببردي الحضرمي الأخضر ونم على فراشي فإنه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله تعالى. ففعل ذلك علي، فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل: اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيتكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختر كلاهما الحياة. فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب؟ آخيت بينه وبين محمد فبات علي فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الارض فاحفظاه من عدوه.

فنزلا فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجله، وجبرائيل ينادى: بخ بخ من مثلك يا علي؟ يباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة. فأنزل الله على رسوله وهو متوجه إلى المدينة في شأن علي الآية.

ولهذا سميت هذه الليلة التاريخية بـ «ليلة المبيت».

ويقول ابن عباس: نزلت الآية في علي حين هرب رسول الله من المشركين إلى الغار مع أبي بكر ونام علي على فراش النبي.

ويقول أبو جعفر الاسكافي - كما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ٢٧٠:- حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده، إلا مجنون، أو غير مخالط لأهل الملّة<sup>١</sup>.

١ - ذكر صاحب «الغدیر»: ج ٢ ص ٤٤ و٥٥ أن ليلة المبيت رواها الغزالي في إحياء العلوم ج ٣ ص ٢٣٨، والصفوري في نزهة المجالس: ج ٢ ص ٢٠٩، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمة، والسيوطي ابن



### التفسير

هذه الآية - وإن كانت قد نزلت في عليّ عليه السلام ليلة هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم - تتضمن حكماً عاماً مثل غيرها من آيات القرآن الكريم، ولما كانت هذه الآية تقع في موضع مقابل للآية السابقة بشأن المنافقين «ومن الناس من يعجبك...» فإنها تتحدث عن مجموعة أخرى من الناس يقعون في نقطة مقابلة لمجموعة المنافقين، ويحملون صفات مقابل لصفاتهم، أولئك أناس لجوجون معاندون مغرورون يحاولون أن يحققوا لهم في المجتمع عزّة وكرامة عن طريق النفاق، ويتظاهرون بالإيمان بأقوالهم وليس في أعمالهم سوى الإبادة والإفساد. أما هؤلاء فتعاملهم مع الله وحده، ويقدمون حتى أرواحهم في سبيله، ولا يستغون سوى رضاه، ولا يطلبون عزّة ورفعة إلا بالله، وبتضحيات هؤلاء يصلح أمر الدين والدنيا، ويستقيم شأن الحق والحقيقة، وتصفو حياة الانسان وتثمر شجرة الاسلام.

من هنا تتضح المناسبة بين صدر الآية وذيلها حيث يقول سبحانه «والله رؤوف بالعباد»، فوجود مثل هؤلاء الأفراد بين الناس لطف من الله سبحانه ورأفة منه بعباده. إذ لو لم يكن بين الناس مثل هؤلاء الأفراد المضحين المستفانين مقابل تلك العناصر الخبيثة الضيعة لانهدمت أركان الدين والمجتمع، لكن الله سبحانه بفضلهم وبتهم يقيم هؤلاء الصديقين الأولياء ما هدمه أولئك الحاقدون الأعداء، وهذا المفهوم يعرضه القرآن الكريم بوضوح حيث يقول:

«وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ السَّوْآتُ وَالصَّلَاةُ وَمَسَاجِدُ»<sup>١</sup>.

هذه الآية إذاً يمكن فهمها من منظور عام وهي تتحدث عن المعاملة الراجحة بين

الصالحين وربّهم، كما تتحدث عن ذلك غيرها من آيات القرآن الكريم كقوله تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يقاتلون في سبيل

اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»<sup>٢</sup>.

لكننا ينبغي أن نفهم أنّ هذه الآية الكريمة تتحدث عن أكبر فضائل أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهذه مسألة ذكرها الرواة بالتواتر كما رأينا، وكانت في صدر الاسلام من

الجوزي الحنفي في تذكرة الخواص: ص ٢١، ومسند أحمد: ج ١ ص ٣٤٨، وتاريخ الطبري: ج ٢ ص ٩٩ - ١٠١، وابن هشام في السيرة: ج ٢ ص ٢٩١، والحلي في السيرة: ج ٢ ص ٢٩، وتاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ٢٩٩.

الوضوح بين المسلمين بحيث دعت معاوية - العدو اللدود لأهل البيت - أن يرشي سمرة بن جندب بأربعمائة ألف درهم كي يروي حديثاً مختلفاً ينسب فيه فضيلة هذه الآية إلى عبدالرحمن بن ملجم، وهذا العتلّ الزنيم اختلق فريته، ولكن أحداً لم يقبل منه حديثه المجعول. يلفت النظر في هذه الآية: أنّ البائع هو «الانسان» والمشتري هو «الله» سبحانه، والمتاع «النفس»، وثمر المعاملة «مرضاة الله» تعالى.

وفي غيرها من الآيات التي تتحدّث عن تجارة الناس مع الله نجد أنّ الثمن هو الفوز بالجنة والنجاة من النار، لكن المجموعة التي تتحدّث عنها هذه الآية لا تطمح في توضيحها إلى جنة ولا تهرب من نار - وإن كانتا مهمّتين - بل وضعت نصب عينها مرضاة الله فقط، وهذه أعلى درجة من التعامل البشري مع الله. ولعلّ ذلك سبب بدء الآية بكلمة «من» التبعيضية «ومن الناس» أي إنّ بعض الناس فقط قادرون على مثل هذا العمل السامي الكبير الاستثنائي، بينما الآيات الأخرى - التي تجعل الجنة ثمناً لتقديم النفس في سبيل الله - ذات طابع عام شامل «... اشترى من المؤمنين...».

## الآيتان

٢٠٨ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا  
خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».  
٢٠٩ - «فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ».

## التفسير

### السلام العالمي في ظلّ الايمان فقط

تدعو هذه الآية الكريمة كلّ المؤمنين إلى السلم، ومفهومها يعني أنّ السلام لا يتحقق  
إلّا في ظلّ الإيمان، وأنّ المعايير والمفاهيم الأرضية المادية غير قادرة على إطفاء نار الحروب من  
بقاء الأرض. الإيمان هو وحده القادر على إحلال روح الاخوة بين أبناء البشر، وعلى حلّ  
المشكلة الاجتماعية في إطار الدولة العالمية.

واضح أنّ الأطر المادية الأرضية مثل: اللغة والعنصر والثروة والإقليم والطبقة  
الاجتماعية هي أساس كلّ تفرّق وتشتت وتمزق على الساحة البشرية، ولا تستطيع أن  
تكون قاعدة للوئام والالتحام والسلام، والإيمان وحده هو القادر على إحلال السلام في النفس  
الإنسانية بعد أن يحلّ تناقضاتها الداخلية وعلى إحلال السلام في المجتمع البشري بعد أن يقيم  
القاعدة الإنسانية الفطرية القويمة التي تقوم عليها علاقات الأفراد في جميع مجالات الحياة.

### «ولا تتبعوا خطوات الشيطان»

مرّ بنا في تفسير الآية ١٦٧ من هذه السورة أنّ الإنحرافات ووساوس الشيطان  
تدرجياً تحدث على شكل مراحل يسميها القرآن «خطوات الشيطان»، هذه الحقيقة مشهورة  
في الحروب أيضاً، فالإنحراف عن الحقّ والإنحراف وراء دوافع العداة والنفاق والحرب  
والتقتيل تبدأ من مراحل بسيطة، والمؤمنون مكلفون بمحاربة هذه الظاهرة في مراحلها الأولى



كي لا تؤذي شرارات الشر الأولى إلى اشتعال لظى المعارك والحروب، فاللظام بداية القتال كما قالت العرب.

«إنه لكم عدو مبین»

عداء الشيطان للانسان ليس بأمر خفي مستتر، أنه تجهز للعداء مع النوع البشري منذ أن خلق آدم، وأقسم أن يبذل جهده لإغواء بني الانسان. ولكن هذا العداء - كما ذكرنا في موضعه - لا يشكل ضرراً على المؤمنين بل هو رمز لتكاملهم.

«فان زلتم من بعد ما جاءكم البينات...»

المنهج بين، والطريق بين، والهدف بين، من هنا فلا عذر لمن يزل عن الطريق، وإن زل فإن الله عزيز ذو اقتدار لا يستطيع أحد أن يفر من عدالته، وهو «حكيم» لا يأخذ الزالين أخذاً يخالف الحكمة والعدل.

## الآية

٢١٠ - «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

## التفسير

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ في هذه الآية الكريمة نوعاً من الإبهام والتعقيد، لكن ذلك يزول عند إمعان النظر في تعبيراتها.

الآية تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وتقول معقبة على الآيات السابقة: أليست كلّ هذه الدلائل والآيات والأحكام الواضحة كافية لصدّ الانسان عن الانزلاق وإنقاذه من براثن عدوّه المبين «الشيطان»؟

هل ينتظرون أن يأتي الله اليهم مع الملائكة في وسط غمام ذي ظلّ لي طرح عليهم دلائل أوضح ممّا سبق؟! محال ذلك، لأنّ الله ليس بجسم، وإن افترضنا بالفرض المحال تحقّق هذا الأمر، فما الحاجة إليه؟ بينما قضى كلّ شيء، ولم يترك أيّ شيء «وقضي الأمر»، ويعود كلّ شيء إلى الله وترجع إليه جميع الأمور، الاستفهام في بدء الآية - إذأ - استفهام إنكاري، أي لا يمكن تحقّق هذا الشيء، إضافة إلى عدم الحاجة إليه كما ذكرنا، لأنّ مستلزمات الهداية قد وضعت أمام العباد بالقدر الكافي، وبناءً على هذا التفسير لا يوجد في الآية تقدير، والألفاظ بعينها قد فسّرت.

وهناك من المفسّرين من لم يرّ الاستفهام في الآية استنكارياً، واعتبره نوعاً من التهديد للمذنبين ولأولئك السائرين على خطى الشيطان «التهديد بعذاب الدنيا أو الآخرة» ويقدرّون قبل كلمة «الله» كلمة «أمر» فيكون المعنى:

«أريد هؤلاء بأعمالهم الطالحة أن يأتيهم أمر الله وملائكته لمعاقبتهم وتعذيبهم، ولينالوا عذاب الدنيا أو الآخرة ويقضي أمرهم؟ وأعمالهم طبعاً سوف لا يكون لها غير هذه النتيجة».

## الآية

٢١١ - «سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُدَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

## التفسير

هذه الآية تشير إلى سلوك بني إسرائيل وإلى العذاب الذي حاق بهم جراء كفرهم بأنعم الله وتبديل هذه النعم.

والمقصود من تبديل النعم استخدام الإمكانيات والطاقات والمصادر المادية والمعنوية الموهوبة على طريق تخريبي انحرافي ولممارسة الظلم والطغيان. الله سبحانه وهب بني إسرائيل موجّهين معنويين وقادة مقتدرين، ووفّر لهم كلّ ألوان الإمكانيات المادية والمعنوية، لكنهم سقطوا في هاوية تبديل النعمة، وهذا هو الذي مرّقهم شرّ ممزق وجعل مصيرهم النار والعذاب الأليم.

مسألة تبديل النعمة لا تنحصر ببني إسرائيل، فالعالم المتطوّر صناعياً يعاني اليوم من هذه المأساة الكبرى، فمع وفور النعم والطاقات لدى الانسان المعاصر وفوراً لم يسبق له مثيل في التاريخ، نجد صوراً شتى من تبديل النعم وتسخيرها بشكل فظيع على طريق الإبادة والفناء.

عبارة «سل بني إسرائيل» في الحقيقة تستهدف كسب الاعتراف منهم بشأن النعم الالهية، ثم التذكير بالسبب الذي ادى بهم إلى الهاوية والتمزق مع كلّ هذه الإمكانيات.



## الآية

٢١٢ - «زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

## النزول

عن ابن عباس أنها نزلت في رؤساء قريش الذين بسطت لهم الدنيا، وكانوا يسخرون من قوم من المؤمنين فقراء مثل عبدالله بن مسعود وعمار وبلال وخباب ويقولون: لو كان محمد نبياً لا تبعه أشرافنا، فنزلت الآية لترد عليهم.

## التفسير

نزول الآية طبقاً للرواية المذكورة بشأن رؤساء قريش لا يمنع أن تكون مكملة لموضوع الآية السابقة بشأن اليهود، وأن نستنتج منها قاعدة كلية عامة هي: إن الحياة المادية في منظار الكافرين - الذين لا يتعدى أفق تفكيرهم إطار العالم المادي - جميلة وجذابة ومعيار تقييم كل شيء، ومن هنا فإنهم ينظرون بفكرهم الضيق إلى الفقراء نظرة تحقير واستهانة واستهزاء، ولا يقيمون وزناً للقيم المعنوية والإنسانية لأنهم لا يستطيعون بنظرهم المنحطة أن يرتقوا إلى أفق هذه القيم السامية.

القرآن في الرد على هؤلاء يشير إلى مسألتين:

١ - في العالم الآخر حيث الحقائق والدرجات المعنوية تتخذ صورة عينية، يكتسب المؤمنون درجات أسمى من هؤلاء، لأن هؤلاء يسرون في أعماق الأرض بينما يخلق الصالحون في أعالي السماء «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة».

٢ - أضيف إلى ما سبق أن التمتع المادي لا يدل على شخصية الأفراد ومكانتهم الإيمانية، لأن الأرزاق في هذا العالم لا تقسم بنسبة الكفر والإيمان والمقامات المعنوية والإنسانية «والله يرزق من يشاء بغير حساب».

ولعلّ هذه الفقرة من الآية تشير إلى معنى آخر هو أنّ الله سبحانه يرزق هؤلاء الأفراد الذين ذاقوا ألوان الحرمان نتيجة ابتعادهم عن الذنوب والحرام، أو نتيجة إيمانهم في ذلك الجوّ المكهرب بالابتعاد عن الله... يرزقهم في الآخرة بدون حساب.

ويبقى السؤال عن معنى الفعل المجهول «زَيّن» وعن الذي يزَيّن للناس ذلك. من الذي يزَيّن الدنيا في أنظار الكافرين؟ الجواب على هذا السؤال سيأتي إن شاء الله في تفسير الآية ١٤ من سورة آل عمران.

\*\*\*

## الآية

٢١٣ - «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

## التفسير

كانت البشرية في مطلع حياتها تعيش حياة اجتماعية بسيطة، وبازدياد أفراد المجتمع البشري ظهر التضاد بين المصالح ومن ثم الاختلاف، ووجدت الحاجة إلى التوجيه والقانون.

وكان من الضروري أن يعمل رسل رب العالمين في الوهلة الأولى على توعية الناس على الحياة الأخرى باعتبارها آخر مرحلة للمسيرة التكاملية، وعلى ما سيواجهه الإنسان في تلك الحياة من نعيم أو جحيم.

فجاؤوا مبشرين بما سينعم الله به على المحسنين من ثواب، ومنذرين بما سيجازي به الله المجرمين من عقاب «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»، وبعد هذا الانشداد بالعالم الآخر تتوفر الأرضية لتطبيق الأحكام الإلهية التي تضمن سعادة البشر، ثم تتوالى هذه الأحكام على الأنبياء لإبلاغها إلى الناس.

هذه الآية تتحدث في الواقع عن مراحل حياة البشرية التي تنتهي بمرحلة بعث الرسل ونزول الأحكام الإلهية.

**المرحلة الأولى:** مرحلة حياة الإنسان الابتدائية حيث لم يكن الإنسان قد أيف الحياة الاجتماعية، ولم تبرز في حياته التناقضات والاختلافات وكان يعبد الله استجابة لنداء الفطرة ويؤدي له فرائضه البسيطة.

في المرحلة الثانية: اتخذت حياة الإنسان شكلاً اجتماعياً، ولا بد أن يحدث ذلك،



لأنه مفطور على التكامل، وتكامله يتحقق في خضم الحياة الاجتماعية. وبسبب نشوء هذه الحياة الاجتماعية تأتي المرحلة الثالثة: وهي مرحلة التناقضات والاصطدامات الحتمية في المجتمع البشري، وتنشب الاختلافات ويبرز الإحساس بالحاجة إلى تعاليم الأنبياء.

وفي المرحلة الرابعة: يبعث الله الأنبياء لإنقاذ الإنسان، فيمهدون الأفكار والقلوب لرسالتهم عن طريق التبشير والإنذار، وحين ينضوي الكائن البشري تحت مؤثرات التبشير والإنذار بدافع حب الذات ويحس أن مصيره مرتبط مباشرة بتعاليم الأنبياء، تنزل الكتب السماوية والأحكام والقوانين الإلهية لتحل التناقضات والنزاعات المتنوعة (الاختلافات الفكرية والعقائدية والاجتماعية والأخلاقية).

«وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم»  
 هذه الفقرة من الآية تتعرض لمرحلة تلي نزول تعاليم الأنبياء وتجيّب إجابة سريعة على سؤال قد يطرح بشأن سبب وجود الاختلافات الفكرية والاجتماعية والعقائدية في المجتمع بعد نزول الرسالة السماوية إلى ذلك المجتمع.

الآية توضح أن ثمة فرقاً بين اختلافات ما بعد نزول الرسالة واختلافات ما قبلها. فتلك سببها «الجهل» وهذا الجهل زال ببعثة الأنبياء، وهذه سببها «البغي» أي الظلم والعناد وأمثالها من النزعات التي أدت إلى الاختلافات بعد أن تبين لأصحابها كل شيء «من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم».

والآية الكريمة بعد ذلك تقسم الناس إلى قسمين: القسم الأول المؤمنون الذين ينتهجون طريق الحق والهداية، ويتغلبون على كل الاختلافات «فهدى الله الذين آمنوا»، ويسلكون صراط الله المستقيم «والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم». ويبقى القسم الثاني وهم الكافرون يتخبطون في اختلافاتهم.

وهذه الفقرة الأخيرة من الآية تشير إلى حقيقة ارتباط مشيئة الله بأعمال الأفراد الصالحة، أي أن الأفراد الراغبين في الوصول إلى الحقيقة يهديهم الله إلى صراطه المستقيم، ويزيد في وعيهم وهدايتهم وتوفيقهم في العثور على الطريق المستقيم، ويبين لهم طريق النجاة والاستقامة عن طريق أنبيائه.

## وقفه

## الدين والمجتمع

يستفاد من الآية أعلاه ضمناً أنّ الدين والمجتمع البشري حقيقتان لا تقبلان الانفصال، لا يمكن لمجتمع أن يحيى حياة سليمة دون دين وإيمان بالآخرة، وليس بمقدور القوانين الأرضية أن تحلّ الاختلافات والتناقضات الاجتماعية، لعدم ارتباطها بدائرة إيمان الفرد وافتقادها التأثير على أعماق وجود الانسان، واقتصارها على فرض مسؤولية خارجة عن ذات الكائن البشري، هذه حقيقة أثبتتها بوضوح أحداث عالمنا المعاصر، فالعالم المسمّى بالمتطوّر قد ارتكب من الجرائم البشعة ما لم نر له نظيراً حتى في المجتمعات المتخلفة التي يجد الدين له دوراً - ولو ضعيفاً - فيها.

ويتضح من الآية أيضاً أنّ بداية انبثاق الدين بمعناه الحقيقي لم تقترب بانبثاق وجود الانسان، بل اقترنت ببداية ظهور المجتمع بمعناه الحقيقي، من هنا نفهم سبب كون نوح أول أنبياء أولي العزم وأول أصحاب الشريعة والرسالة، لا آدم.

\*\*\*

## الآية

٢١٤ - «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرَزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ».

## سبب النزول

قال بعض المفسرين: إن الآية نزلت عندما حوَّصر المسلمون واشتدَّ الخوف والفرح بهم في غزوة الأحزاب، فجاءت الآية لتثبَّت على قلوبهم وتعيدهم بالنصر. وقيل: إنَّ عبد الله بن أبي قال للمسلمين عند فشلهم في غزوة أحد: إلى متى تتعرضون للقتل ولو كان محمد نبياً لما واجهتم الأسر والتقتيل، فنزلت الآية.

## التفسير

### الصعاب والمشاق سنة إلهية

يبدو من الآية الكريمة أنَّ جماعة من المسلمين كانت ترى أنَّ إظهار الأمان بالله وحده كافٍ لدخولهم الجنة، ولذلك لم يوطنوا أنفسهم على تحمُّل الصعاب والمشاقَّ ظانين أنه سبحانه هو الكفيل بإصلاح أمورهم ودفع شرِّ الأعداء عنهم. الآية تردُّ على هذا الفهم الخاطيء وتشير إلى سنة إلهية دائمة في الحياة، هي أنَّ المؤمنين ينبغي أن يعدّوا أنفسهم لمواجهة المشاقِّ والتحدّيات على طريق الإيمان ليكون ذلك اختباراً لصدق إيمانهم، ومثل هذا الاختبار قانون عام سرى على كلِّ الأمم السابقة. يتحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل - مثلاً - وما واجهوه من مصاعب بعد خروجهم من مصر ونجاتهم من التسلُّط الفرعوني، خاصّة حين حوَّصروا بين البحر وجيش فرعون، فقد مرّوا بلحظات عصيبة فقدَّ فيها بعضهم نفسه، لكن لطف الله شملهم في تلك اللحظات ونصرهم على أعدائهم.



وهذا الذي عرضه القرآن عن بني إسرائيل عامّ لكلّ «الذين خلوا من قبلكم» وهو ستة إلهية تستهدف تكامل الجماعة المؤمنة وتربيتها. فكلّ الأمم ينبغي أن تمرّ في أفران الأحداث القاسية لتخلص من الشوائب كما يخلص الحديد في الفرن ليتحوّل إلى فولاذ أكثر مقاومةً وأصلب عوداً. ثمّ ليتبيّن من خلال هذا الاختبار من هو اللائق، وليسقط غير اللائق ويخرج من الساحة الاجتماعية.

المسألة الأخرى التي ينبغي التأكيد عليها في تفسير هذه الآية: أنّ الجماعة المؤمنة وعلى رأسها النبيّ ترفع صوتها، حين تهجم عليها الشدائد بالقول «محق نصر الله»؟!، وواضح أنّ هذا التعبير ليس اعتراضاً على المشيئة الإلهية، بل هو نوع من الطلب والدعاء.

\*\*\*

## الآية

٢١٥ - «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ  
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ».

## النزول

(عمرو بن الجموح) شيخ ثري سأل رسول الله عمّ ينفق ولمن يعطي؟ فنزلت الآية.

## التفسير

يتعرض القرآن الكريم في آيات عديدة إلى الإنفاق والبذل في سبيل الله، والله سبحانه حتّ المسلمين بطرق عديدة على الإنفاق وعلى الأخذ بيد الضعفاء، وهذه الآية تتناول مسألة الإنفاق من جانب آخر، فثمة سائل عن نوع المال الذي ينفقه، ولذلك جاء تعبير الآية بهذا الشكل «يسألونك ماذا ينفقون».

وفي الجواب بيّنت الآية نوع الإنفاق ثم تطرقت أيضاً إلى الأشخاص المستحقين للنفقة، وسبب نزول الآية كما مرّ يبيّن أنّ السؤال أتجه إلى معرفة نوع الإنفاق ومستحقّيه. بشأن المسألة الأولى: ذكرت الآية كلمة «خير» لتبيّن بشكل جامع شامل ما ينبغي أن ينفقه الانسان، وهو كلّ عمل ورأسمال وموضوع يشتمل على الخير والفائدة للناس وبذلك يشمل كلّ رأسمال مادي ومعنوي مفيد.

وبالنسبة للمسألة الثانية:- أي موارد الإنفاق- فتذكر الآية أولاً الأقربين وتخصّ الوالدين بالذكر، ثمّ اليتامى ثمّ المساكين، ثمّ أبناء السبيل، ومن الواضح أنّ الإنفاق للأقربين - إضافة إلى ما يتركه من آثار تترتب على كلّ إنفاق- يوطد عرى القرابة بين الأفراد.

«وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم»

لعلّ في هذه العبارة من الآية إشارة الى أنّه يحسن بالمنفقين أن لا يصروا على اطلاع الناس على أعمالهم، ومن الأفضل أن يسروا إنفاقهم تأكيداً لإخلاصهم في العمل، لأنّ الذي يجازي على الإحسان عليم بكلّ شيء، ولا يضيع عنده سبحانه عمل عامل من البشر.

## الآية

٢١٦ - « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ».

## التفسير

الآية السابقة تناولت مسألة الإنفاق، وهذه الآية تدور حول التضيحة بالدم والنفس، والآيتان يقترن موضوعهما في ميدان التضحية والفداء.

الآية تبيّن أنّ مقاتلة العدو فرض لازم، وقد كتب وجوبه على المسلمين لكن البشر بطبيعته يميل الصعاب والمشاق ويرغب في الراحة والدعة، والآية الكريمة عبّرت عن هذا الشعور بقولها «وهو كره لكم».

الله سبحانه يفتح أمام المؤمنين نافذة ليطلّوا منها على عالم أوسع من هذه المشاعر الشخصية الضيقة التي تنتاب الكائن البشري، ويقول لهم: إنّ هذه المشاعر الذاتية بالكره وبالحب ليست معياراً لفهم المصلحة الحقيقية للفرد والمجتمع، فرب شيء تكرهونه ويكون فيه خيرٌ كثير، ورب شيء تحبّونه وهو ينطوي على شرّ بليغ. والله سبحانه وتعالى هو المحيط بكلّ خفايا الأمور، ولا يستطيع البشر مهما بلغ وعيهم وفطنهم إلا أن يفهموا جانباً من تلك الخفايا والمصالح البعيدة في الأحكام التي كتبها الله على المؤمنين.

هذه الآية الكريمة تشير أيضاً إلى مبدأ أساسي في القوانين التكوينية والتشريعية الإلهية، معمّقة روح الانضباط والتسليم أمام هذه القوانين في نفس الانسان، وهو أنّ على الانسان المؤمن أن يفهم أنّ كلّ هذه القوانين والأحكام هي لصالحه، تشريعية كانت كالجهاد والزكاة، أم تكوينية كالموت والمصائب التي تحلّ به أو بأحبائه، وكاختفاء أسرار المستقبل عنه، ولذلك عليه أن يستسلم لها ولا يحكم فيها علمه المحدود، فعلمه بالنسبة لجهولاته كقطرة في بحر.



## الآيات

٢١٧ - «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ  
أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ  
يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

٢١٨ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ  
يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

## النزول

قيل إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية<sup>١</sup> من المسلمين وأمر عليهم  
عبدالله بن جحش الأسدي - وهو ابن عمّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك قبل بدر  
بشهرين، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم النبي المدينة، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة - وهي  
أرض بين مكة والطائف - فوجدوا بها عمرو بن الحضرمي في قافلة تجارة لقريش في آخريوم  
من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى وهو رجب - من الأشهر الحرم - فاختلف  
المسلمون أيقتلون الحضرمي ويغنمون ماله، لعدم علمهم بحلول الشهر الحرام، أم يتركونه  
احتراماً لحرمه شهر رجب، وانتهى بهم الأمر أن شذوا على الحضرمي فقتلوه وغنموا ماله، فبلغ  
ذلك كفار قريش فطفقوا يعيرون المسلمين ويقولون إن محمداً أحل سفك الدماء في الأشهر

١ - السرية: هي الحرب الإسلامية التي لم يشترك فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،  
وقيل إنها مجموعة من الجيش تتكون من ٥ إلى ٣٠٠ رجل.

والسرية من «السري» أي الشيء النفيس، وإتيا سميت بذلك لأن أفرادها ممتازون.  
وقال الطبري: السرية من «السرى» وهو المشي ليلاً، لأن هذه المجموعة كانت تستتر بالليل في  
حركتها، وذهب إلى ذلك أيضاً ابن حجر في الملتقطات.

الحرم، فنزلت الآية الأولى.

ثم نزلت الآية الثانية حين سأل عبدالله بن جحش وأصحابه عمًا إذا كانوا قد أدركوا أجر المجاهدين في انطلاقتهم أو لا؟!.

### التفسير

كما مرّ بنا في سبب النزول، الآية تتصدى للجواب عن الأسئلة المرتبطة بالجهاد في الأشهر الحرم. القرآن يعلن صراحة حرمة القتال في هذه الأشهر، ويعتبره من الكبائر، لكنّه يعلن أنّ المشركين لا يحقّ لهم أن يلوموا ويعيروا المسلمين لخطأ صدر عنهم بقتل الحضرمي في الأشهر الحرم، لأنّ هؤلاء المشركين يرتكبون أكبر من ذلك بكفرهم بالله وصدّهم الناس عن الاهتداء إلى سبيل الله، وإخراج المؤمنين من حرم مكّة وانتهاكهم هذا الحرم الآمن، وعملهم هذا «فتنة» أي تلوّث للجوّ الاجتماعي بالكفر والطغيان، «والفتنة أكبر من القتل». ثم تخاطب الآية المسلمين لتوضّح لهم حقيقة المشاعر التي تكتتها جبهة الكفر تجاه المسلمين، هذه الجبهة التي تعترض اليوم لمقتل شخص واحد في غير الوقت المناسب، تؤدّ أن تذبّح المؤمنين حتى يرتدوا عن دينهم.

«ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا»

وتحدّر الآية بعد ذلك المسلمين من الارتداد، لأنّ ذلك يبطل كلّ ما قدّمه الفرد من عمل صالح وبذلك يستحقّ العذاب الأبدي.

والآية التالية تشير كما مرّ بنا الى أنّ المؤمنين المجاهدين قد يرتكبون خطأ على أثر جهلهم أو عدم اطلاعهم التام على مسألة من المسائل - كما صدر عن عبدالله بن جحش - لكن الله يغفر لهم زلّتهم لما بذلوه من خدمات كبرى وجهود صادقة «والله غفورٌ رحيم».

### وقفات

#### الحبط والإحباط والتكفير

١ - الحبط: إبطال الأعمال، كما ورد في قوله تعالى: «وحبط ما صنعوا فيها وباطل

ما كانوا يعملون»<sup>١</sup>.

- ٢ - الإحباط هو- كما يقول علماء العقائد والمتكلمون - إبطال ثواب الأعمال السابقة على أثر ارتكاب ذنوب تالية.
- ٣ - التكفير: هو كما قيل إزالة عقوبة الذنوب السابقة على أثر القيام بأعمالصالحة.

هل الحبط صحيح؟

لا اختلاف في أنّ الكفر والارتداد يؤدي إلى «حبط» الأعمال، والقرآن ذكر ذلك في مواضع عديدة، وبناءً على هذا تحبط كلّ أعمال الانسان إن مات وهو كافر، والدليل على ذلك أنّ ذنب الكفر عظيم إلى درجة كبيرة تغطي على كلّ الحسنات السابقة. وهكذا إذا آمن الانسان بعد ذنوبه وبقي على إيمانه فإنّ ذنوبه السابقة تنمحي، فهذا أيضاً لا خلاف فيه.

والاختلاف في المؤمنين الذين أحسنوا في حياتهم وأساءوا، ثم ماتوا ولم يتوبوا، فهل أنّ أعمالهم السيئة تزال ثواب أعمالهم الصالحة أم لا؟

بعضهم قال: إنّ الإحباط باطل، واستدلّ لذلك بالعقل والنقل.

فن الاستدلال العقلي على ذلك ما ذكره نصير الدين الطوسي في كتابه «تجريد الاعتقاد» يقول: إنّ الإحباط نوع من الظلم، فلو أن شخصاً قلّت حسناته وكثرت ذنوبه، فسيكون الإحباط بالنسبة إليه أن يصبح شخصاً لم يعمل حسنة قط، وهذا ظلم بحقه.

وأما الدليل النقلي فتدعمه آيات عديدة من القرآن الكريم تتحدث عن مواجهة الانسان لنتائج جميع أعماله الصالحة والطالحة في الآخرة، وهذا لا يتلائم مع مسألة الإحباط: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»<sup>٢</sup>.

ومقابل هؤلاء ذهب المعتزلة إلى القول بالإحباط واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا»<sup>٣</sup>.

وبين المعتزلة أبو هاشم جمع بين «الإحباط» و«التكفير» وهناك أقوال أخرى نعرض عن ذكرها.

والحق في هذا المجال ما قاله العلامة المجلسي في «بحار الأنوار»<sup>٤</sup> إذ ذهب إلى ثبوت



سقوط الثواب بكفر يستمر إلى نهاية العمر، وسقوط العقاب بإيمان يستمر حتى الموت. والأخبار كثيرة بشأن حبوط كثير من الطاعات عن طريق كثير من المعاصي، وغفران كثير من المعاصي عن طريق كثير من الطاعات.

والقرآن يؤيد ذلك في الآية ١١٤ من سورة هود إذ يقول: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

السَّيِّئَاتِ»<sup>١</sup>

ويقول: «ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبظ أعمالكم»<sup>٢</sup>.

وفي الحديث، أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي ذر: «أتق الله حيث

كنت، وخالقي الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة فاعمل حسنة تمحوها»<sup>٣</sup>.

وبشأن زوال الحسنات بارتكاب السيئات روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»<sup>٤</sup>.

وهذا ليس بقانون عام يشمل جميع الذنوب والطاعات، بل يختص ببعض منها،

وبذلك نستطيع أن نجمع بين كل الآيات والروايات.

\*\*\*

١- هود: ١١٤.

٢- الحجرات: ٢.

٣- البحار: ج ٧١ ص ٢٤٢.

٤- البحار: ج ٧٣ ص ٢٥٥.

## الآية

٢١٩ - «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

## النزول

سأل جماعة رسول الله عن حكم الخمر الذي يذهب بالعقل، والميسر الذي يبذّر المال، فنزلت الآية.

## التفسير

«الخمر» في اللغة: الغطاء، وكلّ ما يخفي شيئاً وراءه هو «خمار». وفي المصطلح الشرعي هو كلّ مائع مسكر، سواء أخذ من العنب أو الزبيب أو التمر، وكلّ مشروب كحولي. واستعمال كلمة الخمر لكلّ مائع مسكر بسبب المناسبة بين المعنى اللغوي وهو الغطاء، وما تؤدّي إليه هذه المسكرات من تغطية على العقل وسلبه، قدرة التمييز بين الحسن والقبح. والميسر من اليسر، وإنّما سمّي بذلك لأنّ المقامر يستهدف الحصول على ثروة يسر وودونها عناء.

«قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهَا»

في هذا المقطع من الآية الكريمة بيّن الله سبحانه حكم تحريم الخمر بأسلوب هادئ، ليّن وديع.

فيخاطب سبحانه نبيّه أن يخبر الناس بما ينطوي عليه الخمر والميسر من إثم كبير، وإن كان فيها منفعة ضئيلة فالضرر أكبر بكثير، وليس لعاقل أن يقدم على هذا الضرر البالغ للحصول على منفعة طفيفة.

## وقفات

### ماهو الإثم؟

الإثم يطلق على الحالة المرضية التي تصيب روح الانسان وعقله فتمنعه عن الوصول إلى المحاسن ومدارج الكمال من هنا يكون معنى الآية أنّ الخمر والميسر يؤديان إلى إنزال أفدح الأضرار بروح الانسان وجسمه.  
وهنا نلفت الأنظار إلى مفاصد الخمر والميسر استناداً إلى آخر ما توصلت إليه نظريات علماء النفس والأطباء.

## أضرار المشروبات الكحولية

### أثر الكحول في العمر:

أحد علماء الغرب المشهورين قال: لو كان عدد الوفيات بين الشباب المدمنين البالغة أعمارهم بين ٢١ إلى ٢٣ سنة يصل إلى ٥١ شاباً، فإنّ عدد الوفيات من غير المدمنين في تلك الأعمار لا يبلغ ١٠ أشخاص.

وقال عالم مشهور آخر: الشباب في سنّ العشرين الذين يتوقع أن تطول أعمارهم إلى خمسين عاماً، لا يعمرّون بسبب معاقرة الخمر أكثر من خمسة وثلاثين عاماً.

التجارب التي أجرتها شركات التأمين على الحياة أثبتت أنّ أعمار المدمنين على الكحول أقلّ من أعمال غيرهم بنسبة ٢٥ - ٣٠ بالمائة.

وتذكر إحصائيات أخرى أنّ معدّل أعمار المدمنين على الكحول يبلغ حوالي ٣٥ - ٥٠ سنة، بينما معدّل العمر الاعتيادي مع رعاية القواعد الصحية يبلغ ستين عاماً فصاعداً.

### أثر الكحول على النسل

٣٥ بالمائة من عوارض الإدمان الحادة تنتقل إلى الوليد إذا كان أبوه - حين انعقاد النطفة - سكراناً، وإن كان الوالدان سكرانين فترتفع نسبة هذه العوارض إلى مائة في المائة.

وهذه إحصائيات تبين آثار الإدمان على الجنين:

الأطفال الذين ولدوا قبل موعد ولادتهم الطبيعي: من أبوين مدمنين ٤٥ بالمائة.  
ومن أمّ مدمنة ٣١ بالمائة. ومن أب مدمن ١٧ بالمائة.



الأطفال الذين ولدوا وهم لا يحملون مقومات استمرار الحياة: من أب مدمن ٦ بالمائة، ومن أم مدمنة ٤٥ بالمائة.  
 الأطفال الذين لا يتمتعون بطول طبيعي: من والدين مدمنين ٧٥ بالمائة، ومن أم مدمنة ٤٥ بالمائة.  
 وأخيراً الأطفال الذين يفتقدون القوة العقلية والروحية الكافية: من أمهات مدمنات ٧٥ بالمائة، ومن آباء مدمنين ٧٥ بالمائة أيضاً.

### أثر الكحول في الأخلاق

العاطفة العائلية في الشخص المدمن تضعف، ويقلّ انشداؤه بزوجه وأبنائه، حتى يحدث أن يقدم المدمن على قتل أبنائه بيده.

### أضرار الكحول الاجتماعية

حسب الإحصائية التي نشرها معهد الطب القانوني في مدينة (نيون) عام ١٩٦١، كانت الجرائم الاجتماعية للمدمنين على النحو التالي:  
 القتلة: ٥٠ بالمائة، المعتدون بالضرب والجرح بين المدمنين: ٧٧/٨ بالمائة، السرقات بين المدمنين: ٨٨/٥ بالمائة، الجرائم الجنسية المرتبطة بالمدمنين: ٨٨/٨ بالمائة. هذه الإحصائيات تشير إلى أنّ الأضرار الساحقة من الجرائم ترتكب في حالة السكر.

### الأضرار الاقتصادية للمشروبات الكحولية

أحد علماء النفس المشهورين يقول: من المؤسف أنّ الحكومات تحسب ماتدر عليها المشروبات الكحولية من ضرائب، ولا تحسب الميزانية الضخمة التي تنفق لترميم مفاسد هذه المشروبات. لو حسبت الحكومات الأضرار الناتجة من المشروبات الكحولية، مثل زيادة الأمراض الروحية، وإهدار الوقت والاصطدامات الناتجة عن السكر، وفساد الجيل، وانتشار روح التقاعس والتحلل، والتخلف الثقافي، والمشاكل التي تواجه رجال الشرطة ودور الحضانة المخصصة لرعاية أبناء المدمنين، وما تحتاجه جرائم المدمنين من مستشفيات وأجهزة قضائية وسجون، وغيرها من الخسائر والأضرار الناتجة عن تعاطي الخمر، وقارنت هذه الخسائر بما تحصل عليه من ضرائب على هذه المشروبات لوجدت أنّ الأرباح تكاد أن تكون

لا شيء أمام الخسائر، هذا إضافة إلى أنّ الخسائر المؤسفة الناتجة عن المشروبات الكحولية لا يمكن حسابها بالدولار لأنّ موت الأعرّاء وتشتت العوائل وتبدّد الآمال وفقدان الأدمغة المفكّرة لا يمكن حسابه بالمال.

أضرار المشروبات الكحولية فظيعة للغاية، حتى أنّ أحد العلماء قال: لو أنّ الحكومة ضمنت لي غلق حانات الخمور لضمنت لها غلق نصف المستشفيات ودور المجانين.  
 ممّا تقدّم يتّضح بجلاء معنى الآية الكريمة بشأن الخمر، فلو كان في الخمرة فائدة تجارية، ولو كان السكران يحسب لحظات غفلته عن عمومته أثناء السكر فائدة له، فإنّ الأضرار التي تترتّب عليها أكثر بكثير وأوسع وأطول من فوائدها، حتى لا يمكن المقارنة بين الإثنين.

#### آثار القمار المشؤومة

أضرار القمار لا تحفى على أحد، ولزيد من التوضيح نذكر باختصار جانباً من المآسي المترتبة على هذه الظاهرة الخطرة:

#### القمار أكبر عوامل الهياج

يجمع علماء النفس على أنّ الهياج النفسي هو العامل الأساسي في كثير من الأمراض؛ مثل: نقص الفيتامينات، وقرحة المعدة، والجنون، والأمراض العصبية والنفسية الخفيفة والحادة. والقمار أكبر عامل على إثارة الهياج، حتى أنّ عالماً أمريكياً يقول: في أمريكا يموت ألفا شخص سنوياً نتيجة هياج القمار، وقلب لاعب البوكر «نوع من القمار» تزيد عدد ضرباته على مائة ضربة في الدقيقة، وقد يؤدّي القمار إلى سكتة قلبية ودماغية أيضاً ومن المؤكّد أنّه يدفع إلى شيخوخة مبكرة.

إضافة إلى ماسبق فإنّ المقامر - كما يقول العلماء - يصاب بتوتّر روحي بل أنّ جميع أجهزة جسمه تصاب بحالة استثنائية، كأن يزداد ضربان القلب وترداد نسبة السكر في الدم، ويحتلّ ترشّيح الغدد الداخلية، ويشحب لون الوجه، وتقلّ الشهية، ويمرّ المقامر بعد اللعب بفترة حرب أعصاب وحالة أزمة نفسية، وقد يلجأ إلى الخمور والمخدرات لتهدئة أعصابه، فيزيد في الطين بلة وتتضاعف بذلك أضرار القمار.

ويقول عالم آخر: المقامر إنسان مريض يحتاج إلى إشراف نفسي مستمر، ويجب

تفهمه بأن الفراغ الروحي هو الذي يدفعه لهذا العمل الشنيع، كي يتجه لمعالجة نفسه.

### علاقة القمار بالجرائم

إحدى مؤسسات الإحصاء الكبرى ذكرت: أنّ ٣٠ بالمائة من الجرائم ناتجة مباشرة عن القمار، و٧٠ بالمائة من الجرائم ناتجة بشكل غير مباشر عن القمار أيضاً.

### الأضرار الإقتصادية للقمار

الملايين بل المليارات من ثروات الأفراد تبدد سنوياً على هذا الطريق، إضافة إلى المقدار الهائل من الوقت ومن الطاقات الانسانية.

وجاء في أحد التقارير: في مدينة «مونتكارلو» حيث توجد أكبر دور القمار في العالم، خسر شخص خلال مدة ١٩ ساعة من اللعب المستمر أربعة ملايين دولار، وحين أغلقت دار القمار اتجه مباشرة إلى الغابة، وانتحر بإطلاق رصاصة على رأسه، ويضيف التقرير: أنّ غابات «مونتكارلو» تشهد باستمرار انتحار مثل هؤلاء الخاسرين.

### الأضرار الاجتماعية للقمار

القمار يصد أصحابه عن التفكير بالعمل الجاد الانتاجي المثمر في الحقل الاقتصادي، ويشدهم دائماً إلى أمل الحصول على ثروة طائلة بدون عناء عن طريق القمار، وهذا يؤدي إلى إهدار الطاقات الانتاجية هؤلاء المقامرين وبالتالي إلى ضعف الانتاج على قدر نسبتهم.

المقامرون وعوائلهم يعيشون عادة حياة طفيلية في الجانب الاقتصادي لا ينتجون، بل يجنون ثمار الآخرين، وقد يضطرون في حالات الإفلاس إلى السرقة.

أضرار القمار فادحة إلى درجة دفعت حتى بعض البلدان غيرالاسلامية إلى إعلان منعه، كما حدث في بريطانيا عام ١٨٥٣، وأمريكا عام ١٨٥٥، والاتحاد السوفيتي عام ١٨٥٤، والمانيا عام ١٨٧٣.

لا بأس أن نشير في الخاتمة إلى إحصائية أجراها بعض المحققين تذكر أنّ القمار وراء ٩٠ بالمائة من السرقات، و١٠ بالمائة من الماسد الخلقية، و٤٠ بالمائة من الاعتداءات بالضرب والجرح، و١٥ بالمائة من الجرائم الجنسية، و٣٠ بالمائة من الطلاق، و٥ بالمائة من عمليات



الانتحار.

لو أردنا ان نعرّف القمار تعريفاً شاملاً علينا أن نقول: إنه إهدار للمال والشرف، للحصول على أموال الآخرين بالخدعة والتزوير، ويهدف الترويح عن النفس أحياناً، ثم عدم الحصول على كلا الهدفين.

استعرضنا فيما سبق الأضرار الفادحة المترتبة على «الخمر والميسر» وتلزم الإشارة إلى مسألة أخرى في هذا المجال وهي سبب إشارة الآية الكريمة إلى منافع الخمر والميسر، عندما تعرّضت إلى ذمهما، بينما نعلم أن منافعها تكاد تكون لا شيء أمام أضرارهما.

قد يكون السبب هو أنّ سوق الخمر والقمار كانت رائجة في الجاهلية مثل عصرنا هذا، ولم لو تشر الآية إلى مسألة المنافع لظنّ ذوو الأفق الفكري الضيق أنّ القرآن تناول المسألة من جانب واحد.

أضف إلى ما سبق أن أفكار الانسان تدور عادةً حول محور المنفعة والضرر، وتجب الاستفادة من هذا المنطق لإنقاذ الفرد من المفاصد الأخلاقية الكبرى.

والآية تجيب ضمناً على بعض أقوال الأطباء بشأن إمكان الاستفادة من المشروبات الكحولية لمعالجة قسم من الأمراض، وتؤكد أنّ الأضرار المترتبة عليها أكبر بكثير من نفعها، أي إذا كان لها أثر إيجابي على الشفاء من مرض معين، فإنها منشأ لأمراض خطيرة أخرى، وقد تكون هذه الحقيقة هي التي تشير إليها الروايات القائلة: إن الله لم يجعل الشفاء في الخمر.

«ويسألونك ماذا ينفقون»

ورد في تفسير «الدر المنثور» في نزول الآية عن ابن عباس أنّ المسلمين سألو الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم - عند نزول آيات الحثّ على الإنفاق - ماذا ينفقون؟ أينفقون كلّ أموالهم أم بعضها؟ فنزلت الآية لتأمير برعاية «العفو» فما هو العفو في الآية؟

المقصود بالعفو

العفو في اللغة له معانٍ مختلفة، منها:

الصفح والمغفرة، وإزالة الأثر، والقصد في تناول الشيء، ووسط كلّ شيء، والزائد من

كلّ شيء، وأفضل المال.

يبدو أن المعاني الثلاثة الأول لا تتناسب مع مفهوم الآية، بل المراد أحد المعاني الثلاثة الأخيرة. أي راعوا الحدّ الوسط في الإنفاق، أو أنفقوا ممّا زاد عن احتياجكم، وهذان المعنيان يعودان في الحقيقة إلى معنى واحد، لأنّ رعاية الحدّ الوسط إنّما يكون في الإنفاق عمّا زاد عن الحاجة وفي عدم الاخلال بالمعيشة.

وإن كان العفو بالمعنى الأخير، فمضمون الآية هو الأمر بانتخاب أفضل المال في الإنفاق في سبيل الله لا الرديء منه.

هذا المعنى قابل للتطبيق أيضاً مع المعنيين السابقين، لأنّ المنفق إن راعى في الإنفاق الحدّ الوسط والنوع الجيد فقد عمل بكلّ هذه المعاني.

من هنا ورد عن الأئمة عليهم السلام في تفسير كلمة «العفو» أنّه «الوسط» أحياناً، كما ورد عن الامام الصادق عليه السلام في الكافي، وأنّه «الفضل» أحياناً أخرى، كما ورد عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير مجمع البيان «العفو ما فضل عن قوت السنة».

يحتمل أيضاً أن يكون العفو في الآية بالمعنى الأول، أي الصفح عن أخطأ الآخرين، يبدو أنّ المفسرين لم يتطرقوا إلى هذا المعنى وبذلك يكون معنى الآية الكريمة: انفقوا الصفح والمغفرة.

ولا يبعد هذا الاحتمال لو أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع شبه الجزيرة العربية عامّة وأوضاع المدينة خاصّة، من حيث هيمنة روح التنافر والعداء التقليدية، ولوعلمنا الأهمية التي أعارها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لمكافحة هذه الظاهرة، وإحلال روح العفو والصفح في النفوس.

والجواب بهذا المعنى لا يتنافى مع سؤاها بشأن الإنفاق المالي، لأنهم قد يسألون عن موضوع كان ينبغي أن يسألوا عن أهمّ منه، والقرآن يستثمر فرصة سؤاها المعبر عن استعدادهم للسمع والقبول، ليجيبها بما هو أهمّ وألزم، أي يترك سؤاها ليتناول موضوعاً أهمّ.

وهذا اللون من البيان اللطيف لا يختصّ بالقرآن، وقد يحدث أحياناً في حوارنا اليومي أن يوجه إلينا سؤالاً شخص قد نسي مسائل أهمّ ممّا طرحه في السؤال، فنجيبه بتلك المسائل الهامة الملحة.

#### ملاحظتان

الفقرة الأخيرة من الآية الكريمة تقول:

«كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون» ثم تكتمل هذه الفقرة في أول الآية التالية

بقوله: «في الدنيا والآخرة».

يتضح من هذا التعبير معنيان:

**الأول:** إنَّ الانسان مسؤول - إضافة إلى التسليم أمام أوامر الله - أن يطيع هذه الأوامر عن تفكّر وتعقل، لا عن اتباع أعمى بعيد عن التفكير، بعبارة أخرى: على الانسان المؤمن أن يعي - ما أمكنه - أسرار الأحكام وروحها.

**الثاني:** إنَّه على الانسان أن لا يحدّ تفكيره في عالم المادّة وحده أو عالم المعنى وحده، بل عليه أن يفكّر في الاثنين معاً، ويسعى إلى سدّ احتياجات الجسم واحتياجات الروح، وإلى تأمين وسائل تكامل كلا الجانبين، إذ أنّ الدنيا والآخرة مرتبطتان، وكلّ خلل في أحدهما يخلّ بالآخر. أما الارتباط بين حكم الخمر والميسر والحثّ على الإنفاق، وبين الحثّ على التفكير، فقد يكون مايلي:

**أولاً:** ورد بيان فلسفة هذه الأحكام وأسرارها بشكل إجمالي في الآيات، وهذا يثير التفكير والتأمل في الانسان بشكل عام.

**ثانياً:** لما كان للإنفاق طابع عامّ وأخروي، ولتحرّم الخمر والميسر طابع شخصي مادّي غالباً، فإنّ بيان هذه الأحكام يثير اهتمام الانسان وتفكيره بإصلاح أمر دينه وآخرته.



## الاية

٢٢٠- «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

## النزول

في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام، وفي تفسير مجمع البيان عن ابن عباس، لما نزلت الآية: «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن»<sup>١</sup> والآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّا يَا كَلُونَ فِي بَطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا»<sup>٢</sup> تخلى الناس عن اليتامى وعمد بعضهم إلى إخراج اليتيم من بيته، وأولئك الذين احتفظوا بهم في بيوتهم فصلوا طعامهم عن طعام اليتيم، وجعلوا لا يجالسونه على مائدة واحدة ولا يستفيدون مما بقي من طعامه، بل يحتفظون به له لوجبات أخرى، فإن فسد يلقونه، كل ذلك ليتخلصوا من أكل مال اليتامى، فاشتد ذلك على اليتامى وعلى من يرعاهم، فجاءوا إلى رسول الله يخبرونه بذلك، فنزلت الآية.

## التفسير

القرآن الكريم بحث أولياء اليتامى على الاستمرار في تحمّل مسؤولية هذه الرعاية، وعلى عدم التنصل من هذه المسؤولية، وعلى اتخاذ كل خطوة تكون في صالحهم «قل إصلاح لهم خير». وإن اختلطت معيشتهم بمعيشتكم، فعاملوهم معاملة الأخ لأخيه، وإن كانت بواعثكم إصلاحية فلا حرج في اختلاط الأموال. «وإن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ». ثم تضيف الآية إن الله عالم بنياتكم، والتظاهر بالإصلاح ليس دليلاً على صحة العمل بل يجب أن تكونوا مصلحين حقيقة، وأن تتجه نواياكم لخدمة اليتامى «والله يعلم المفسد من المصلح». والفقرة الأخيرة من الآية تؤكد أن الله قادر على أن يضيق ويشدد على الناس، وعلى أن يلزمكم برعاية اليتامى مع فصل أموالهم عن أموالكم وطعامهم عن طعامكم، لكن الله عزيز وحكيم ولا داعي لأن يضيق على عباده «ولو شاء الله لأَعْتَنَّكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

## الآية

٢٢١- «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةً مُؤْمِنَةً حَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

## النزول

نزلت في «مرتد الغنوي» بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة ليخرج منها جماعة من المسلمين. وكان قوياً شجاعاً، فدعته امرأة يقال لها «عناق» إلى نفسها، فأبى وكانت صديقه في الجاهلية، فقالت له: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: حتى أستاذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما رجع أستاذن في التزويج بها، فنزلت الآية تنهي عن الزواج بالمشركات حتى يؤمن.

## التفسير

النكاح اسم يطلق على العقد والوطء، وهنا قصد به عقد الزواج. الإسلام يعير أهمية بالغة للحياة الزوجية، ويأخذ بنظر الاعتبار المسائل الوراثية والبيئية في شخصية الأبناء، ولذلك يقرر شروطاً مختلفة لانتخاب الزوج، منها أن الزوجة المشركة لا تكون كفواً للرجل المسلم ولا يحق له الزواج منها، أضف إلى ذلك أن المجتمع الإسلامي سيصاب بحالة فوضى إن وجد المشركون لهم طريقاً إلى داخل الأسر المسلمة، وبالتالي إلى قلب المجتمع المسلم، وسوف يختلط الحابل بالنابل.

والقرآن في نهيهِ عن الزواج بالمشركة قلل من شأن المرأة المشركة واعتبر الأمة المؤمنة أفضل منها، لكنته مع ذلك لم يسد الطريق أمام المرأة المشركة أن تتزوج بالرجل المسلم، إذ تستطيع ذلك إن آمنت، ولعل القرآن أراد بذلك أن يستثمر العلاقة الجنسية على طريق الهداية والإنقاذ.

من هم المشركون؟

تطلق هذه الكلمة في القرآن غالباً على عبدة الأوثان، وأبنا وردت في القرآن فإنها تشمل

عبدة الأوثان حتماً، لذلك نرى الآيات تذكر المشركين مقابل أهل الكتاب «اليهود والنصارى والمجوس». بعض المفسرين يعتقد أن كلمة المشرك تشمل سائر الكفار كاليهود والنصارى والمجوس، لأن هؤلاء أيضاً يعتقدون بالشريك مع الله، فالنصارى يؤمنون بالتثليث، والمجوس بالثنوية، واليهود يرون أن عزيراً ابن الله.

مع إقرارنا بأن معتقدات هذه الطوائف ملوثة بالشرك يبدو من الاستعمال القرآني للفظ المشركين ووضعهم مقابل أهل الكتاب أنهم عبدة الأوثان لا غيرهم. وما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بإخراج المشركين من مكة يؤكد ذلك لأن أهل الكتاب لم يخرجوا قطعاً من الجزيرة العربية بل ظلوا باعتبارهم أقلية دينية في ظل حماية الاسلام. من هنا فالنهي في الآية أعلاه عن الزواج بالمشركات لا يشمل أهل الكتاب.

«ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم»

كما أن صدر الآية نهي عن زواج الرجل المسلم بالمرأة المشركة، تنهي هذه الفقرة من الآية عن زواج المرأة المؤمنة بالمشرك، وكما أن الآية فضلت الأمة المؤمنة على المشركة ولو كانت مغرية في مالها وجمالها، كذلك فضلت هنا العبد المؤمن على الرجل الكافر ولو كان ذاملاً وجاهاً، والنهي قائم عن الزواج بالمشرك مادام مشركاً فإن آمن ارتفع المانع، وهذا طريق فتحه الله أمام المشركين كما فتحه أمام المشركات للعودة إليه سبحانه.

«أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه»

هذه العبارة من الآية بينت سبب النهي عن زواج المؤمن بالمشركة، وزواج المؤمنة بالمشرك، فالزواج يؤدي إلى تفاعل عميق بين الأفراد، وخلال هذا التفاعل يفرز الشرك تأثيره في النفوس والأخلاق والعادات ويدفع إلى السقوط في نيران الغضب الإلهي، فالإلتجاء إلى المشركين عن طريق الزواج إعراض عن الله، بينما تؤدي معايشة المؤمنين إلى التحلي بمزيد من الفضائل والصفات السامية وبالتالي إلى نيل الجنة ومغفرة الله.

وبمناسبة شدة الارتباط بين المؤمن وربّه يذكر الله سبحانه اسمه بدل المؤمنين: «والله يدعو

إلى الجنة والمغفرة بإذنه».

وقد يكون معنى دعوة الله هو نفسه بيان حكم حرمة الزواج بالمشركين إذ أن نتيجة هذه

الدعوة الجنة ومغفرة الله، وقد تستهدف الآية بيان المعنيين معاً.



## الآياتان

٢٢٢- «وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَعَنْزَلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» .

٢٢٣- «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» .

## النزول

للنساء عادة شهرية تستمر بين ثلاثة إلى عشرة أيام . وخلالها يخرج من رحم المرأة دم ذو أوصاف خاصة مذكورة في كتب الفقه . والمرأة في هذه الحالة تكون حائضاً ، وموقف الديانتين اليهودية والنصرانية الحاليتين من المرأة الحائض متناقض يثير الاستغراب .

جمع من اليهود قالوا: إنَّ معاشرَةَ المرأة الحائض حرام حتى المجالسة على مائدة الطعام أو في غرفة واحدة . ويذهبون إلى حظر جلوس الرجل في المكان الذي تجلس فيه الحائض ، وإن فعل ذلك تنجست ملبسه وعليه أن يغسلها ، وإن رقد معها على سرير واحد تنجس بدنه ولباسه ، فهم يعتبرون المرأة في هذه الحالة موجوداً مدنساً يلزم اجتنابه .

ومقابل هؤلاء يذهب النصارى إلى عدم التفريق بين حالة الحيض والطمهر في المرأة ، حتى بالنسبة للجماع .

المشركون العرب ، وخاصة أهل المدينة منهم ، كانوا متأثرين بالنظرة اليهودية ، ويعاملون المرأة الحائض على أساسها ، فينفصلون عنها خلال مدة الحيض . وهذا الاختلاف في المواقف وما يصحبه من إفراط وتفريط دفع ببعض المسلمين لأن يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فنزلت الآية .

## التفسير

## أضرار الجماع في أيام العادة الشهرية

«يسألونك عن المحيض قل هو أذى»

المحيض مصدر ميمي أي الحيض، وهذه العبارة تبين علة اجتناب الجماع في أيام الحيض، فهو إضافة إلى ما فيه من اشمئزاز ينطوي على أذى وضرر ثبت لدى الطب الحديث من ذلك احتمال تسبب عقم الرجل والمرأة، وإيجاد محيط مناسب لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسية مثل السفلس والتهاجات الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة، ودخول مواد الحيض المليئة بمكروبات الجسم في عضو الرجل، وغير ذلك من الأضرار المذكورة في كتب الطب، لذلك ينصح الأطباء باجتناب الجماع في هذه الحالة.

خروج دم الحيض يعود إلى احتقان الرحم وتسلخ مخاطه، ومع هذا الاحتقان يحتقن المبيض أيضاً. و قبيل موعد العادة الشهرية تخرج بويضة المرأة من المبيض وتجتاز انبوباً باسم «فالب» وتدخل الرحم، منتظرة نطفة الرجل لتكون الجنين. دم الحيض في البداية يكون متقطعاً باهت اللون ثم يزداد ويحمر ويعود في الأخير إلى وضعه المتقطع الباهت.

الدم الخارج في أيام العادة الشهرية هو الدم الذي يتجمع شهرياً في العروق الداخلية للرحم من أجل تقديم الغذاء للجنين المحتمل. ذلك لأن مبيض المرأة يدفع كل شهر بويضة إلى الرحم، وفي نفس الوقت تمتلئ عروق الرحم بالدم استعداداً لتغذية الجنين فإن انعقد الجنين يستهلك الدم لتغذيته، وإلا يخرج بشكل دم حيض. من هنا نفهم جانباً آخر لحظر الجماع في هذه الفترة التي يكون الرحم خلالها غير مستعداً طبيعياً لقبول نطفة الرجل، حيث يواجه أذى من جراء ذلك.

«فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن»

العبارة الأولى من هذه الآية تأمر باعتزال المرأة الحائض وعدم الاقتراب منها، وتبدول للوهلة الأولى أنها شبيهة بتعاليم الديانة اليهودية الحالية، ولكن وجود قرينة في عبارة «فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله» يدل على أن الاعتزال يقتصر على الابتعاد عن الجماع. بهذا الشكل اتخذ الإسلام الطريق الوسط في تعامل الرجل مع المرأة الحائض، وطريق

الاسلام هو دائماً البعيد عن الإفراط والتفريط ، وفي هذا الحكم ابتعد الاسلام عن الاسلوب اليهودي ، وأباح معاشره المرأة الحائض ومجالستها والتعامل معها في غير العمل الجنسي ، ومنع من ممارسة اسلوب المسيحيين الذين لا يحدّون أنفسهم بأي قيد تجاه المرأة الحائض . وهذا الشكل صان شخصية المرأة وكرامتها وحفظ احترامها وألغى كلّ ما يهينها ، كما أنه حال دون وقوع أضرار صحيّة تؤذي المرأة والرجل معاً .

### الجماع المجاز

«فإذا تطهّرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله»

هذه العبارة من الآية الكريمة توضّح الجماع المجاز، ويستفاد منها الوطء عن النقاء من العادة الشهرية ، لأنّ التطهّر جاء في عبارة الآية بعد أذى الحيض ، ويكون معنى العبارة بذلك : فإذا تطهّرن من هذا التلوّث يزول المنع . وتفسير «تطهّرن» بغسل المرأة لا يتناسب مع ظاهر الآية ، وليس في بداية الآية إشارة إلى الغسل .

عبارة أخرى ، عبارة «حتى يطهّرن» في الجملة السابقة تدلّ على أنّ الحظر قائم في زمان الحيض ، وعبارة «فإذا تطهّرن» المبدوءة بفاء التفرّيع تكرر مفهوم الجملة السابقة ، أي أنّ الحظر ينتهي عند النقاء وهذا ما ذهب إليه كبار فقهاءنا في هذه المسألة ، إذ أفتوا بجواز الجماع عند نقاء المرأة حتى قبل أن تغتسل .

الفقرة التالية من الآية تقول «من حيث أمركم الله» أي أن يكون الجماع من حيث أمر الله ، وقد تكون هذه الفقرة تأكيداً لما قبلها ، أي أتوا نساءكم في حالة النقاء والطهر فقط ، لا في غير هذه الحالة . وقد يكون مفهومها أوسع ، فتفيد أنّ الجماع بعد الطهر يجب أن يكون في إطار أوامر الله أيضاً . هذا الأمر الإلهي من الممكن أن يشمل الأمر التكويني والأمر التشريعي معاً ، فالله سبحانه أودع في الرجل والمرأة الغريزة الجنسية لبقاء نوع الانسان وهذه الغريزة تدفع الانسان للحصول على اللذة الجنسية ، لكن هذه اللذة مقدّمة لبقاء النوع ، من هنا لا يجوز الحصول عليها عن طريق منحرف عن الأمر التكويني مثل الاستمناة واللواط ، لأنّ هذا الطريق المنحرف لا يحقّق الهدف الأصلي من الغريزة الجنسية ولا يتّجه على مسيرها (إضافة لما فيه من أضرار شديدة) .

«إنّ الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهّرين»

«التوبة» تعني العودة عن الذنب والندم على معصية الله وأركانها ثلاثة :



١- العلم بمعصية الله في الماضي .

٢- التوبة من ذلك العمل .

٣- العزم على ترك ذلك في المستقبل وجبرانه .

إن وجدت هذه الحالة في شخص فهو «تائب» وعمله «التوبة» وسيأتي تفصيل أكثر للتوبة وشروطها في الآيات المناسبة .

المقصود من «التطهير» في هذه الآية، عدم التلوث بالذنب والامتناع عن الوقوع في المعصية .

ذكر هذه الجملة في نهاية الآية يعود إلى أن حكم اعتزال النساء في الحيض قد يشقّ على بعض، فيدفعه ضغط الغريزة إلى ارتكاب الحرام، وبعدها يندم ويرى نفسه قد تعرّض لسخط الله، لذلك تؤكد الآية على التوبة لتفتح أمام هؤلاء طريق العودة ولتزيل عنهم اليأس من رحمة الله . أولئك الذين يحافظون على طهرهم منذ البداية ينالون طبعاً سهماً أوفى من هذا الحبّ الإلهي .

### وسيلة لحفظ بقاء النوع البشري

«نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم»

في هذه الآية الكريمة شبّهت النساء بالمرزعة وقد يتقل هذا التشبيه على بعض، ويتساءل لماذا شبّه الله نصف النوع البشري بهذا الشكل .

ولو أمعنا النظر في قوله سبحانه لوجدنا فيه إشارة رائعة لبيان ضرورة وجود المرأة في المجتمع الإنساني . فالمرأة بموجب هذا التعبير ليست وسيلة لإطفاء الشهوة بل وسيلة لحفظ حياة النوع البشري .

وكما أنّ الانسان يحتاج إلى الغذاء لاستمرار حياته ولا يمكن أن تؤمّن حياته بدون زراعة، كذلك يحتاج إلى وجود المرأة لاستمرار نوعه .

«الحرث» مصدر يدلّ على عمل الزراعة، وقد يدلّ على مكان الزراعة «المرزعة» . و«أنى» من أساء الشرط، وتكون غالباً زمانية . وقد تكون مكانية كما جاء في قوله سبحانه: «يا مريمُ أنى لك هذا قالت هو من عند الله»<sup>١</sup> .

يستفاد من الآية الكريمة - على افتراض زمانية أنى - الرخصة في زمان الجماع، أي جوازه في

كلّ ساعات الليل والنهار، وعلى افتراض مكانية أُنّي يستفاد من الآية الرخصة في مكان الجماع ومحلّه وكيفيته.

### «وقدموا لأنفسكم»

هذا الأمر القرآني يشير إلى أنّ الهدف النهائي من الجماع ليس هو الاستمتاع باللذة الجنسية، فالمؤمنون يجب أن يستثمروه على طريق تربية أبناء صالحين، وأن يقدموا هذه الخدمة التربوية المقدّسة ذخيرة لأخراهم. وبذلك يؤكد القرآن على رعاية الدقة في انتخاب الزوجة كي تكون ثمرة الزواج إنجاب أبناء صالحين وتقديم هذه الذخيرة الاجتماعية الانسانية الكبرى.

وفي حديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«إذا مات الانسان انقطع عمله إلا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعوه».

### «واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشّر المؤمنين»

لَمَّا كان موضوع حديث القرآن يدور حول الإتصال الجنسي وحول أشدّ غرائز الانسان إلحاحاً، يدعو الله سبحانه في هذه الآية الانسان إلى الدقة في أمر ممارسة هذه الغريزة وإلى التقيد بأحكامه: «واتقوا الله».

ثم تلفت الآية الأنظار إلى يوم القيامة وإلى ماسيواجه الانسان فيه من مثوبة أو عقوبة:

«واعلموا أنكم ملاقوه».

وتزفّ أخيراً البشرى إلى المؤمنين الذين يلتزمون بهذه الأحكام المفيدة لحياتهم المادية والمعنوية: «وبشّر المؤمنين».

## الآيتان

٢٢٤- «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» .  
٢٢٥- «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» .

## النزول

حدث خلاف بين صهر أحد الصحابة وابنته، هذا الصحابي - وهو عبد الله بن رواحة - أقسم أن لا يتدخل في الإصلاح بين الزوجين، فنزلت الآية تنهي عن هذا اللون من القسم وتلغي آثاره .

## التفسير

«الأيمان» جميع ميم أي القسم، و«عرضة» - بضم العين - تعني العرض، يقال لعرض البضاعة في السوق للبيع مثلاً عرضة . وقد تطلق العرضة على موانع الطريق، لأنها تعترض طريق الانسان .  
فبالمعنى الأول تنهي الآية عن وضع الله جلّ وعلا في معرض قسم الانسان، وعن القسم به في الأمور الصغيرة والكبيرة، وعن الاستخفاف باسمه سبحانه، وهذا حذرت الآية من القسم إلا في كباثر الأمور .

وهذا ما أكدت عليه الأحاديث أيضاً، فقد روي عن الصادق عليه السلام :  
لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فإنه سبحانه يقول : «لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم» .  
لو أخذنا سبب نزول الآية بنظر الاعتبار يكون مؤداها أن القسم ليس بعمل مطلوب في الأعمال الصالحة، فما بالك أن يقسم الفرد بترك الأعمال الصالحة مثل الإصلاح بين الناس، وبناءً على هذا التفسير تكون عبارة «أن تبرؤوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس» إشارة الى النهي عن القسم حتى في الاعمال الصالحة والإصلاح بين الناس .  
وبالمعنى الثاني لكلمة «عرضة» وهو المانع، يكون مؤدى الآية المنع عن اتخاذ اسم الله حائلاً



دون أداء الأعمال الصالحة والإصلاح بين الناس، وكلّ قَسَم من هذا القبيل لا قيمة له ولا اعتبار. وتناسب هذا التفسير مع نزول الآية واضح تماماً.

«لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم»

هذه الآية تشير إلى نوعين من القَسَم.

**الأول:** القَسَم اللغو الذي لا أثر له، ولا يعاب به، هذا النوع من القَسَم يتردد على ألسن بعض الناس دون التفات، ويكرّره في كلامهم عن عادة لهم، وإنما سمّي لغواً لأنه لا هدف له ولم يطلقه المتكلم عن عزم وقرار، وكلّ عمل وكلام مثل هذا اللغو.

من هنا فالقَسَم الصادر عن الانسان حين الغضب لغو (إذا أخرج الغضب تماماً عن حالته الطبيعية).

حسب الآية أعلاه الانسان لا يؤاخذ على مثل هذا القَسَم، وعليه أن لا يرتب أثراً عليه، ويجب الالتفات إلى أنّ الانسان يجب أن يترتب على ترك مثل هذا القَسَم.

**النوع الثاني:** القَسَم الصادر عن إرادة وقرار، أو بالتعبير القرآني هو القَسَم الداخل في إطار كسب القلب، ومثل هذا القَسَم معتبر، ويجب الالتزام به، ومخالفته ذنب موجب للكفارة إلا في مواضع سنذكرها.

### الأيان المعبرة

الاسلام لا يجتد القَسَم كما أشرنا آنفاً، لكنه ليس بالعمل المحرم، بل قد يكون مستحباً أو واجباً تبعاً لما تترتب عليه من آثار.

وهناك أيان لا قيمة لها ولا اعتبار في نظر الاسلام كالقَسَم بغير اسم الله، مثل هذا القَسَم غير المتضمن اسم الله تعالى لا أثر له ولا يلزم العمل به.

وكذلك القَسَم على ارتكاب فعل محرم أو مكروه لا يترتب عليه شيء. كأن يقسم شخص على عدم أداء دين، أو على قطع رحم، أو على فرار من جهاد، وأمثالها، فإن أقسم على شيء من ذلك فعليه أن لا يعتني بقسمه ولا كفارة عليه، وقيل إن هذا هو معنى قوله تعالى: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم».

أما الأيمان التي تحمل اسم الله - على أداء عمل صالح أو مباح على الأقل، فيجب الالتزام به، وإلا وجبت على صاحبه الكفارة، وكفارته كما ذكرته الآية ٨٩ من سورة المائدة، إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

## الآيتان

- ٢٢٦- «لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .
- ٢٢٧- «وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» .

## التفسير

### القضاء على تقليد جاهلي

القَسَم على ترك وطء الزوجة أو الإيلاء تقليد جاهلي كان شائعاً بين العرب، واستمر معمولاً به عند المسلمين الجدد قبل نزول حكم الطلاق.

كان الرجل في الجاهلية- حين يغضب على زوجته- يقسم على عدم وطئها، فيشدد عليها بهذه الطريقة الفضة، لاهوي يطلق سراحها بالطلاق لتتزوج من رجل آخر، ولا يعود إليها بعد هذا القَسَم ليصالحها ويعايشها.

الآية الكريمة وضعت لهذه القضية حداً، فذكرت أن الرجل يستطيع خلال مدة أقصاها أربعة أشهر أن يتخذ قراراً بشأن زوجته: إما أن يعود عن قَسَمه ويعيش معها، أو يطلقها ويخلى سبيلها.

انتخاب الطريق الأول ولم شمل العائلة- دون شك - عمل عقلائي وموجب لرضا الله تعالى ولذلك تقول الآية أخيراً:

### «فإن فاء وإفان الله غفورٌ رحيمٌ»

أي إن عادوا وجدوا الله غفوراً رحيماً، والعبارة تدل أيضاً أن العودة عن هذا القَسَم ليس ذنباً، وإن كان المعنى يفيد أيضاً عدم تحبيذ القَسَم أصلاً.

أما إذا قرّر الانفصال والطلاق فليس قطعياً أن تشمل الرجل رحمة الله ومغفرته، والله عالم بجميع الأسرار ويعلم إن كان هوى النفس قد دفع الرجل إلى الطلاق أم أنه اضطر إلى ذلك، والله

سبحانه يسمع ظاهر الطلاق ويعلم دوافعه، لذلك جاء في اختتام الآية:

«وإن عزموا الطلاق فإن الله سميعٌ عليمٌ»

ينبغي التأكيد هنا على أنّ الاسلام - وإن لم يبلغ حكم الإيلاء نهائياً - أزال آثار هذه الظاهرة، لأنه لم يسمح للرجل أن يفصل عن زوجته بالإيلاء. وتعيينه مدة للذين يؤلون من نسايتهم لا يعني إلغاء حق من حقوق الزوجية، لأنّ حق المرأة على زوجها - في إطار الوجوب الشرعي - الوطاء كل أربعة أشهر، هذا طبعاً في حالة عدم انجرار المرأة إلى الذنب على أن تطول المدة، وإلا يجب أن تقلل المدة إلى مقدار تأمين الحاجة الجنسية وخاصة بالنسبة للمرأة الشابة التي يخشى انحرافها.

### وقفه

#### الإيلاء في الجاهلية الحديثة

مرّعلينا كيف كان يمارس العرب في الجاهلية الإيلاء، وفي أوروبا برز نوع من الإيلاء سمّوه الانفصال الجسمي وأقرّوه قانونياً.

بعد الثورة الفرنسية انتشرت في أوروبا ظاهرة الانفصال الجسمي بين الزوجين باعتبارها إحدى سبل الطلاق، وذلك بأن يعيش الرجل في مكان والمرأة في مكان آخر عند عدم وجود الوفاق بينهما، وتبقى كلّ الحقوق الزوجية محفوظة سوى نفقة الرجل وتمكين المرأة، فلا الرجل يستطيع أن يتزوج ولا المرأة، على أن لا تتجاوز مدة الانفصال ثلاث سنوات، يجب على الزوجين بعدها أن يعودا إلى حياتهم الزوجية.

وإن سمح القانون الغربي للزوجين أن يفصلا لثلاث سنين فإنّ الاسلام لم يقَرّ لهذا الانفصال أن يستمر أكثر من أربعة أشهر، واستمرار هذه المدة جائز حتى مع عدم القسّم، وإن أراد الرجل أن يماطل أكثر من هذه المدة فإنّ الحكومة الاسلامية تستدعيه وترغمه على اتخاذ قراره النهائي.



## الآية

٢٢٨ - «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

## التفسير

لما كان التمرق العائلي يسبب أضراراً اجتماعيةً جسيمةً، فقد وضع الاسلام قوانين للحيلولة دون بروز هذه الظاهرة إلى أقصى حد ممكن .  
فهو اعتبر الطلاق من جهة (أبغض الحلال) ومن جهة أخرى قرار رجاء الخلافات العائلية إلى محاكمة أسرية يشترك فيها الأقارب للإصلاح بين الزوجين .  
ومما قرره الاسلام في هذا المجال (العدة) التي مدتها ثلاثة قروء لتأخير الطلاق وزلزله .

## المقصود من القروء

القروء جمع قرء تطلق على الحيض وعلى النقاء والطهر .  
ثمة روايات كثيرة صرحت أن المقصود بالقروء الثلاثة في الآية أن تطهر المرأة ثلاث مرات من دم الحيض، كما أن المفهوم اللغوي للقروء يؤيد ما ذهبت إليه الروايات لما يلي :  
١ - لكلمة قرء جمعان: قروء واقراء وما كان جمعه قروء فهو الطهر، وما كان جمعه اقراء فهو بمعنى الحيض<sup>١</sup> .  
٢ - القرء في اللغة بمعنى الجمع، وهي أنسب لحالة الطهر لأن الدم يتجمع في هذه الحالة في الرحم، بينما يخرج ويتفرق عند العادة الشهرية .

٤

### العدّة وسيلة للصلح والعودة

قد يتأزم الجوّ العائلي نتيجة عوامل مختلفة، فينفجر نتيجة اختلاف بسيط ويؤدي إلى فقدان السيطرة على العقل والمشاعر.

حالات الطلاق والتشتت العائلي تحدث غالباً في مثل هذه الظروف، لكن الزوجين لا يلبثان حتى يعودا إلى رشدهما ويشعرا غالباً بالندم بعد أن يواجهها مشاكل الافتراق. من هنا تأمر الآية أن تصبر المرأة مدة كي تمرّ سحب الأزمة ويصفو الجوّ وتهدأ النفوس.

والاسلام قرّر أيضاً عدم إخراج المرأة من البيت أثناء أيام العدة، كي يوفر الأجواء اللازمة للتفكير وللتفاهم والعودة، يقول سبحانه:

«ولا تخرجوهنّ من بيوتهنّ... لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً».

عودة جوّ الحبّ والتفاهم إلى العائلة لا يحتاج إلّا إلى استشعار العواطف الانسانية النبيلة التي تشدّ الزوجين، وإلى إحياء جذوة الحبّ التي أطفأتها رياح الأزمات الطارئة.

### العدّة وسيلة لحفظ النسل

من حكم «العدّة» اتّضح وضع المرأة من حيث الحمل. صحيح أنّ مرور العادة الشهرية الواحدة بعد الطلاق يدلّ عادةً على عدم حمل المرأة، ولكن قد يحدث أن تحيض المرأة الحامل في بداية حملها، ولذلك قرّر الاسلام - رعاية للدقّة والاحتياط - أن ترى المرأة ثلاث عادات شهرية بعد الطلاق ثمّ تطهر، ليحصل اليقين بعدم الحمل، ولتستطيع بعد ذلك أن تتزوج ثانية. وللعدة حكم أخرى سيأتي ذكرها في مواضعها.

«ولا يحلّ لهنّ أن يكتمنَ ما خلق الله في أرحامهنّ»

الاسلام قرّر أن تكون المرأة بنفسها هي المرجع والسند في معرفة بداية العدة ونهايتها، ولذلك هورد عن الامام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «قدفوض الله إلى النساء ثلاثة أشياء: الحيض، والطهر، والحمل».

الآية أعلاه إذ تنهي المرأة عن كتمان حقيقة وضعها، يمكن أن نفهم منها أنّ قولها في هذا المجال سند وحجّة.

عبارة «أن يكتمن ما خلق الله» يمكن أن يكون معناها كتمان الجنين، ويمكن أيضاً أن يكون كتمان العادة الشهرية. أي يجب على المرأة الحامل أن لا تكتم حملها وتدعي العادة الشهرية بهدف تقليل مدة العدة «لأنّ عدة الحامل وضع حملها». وهكذا يجب عليها أن لا تخفي وضع حيضها.

«وبعولتهنّ أحقّ بردهنّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً»

حين تكون المرأة في عدة الطلاق الرجعي، فحقّ الرجوع للزوج، يستطيع أن يواصل حياته الزوجية دون حاجة إلى أية تشريفات وشرط «إن أرادوا إصلاحاً» يقيد العودة بالإصلاح، فلا يحقّ للرجل أن يعود ليواصل أذاه للمرأة وضغطه عليها، كما كان الوضع في الجاهلية.

فهذا الحقّ يمارسه الرجل إن كان نادماً حقيقةً على وضعه، وهادفاً أن يستأنف بجدّ حياته الزوجية. بعبارة أخرى يحقّ له الرجوع إن لم يكن قصده التضييق على الزوجة. مسألة (العودة) في هذه الآية جاءت بعد مسألة (العدة). وفي الواقع أنّ حكم العدة في الآية ليس عاماً، بل يرتبط بمسألة العودة. بعبارة أخرى حكم العدة في الآية يرتبط بالمطلقة طلاقاً رجعيّاً، ومن هنا لا يمنع أن تكون عدة أنواع الطلاق الأخرى مختلفة عمّا ذكر في الآية.

«ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف»

هذه العبارة جاءت بعد ذكر مسألة الطلاق والعدة لتؤكد أنّ مسألة الاحترام المتبادل بين المرأة والرجل أسمى من كلّ ذلك، ولها ارتباط بالحقوق الشخصية والاجتماعية، ولتقول: كما أنّ للرجل حقوقاً على المرأة ينبغي أن تراعيها، كذلك للمرأة حقوق على الرجل يجب أن يراعيها أيضاً.

وكلمة «بالمعروف» تكرّرت في اثني عشر موضعاً من القرآن الكريم للتأكيد على عدم استغلال هذه الحقوق. على الزوجين أن يكفرا في مصلحتها، ويلتزموا بالحقوق المتبادلة بينها بالشكل اللائق.

الحقّ والواجب

أشار القرآن هنا إلى قاعدة أساسية هي أنه متى وجد الواجب ثبت إلى جواره الحقّ.



فلا انفصال بين الواجب والحق. فعلى الوالدين - مثلاً - واجبات تجاه الأبناء، وهذا يؤدي إلى ثبوت حقوق لها على عاتق أبنائها. وهكذا القاضي مكلف ببذل أقصى الجهد لنشر العدالة، ومقابل ذلك وضعت له حقوق كثيرة. وهذه المسألة ثابتة أيضاً بشأن الأنبياء والأمم.

والآية تشير إلى هذه الحقيقة وتقول: إِنَّ للنساء حقوقاً بقدر ما عليهنَّ من واجبات، وتتحقَّق العدالة بشأنهنَّ حين تتساوى عملياً هذه الحقوق مع تلك الواجبات.

وعكس هذا صحيح أيضاً لو تقرر لأحد حقٌّ لألقيت على عاتقه مقابل ذلك تكاليف وواجبات، ولذلك لانستطيع أن نرى أحداً يملك حقاً في شيء من الأشياء دون أن تكون على عاتقه وظيفة.

### «وللرجال عليهنَّ درجة والله عزيرٌ حكيم»

هذه العبارة من الآية تكمل القاعدة السابقة. والفقرة السابقة قررت أن العدالة تجري في حقِّ المرأة جريانها في حقِّ الرجل، ولكن هل يلزم أن يكون الجنسان متساوين تماماً في كلِّ الواجبات، وبالتالي في كلِّ الحقوق؟

لو أخذنا بنظر الاعتبار الاختلافات الكبيرة بين الجنسين على صعيد القوى الجسمية والروحية لا تضح الجواب عن السؤال.

المرأة - بطبيعة مسؤوليتها الحساسة في إنجاب الأبناء وتربيتهم - تتمتع بمقدار أوفر من العواطف والمشاعر، وهذا التفوق في المشاعر يستدعي أن ننيط بالرجل مجموعة الواجبات الاجتماعية التي تستلزم أكثر من غيرها قوة الفكر والابتعاد عن العواطف والأحاسيس الشخصية. لو أردنا إقامة العدالة لابد أن تلقى مسؤولية الحكومة والقضاء والإشراف على الأسرة على عاتق الرجل وأن تجعل الرجل في هذه الامور متفوقاً. وهذا لا يمنع طبعاً أن تنال بعض النساء بفضل التربية والعلم والتقوى تفوقاً أكثر من الرجل.

ولو أهملنا هذه المسألة وأردنا أن نساوي بين الجنسين في جميع الحقوق والواجبات، فإننا سنكون قد أهملنا القانون العام «الرجال قوامون على النساء» بل أكثر من ذلك نكون قد ألغينا العدالة التي قررها قوله تعالى «وهنَّ مثل الذي عليهن».

لأنَّ إحقاق الحقوق يستلزم أن يؤدي كلٌّ من الرجل والمرأة واجباته حسب كفاءته وقواه وغرائزه وتكوينه الجسمي. المرأة تساعد الرجل فيما لا يستطيع الرجل أدائه، والرجل يهب لمعاونة المرأة فيما لا تقوى المرأة عليه.

لمّا كان قانون الادارة يفرض أن ينضوي الأفراد العاطفيون تحت إدارة الأفراد ذوي القدرة الفكرية المتفوقة، فإنّ الإشراف على الاسرة يناط بالرجل والمرأة تنهض بدور المساعد في إدارة شؤون العائلة.

## وقفات

### قصة المرأة وحقوقها

عانت المرأة خلال العصور التاريخية المختلفة الواناً من الظلم والاضطهاد والتعسف ويشكّل هذا التاريخ المؤلم المر جزءاً هاماً من الدراسات الاجتماعية بشكل عامّ يمكن تقسيم تاريخ حياة المرأة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل التاريخ، وليس لنا معلومات صحيحة عن وضع المرأة في هذه المرحلة، ومن الممكن أن تكون قد تمتعت آنذاك بحقوقها الانسانية الطبيعية.

والمرحلة الثانية: مرحلة التاريخ، والمرأة كانت خلالها في كثير من المجتمعات شخصية غير مستقلة في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، واستمرّ هذا الوضع في قسم من المجتمعات حتى القرون الأخيرة.

هذا اللون من التفكير بشأن المرأة مشهود حتى في القانون المدني الفرنسي المشهور بتقدميته، على سبيل المثال نشير إلى بعض فقراته المتعلقة بالشؤون المالية للزوجين:

يستفاد من المادتين ٢١٥ و٢١٧ أنّ المرأة المتزوجة لا تستطيع بدون إذن زوجها وتوقيعه أن تؤدي أي عمل حقوقي، وتحتاج في كلّ معاملة إلى إذن الزوج. هذا إذا لم يرد الرجل أن يستغل قدرته وأن يمتنع عن الإذن دون مبرر.

وحسب المادة ١٢٤٢ يحقّ للرجل أن يتصرّف لوحده بالثروة المشتركة بين المرأة والرجل بأي شكل من الأشكال، ولا يلزمه استئذان المرأة بشرط أن يكون التصرف في إطار الإدارة، وإلاّ لزمّت موافقة المرأة وتوقيعها.

وأكثر من ذلك ورد في المادة ١٤٢٨: إنّ حقّ إدارة جميع الأموال الخاصة بالمرأة موكول إلى الرجل - على أنّ المعاملة الخارجة عن حدود الإدارة تتطلب موافقة المرأة وتوقيعها - . وفي أرض منبثق الرسالة الاسلامية - أي الحجاز - كانت المرأة تعامل معاملة الكائن المرتبط غير المستقل، وكانوا يستثمرونها بشكل فظيع قريب من حالة التوحش. وبلغ وضع المرأة من الانحطاط بحيث إن صاحبها كان يستفيد منها للارتزاق أحياناً، فيعرضها للابحار.



ما كان يعانيه هؤلاء من فقر حضاري وفقر مادي جعل منهم قساة لا يتورعون عن ارتكاب جرمة «الوَاد» بحق الأُنثى.

### المرحلة الجديدة في حياة المرأة

مع ظهور الاسلام وانتشار تعاليمه السامية، دخلت حياة المرأة مرحلة جديدة بعيدة كلّ البعد عما سبقها. في هذه المرحلة أصبحت المرأة مستقلة ومتمتعة بكلّ حقوقها الفردية والاجتماعية والانسانية.

تقوم تعاليم الاسلام بشأن المرأة على أساس الآيات التي ندرستها في هذا المبحث حيث يقول تعالى: «ولهنّ مثلُ الذي عليهنّ بالمعروف»، فالمرأة بموجب هذه الآية تتمتع بحقوق تعادل ما عليها من واجبات ثقيلة في المجتمع.

الاسلام اعتبر الرجل كالمراة كائناً ذا روح إنسانية كاملة، وذا إرادة واختيار، ويطوي طريقه على طريق تكامله الذي هو هدف الخلقة، ولذلك خاطب الرجل والمرأة معاً في بيان واحد حين قال: «يا أيها النّاس... ويا أيها الذين آمنوا». وضع لها منجماً تربوياً واخلاقياً وعلمياً ووعدها معاً بالسعادة الأبدية الكاملة في الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: «وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»<sup>١</sup>.

وأكد أنّ الجنسين قادران على انتهاج طريق الاسلام للوصول إلى الكمال المعنوي والمادي ولبلوغ الحياة الطيبة المفعمة بالطمأنينة، نظير ما جاء في قوله تعالى: «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُجِيبَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»<sup>٢</sup>. الاسلام يرى المرأة كالرجل إنساناً مستقلاً حراً، وهذا المفهوم جاء في مواضع عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: «كُلٌّ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً»<sup>٣</sup> و«مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَوَعَنْ أَسَاءِ فَعَلَيْهَا»<sup>٤</sup>.

هذه الحرية قرّرها الاسلام للمرأة والرجل، ولذلك فهما متساويان أمام قوانين الجزاء: «الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة»<sup>٥</sup>.

لما كان الاستقلال يستلزم الإرادة والاختيار، فقد قرّر الاسلام هذا الاستقلال في



جميع الحقوق الاقتصادية، وأباح للمرأة كلّ ألوان الممارسات المالية، وجعلها مالكة عائدها وأموالها، يقول سبحانه في سورة النساء: «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» .

كلمة «اكتساب» - خلافاً لكلمة «كسب» - لا تستعمل إلاّ فيما يستفيد الانسان لنفسه<sup>٢</sup>.

ولو أضفنا إلى هذا المفهوم القاعدة العامة القائلة: «الناس مسلطون على أموالهم» لفهمنا مدى الاحترام الذي أقرّه الاسلام للمرأة بمنحها الاستقلال الاقتصادي، ومدى التساوي الذي قرّره بين الجنسين في هذا المجال.

فالمرأة - في مفهوم الاسلام - ركن المجتمع الأساسي، ولا يجوز التعامل معها على أنها موجود تابع عديم الإرادة يحتاج إلى قيم.

### المفهوم الصحيح للمساواة

وهنا ينبغي الالتفات إلى مسألة الاختلافات الروحية والجسمية بين المرأة والرجل، وهي مسألة التفت إليها الاسلام بشكل خاصّ وأنكرها بعضهم منطلقين من تطرف في أحاسيسهم.

إن أنكرنا كلّ شيء فلا نستطيع أن ننكر الاختلافات الصارخة بين الجنسين في الناحية الجسمية والناحية الروحية، وهذه مسألة تناولتها تأليفات مستقلة ملخصها: إن المرأة قاعدة انبثاق الانسان، وفي أحضانها يتربى الجيل ويتعرع، وهي لذلك خلقت لتكون مؤهلة جسمياً لتربية الأجيال، كما أنّ لها من الناحية الروحية سهماً أوفى من العواطف والمشاعر.

وهل يمكن مع هذا الاختلاف الكبير أن ندعي تساوي الجنسين في جميع الأعمال واشتراكها المتساوي في كلّ الامور؟!!

أليست العدالة أن يؤدي كلّ كائن واجبه مستفيداً من مواهبه وكفاءاته الخاصة؟!  
أليس خلافاً للعدالة أن تقوم المرأة بأعمال لا تتناسب مع تكوينها الجسمي

١ - النساء: ٣٢

٢ - راجع مفردات الراغب، هذا طبعاً حين تتقابل كلمتي: كسب واكتساب.

والروحي؟!

من هنا نرى الاسلام - مع تأكيده على العدالة - يجعل الرجل مقدماً في بعض الأمور مثل الإشراف على الأسرة... ويدع للمرأة مكانه المساعد فيها.

العائلة والمجتمع يحتاج كلّ منها إلى مدير، ومسألة الادارة في آخر مراحلها يجب أن تنتهي بشخص واحد، وإلاّ ساد الهرج والمرج.

فهل من الأفضل أن يتولّى هذه المسؤولية المرأة أم الرجل؟ كلّ المحاسبات البعيدة عن التعصّب تقول: إنّ الوضع التكويني للرجل يفرض أن تكون مسؤولية إدارة الأسرة بيد الرجل، والمرأة تعاونه.

مع إصرار المصّرّين، ولجّاج المتعصّبين، على إنكار الواقع، فإنّ وضع الحياة الواقعية في عالمنا المعاصر وحتى في البلدان التي منحت المرأة الحرّية والمساواة بالشكل الكامل - على زعمهم - يدلّ على أنّ المسألة على الصعيد العملي هي كما ذكرناه وإن كانت المزايم خلاف ذلك.

\*\*\*

## الآية

٢٢٩ - «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

## التفسير

ذكرنا في تفسير الآية السابقة أنَّ الاسلام قرَّر قانون «العدَّة» و«الرجوع» لإصلاح وضع الأسرة ومنع تشتتها وتمزقها، لكن بعض حديثي العهد بالاسلام استغلُّوا هذا القانون كما كانوا عليه في الجاهلية، وعمدوا إلى التضييق على الزوجة بتطليقها المرَّة بعد الأخرى والرجوع إليها قبل انتهاء العدَّة، وهذه الوسيلة ضيقوا الخناق على النساء.

هذه الآية تحول دون هذا السلوك المنحط، وتقرِّر أنَّ الطلاق والرجوع يصحَّان لمَرَّتَيْنِ، أما إذا تكرر الطلاق للمرَّة الثالثة فلا رجوع، والطلاق الأخير هو الثالث، المقصود بعبارة «الطلاق مرَّتَانِ» هو أنَّ الطلاق الذي يمكن أن يتلوه رجوع مرَّتَانِ، والطلاق الثالث لا رجوع بعده.

سياق الآية يدلُّ على أنَّ: «الإمساك» يعني المحافظة، و«التسريح» يعني إطلاق السراح حينما يحدث بين الزوجين نزاع يؤدي إلى طلاق وبعدها عودتان، فإنَّ على الرجل أن يتخذ قراره النهائي بعد عودته الثانية.

فإن استطاع أن يعيش مع زوجته بمحبَّة ولطف ويستعيد ماتبدد من العواطف الزوجية، وإلَّا طلقها ولا يستطيع الرجوع إليها إلَّا بشروط تذكرها الآية التالية. حسب هذا التفسير «التسريح بإحسان» يعني الطلاق الثالث.

وفي هذه العبارة ملاحظتان

١ - كما أنَّ الرجوع إلى الزوجة مقيد بالمعروف أي مقيد بالمعايشة القائمة على أساس



الحب والصفاء كذلك الافتراق مقيد بالإحسان أيضاً، أي أن يكون بمغزل عن كل ما يكره كالانتقام والغضب والحقد. ويمكن القول أنّ عبارة: «لا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئاً» توضيح لقيّد الاحسان.

٢ - عبارة «الطلاق مرتان» يستفاد منها أنّ الطلاقين أو الثلاثة لا تتمّ في مجلس واحد، بل يجب أن تقع في مجالس متعدّدة. خاصّة لو علمنا أن تعدّد الطلاق يستهدف إتاحة الفرصة للرجوع فلعلّ النزاع الأوّل يتبعه صلح وصفاء.

فإن لم يتحقّق الصلح والوثام في المرحلة الأولى، فقد يتحقّق في المرّة الثانية، لكن وقوع عدّة طلاقات في مرّة واحدة يسدّ هذا الطريق ويفصل بين الزوجين نهائياً، ولا يعود لتعدّد الطلاق تأثير.

هذا الحكم مجمع عليه عند الشيعة، لكنه موضع خلاف عند أهل السنّة وإن كان أغلبهم يذهب إلى صحّة وقوع ثلاثة طلاقات في مجلس واحد.

صاحب المنار يستند إلى صحيح مسلم ومسند ابن حنبل ويذهب إلى أنّ المسلمين كانوا في زمن رسول الله وخلال عامين من خلافة عمر يعتبرون الطلاقات الثلاثة في مجلس واحد طلاقاً واحداً. ثمّ حكم الخليفة الثاني بوقوع الطلاقات الثلاثة في مجلس واحد.

### شيخ الأزهر يأخذ برأي الشيعة

مع حكم الخليفة الثاني بوقوع الطلاقات الثلاثة في مجلس واحد، ذهب جماعة من علماء السنّة إلى عدم وقوعها، ومنهم شيخ الأزهر الأكبر الشيخ محمود شلتوت الذي تحدّث عن نشاطه العلمي في المقارنة بين آراء المذاهب وإلى تبيته رأي الشيعة في بعض المجالات لأنّها أقوى، ومن ذلك مسألة تعدّد الطلاق، وأفتى - رحمه الله - بأنّ الطلاقات الثلاثة في مجلس واحد هي بمثابة الطلاق الواحد<sup>١</sup>.

«ولا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئاً»

العبارة السابقة من الآية ذكرت أنّ الافتراق ينبغي أن يكون على أساس الاحسان، وهذه الفقرة - ضمن بيانها حكماً مستقلاً - تعتبر أيضاً توضيحاً للعبارة السابقة، وتبني جانباً

من جوانب التسريح بإحسان .

وهو: عدم جواز استعادة ما أعطاه الرجل للمرأة من مهر عند الافتراق، هذا الحكم شرحته الآيتان ٢٠ و ٢١ من سورة النساء:

«إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُمْسِكَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ»  
في حالة واحدة تجوز استعادة المهر، وهي عند رغبة المرأة نفسها بالطلاق، فإن دفعت روح الحقد للمرأة إلى عدم القدرة على حفظ الحدود الإلهية عند ذلك تستطيع أن تدفع مهرها للرجل عوضاً عن أخذ طلاقها منه<sup>١</sup>.

«تلك حدودُ الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدودَ الله فأولئك هم الظالمون»  
«تلك» إشارة إلى الأحكام المذكورة في الفقرات السابقة، وهي مجموعة التعاليم الاجتماعية والأخلاقية والفقهية التي قررها الله سبحانه لحفظ العلاقات الاجتماعية.  
وتحذّر الآية هنا من تعدي الحدود الإلهية بسبب الميول المتطرّفة غير المشروعة، وتؤكد على أن مثل هذا التعدي ظلم «فأولئك هم الظالمون».

ولن يتوجّه ظلم هؤلاء؟ لم تذكر الآية هنا بصراحة، لكن الآية الأولى من سورة الطلاق بيّنت ذلك وقالت: «ومن يتعدّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه».

وصدق سبحانه، فضرر تعدي حدود الله يتوجّه إلى المتعدين أنفسهم بالدرجة الأولى، فحقوق هؤلاء يجب أن تحفظ في ظلّ هذا القانون، فإن تعدّوه وتجاوزوا حدوده فستغمت هذه الحقوق، وسيشمل هذا الغمط بالدرجة الأولى أولئك السباقيين إلى تعدي الحدود.

وقفه

الحدود الإلهية

في هذه الآية وآيات كثيرة أُخرى عبّرت عن القوانين الإلهية بكلمة «حد» وهذا فإن مخالفة هذه القوانين تعدّ للحد. بين الأعمال التي يؤديها الإنسان توجد في الحقيقة مجموعة

مناطق ممنوعة، الدخول فيها خطر جداً، القوانين والأحكام الإلهية تشخص هذه المناطق الممنوعة، وهي مثل علامات تنتصب على مثل هذه المناطق. ولذلك ورد النهي عن الاقتراب من هذه الحدود «تلك حدود الله فلا تقربوها»<sup>١</sup> لأنَّ الاقتراب منها يعرض الانسان إلى خطر السقوط في الهاوية. وفي روايات أهل البيت عليهم السلام ورد النهي في مواضع الشبهة - لأنه بحكم الاقتراب من شفا الهاوية والاقتراب قد يستتبعه السقوط لأدنى غفلة.

\*\*\*



٢٣٠ - «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» .

### النزول

جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالت: كنت عند ابن عمي (رفاعة) فطلقني ثلاثاً، فتزوجت بعده عبدالرحمن بن الزبير، ولكنه أيضاً طلقني قبل أن يمسي، فهل لي أن أعود إلى زوجي الأول؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا، حتى يذوق عسيلتك، وتذوق عسيلته» أي حتى يتم النكاح مع الزوج الثاني.

### التفسير

جاء في الآية السابقة إجمالاً أنّ للمرأة وللرجل بعد الطلاق الثاني إما أن يتصالحا ويرجعا إلى الحياة الزوجية، وإما أن ينفصلا انفصلاً نهائياً. هذه الآية حكها حكم الفقرة التابعة لمادة قانونية. فهذه الآية تقول إن حكم الانفصال حكم دائم، إلا إذا اتخذت المرأة زوجاً آخر، وطلّقتها بعد الدخول بها، فعندئذٍ لها أن ترجع إلى زوجها الأول إذا رأيا أنها قادران على أن يعيشا معاً ضمن حدود الله.

إضافة إلى ما روي عن أئمة الاسلام بشأن وجوب أن يكون هذا الزواج دائماً وموجب عقد، وأن يتبع ذلك الاتصال الجنسي، فإنّ هذين الشرطين يتبينان في الآية نفسها أيضاً، فلفظة النكاح تدلّ أيضاً على الاتصال الجنسي كما تدلّ على عقد الزواج، حسبما أشير إلى ذلك في سبب النزول أيضاً.

كما أنّ الشرط الثاني، وهو أن يكون الزواج دائماً يستفاد من قوله «فإن طلقها» لأنّ

## الزواج الموقت لا يتطلب طلاقاً.

### المحلل أو العائق

على الرغم من أنّ بعض المغرضين يتخذون من «المحلل» ذريعة لاستغلال جهل بعض الجهلة ومشاعرهم لشنّ حملاتهم الظالمة على الاسلام فإنه بتمحيص تعاليم الطلاق وتفهم فلسفته يمكن إدراك حقيقة الدور العجيب الذي يؤديه هذا القانون. سبق أن قلنا في تفسير آيات سابقة أنّ الطلاق كالزواج، يعتبر في ظروف خاصة أمراً حياتياً ولازماً، ولهذا أجازته الاسلام. ولكن بما أنه يؤدي إلى تشتيت العائلة وإلى إنزال ضربات موجعة بالفرد والمجتمع، فقد وضعت شروط متنوعة للحيلولة دون وقوع الطلاق قدر الامكان.

إنّ موضوع الزواج المجدّد أو «المحلل» واحد من تلك الشروط، إذ أنّ زواج المرأة من رجل جديد بعد التطلاق من زواجها الأول ثلاثاً يعتبر عائقاً كبيراً بوجه استمرار الطلاق أو التماذي فيه. فالذي يريد أن يطلق زوجته الطلاق الثالث، يشعر أنه إن فعل ذلك فلن تعود إليه وتكون من نصيب غيره، وهذا الشعور يجرح كرامته، ولذلك فهو لن يقدم على هذا العمل عادة إلاً مضطراً.

في الحقيقة أنّ قضية «المحلل» أو الأصح زواج المرأة برجل آخر زواجاً دائماً يعتبر مانعاً يقف بوجه الرجال من ذوي الأهواء المتقلّبة والمتحادين لكي لا يجعلوا من النساء الأعيب بين أيديهم وغرضاً لخدمة أهوائهم، وأن لا يمارسوا - بلا حدود - قانون الطلاق والعودة.

إنّ شروط هذا الزواج كأن يكون دائماً، تدلّ على أنّ هذا الزواج ليس هدفه إيجاد وسيلة لإيصال الزوجة إلى زوجها الأول، لذلك فلا يمكن استغلال هذا القانون ورفع العائق عن طريق زواج مؤقت.

إنّ الحديث الذي يذكره بعض المفسرين بهذا الشأن يلقي الكثير من الضوء على هذا الموضوع. جاء في هذا الحديث: «لعن الله المحلل والمحلل له»<sup>١</sup> أي ملعون كلّ من يتوسل بهذه الطريقة المنحرفة للجمع بين زوجين مطلقين، محللاً كان أم محللاً له.

وعليه فإنّ الهدف من هذا الزواج هو الفصل بين زوجين بعد الطلاق ثلاث مرّات لكي يتمكن كلّ منهما أن يبدأ حياة جديدة مناسبة، ولكي لا يصبح الزواج - هذا الرباط المقدّس - مدعاة للتلاعب وفق أهواء الزواج الأول ومشتهياته.

بديهي أنّ الاسلام الذي يحترم دائماً المطالب المعقولة، ولا يهمل أي وسيلة للإصلاح، يقول: في حالة إخفاق هذا الزواج أيضاً وعودة العلاقات ثانية بين الزوجين السابقين، واتخاذهما قراراً جاداً على تحقيق حياة زوجية سليمة، فليس ثمة ما يمنع رجوع بعضهما إلى بعض. ولما كان هذا الزواج يرفع حكم الحرمة، فقد اتخذ اسم «المحلّل».

يتضح من هذا أنّ الاسلام لا يتناول قضية باسم «المحلّل» في أحكامه وتشريعاته، إنّما الكلام يدور حول زواج جديد. وهذا يتبيّن بجلاء من الأحاديث الواردة بهذا الخصوص فضلاً عما ورد في الآية نفسها.

وبمزيد من التمعّن ندرك أنّ البحث يخصّ الزواج الواقعي الجاد. أمّا إذا قصد شخص منذ البداية أن يتوسّل بزواج مؤقت، واعتبر القضية مجرد شكليات يحلّها «المحلّل»، فإنّ زواجاً هذا شأنه لا يؤخذ به ويكون باطلاً كما أنّ المرأة لا تحلّ لزوجها الأول. ولعلّ الحديث المذكور «لعن الله المحلّل والمحلّل له» يشير إلى هذا النوع من المحلّلين.



## الآية

٢٣١ - «وَإِذَا ظَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيَعْظَمَكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

## التفسير

تستمر هذه الآية في تبيان الأحكام التي أقرها الاسلام للطلاق، لكي لا تهمل حقوق المرأة وحرمتها.

تقول الآية: مادامت العدة لم تنته، وحتى في آخر يوم من أيامها، للرجل أن يصالح زوجته ويعيدها إليه في حياة زوجية حميمة: «فأمسكوهن بمعروف» وإذا لم تتحسن الظروف بينها فيطلق سراحها «أوسرّوهن: بمعروف» ولكن كل رجوع أو تسريح يجب أن يكون في جو من الإحسان والمعروف وأن لا يخالطه شيء من روح الانتقام.

«ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه»

هذا تفسير لكلمة «معروف» أي أنّ الرجوع يجب أن يكون على أساس من الصفاء والوثام، وذلك لأنّ الجاهليين كانوا يتخذون من الطلاق والرجوع وسيلة للانتقام، ولهذا يقول القرآن بلهجة قاطعة إنّ استرجاع الزوجة يجب أن لا يكون رغبة في الايذاء والاعتداء، إذ أنّ ذلك - فضلاً عن كونه ظلماً للزوجة - ظلم بحقّ الزوج نفسه أيضاً.

والآن علينا أن نعرف لماذا يكون ظلم الزوج زوجته ظلماً لنفسه أيضاً؟

أولاً: إنّ الرجوع المبني على غمط الحقوق لا يمكن أن يمنح الهدوء والاستقرار.

ثانياً: الرجل والمرأة - بالنظرة القرآنية - جزءان من جسد واحد في نظام الحلقة، فكلّ

غمط لحقوق المرأة هو ظلم وعدوان على الرجل نفسه.

ثالثاً: إنّ من يستسيغ ظلم الآخرين، إنّما يكون متوجّهاً لنيل العقاب الإلهي، فيكون بذلك قد ظلم نفسه.

لا تهنأوا بأحكام الله

«ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا...»

«الهنؤ» و«الهنؤ» بمعنى السخرية والاستهزاء.

بعض الناس يرتكبون الآف المعاصي، ولكنهم لكي يخلصوا أنفسهم من تأنيب ضمائرهم، وللتهرب - كما يتوهمون - من عذاب الله، يتوسلون بالحيل الشرعية، فيتخذون من ظواهر الأحكام والآيات ذرائع يتوسلون بها.

يرى القرآن في هذا لوناً من الاستهزاء بالآيات والأحكام والتعاليم الإلهية. ومن المؤسف أن نجد هذه النظرة المنحرفة يحملها الكثيرون نحو بعض الأحكام، ومنها أحكام الطلاق نفسها. فحق الرجوع - كما سبق قوله - محفوظ للرجل لكي تستمر الحياة الزوجية على أسس متينة.

ولكن هناك من يعمل على النقيض من ذلك تماماً، أي أنهم يستغلون حقهم في الرجوع للانتقام من المرأة وايدائها، فيخفون وجوههم الظالمة تحت ستار العمل بالقانون.

وما هذا إلا استهزاء بالقرآن وبقوانينه، لذلك تقول الآية: «ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به».

إنّ الدين وبمجموعة قوانينه تنبع من نظام هذا العالم الثابت وتقوم على أساس ماتتطلب مصالح الانسان الواقعية.

وعليه ينبغي عدم إغفال المصلحة العامة بالتمسك بتمسكاً جافاً بظواهر بعض الأحكام واستخدامها لاصطناع قوالب مية تعرض مصالحكم للخطر، وتعتبر في الوقت نفسه استهزاء بتعاليم الله: «وآتوا الله وأعلموا أنّ الله بكلّ شيء عليم» فامتنعوا عن استغلال الأحكام الإلهية ولا تغمطوا حقوق المرأة، ولا يكون هذا إلا بتقوى الله الذي هو بكلّ شيء عليم.

## الآية

٢٣٢ - «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

## النزول

كان أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو «معقل بن يسار» يعارض زواج أخته «جملاء» من زوجها الأول «عاصم بن عدي» لأنَّ عاصماً كان قد طلقها من قبل، ولكن بعد انقضاء العدة رغب الزوجان بالعودة بعقد نكاح جديد. فنزلت الآية تنهاه عن معارضة هذا الزواج.

وقيل إنَّ الآية نزلت في معارضة «حابر بن عبدالله» زواج ابنة عمه من زوجها السابق.

وربما كان حقّ المنع هذا يعطى في الجاهلية للأقربين. لاشكَّ أنَّ الأخ وابن العم لا ولاية لهما - في فقهما - على الأخت وابنة العم. إلاَّ أنَّ هذه الآية تتحدّث عن حكم عام - كما سنرى - يشمل الأولياء وغير الأولياء، وتقول أنه حتّى الأب والأم وابن العم، وكذلك الغرباء لا حقّ لهم في الوقوف بوجه هذا الزواج.

## التفسير

ذكرنا في البحوث السابقة كيف كانت النسوة يعشن في أسر العادات الجاهلية، وكيف كنّ تحت سيطرة الرجال دون أن يعنى أحد برغبتهنَّ ورأيهنَّ. واختيار الزوج كان واحداً من قيود ذلك الأسر، إذ أنَّ رغبة المرأة وإرادتها لم يكن لها أيّ تأثير في الأمر. فحتّى التي كانت تتزوج زواجاً رسمياً ثم تطلق لم يكن لها حقّ الرجوع ثانية بمحض إرادتها بل كان ذلك منوطاً برغبة وليّها أو أوليائها، كانت ثمة حالات يرغب



فيها الزوجان بالعودة إلى الحياة الزوجية بينهما، ولكن أولياء المرأة كانوا يحولون دون ذلك تبعاً لمصالحهم أو لتخيلاتهم وأوهامهم.

إلّا أنّ القرآن أذان هذه العادة ورفض أن يكون للأولياء أو لأي فرد آخر مثل هذا الحق، إذ أنّ الزوجين - وهما ركنا الزواج الأصليان، إذا توّصلا إلى اتفاق بالعودة بعد الانفصال - يستطيعان ذلك دون أن يكون لأحد حق الاعتراض عليها.

في الآية السابقة «بلوغ الأجل» يعني بلوغ أواخر أيام العدة، ولكن في هذه الآية المقصود هو انقضاء آخر يوم من العدة، بقرينة الزواج المجدّد. فالغاية في الآية السابقة جزء من المغيا - كما في المصطلح - وفي هذه الآية خارجه عن المغيا.

يتبيّن من هذه الآية أنّ الثيبات أي اللواتي سبق لهنّ الزواج ثم طلقن أو مات أزواجهن إذا شئن الزواج ثانية فلا يلزمهنّ موافقة أوليائهنّ أبداً، بل أنّ معارضتهنّ لا أثر لها إطلاقاً، ولكن ما حكم زواج البكر، أيتطلب موافقة وليّ أمرها؟ هذه الآية لا تشير بشيء إلى هذا، وفي الكتب الفقهية شرح ذلك.

والقسم الأخير من الآية يبيّن أنّ هذه الأحكام التي جاءت لمصلحتكم إنّما يلتزمها الذي يؤمن بالخالق ويوم القيامة. فمن لا يخلّص نفسه من عبادة الذات تحت ظلّ عبادة الله لا يستطيع أن يسيطر على أهوائه ويتعد عن الانحرافات.

«ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون»

تشير الآية إلى أنّ تنفيذ هذه الأحكام إنّما هو لمصلحتكم أنتم، ولكتكم قد لا تدركون فلسفة ذلك لجهلكم وضعف معارفكم، والله هو العالم بكلّ الأسرار، ولذلك فقد أنزل هذه الأحكام التي تحفظ لكم طهارتكم وطهارة الأسرة، يلاحظ أنّ القرآن يعتبر العمل بهذه الأحكام «تركياً» و«طهاراً» «أزكى لكم وأطهر». أنّ العمل بها يطهر أفراد العائلة من مختلف الأدناس والخبائث التي قد يتلوّثون بها بسبب ما يرتكبونه من المعاصي. كما أنه ينميهم ويوصلهم إلى التكامل والخير والبركة. وذلك لأنّ المعنى اللغوي للتركية مشتق من معنى النمو.

## الآية

٢٣٣ - «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

## التفسير

الوالدة في اللغة هي الأم، ولكن كلمة «الأم» أوسع معنى، فهي قد تطلق على والدة وعلى والدة والدة وقد تعني أصل الشيء وأساسه.

في هذه الآية أحكام مختلفة بشأن الرضاعة وحقوق الأم والطفل والأب، فهناك على العموم سبعة أحكام في هذا الباب.

### أحكام الرضاعة السبعة

١ - حق الإرضاع خلال سنتي الرضاعة يعود للأم، فهي التي لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدة وأن تعني به، وعلى الرغم من أن (الولاية) على الأطفال الصغار قد أعطيت للأب ولكن لما كانت تغذية الوليد الجسمية والروحية خلال هذه المدة ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بلبن الأم وعواطفها، فقد أعطيت حق الاحتفاظ به ورعايته.

كما تجب مراعات عواطف الأمومة لأن الأم لا تستطيع في هذه اللحظات الحساسة أن ترى حضنها خالياً من وليدها وأن لا تباي به، وعليه فإن تخصيصها بحق الحضانه والرعاية والرضاعة يعتبر حقاً ذا جانبين، فهو يرضى حال الطفل كما يرضى حال الأم.

### «والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين»

٢ - ليس من الضروري أن تكون مدة رضاعة الطفل سنتين حتماً، إنّما السنتان لمن يريد أن يقضي دورة رضاعة كاملة «لمن أراد أن يتمّ الرضاعة»، ولكنّ للأمّ أن تقلّل من هذه الفترة حسب مقتضيات صحّة الطفل وسلامته.

في الروايات التي وصلتنا من أهل البيت عليهم السلام أنّ دورة رضاعة الطفل الكاملة سنتان كاملتان، ودورتها غير الكاملة ٢١ شهراً، ولعلّ هذا يأخذ أيضاً بنظر الاعتبار مفاد هذه الآية مع الآية ١٥ من سورة الأحقاف التي تقول «وحملُهُ وفصالُهُ ثلاثون شهراً». ولما كانت فترة الحمل ٩ أشهر فتكون فترة الرضاعة الاعتيادية ٢١ شهراً. ولما لم يكن في آية سورة الأحقاف ما يفيد الإلزام والوجوب، فإنّ للوالدات الحقّ في تخفيض فترة الـ ٢١ شهراً بما يتفق وصحّة الوليد وسلامته.

٣ - نفقة الأمّ للطعام واللباس، حتّى عند الطلاق أثناء فترة الرضاعة تكون على والد الطفل، لكي تتمكن الأمّ من الانصراف إلى العناية بطفلها وإرضاعه مرتاحة البال وبدون قلق.

### «وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ»

هنا تعبير «المولود له» بدلاً من «الأب» يستلقت الانتباه، ولعلّه جاء لاستشارة عواطف الأبوة فيه في سبيل حثّه على أداء واجبه. أي أنّه إذا كان قد وضع على عاتقه الإنفاق على الوليد وأمه خلال هذه الفترة، فذلك لأنّ الطفل ابنه وثمره فؤاده، وليس غريباً عنه.

إنّ الإتيان بقيد «المعروف» يشير إلى أنّ طعام الأمّ ولباسها ينبغي أن يكونا من اللائق بها والمتعارف عليه، فلا يجوز التقثير ولا الإسراف. ولرفع كلّ غموض محتمل تشير الآية إلى أنّ على كلّ أب أن يؤدّي واجبه على قدر طاقته «لا تكلف نفس إلاّ وسعها».

٤ - لا يحقّ لأبّي من الوالدين أن يجعلوا من مستقبل وليدهما ومصيره أمراً مرتبطاً بما قد يكون بينها من اختلافات فيكون من أثر ذلك أن تصاب نفسية الوليد بضربة لا يمكن تفادي آثارها.



### «لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده»

على الأب أن يحذر انتزاع الوليد من أحضان أمّه خلال فترة الرضاعة فيعتدي بذلك على حقّ الأمّ في حضانه وليدها. كما أنّ على الأمّ التي أعطيت هذا الحقّ أن لا تستغله وأن لا تتدّرع بمختلف الأعذار الموهومة للتّصلّ من إرضاع وليدها، أو أن تحرم الأب من رؤية طفله. هنالك تفاسير أخرى لمعنى هذه الآية، ولكن الذي قلناه أكثر انسجاماً مع ما سبق ذكره.

٥ - وعند موت الأب يقوم ورثته بالتعهد بالقيام بذلك الواجب وبسدّ حاجات الأمّ مادامت ترضع الطفل: «وعلى الوارث مثل ذلك».

٦ - فطام الطفل عن الرضاعة يعود للأبوين على الرغْم ممّا جاء في آيات سابقة من تحديد فترة الرضاعة إلّا أنّ للأبوين أن يفظما الطفل وقتما يشاءان حسبما تقتضيه صحته وسلامته الجسمية «فإن أرادا فصلاً عن تراضٍ منها وتشاورٍ فلا جناح عليهما».

وعلى الرغْم من أنّ الأمّ ليست مجبرة على إرضاع طفلها، ولها أن تمتنع عن إرضاعه حينما تشاء فإنّ من الخير للطفل ونفوه أن تتنازل الأمّ عن بعض رغباتها وأن تتفق مع والده فيما يضمن مصلحة الوليد على أساس من التراض والتشاور، كما جاء في الآية.

٧ - لا يمكن بأيّ حال من الأحوال سلب الأمّ حقّ حضانه وليدها وإرضاعه إلّا إذا رفضت الأمّ ذلك أو أن يمنعه من ذلك مانع «وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف»، أي لكم أن تعهدوا حضانه المولود وإرضاعه إلى المرضعات كلياً أو جزئياً كعون للأمّ.

إنّ معنى «إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف» هو أنّه لا مانع من اختيار امرأة أخرى مكان الأمّ لارضاع الطفل، بعد تراض الأبوين والتشاور بينهما، على شرط أن لا يغمط هذا حقوق الأمّ بالنسبة للمدة التي أرضعته فيه، بل يجب تسديد ما لها من حقّ في ذلك حسب ما تقتضيه الأعراف والعادات.

### «واتقوا الله واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير»

بما أنّ الاختلافات التي تحصل بين الزوج والزوجة قد تؤدّي إلى ايقاد روح الانتقام فيها بما يعرض مستقبلها ومستقبل الطفل إلى الخطر، كأن يتربّص أحدهما بالآخر شراً، فلذلك أوصت هذه الفقرة من الآية بالتقوى واكدت أنّ الله بصير بكل ما يعلمه الانسان.

## الآية

٢٣٤ - «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

## التفسير

خرافات تبعث على تعاسة المرأة

إن واحدة من المشاكل الرئيسية في حياة المرأة هي الزواج بعد موت زوجها. ولما كان بناء الأرملة بزواج جديد بعد موت زوجها السابق مباشرة لا ينسجم مع ماتكته من حب واحترام لزوجها المتوفى، ولا مع الاطمئنان إلى عدم وجود حمل في رحمها منه، وقد يؤدي إلى جرح مشاعر أهل زوجها الأول، فقد جاءت الآية تشترط للزواج الجديد أن يمر على موت زوجها السابق أربعة أشهر وعشرة أيام.

إن احترام الحياة الزوجية بعد موت أحد الزوجين أمر فطري، بحيث نجد في مختلف القبائل تقاليداً وطقوساً خاصة بهذا الموضوع على الرغم من أن بعض هذه العادات كانت تبلغ حد الإفراط الذي يقيد المرأة بقيود ثقيلة تبلغ حد القضاء على حياتها احتراماً لذكرى زوجها الراحل. من ذلك قيام بعض القبائل بحرق المرأة بعد موت زوجها أو بدفنها حية معه في قبره. وبعض آخر كانوا يجرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، وفي بعض القبائل كان على المرأة أن تقضي بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمة سوداء قدرة وفي ملابس رثة بعيدة عن كل نظافة أو زينة أو حلي أو اغتسال.

إلا أن الآية المذكورة تلغي كل هذه الخرافات، ولكتتها تحافظ على احترام الحياة الزوجية بإقرار العدة.

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»  
«التوفّي» هو الأخذ والاستيفاء، و«يذر» بمعنى يترك، ولا ماضي لها. فتقول الآية

إِنَّ التي يتوفى عنها زوجها عليها أن تصبر أربعة أشهر وعشرة أيام فلا تتزوج قبل مضي هذه المدة.

وحسب ما وصلنا من أئمة المسلمين فإن على الأراامل خلال هذه الفترة أن محافظن على مظاهر الحزن، أي ليس هن أن يتزينّ مطلقاً فيبقين مجردات من كل زينة. ولا شك أن فلسفة المحافظة على هذه العدة توجب ذلك أيضاً. لقد حرّر الاسلام المرأة من الخرافات الجاهلية واقتصر على هذه العدة القصيرة، بحيث ظن بعضهم أن لها أن تتزوج حتى خلال هذه الفترة من اللواتي كنّ يعتقدن ذلك امرأة قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تستجيزه أن تكتحل وهي في العدة. فنهاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذكرها بما كان يفرض على المرأة خلال سنة كاملة بعد الوفاة من حداد شديد وإرهاق فظيع، مشيراً إلى سماحة الإسلام في هذا الأمر.

وأنه لما يلفت النظر أن الأحكام الاسلامية بشأن العدة تأمر المرأة بالتزام العدة حتى وإن لم يكن هناك أي احتمال بأن تكون حاملاً. كما أن عدتها لا تبدأ بتاريخ موت زوجها بل بتاريخ وصول خبر موت زوجها إليها، وإن يكن بعد شهر. وهذا يدلّ دلالة قاطعة على أن الهدف من هذا التشريع هو الحفاظ على احترام الحياة الزوجية وحرمتها، إضافة إلى ما لهذا التشريع من أهمية بالنسبة لاحتمال حمل المرأة.

«فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فلا جُنَاحَ عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف»

بلوغ الأجل يعني انتهاء المدة، هذا الجزء من الآية يوضح أن المرأة بعد انتهاء هذه المدة يمكنها أن تتزوج من تشاء.

ولما كان بعض أوليائهن يحول دون انعقاد الزواج الثاني - ضمن إطار الخرافات والتوهّمات - تخاطبهم الآية بقولها: «فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف»، أي إنكم بعد هذا لا تتحملون أية مسؤولية، فاتركوهن يقمن حياة زوجية جديدة على أساس سليم، ولا تتدخلوا تدخلاً لا موجب له في شؤون بناتكم «والله بما تعملون خبير» وكلّ سينال جزاء عمله إن خيراً وإن شراً.

\*\*\*



## الآية

٢٣٥ - «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرُضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ».

## التفسير

أيجوز أن نخطب امرأة ما تزال في العدة؟

من أجل الحفاظ على حرمة الزواج السابق ولكي لا تحرم المرأة في الوقت نفسه من تأمين مستقبلها، جاءت هذه الآية بتشريع رائع يجمع بين الأمرين فأباح خطبة المرأة وهي في عدتها، ولكن على أن يجري الكلام في السر وبأسلوب الكناية، لا بصورة علنية وصرحة «لا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء» ثم تضيف أن العزم على الزواج يكون بعد انقضاء العدة وبغير إظهاره لا علانية تماماً ولا سرّاً تماماً «أو أكتنتم في أنفسكم».

«عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذَكُرُونَهُنَّ»

هذا المقطع من الآية يوضح أنه من الطبيعي أن يرغب بعض الرجال بالزواج من النساء اللاتي يفقدون أزواجهن. ولما كان الإسلام لا يعارض أمراً طبيعياً ومعقولاً، فهو لا يعتبر رغبتكم هذه معصية.

«ولكن لا تواعدوهن سرّاً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً»

وهنا تذكر الآية أنه فضلاً عن النهي عن الخطبة العلنية، فإنه لا يجوز كذلك أن تصارحوهن بالخطبة سرّاً أيضاً، إلا إذا كان الكلام بهذا الشأن يتفق مع الآداب الاجتماعية

وموت الزوج، أي أن يكون الكلام بشكل معروف أي أن يكون بالكناية وبالحفاء.  
يضرب أئمة الاسلام في تفسير هذه الآية بشأن الخطبة الخفية أو القول المعروف كما  
يقول القرآن أمثلة عديدة، من ذلك عن الامام الصادق عليه السلام قال: «يلقاها فيقول:  
إني فيك لراغب، وإني للنساء لمكرم، فلا تسبقيني بنفسك»<sup>١</sup>.

«ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله»

هنا يقول القرآن صراحة أنه لا يجوز إجراء عقد الزواج قبل انتهاء مدة العدة،  
ويضيف إلى ذلك مباشرة قوله: «واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه». ولكن بالنظر  
إلى أن بعض العباد يرتكبون أحياناً معصية فهؤلاء ينبغي أن لا ييأسوا من رحمة الله، فهو يغفر  
لهم ولا يستعجل في معاقبتهم:

«واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفورٌ حلِيمٌ».

\*\*\*

## الآية

٢٣٦ - «لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرُبُوهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ».

## التفسير

«المس» بمعنى اللمس ويكتفى بها عن النكاح، في هذه الآية نقطتان:

١ - كان بعض يظن أن الطلاق قبل الدخول بالزوجة، أو قبل تعيين المهر، باطل. ولكن القرآن هنا يقول إنه صحيح ولا مانع فيه «لا جناح عليكم إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرُبُوهُنَّ فَرِيضَةً».

وهذا يكون بالطبع عندما يدرك الطرفان - بعد إجراء العقد وقبل المضاجعة - أنها لسبب من الأسباب غير قادرين على العيش معاً فينفصلان عن بعضهما بالطلاق. ٢ - إذا جرى الطلاق قبل المضاجعة وقبل تعيين المهر، فيجب أن تمنح المرأة هدية تناسب شؤونها «ومتَّعُوهُنَّ».

أما إذا كان المهر قد تعيّن قبل الطلاق، فإنّ حكم ذلك سيأتي في الآية التالية. لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ «أو» في الآية تعني «و».

وبديهي أنّ أهمية الهدية تتناسب مع قدرة الزوج المالية «على الموسع قَدْرُهُ وعلى المُقْتِرِ قَدْرُهُ»<sup>١</sup>. فيكون معنى الآية أنّ على الموسر أن يقدم هدية تناسب ثراه، وعلى الفقير أن يقدم ما يناسب مقدرته.

«متاعاً بالمعروف» أي أنّ الهدية يجب أن تقدّم بطريقة لائقة، وتكون بعيدة عن الإسراف والبخل، بل بما يناسب حال مهديها.

١ - المقرّر: تأتي بمعنى البخيل «وكان الانسان قتوراً» ولكنها هنا بمعنى المعسر والفقير.



ولمّا كان لهذه الهدية أثر كبير في القضاء على روح الانتقام، وفي الخيلولة دون إصابة المرأة بعقد نفسية بسبب فسخ عقد الزواج، فإنّ الآية تعتبر هذا العمل من باب الإحسان «حقاً على المحسنين» أي أن يكون ممزوجاً بروح الإحسان والوداعة.

ولا حاجة للقول بأنّ تعبير «المحسنين» لم يأت ليشير إلى أنّ الحكم المذكور ليس إلزامياً، بل جاء لإثارة المشاعر والعواطف الخيرة في الناس للقيام بهذا الواجب الإنزاهي. النقطة المثيرة الأخرى في هذه الآية هي أنّ القرآن يعبر عن الهدية التي يجب أن يعطيها الرجل للمرأة باسم المتاع. والمتاع هو كلّ ما يستمتع به المرء وينتفع، ويطلق غالباً على غير النقود، لأنّ هذه لا يمكن التمتع بها مباشرة، بل لابدّ أولاً من تبديلها إلى متاع، ولهذا كان تعبير القرآن عن الهدية بمتاع.

ولهذا العمل أثر نفسيّ خاصّ، إذ كثيراً ما يحدث أن تكون الهدية من المأكل أو الملبس ونظائرها - مهما كانت زهيدة الثمن - أثر بالغ في نفوس المهدي اليهم لا يبلغه أبداً أثر الهدية النقدية. لذلك نجد أنّ الروايات الواصلة إلينا من الأئمة الأطهار عليهم السلام تذكر هذه الهدايا بصورة مأكل أو ملبس أو أرض زراعية.

كذلك يتضح من هذه الآية أنّ تعيين المهر قبل إجراء العقد في النكاح الدائم ليس ضرورياً، إذ يمكن للطرفين أن يتفقا على ذلك بعدئذٍ كما تفيد الآية أيضاً أنّه إذا حصل طلاق قبل تعيين مهر وقبل المضاجعة فلا يجب المهر. بل يستعاض عنه بالهدية المذكورة.

\*\*\*

١ - لا شك أنّ المهر لا يسقط إن لم يذكر في العقد الدائم، بل يعتبر «مهر المثل» أي المهر الذي يعادل مهر نساء مماثلات إلّا إذا حصل الطلاق قبل الدخول. عندئذٍ يتوجب تقديم هدية، كما ذكرنا.

## الآية

٢٣٧ - «وَأَنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

## التفسير

هذه الآية تتناول أيضاً حالة طلاق لم تسبقها مضاجعة، ولكن المهر قد تعين من قبل، فتبين الحكم الاسلامي أولاً، وهو أن يدفع الزوج لمطلقاته نصف المهر المعين «فنصف ما فرضتم». ولكن بعد بيان الحكم القانوني هنا باعتباره أساس النظام الاجتماعي، يعطي حكماً مبنياً على الجوانب الأخلاقية والعاطفية، فيقول إن الحكم الاسلامي هذا ينفذ إذا لم يكن ثمة عفو أو تنازل، أما إذا شاءت المرأة أن تتنازل عن حقها لزوجها، فلا يبقى عندئذ أي حق على الزوج.

كذلك هي الحال إذا تنازل عن المهر الشخصي «الذي بيده عقدة النكاح»، فلا يتوجب على الزوج شيء.

فمن هو «الذي بيده عقدة النكاح»؟

يرى بعض المفسرين أن المقصود هو الزوج الرجل، ولكن بنظرة أدق ندرك أن المقصود بهذا التعبير هم أولياء الزوجة. لأن الخطاب منذ البداية موجه إلى الرجال، فيقول: (وإن طلقتموهن...) وكذلك الحال في آخر الآية، فالأزواج هم المخاطبون بقوله: «وإن تعفوا أقرب للتقوى...».

وعليه فإن جملة «أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح» التي ورد فعلها بصيغة الغائب لا يمكن أن تقصد الرجال، بل هي تقصد أولياء المرأة من أولئك الذين بيدهم أن يقرروا المهر ومقداره كأن تكون المرأة سفيهة أو صغيرة، ففي هذه الحالات يقر أولياء المرأة التنازل أو عدم

التنازل عن المهر حسباً تقتضيه مصلحة المرأة.

وهذا ما ورد في الروايات التي وصلتنا من الأئمة المعصومين، وكذلك ينحو المفسرون الشيعة هذا المنحى بعد أخذ مضمون الآية وأحاديث الأئمة بنظر الاعتبار، ويقولون إن المقصود هو أولياء الزوجة.

طبيعي أن تطرأ ظروف تجعل الإصرار على أخذ نصف المهر - حتى قبل الدخول - أمراً قد يثير مشاعر الرجل وقومه ويخرج عواطفهم، وقد ينزعون إلى الانتقام، ويحتمل أن يوجهوا الإهانات إلى الزوجة ويجرحوا كرامتها، فهنا قد يرى الأب أن من مصلحة ابنته أن يتنازل عن حقها.

#### «وأن تعفوا أقرب للتقوى»

هذه العبارة تبين جانباً آخر من جوانب واجبات الزوج الانسانية، وهو أن يُظهر الزوج التنازل والكرم، فلا يسترجع شيئاً من المهر إن كان قد دفعه أو أن يدفعه بأكمله إن لم يكن دفعه بعد، متنازلاً عن النصف الذي هو من حقه «وأن تعفوا أقرب للتقوى» وذلك لأن المرأة التي تنفصل عن زوجها بعد العقد وقبل الدخول تواجه مشاكل اجتماعية ونفسية، ولا شك أن تنازل الرجل عن حقه من المهر لها يكون بمثابة البلسم لجراحها.

#### «ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير»

لما كان الإسلام يريد أن يكون كل انفصال وطلاق على أساس من المعروف والاحسان، أي أن يكون فضلاً عن ابتعاده عن روح الانتقام، قائماً على أساس السماحة والنبل بين الرجل والمرأة، وعلى أساس من إحياء روح الفضل والاحسان في النفوس يقول: «ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير».



## الآيات

- ٢٣٨ - «حَافِظُوا عَلَيَّ الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ».
- ٢٣٩ - «فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

## النزول

تذرع جمع من المنافقين بجماعة الجور لإلقاء التفرقة في صفوف المسلمين فلم يشتركون في صلاة الجماعة، فتبعهم آخرون أخذوا يتخلفون عن الاشتراك في صلاة الجماعة، فقلّ بذلك عدد المصلين. فكان هذا سبباً في إزعاج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذدهم بعقاب أليم. يقول زيد بن ثابت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يؤدي صلاة الظهر جماعةً والحر على أشده، مما كان يثقل على أصحابه كثيراً، فنزلت الآية تبين أهمية الصلوات عامة وصلاة الظهر على وجه الخصوص.

## التفسير

الصلاة واسطة الارتباط بين الانسان وخالق العالم، وإذا أدت على وجهها الصحيح ملأت القلب بحب الله، واستطاع الانسان في إشعاع نورها أن يتجنب الذنوب والتلوث وعصيان أوامر الله. لذلك فإن هذه الآية تحث المسلمين على أن يقيموا هذه الفريضة العظيمة، وأن يؤديوها بكل خشوع وخضوع وتوجه إلى الله، مؤكدة الصلاة الوسطى بصفة خاصة.

## أتي الصلاة هي الوسطى؟

على الرغم من اختلاف المفسرين في تعيين هذه الصلاة الوسطى، إلا أن القرائن المتوفرة تثبت أنها صلاة الظهر، فضلاً عن كونها تقع في وسط النهار فإن سبب نزول هذه

الآية يدلّ على أنّ المقصود بالصلاة الوسطى هو صلاة الظهر التي كان الناس يتخلفون عنها لحرارة الجوّ.

كما أنّ هناك روايات كثيرة تصرّح بأنّ الصلاة الوسطى هي صلاة الظهر<sup>١</sup>.

«وقوموا لله قانتين»

للقنوت معنيان:

١ - الطاعة والاتباع.

٢ - الخضوع والخشوع.

وقد يكون المعنيان مراديين في الآية كما ورد في أحاديث الامام الصادق عليه

السلام أي بمعنى الطاعة والخضوع.

«فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً»

«رجال» هنا جمع راجل و«ركبان» جمع راكب.

أي أنكم إذا خفتم العدو في ميدان القتال أو في ما يشبه ذلك فلكم أن تؤدّوا

الصلاة راجلين أو راكبين في حالة حركة.

هذه الآية تؤكّد أنّه - في أصعب الظروف كظروف الحرب - لا يجوز ترك الصلاة

مع إمكان إسقاط بعض شروطها لابتدائها في الظروف العادية كالاتجاه نحو القبلة وأداء

الركوع والسجود على وجهها الصحيح بل يمكن أداؤها بالاياء.

وقد نُقِلَ عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه في بعض الحروب قد أمر المقاتلين أن

يصلّوا بالاياء والاشارة<sup>٢</sup>.

كما ورد في حديث آخر: إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم صلّى يوم الأحزاب

إيماً.

وروي عن الصادق عليه السلام قال: إن كنتَ في أرض مخوفة فخشيتَ لصاً أو

شيعاً فصلّ الفريضة وأنت على ظهر دابّتك<sup>٣</sup>.

وروي عن الامام الكاظم عليه السلام جواز أداء الصلاة في حالة الخوف إلى غير

جهة القبلة إذا ضاق بالخائف وقت الصلاة ولم يتمكن أن يتحرك من مكانه<sup>١</sup>. فهذه الصلاة هي صلاة الخوف التي شرحها الفقهاء في كتبهم شرحاً مفصلاً. وعليه فالآية توضح أن إقامة الصلاة والارتباط بين القلب وخالق العالم يجب أن يتحقق في جميع الظروف والحالات، حتى يكون للانسان - باعتماده على الله - نقطة اتكاء ورجاء، ولذلك ففي الحرب أيضاً لابد من الاتجاه إلى الله بالصلاة. قد يحسب بعضهم أن هذا الإصرار والتوكيد على الصلاة ضرب من التعسير ولربما منع ذلك الانسان من القيام بواجبه الخطير في الدفاع عن نفسه في مثل ظروف القتال الصعبة.

وهذا رأي لا يخفى خطله، فالانسان في مثل هذه الحالات أحوج إلى تقوية معنويته من حاجته إلى أي أمر آخر، لأنه إذا ضعفت معنويته واستولى عليه الخوف والفرع فإن هزيمته تكاد تكون حتمية. فأبي عمل أفضل من الصلاة، ومن الاتصال بالله الذي يجري أمره على عالم الوجود، والذي بيده كل شيء يمكن أن يرفع من معنويات الجنود المجاهدين أو الذين يواجهون خطراً؟

فاذا تركنا الشواهد الكثيرة في جهاد المجاهدين المسلمين في صدر الاسلام الأول، فإننا نقرأ عن حرب الصهانية الرابعة مع العرب في شهر رمضان ١٣٩٣ هـ. ق. أن توجه الجنود المسلمون إلى الصلاة والمبادئ الاسلامية قد قوى عزيمتهم، وكان له تأثير كبير في انتصارهم على العدو.

«فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون»

هذا الجزء من الآية يشير إلى أن أداء الصلاة راجلين وراكبين إنما هو في صلاة الخوف، ولكن عندما يعود الأمن ويستتب الهدوء ينبغي أداء الصلاة بصورتها العادية، ثم تشير الآية إلى أن الله قد علمكم الكثير من الأمور التي لم تكونوا على علم بها، ومنها أداء الصلاة في حالي الأمن والخوف، ومن الواضح أن شكر الله على هذا التعليم هو أداؤها كما أمرنا، وتنفيذ كل أمر بشكله الصحيح «فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون».



## الآية

٢٤٠ - «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

## التفسير

في الجزء الأول من الآية تشريع مفاده أنّ الرجال الذين يكونون على شفا الموت ولهم نساء مكلفون أن يوصوا ورثتهم بالإنفاق عليهنّ من أموالهم مدّة عام. وعليه فإنّ عبارة «يُتَوَفَّوْنَ» هنا لا تعني الموت بل تعني المشرف على الموت بقرينة ذكر الوصيّة، ولكن هذا التشريع مشروط ببقاء الزوجات في بيت أزواجهنّ بعد موته مدّة عام ولا يخرجن «غير إخراج».

«فإنّ خَرَجْنَ فلا جُنَاحَ عليكم فيما فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ»

هذه العبارة من الآية قابله للتطبيق في معنيين:

١ - دفع نفقات المعيشة لمدّة سنة يعتبر من حقوق المرأة على ورثة زوجها، فاذا رفضت مختارةً أن تتسلّم شيئاً ولم تبق في بيت زوجها المتوفى فلم تعد هناك مسؤولية على أحد، ولها أن تتزوج. وبناءً على هذا التفسير، يجوز للمرأة قبل انتهاء السنة أن تتنازل عن النفقة وتترك بيت زوجها.

٢ - إذا أمضت المرأة السنة في بيت زوجها ثم خرجت وتزوّجت، فلا مانع من ذلك. وعلى هذا فإنّ التزام العدة سنة يصبح إلزامياً بموجب هذا المعنى للآية. أي أنّ التزام العدة لمدّة سنة كاملة يكون «حكماً» لا «حقاً» بالمعنى الثاني، بخلاف المعنى الأول الذي يعتبره حقاً.

فعلينا الآن أن نجد المعنى الذي ينسجم أكثر مع مفهوم الآية.

## هل هذه الآية منسوخة؟

يقول المفسرون إن هذه الآية قد نسختها الآية ٢٣٤ من هذه السورة نفسها والتي سبق تفسيرها، والتي تحدد العدة بأربعة أشهر وعشرة أيام.

على الرغم من أن تلك الآية يأتي ترتيبها قبل هذه. ولكننا نعلم أن آيات كل سورة لم ترتب بحسب نزولها، بل قد نجد آيات متأخرة في النزول قد وضعت متقدمة في الترتيب، والعكس صحيح أيضاً. وقد جرى ذلك للتناسب بين الآيات وبأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

هؤلاء المفسرون يذهبون إلى أنه كانت عدة الوفاة قبل الاسلام سنة واحدة في عهود الجاهلية، كما مر في تفسير الآية ٢٣٤ من هذه السورة تمرّ خلالها الأرملة بكثير من التقاليد والعادات الخرافية الشاقة، فجاء الاسلام وألغى تلك العادات وأبقى مدة العدة سنة في بداية الأمر، ثم جعلها أربعة أشهر وعشرة أيام، كما منع المرأة من أن تتزين خلال هذه المدة.

ولكن هذا الرأي غير مقبول، لأن موضوع النسخ إنما يتحقق إذا اخترنا المعنى الثاني للآية، وقلنا إن عدم خروج المرأة لمدة سنة «فريضة» لا «حق».

أما المعنى الأول الذي ينسجم أكثر مع الآية فلا يستوجب نسخاً، لأن هذه الآية تقول بأن مدة العدة سنة كاملة بشرط الاستفادة من النفقة والمسكن في تلك المدة، كما أعطيت المرأة الحق إن شاءت أن تبقى في بيت الزوج، وأن تأخذ النفقة حسب وصية الزوج مدة سنة وفاته، أما إذا لم ترغب في ذلك فلها بعد أربعة أشهر وعشرة أيام أن تخرج من بيت زوجها وتتزوج من جديد، وبخروجها من بيت زوجها المتوفى تنقطع عنها - طبعاً - النفقة.

إن فترة الأربعة أشهر وعشرة أيام عدة إلزامية لا تتأثر برغبة المرأة، ولكن إدامتها حتى نهاية السنة حق من حقوق المرأة، ولها أن تستفيد منه بالبقاء في بيت الزوج والحصول على نفقة أو أن تترك بيت زوجها وتتزوج ثانية.

«من معروف»

هذا التعبير يشير إلى أن للمرأة أن تقدم على أي أمر لائق - والمقصود هنا هو

الزواج - ولها مطلق الحرية في هذا المجال.

«واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»

ولكي لا يقلق الأرامل على مستقبل حياتهنّ تطمئنهنّ الآية في كلمات أخيرة  
قائلة إنّ الله قادر على أن يفتح لهنّ طريقاً آخر بعد فقدهنّ أزواجهنّ، وإذا ما واجهن  
بعض المصائب فليحكمة في ذلك . إن الله الذي يغلق لحكمته باباً يفتح للطفه باباً آخر، فلا  
موجب للقلق.

\*\*\*



## الآيات

٢٤١ - «وَلَمَّا طَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ».

٢٤٢ - «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

## التفسير

سبق أن قلنا أن «المتاع» هنا هو الهدية التي يقدمها الرجل بعد الطلاق للمرأة. وفي هذه الآية التي تختم بها أحكام الطلاق، تتكرر التوصية بالمرأة، لكبح جماح حب الانتقام ومظاهر الحقد وتؤكد على الرجل الذي يطلق زوجته أن يقدم لها هدية، وهذا واجب على كل من يتقي الله. إن ظاهر الآية يشمل جميع النسوة المطلقات، ولكن الأمر - كما قلنا في الآية ٢٣٦ - يختص بالنسوة اللواتي لم تتعين مهورهن ولم يدخل بهن. وعليه فإن تقديم الهدية في الحالات الأخرى يكون مستحباً ويعتبر من الأمور الانسانية التي يحث عليها الاسلام.

«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»

يتبين من دراسة الآيات والأحاديث الاسلامية أن لفظة «العقل» تستعمل غالباً عندما يراد التعبير عن امتزاج الادراك والفهم مع العواطف والأحاسيس ثم يستتبع ذلك العمل. فعندما يتحدث القرآن في مواضع كثيرة عن معرفة الله مثلاً يشير إلى نماذج من نظام هذا الكون العجيب، ثم يقول إننا نبين هذه الآيات «لعلكم تعقلون». هذا لا يعني أن القصد هو ملء الأدمغة ببعض المعلومات عن نظام الطبيعة، إذ أن العلوم الطبيعية إذا لم تبعث في القلب والعواطف حركة نحو معرفة الله وحبّه والانشداد به فلا ارتباط لها بقضايا التوحيد. وهكذا المعارف العلمية لا تكون تعقلاً إلا إذا اقترنت بالعمل.

صاحب تفسير الميزان يؤيد هذا الاتجاه في فهم معنى التعقل، ويرى أنه الذي يدفع الانسان بعد الفهم والادراك إلى مرحلة العمل، والدليل على ذلك قوله تعالى: «لو

كَمَا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ»<sup>١</sup>.  
وقوله سبحانه «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا»<sup>٢</sup> فالتعقل  
الذي يتحدث عنه المجرمون يوم القيامة هو ذلك الذي يرافقه العمل، وهكذا التعقل الناتج  
عن السير في الأرض والتفكير في خلق الله إنما هو المعرفة التي تحمل الانسان على تغيير مسير  
حياته والاتجاه إلى الصراط المستقيم.

\*\*\*

---

١ - الملك : ١٠.

٢ - الحجج : ٤٦.

## الآية

٢٤٣ - «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ».

## النزول

انتشر مرض الطاعون في إحدى مدن الشام وأخذ يحصد الناس بسرعة عجيبة، فهجر المدينة جمع من الناس أملاً في النجاة من مخالب الموت. وإذ نجوا من الموت فعلاً بهروهم من ذلك الجو الموبوء، شعروا في أنفسهم بشيء من القدرة والاستقلالية، وحسبوا أن نجاتهم مدينة لعوامل طبيعية غافلين عن إرادة الله ومشيئته. فأماتهم الله في تلك الصحراء بالمرض نفسه.

وقيل: إن نزول المرض بأهل هذه المدينة كان عقاباً لهم لأن زعيمهم وقائدهم طلب منهم أن يستعدوا للحرب وأن يخرجوا من المدينة. ولكنهم رفضوا الخروج للحرب بحجة أن مرض الطاعون متفش في ميادينها، فابتلاهم الله بما كانوا يخشونه ويفرون منه، فانتشر بينهم مرض الطاعون، فهجروا بيوتهم وهربوا من المرض إلى خارج المدينة حيث انشب المرض مخالبه فيهم وماتوا. ومضى زمان على هذا حتى مر يوماً «حزقيل»<sup>١</sup> أحد أنبياء بني إسرائيل بذلك المكان ودعا الله أن يحييهم، فاستجاب الله لدعائه وأحياهم.

## التفسير

من الأساليب الشائعة في الأدب العربي لتجسيد ما يطلب إلفات النظر إليه استعمال تعبير «ألم تر؟»، المخاطب هنا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن

١ - في بعض الروايات أن حزقيل هو النبي الثالث بعد موسى عليه السلام في بني إسرائيل.



الكلام موجّه بالطبع إلى الناس جميعاً، وأن توجيه الخطاب إلى شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو للتوكيد وإضفاء الأهمية على الأمر.

فبعد «ألم تر» تشير الآية إلى حال جماعة فرّوا من بيوتهم خوفاً من الموت، فماتوا جميعاً بأمر الله، ولم ينجهم من الموت فرار: «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذرّ الموتِ فقالَ لهمُ اللهُ موتوا».

من الواضح أنّ «ألوف» هنا لا تعني عدداً خاصاً، إنما تعني الكثرة؛ لذلك ذكرت روايات أن عددهم كان عشرة آلاف، وذكرت روايات أخرى أنهم كانوا سبعين ألفاً. كذلك من الواضح أنّ «موتوا» لا تعني الأمر اللفظي، بل هو أمر الله التكويني السائد على كلّ حيّ في عالم الوجود، أي أنّ الله أوجد أسباب هلاكهم فماتوا جميعاً في وقت قصير، وهذا أشبه بالأمر الذي ورد في آية «إنّنا أمّره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»<sup>١</sup>

ثمّ أحياهم»

هذه إشارة إلى عودتهم إلى الحياة بعد موتهم، استجابةً لدعاء «حزقيل» كما ذكرنا في سبب نزول الآية.

«إنّ الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون»

لما كانت عودتهم إلى الحياة من النعم الإلهية البيّنة، فإنّه يقول إنّ هذه لم تكن هي النعمة الوحيدة التي أنعم بها الله على أولئك، فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ لجميع الناس ويشملهم بنعمه وإحسانه، ولكن أكثر هؤلاء الناس لا يؤدّون واجب الشكر على ذلك.

وقفات

هنا ينبغي أن نشير إلى بعض النقاط:

١- درس للعبارة

هدف الآية في الواقع هو إعطاء الناس درساً للعبارة لكي لا يتصوّروا أنّهم

بهروهم من تحمّل المسؤوليات وبالتذرع بمختلف الأعذار يستطيعون أن يكونوا في أمان، ولكي لا يحسبوا أنهم أقوىاء في قبال قدرة الله، أو حتى في قبال قوى الطبيعة وقوانينها التي تسيطر على العالم. إذا كان هؤلاء يفزّون من منازلة العدو - وهي مدعاة لعزّتهم ورفعتهم - فإنّ الله قادر على أن يبتليهم بعدوّ من الصغر بحيث إنّه لا يرى بالعين. إنّ هذه الأعداء الصغيرة وجرائم الطاعون أو الوباء المجهرية وأمثالها أشبه بالبرق الخاطف في اختطاف ضحاياها، بحيث إنّ أيّ عدوّ في ميادين الحرب لا يمكن أن يحاربا في سرعة الإبادة والإهلاك. فلماذا إذأ لا تعتبرون؟ ولم تفزّون من تحمّل المسؤوليات؟

## ٢ - أتاخيّ أم تمثيل؟

هذه الحكاية التي ذكرناها، أهي حدث تاريخي واقعي أشار إليه القرآن إشارة عابرة ثم شرحته الروايات والأحداث، أم أنّها أقصوصة تحكى لتجسيد الحقائق العقلية وبيانها بلغة حسّية؟.

لما كان لهذه الحكاية جوانب غير عادية بحيث صعب هضمها على بعض المفسرين، فإنهم أنكروا كونها حقيقة واقعة، وقالوا إنّ ما جاء في الآية إنّما هو من باب ضرب المثل بقوم يضعفون عن الجهاد ضدّ العدو فيُهزَمون ثم يعتبرون بما جرى فيستيقظون ويستأنفون الجهاد ومحاربة العدو وينتصرون.

وبموجب هذا التفسير يكون معنى «موتوا» الهزيمة في الحرب بسبب الضعف والتهاون. و«أحياهم» إشارة الى الوعي واليقظة ومن ثمّ النصر.

هذا التفسير يرى أنّ الروايات التي تعتبر هذه الحادثة واقعة تاريخية روايات مجعولة وإسرائيلية.

وعلى الرغم من أنّ مسألة «الهزيمة» بعد التهاون و«الانتصار» بعد اليقظة مسألة هامة ورائعة، ولكن لا يمكن إنكار كون ظاهر الآية يدلّ على بيان حادثة تاريخية بعينها، وليست تمثيلاً.

إنّ الآية تتحدّث عن قوم من الماضين وأتوا على أثر هروهم من حدث مروّع ثم أحياهم الله. فإذا كانت غرابة الحادثة وبعدها عن المألوف هو السبب في تأويلها ذلك التأويل، فهذا إذأ ما ينبغي أن نفعله بشأن جميع معاجز الأنبياء.

لو أنّ أمثال هذه التأويلات والتوجيهات وجدت طريقها إلى القرآن لأمكن

إنكار معاجز الأنبياء، فضلاً عن إنكار معظم قصص القرآن التاريخية واعتبارها من قبيل القصص الرمزي التمثيلي، كأن نعتبر قصة هابيل وقابيل قصة موضوعة لتمثل الصراع بين العدالة وطلب الحق من جهة، والقسوة والظلم من جهة أخرى، وهذا تفقد قصص القرآن قيمتها التاريخية.

وفضلاً عن ذلك فإننا لا نستطيع أن نتجاهل الروايات الواردة في تفسير هذه الآية، لأن بعضها قد ورد في الكتب الموثوق بها ولا يمكن أن تكون من الإسرائيليات المجعولة.

٣ - النقطة الثالثة التي يجب الانتباه إليها في هذه الآية هي احتمال كونها تشير إلى الرجعة. فالحكاية تتحدث عن تاريخ قوم قداماء ماتوا ثم أُعيدوا إلى هذه الدنيا، كهذه الجماعة من بني إسرائيل التي تشير إليها الآية.

وعليه فما الذي يمنع أن تتكرر هذه الحادثة مرة أخرى في المستقبل؟

العالم الشيعي المعروف بـ«الصدوق» رحمه الله استدلّ بهذه الآية في القول بالرجعة، ويقول «إنّ من معتقداتنا الرجعة»، بديهي أنّ قضية الرجعة لا علاقة لها بموضوع التناسخ، وسوف نشرح ذلك في موضعه.



## الآيتان

٢٤٤ - «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» .  
٢٤٥ - «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» .

## التفسير

ما مرّ من أحداث على جماعة من بني إسرائيل في الآية السابقة اتضح أنّ الحياة والموت بيد الله، وعليه فإنّ الفرار من الجهاد والضعف في ميادين الحرب لا يمكن أن ينقذ الانسان من الموت، يأمر الله في هذه الآية بالجهاد في سبيل الله ويقول إنه يعلم كلّ شيء ويعلم دوافعكم الباطنية ونواياكم في التقدّم للجهاد أو في التخلف عنه، ويسمع ماتقولون فما من شيء يخفى عليه.

«من ذا الذي يقترض الله قرضاً حسناً» .

وكما أنّ المجتمع يحتاج من أجل الاستقلال والتقدّم والكرامة إلى أفراد يجاهدون ويحاربون، كذلك يحتاج إلى المعونات المادّية لتأمين الخدمات العامة وحماية المحرومين، وإعداد معدات الجهاد، ولذلك نجد القرآن يلحّ في الإنفاق في سبيل الله.

الله يستقرض من عباده!

مما يثير العجب أنّ القرآن في هذه الآية وفي آيات أخرى يعتبر عن هذا الواجب الجماعي باسم «القرض» مع أنّ المالك الحقيقي للأموال هو الله، وأنّ الانسان إنّما يتصرّف فيها بالنيابة عن الله، ومن شروط هذه النيابة هو الإنفاق لالسّد حاجاته فقط، بل أيضاً لسّد الاحتياجات العامة كما جاء في الآية ٧ من سورة الحديد: «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» .

ومع كلّ هذا يطلب الله من الناس أن يقرضوه، أن يقرضوا الله خالق الكون ومالك كلّ شيء! ويعدّهم بمضاعفته عند التسديد: «فيضاعفه له أضعافاً كثيرة». وهذه تعبر عن غاية لطف الله بعباده وذروة الاهتمام بمسألة الإنفاق، فرغم أنه المالك الواهب يعود ليستقرض ليدفع ربحه أضعافاً مضاعفة، فانظر ما أكرم الله وألطفه!

### «فيضاعفه له أضعافاً كثيرة»

«أضعاف» جمع ضعف على وزن شعر، والضعف هو أن تضيف إلى المقدار مثله أو أمثاله، وقد ورد هنا الجمع مؤكداً بالكثرة «كثيرة» كما أنّ كلمة «يضاعف» فيها تأكيد من كلمة «يضعف» ليدلّ كلّ ذلك على أنّ الله يعطي لمن ينفق في سبيله الكثير الكثير، كالبذرة التي تبذر في أرض صالحة وتسقي فينمى ويبيدها إلى صاحبها أضعافاً، كما سيأتي في الآية ٢٦١.

### «والله يقيض ويبسط وإليه ترجعون»

لعلّ هذه الجملة التي وردت في آخر الآية تشير إلى أنكم ينبغي أن لا تظنّوا أنّ الإنفاق يقلّل من أموالكم، فإنّ سعة رؤوس أموالكم وضيقها بيد الله، فهو القادر أن يوسع عليكم ببركات من الأرض والسماء ويضاعف لكم ما أنفقتموه مرات ومرات، بل أنكم بوحدة مجتمعكم وتضامنكم سوف تسترجعون الأموال التي أنفقتموها، ثم فضلاً عن كلّ ذلك لا تنسوا أنكم إلى الله راجعون، وأمامكم حياة أخرى حيث تتمتعون فيها بما أنفقتم من أموال.

## الآيات

٢٤٦ - «أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ائْتِنَا بِآيَاتٍ لَنَا مِلَكًا نُفَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيكُمْ الْقِتَالَ إِلَّا تَقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَايَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

٢٤٧ - «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

٢٤٨ - «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

٢٤٩ - «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

٢٥٠ - «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

٢٥١ - «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ».

٢٥٢ - «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».



يشير الله تعالى في هذه الآيات إلى واحدة من الحوادث ذوات العبر في حكاية جمع من بني إسرائيل وقعت لهم بعد موسى عليه السلام. لاشك أن ذكر هذه الحكاية على أثر الكلام عن الجهاد والدفاع عن حرم تعاليم الله الذي هو حرم الانسانية، يقصد به أن يكون عبرة يعتبر بها المسلمون وقبل أن نباشر التفسير نذكر الحكاية.

### حادثة ذات عبرة

اليهود الذين كانوا قد استضعفوا تحت سلطة الفراعنة استطاعوا أن ينجوا من وضعهم المأساوي بقيادة موسى عليه السلام الحكيمة حتى بلغوا القوة والعظمة. لقد أنعم الله على اليهود ببركة نبيهم الكثير من النعم بما فيها «صندوق العهد»<sup>١</sup> الذي حمله اليهود أمام الجند فأضفى عليهم الطمأنينة والمعنوية العالية، وظلت هذه الروحية فيهم بعد رحيل موسى عليه السلام مدة من الزمن، إلا أن تلك النعم والانتصارات أثارت في اليهود الفرور شيئاً فشيئاً، وأخذوا بمخالفة القوانين، وأخيراً اندحروا على أيدي الفلسطينيين وخسروا قوتهم ونفوذهم بخسارتهم صندوق العهد، فكان أن تشتتوا وضعفوا ولم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم حتى أمام أتفه أعدائهم، بحيث إن هؤلاء الأعداء طردوا الكثيرين منهم من أرضهم وأسروا أبناءهم.

استمرت حالهم على هذا سنوات طوالاً، إلى أن أرسل إليهم الله نبياً اسمه «اشموئيل» لإنقاذهم وهدايتهم، فتجمع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم وكانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً وأميراً لكي يتوحدوا تحت لوائه، ويحاربوا العدو متحدين يداً ورياً، لاستعادة عزتهم الضائعة.

اشموئيل الذي كان يعرف ضعفهم وتهاونهم وهبوط معنوياتهم قال لهم: أخشى إن أنا اخترت لكم قائداً أن تخذلوه عندما يدعوكم إلى الجهاد ومحاربة العدو. فقالوا: كيف يمكن أن نعصي أوامر أميرنا ونرفض القيام بواجبنا، مع أن العدو قد شرّدنا من أوطاننا واستولى على أرضنا وأسّر أبناءنا!!

فرأى اشموئيل أن هؤلاء القوم قد شخّصوا داءهم وهأثم قد اتجهوا للمعالجة، ولعلهم أدركوا سبب تخلفهم، فتوجّه إلى الله يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا

«طالوت» ملكاً عليهم.

فقال اشموئيل: ربّ إني لا أعرف طالوت ولم أره حتى الآن. فجاءه الوحي: سنرسله إليك فاعطه قيادة الجيش ولواء الجهاد.

### من هو طالوت؟

كان طالوت رجلاً طويل القامة، ضخماً، حسن التركيب، متين الأعصاب قوّهاً، ذكياً، عالماً، مدبراً.

ويقول بعض: إنّ اختيار اسم «طالوت» له كان لطوله، ولكنّه مع كلّ ذلك لم يكن معروفاً، يعيش مع أبيه في قرية على أحد الأنهر، يرعى ماشية أبيه ويشغل بالزراعة. أضع يوماً بعض من ماشيته في الصحراء فراح يبحث عنها مع صاحب له حول النهر بضعة أيام حتى اقتربا من مدينة صوف.

قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينة النبيّ اشموئيل، فتعال نزوره لعلّه يدلّنا بما له من اتصال بالوحي وحصانة في الرأي على ضالّتنا. والتقى باشموئيل عند دخولها المدينة.

ما أن تبادل اشموئيل وطالوت النظرات حتى تعارف قلباهما، وعرف اشموئيل طالوت وأدرك أنّ هذا الشاب هو الذي أرسله الله ليقود الجماعة. وعندما انتهى طالوت من قصته عن ضياع ماشيته، قال له اشموئيل: أما ماشيتك الضائعة فهي الآن على طريق القرية تتّجه إلى بستان أبيك فلا تقلق بشأنها. ولكنني أدعوك لأمر أكبر من ذلك، إنّ الله قد اختارك لنجاة بني إسرائيل.

فأصاب العجب طالوت من هذا الأمر في البداية، ولكنّه قبل المهمة مسروراً فقال اشموئيل لقومه: لقد اختار الله طالوت لقيادتكم، فعليكم جميعاً أن تطيعوه، وأن تهتّبوا للجهاد ومحاربة الأعداء.

كان بنو إسرائيل يعتقدون أنّ قائدهم يجب أن تتوفّر فيه بعض المميّزات من حيث نسبه وثروته، ممّا لم يجدوا منها شيئاً في طالوت، فانتابهم حيرة شديدة لهذا الاختيار، فطالوت لم يكن من أسرة لاوي التي ظهر منها الأنبياء، ولا كان من أسرتي يوسف أو يهوذا اللتين سبق لهما الحكم، بل كان من أسرة بنيامين المغمورة الفقيرة، فاعترضوا قائلين: كيف يمكن لطالوت أن يحكمنا، ونحن أحقّ منه بالحكم!



فقال اشموئيل - الذي رآهم على خطأ كبير- : إنَّ الله هو الذي اختاره أميراً عليكم، والقيادة تحتاج إلى كفاءة جسمية وروحية وهي متوفّرة في طالوت، وهو يفوقكم فيها. إلّا أنّهم لم يقبلوا بهذا القول، وطلبوا دليلاً على أنّ هذا الاختيار إنّما كان من الله سبحانه.

فقال اشموئيل: الدليل هو أنّ التابوت - صندوق العهد - الذي هو أثر مهمّ من آثار أنبياء بني إسرائيل، وكان مدعاةً لثقتكم واطمئنانكم في الحروب، سيعود إليكم بحمله جمع من الملائكة. ولم يمض وقت طويل حتى ظهر الصندوق، وعلى أثر رؤيته وافق بنو إسرائيل على قيادة طالوت لهم.

### طالوت في الحكم

تستمر طالوت قيادة الجيش، وخلال فترة قصيرة أثبتت لياقته وجدارته للاضطلاع بهامّة إدارة المُلْك وقيادة الجيش، ثم طلب من بني إسرائيل أن يعدّوا العدة لمحاربة عدوّ كان يهدّدهم من كلّ جانب. قال لهم مؤكداً إنّهُ لا يريد أن يسير معه للقتال إلّا الذين ينحصر كلّ تفكيرهم في الجهاد، أمّا الذين لهم عمارة لم تتم، أو معاملة لم تكمل، وأمثالهم، فليس لهم الاشتراك في الجهاد. سرعان ما اجتمع جمع تظاهر عليه الكثرة والقوّة، وتحركوا صوب العدو.

وفي المسيرة الطويلة وتحت أشعة الشمس المحرقة أصابهم العطش. فأراد طالوت - بأمر من الله - أن يختبرهم ويصفهم، فقال لهم: سوف نصل قريباً إلى نهر في مسيرتنا، وأنّ الله يريد أن يمتحنكم به، فمن شرب منكم منه وارتوى فليس منّي، ومن لا يشرب إلّا قليلاً منه فهو منّي. ولكّتهم ما أن وقعت أنظارهم على النهر حتى فرحوا وهرعوا إليه وشربوا منه حتى ارتووا، إلّا نفرًا قليلًا منهم ظلّوا على العهد.

أدرك طالوت أنّ اكثريّة جيشه يتألّف من أناس ضعفاء الإرادة وعديمي العهد، ما خلا بعض الأفراد المؤمنين، لذلك فقد تخلّى عن تلك الأكثريّة واتّجه مع النفر المؤمن القليل خارجاً من المدينة إلى ميادين الجهاد.

إلّا أنّ هذا الجيش الصغير انتابه القلق من قلّته، فقالوا لطالوت: إنّنا لا طاقة لنا بمقابلة جيش قويّ كثير العدد. غير أنّ الذين كان لهم إيمان راسخ بيوم القيامة، وكانت محبة الله قد ملأت قلوبهم، لم يرهبوا كثرة العدو وقلة عددهم، فخاطبوا طالوت بكلّ شجاعة قائلين: قرّر ماتراه صالحاً، فنحن معك حيثما ذهب، ولسوف نجالدهم بهذا العدد القليل بحول الله وقوّته، ولطالما انتصر جيش صغير بعون الله على جيش كبير، والله مع الصابرين.



فاستعدّ طالوت بجماعته القليلة - لكن المؤمنة - للحرب، ودعوا الله أن يمنحهم الصبر والثبات. وعند التقاء الجيشين خرج جالوت من بين صفوف عسكره وطلب المبارزة بصوت قوي أثار الرعب في القلوب، فلم يجرأ أحد على منازلته. في تلك اللحظة خرج شاب اسمه داود من بين جنود طالوت، ولعلّه لصغر سنّه لم يكن قد خاض حرباً من قبل، بل كان قد جاء إلى ميدان المعركة بأمر من أبيه ليكون بصحبة اخوته في صفوف جيش طالوت. ولكنه كان سريع الحركة خفيفها، وبالمقلاع الذي كان بيده رمى جالوت بحجرين - بمهارة شديدة - فأصابا جبهته ورأسه، فسقط على الأرض ميتاً وسط تعجب جيشه ودهشتهم. وعلى أثر ذلك استولى الرعب والهلع على جيش جالوت، ولم يلبثوا حتى ركنوا إلى الفرار من أمام جنود طالوت وانتصر بنو إسرائيل<sup>١</sup>.

### التفسير

«ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل»

«الملائكة» هم الجماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً. كذلك يقال لأشراف كلّ قوم ورؤوسهم «الملائكة» لأنهم بما لهم من مقام ومنزلة يملأون العين.

هذه الآية - كما قلنا - تشير إلى جمع بني إسرائيل الكثير الذين طلبوا بصوت واحد من نبيّهم أن يختار لهم أميراً وقائداً لكي يحاربوا تحت قيادته «جالوت» الذي كان يتهدد الخطر مجتمعتهم ودينهم واقتصادهم، وقد حدث هذا بعد موسى عليه السلام.

في سبيل الله

على الرغم من أنّ الجماعة المذكورة كانت تريد أن تدفع العدو المعتدي الذي أخرجهم من أرضهم، فتعيد مأخذ منهم، فقد وصفت تلك الحرب بأنها في سبيل الله. وهذا يبيّن أنّ ما يساعد على تحرّر الناس وخلاصهم من الأسر ورفع الظلم والعدوان يعتبر في سبيل الله.

«قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا»  
 وإذا كان نبيهم يعرف فيهم الضعف والخور قال لهم: يمكن أن يصدر إليكم الأمر  
 بالجهاد فلا تطيعون.

«قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا» .  
 أي قالوا: كيف يمكن أن نتملص من محاربة العدو الذي أجلانا عن أوطاننا وفرق  
 بيننا وبين أبنائنا. وهكذا عاهدوه على الوفاء.  
 مع ذلك فإن هذا الجمع من بني إسرائيل لم يمنعهم اسم الله ولا أمره ولا الحفاظ على  
 استقلالهم والدفاع عن وجودهم ولا تحرير أبنائهم من نقض العهد . ولذلك يقول القرآن  
 مباشرة بعد ذلك :

«فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم»  
 أي عندما قررنا أن يجاهدوا أداروا وجوههم ولم يمتثلوا للأمر إلا نفر قليل هم الذين  
 ذهبوا للجهاد مع قائدهم .

«والله عليهم بالظالمين»  
 إن الله يعرف هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وأبناءهم ومجتمعهم وأجيالهم  
 القادمة، فلا بد أن ينالوا ما ينتظرهم عقاباً على ظلمهم .

«وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً»  
 يتضح من هذه الآية أن الله هو الذي اختار طالوت ليكون ملكاً على بني إسرائيل  
 وقائداً لعسكرهم ولعل استعمال كلمة «بعث» يشير إلى الشيء الذي ذكرناه في الحكاية من  
 الأمور غير المنتظرة التي جاءت بطالوت إلى المدينة وإلى مجلس النبي .

«قالوا أتى يكون لله الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال»  
 هذه هي المرة الأولى التي يعترض فيها بنو إسرائيل وينكثون عهد نبيهم مع أنه كان

قد قال لهم إنَّ الله هو الذي اختار طالوت، فاعترضوا قائلين: إننا أجدر من طالوت بالحكم، لأنَّ شَرْطِي الحكم يتوفّران فينا ولا يتوفّران في طالوت، وهما: الحسب والنسب، والمال والثروة، وقد عرفنا من قبل أنّ طالوت كان من قبيلة مغمورة من قبائل بني إسرائيل، ومن حيث الثروة لم يكن سوى مزارع فقير.

### شروط الحكم

غير أنّ القرآن يشير إلى الجواب المسكت الذي ردّ به نبيّهم عليهم، إذ أفهمهم أنّ اختيار الله طالوت ملكاً وقائداً عليكم إنّما كان لما يتمتّع به من علم وحكمة وذكاء في العقل، وقوّة في الجسم.

أي أنّكم على خطأ كبير، لأنكم نسيتم الشروط الأساسية المطلوبة في القائد. وهذا يلغي الشرطين اللذين كانا يرونها لازمين في القائد، لأنها ليسا امتيازين إطلاقاً، إذ أنّ النسب والثروة من الامتيازات الاعتبارية الخارجية. أمّا العلم والمعرفة وكذلك القوّة الجسمية امتيازان واقعيان داخليان.

إنّ القائد العالم يعرف طريق سعادة المجتمع ويرسم الخطط للوصول إليه، ويتنفذ ذلك بقوته وقدرته ولذلك يقول:

«إنَّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم»

إنّ تعبير «وزاده بسطة» إشارة إلى اتّساع وجود الانسان في أنوار العلم والقوّة. أي أنّ الانسان بالعلم والحكمة والقوّة الجسمية الكافية يزداد سعة في وجوده «والله يُؤتي مُلكه من يشاء».

### (الشرط الثالث)

يحتمل أن تكون هذه الآية إشارة إلى شرط ثالث لتستّم القيادة وهو توفر الامكانيات والوسائل المختلفة التي تتطلبها القيادة. فقد يكون قائداً كاملاً من حيث العلم والقوّة؛ ولكنه محاط بظروف لا تمنحه أيّ استعداد للوصول إلى أهدافه المقدّسة. لاشكّ أنّ قائداً تكون هذه ظروفه لا يمكن أن ينتصر انتصاراً باهراً. يقول القرآن هنا إنّ الله يمنح الحكومة الإلهية لمن يشاء، أي أنه يهيئ الظروف اللازمة لنجاحه.



«والله واسعٌ عليم»

إنَّ الله وجود واسع لا نهاية له، وكذلك فضله وعفوه واسعان لا تحدُّهما حدود، ولكنه عليم يعلم كيف يعطي المراكز والمناصب لمن يستحقها وخلق بأن يضطلع بها.

«وقال لهم نبيهم إنَّ آية مُلْكِهِ أن يَأْتِيَكُم التابوت»

يتبيّن من هذه الآية أنَّ بني إسرائيل لم يكونوا قد اطمأنوا كلَّ الاطمئنان إلى أنَّ طالوت مبعوث من الله لقيادتهم، على الرغم من أنَّ نبيهم اشموئيل قد صرح لهم بذلك، ولهذا طلبوا منه الدليل. فكان جوابه أنَّ الدليل سيكون مجيء التابوت - صندوق العهد - إليهم. لاشكَّ أنَّ هذا كان دليلاً مقنعاً بالنسبة لبني إسرائيل، فلتر ما كان هذا التابوت؟

### التابوت أو صندوق العهد

التابوت في اللغة صندوق من خشب، ولهذا يطلق أيضاً على الصناديق التي يحمل فيها الأموات، إلّا أن أصل الكلمة لا علاقة له بالأموات وحمل الجنازات، بل هو يعني كلَّ صندوق مصنوع من الخشب.

أما ما هو تابوت بني إسرائيل أو صندوق العهد؟ ومن الذي صنعه؟ وما هي محتوياته؟ فإنَّ في تفاسيرنا وأحاديثنا، وكذلك في العهد القديم - التوراة - كلاماً كثيراً عنه. إلّا أنَّ أوضحها هو ماجاءنا في أحاديث أهل البيت عليهم السلام وأقوال بعض المفسرين من أمثال ابن عباس، حيث قالوا إنَّ التابوت هو الصندوق الذي وضعت فيه أم موسى ابنها موسى وألقته في اليمِّ، وبعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر وأتوا به إليه وأخرجوا موسى منه، ظلَّ الصندوق في بيت فرعون ثم وقع بأيدي بني إسرائيل، فكانوا يحترقونه ويتبركون به.

موسى عليه السلام وضع فيه الألواح المقدّسة - التي تحمل على ظهرها أحكام الله - ودرعه وأشياء أخرى تخصّه وأودع كلَّ ذلك في أواخر عمره لدى وصيّيه يوشع بن نون.

وهذا ازدادت أهميّة هذا الصندوق عند بني إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم كلّما نشبت حرب بينهم وبين الأعداء، ليصعد معنوياتهم، لذلك قيل: إنَّ بني إسرائيل كانوا أعزّة كرماء مادام ذلك الصندوق بمحتوياته المقدّسة بينهم، ولكن بعد هبوط التزاماتهم الدينية

وغلبة الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق. واشموئيل - كما تذكر الآية - وعدهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلاً على صدق قوله.

«فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ»

هذه الفقرة من الآية تبيّن أنّ الصندوق كما قلنا كان يحتوي على أشياء تضيئي السكينة على بني إسرائيل وترفع معنوياتهم في الحوادث المختلفة «فيه سكينة من ربكم» ثم إنّ محتويات الصندوق كانت تضم آثاراً ممّا خلف آل موسى وآل هارون أضيفت إلى ما كان فيه من قبل، وممّا يجدر ذكره هو أنّ السكينة بمعنى الهدوء ويقصد بها هنا هدوء النفس والقلب.

قال لهم اشموئيل: إنّ الصندوق سوف يعود اليكم لتستعيدوا الهدوء الذي فقدتموه. وفي الحقيقة أنّ هذا الصندوق بطابعه المعنوي والتاريخي كان أكثر من مجرد لواء لبني إسرائيل وشعار لهم. كان يمثّل رمز استقلالهم ووجودهم وبرؤيته كانوا يسترجعون ذكرى عظمتهم السابقة. لذلك كان الوعد بعودته بشارة عظيمة لهم.

«تَحْمَلُهُ الْمَلَائِكَةُ»

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟ في هذا أيضاً للمفسرين كلام كثير أوضحها قولهم: جاء في التاريخ أنه عندما وقع صندوق العهد بيد عبدة الأصنام في فلسطين وأخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال بعضهم: ما هذه المصائب إلّا بسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم وديارهم، ولما لم يرض أحد بالقيام بالمهمة اضطروا إلى ربط الصندوق ببقرتين وأطلقوهما في الصحراء. وأتفق هذا في الوقت الذي تمّ فيه نصب طالوت ملكاً على بني إسرائيل. وأمر الله الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو مدينة اشموئيل. وعندما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من الله على اختيار طالوت ملكاً عليهم.

وعليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة لأنهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى

بني إسرائيل.

في الحقيقة أنّ للملائكة معنىً واسعاً في القرآن والروايات، يشمل فضلاً عن

الكائنات الروحية العاقلة، مجموعة من القوى الغامضة الموجودة في هذا العالم.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ»

في ختام الآية تنبيهٌ لبني إسرائيل إلى أنّ عودة الصندوق إليكم علامة واضحة لكم إذا ما أصبحتم أناساً مؤمنين، وهذا يعني أنّه على الرغم من هذه العلامة الواضحة بينكم من لا يرضخ للحق. وهذا مأسوف يتضح أكثر في الأحداث التالية للقصة.

«فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ».

«الفصل» بمعنى القطع. و«الجنود» جمع جند، وهو في الأصل الأرض الوعرة التي فيها حجارة، كما تطلق على كلّ تراكم وتجمّع يستلقت النظر. ومنه إطلاق اسم «الجند» على تجمهر أفراد الجيش.

اختيار واضح

لا حاجة للقول إنّ انتصار كلّ جيش منوط بمدى انضباط أفراده وإيمانهم بقائدهم وإطاعة أوامره إذا كان الجندي واثقاً من قائده ومؤمناً بحكمته وتمييزه فإنّه لا يتوانى عن أداء واجبه.

وطالوت الذي كان يتجه بجنوده للجهاد، كان لابدّ له أن يعلم الى أيّ مدى يمكن الاعتماد على طاعة هؤلاء الجنود، وعلى الأحصّ أولئك الذين ارتضوه واستسلموا له على مضض مترددين، ولكنهم في الباطن كانت تراودهم الشكوك بالنسبة لإمرته، لذلك يؤمر طالوت أمراً إلهياً باختبارهم، فيخبرهم أنّهم سوف يصلون عمّا قريب إلى نهر، فعليهم أن يقاوموا عطشهم، وألاً يشربوا إلا قليلاً، وبذلك يستطيع أن يعرف إن كان هؤلاء الذين يريدون أن يواجهوا سيوف الأعداء البتّة يتحمّلون سويعات من العطش أم لا.

وشرب الاكثريّة كما قلنا في سرد الحكاية، وكما جاء بايجاز في الآية.

وهكذا جرت التصفية الثانية في جيش طالوت. وكانت التصفية الأولى عندما نادى المناادي للاستعداد للحرب وطلب الجميع بالاشتراك في الجهاد إلا الذين كانت لهم التزامات تجارية أو عمرانية أو نظائرها.



«فلما جاوزَه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده»  
تفيد هذه الآية أنّ تلك القلّة التي نجحت في الامتحان هي وحدها التي تحرّكت معه، ولكن عندما خطر هؤلاء القلّة أنّهم مقدمون على مواجهة جيش جرّار وقوي، ارتفعت أصواتهم بالتباكي على قلّة عددهم، وهكذا بدأت المرحلة الثالثة في التصفية.

«قال الذين يظنون أنّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة»  
«الفئة» أصلاً من النّيء بمعنى الرجوع، «الفئة» الجماعة الملتحمة التي يرجع بعضهم إلى بعض ليعضده. تقول الآية: إنّ الذين كانوا يؤمنون بيوم القيامة إيماناً راسخاً قالوا للآخرين: ينبغي ألاّ تلتفتوا إلى (الكم) بل إلى (الكيف) إذ كثيراً ما يحدث أنّ الجماعة الصغيرة المتحلّية بالايمان والعزم والتصميم تغلب الجماعة الكبيرة بإذن الله. ينبغي أن ننتبه إلى أنّ «يظنون» هنا تعني يعلمون، أي أنّهم على يقين من قيام يوم القيامة، ولا يعني الظنّ هنا الاحتمال، وظنّ هذه تعني اليقين في كثير من الحالات، حتى لو اعتبرناها بمعنى الاحتمال، فإنّها هنا تناسب المقام أيضاً، إذ في هذه الحالة يكون المعنى أنّ مجرد احتمال قيام يوم القيامة يكفي، فكيف باليقين به! أن يحمل الانسان على اتّخاذ قرار بالنسبة للأهداف الربّانية. إنّ من يحتمل النجاح في حياته - في الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السياسة - يمضي في مسيرته بكلّ عزم وتصميم.  
أما لماذا يطلق على يوم القيامة يوم لقاء الله، فذلك ما أوضحناه في الجزء الأول من هذا التفسير.

«بإذن الله»

على الرغم من أنّ انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الجماعة الكثيرة يستند إلى كثير من العوامل النفسية والمعنوية، فإنّ القرآن يرجع ذلك إلى مشيئة الله، وذلك لأنّ جميع الآثار والنتائج التي تحدث عن أيّ موضوع في العالم تكون ناشئة من بركة خلق الله ومن جهته وبأمره. وهذا التعبير يرد كثيراً في القرآن.

«والله مع الصابرين»

هذه العبارة استمرار لنصيحة المؤمنين التي ينصحون بها الآخرين، فيدعونهم إلى

الصبر والثبات، ويبيشرونهم بأن الله يعين الصابرين الثابتين.

### «ولما برزوا لجالوت وجنوده»

«البروز» يعني الظهور، ولهذا إذا استعد المحارب للحرب وتقدم إلى الميدان يقال إنه برز للقتال. وإذا طلب أحد عدواً له لمقاتلته يقال إنه طلب مبارزاً. تقول هذه الآية إنه عندما وصل طالوت وجنوده إلى حيث ظهر لهم جالوت وجيشه القوي ووقفوا في صفوف أمامه، رفعوا أيديهم بالدعاء واستودعوا الله القدير أنفسهم ورجوه أن يثبت أقدامهم.

### «ربنا أفرغ علينا صبراً»

«الإفراغ» تعني أصلاً صب السائل وسكبه بحيث يخلو الإناء مما فيه، هنا يدعو أصحاب طالوت الله أن يصب عليهم من كأس الصبر والتحمل، كما لو كان يصب عليهم كأساً من الماء حتى يفرغ الكأس كله. أي أنهم كانوا يدعون الله أن يمنحهم أعلى درجات الصبر والتحمل.

### «وثبت أقدامنا»

أي اجعل أقدامنا مثبتة في الأرض حتى لا نفرّ أمام العدو. في الحقيقة، أتصف القسم الأول من الدعاء بالجانب الروحي المعنوي، ويتصف هذا القسم بالجانب الظاهري الخارجي. ولا شك أن ثبات الأقدام ناشيء من نتائج الصبر والتحمل.

### «وانصُرنا على القوم الكافرين»

وهذه أيضاً نتيجة لما طلبوه من قبل في الجملتين السابقتين. إنهم يطلبون النصر من الله باعتباره نتيجة لصبرهم وثبات أقدامهم.

### «فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت»

هذه الآية تبين المرحلة الأخيرة من الحرب التي خاضها بنو إسرائيل بقيادة طالوت ضد جالوت الجبار وجيشه القوي، فهزم جيش جالوت وفرّوا هاربين بعد أن قتل جالوت بيد

أحد جنود طالوت واسمه داود، وقد جاء شرح كيفية قتل داود جالوت عند سرد الحكاية. على الرغم من أن الآية لا تقول إن داود هذا هو داود النبي والد سليمان عليهما السلام، فإن الآية «وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» تدلّ على أنه وصل إلى مقام النبوة، لأنّ هذا ممّا يوصف به الأنبياء عادة. ففي الآية ٢٠ من سورة «ص» نقرأ عن داود: «وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ». كما أن الأحاديث الواردة في ذيل هذه الآية تشير إلى أنه كان داود النبي نفسه.

وفي الوقت نفسه فإنّ عبارة «وعلمه مما يشاء» تدلّ على أن علوم الأنبياء ومعارفهم محدّدة بالمقدار الذي تريده مشيئة الله، فعلى الرغم من أن علمهم ومعرفتهم مترامية الأطراف وواسعة، فإنّها مع ذلك محدّدة بما يريد الله لهم أن يعلموه.

### فرضية تنازع البقاء

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»

إنّ تفسير هذا القسم من الآية، مع الأخذ بنظر الاعتبار هزيمة جالوت وجنوده الظالمين على يد جمع من مؤمني بني إسرائيل، يصبح واضحاً، وهو: أنه إذا لم يقض الله من وقت لآخر على الظالمين على أيدي جمع من المؤمنين الصابرين فقد تشتت قوتهم الشيطانية حتى تملأ الأرض كلّها بالفساد، ومع أنّ سنة الله هي أن تسود العالم حرية الإرادة والاختيار، وأن يكون الناس أحراراً في اختيار طريق الشرّ أو طريق الخير، فإنّ طغيان الطغاة إذا هدّد العالم بالفساد العام، يختار الله جمعاً من عباده المؤمنين ليقفوا بوجه ذلك الطغيان. وهذا واحد من أطراف الله تعالى بعباده.

وشبيه هذا جاء في الآية ٤٠ من سورة الحج: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد...».

يتضح ممّا تقدّم أنّ الآية لا علاقة لها بقضية «تنازع البقاء» حسبما يرى بعضهم.

لقد تصوّر هؤلاء أنّ الآية تقول: لا بدّ من وجود الصراع والتنازع بين البشر بصورة مستمرة، وإلاّ فإنّ الركوع والضعف والفساد يعمّ الأرض، وترجع الأجيال القهقري. لذلك فإنّ الحرب والتنازع المستمرّ يكون سبباً في بقاء الأقوى وانقراض الضعفاء من مثل هذا النظام، وهكذا يكون البقاء للأصلح بزعمهم.

غير أنّ هذا التفسير يصحّ فيما إذا قطعنا صلة هذه الآية بما قبلها قطعاً تاماً، وإذا



أغفلنا الآية المذكورة في سورة الحج والمشابهة لها. ولكننا إذا أخذنا هذه الآيات بنظر الاعتبار، رأيناها تدور حول محاربة الظالمين والطغاة، وأنها لا تعتبر الحرب أمراً لا بد منه عموماً. ثم إن ما يقال عن قانون «تنازع البقاء» المبني على مبادئ نظرية «تطور الأنواع» الداروينية، ليس قانوناً علمياً مسلماً به، بل هو فرضية أبطلت، وحتى الذين كانوا يؤيدون نظرية تكامل الأنواع، لم يعد أي منهم يعول على مبدأ تنازع البقاء أبداً، ويعتبرون تطور الأحياء نتيجة الطفرة.

وإذا ما تجاوزنا كل ذلك، واعتبرنا فرضية تنازع البقاء مبدأ علمياً، فإن علينا أن نعتبره كذلك فيما يتعلق بالحيوان دون الانسان، لأن حياة الانسان لا يمكن أن تتطور وفق هذا المبدأ أبداً، فهي تتطور في ضوء التعاون على البقاء، لا تنازع البقاء.

يبدو أن تعميم فرضية تنازع البقاء على عالم الانسان إنما هو ضرب من الفكر الاستعماري الذي يؤكد بعض علماء الاجتماع في الدول الرأسمالية لتسوية حروب حكوماتهم الدموية البغيضة، وإضفاء الطابع العلمي على عدوانها. وذلك يجعل الحرب والنزاع ناموساً طبيعياً، ووسيلة لتطور المجتمعات الانسانية وتقدمها.

فالذين وقعوا - دون وعي - تحت تأثير أفكار هؤلاء اللاإنسانية، وراحوا يطبقون هذه الآية عليها، إنما هم بعيدون عن تعاليم القرآن، لأن القرآن يقول بكل صراحة: «يأيتها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة»<sup>١</sup>.  
وقبل اختتام الآية يقول:

«ولكن الله ذو فضل على العالمين»

إنه لمن فضل الله على الناس ورحمته بهم أن يتصدى للفساد لئلا يعم الأرض كلها.

«تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك ليمن المرسلين»

تشير هذه الآية الى القصص الكثيرة التي وردت في القرآن بشأن بني إسرائيل، وكل منها دليل قائم على عظمة الله وقدرته، نزلت على نبي الاسلام صلى الله عليه وآله وسلم وهي منزّهة عن كل خرافة وأسطورة. وهي إحدى دلائل صدق نبوته وأقواله «وإنك لمن المرسلين».

الجزء الثالث من القرآن الكريم

من الآية ٢٥٣ من سورة البقرة

## الآية

٢٥٣ - «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتِ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

## التفسير

«تلك الرُّسُلُ»

«تلك» إسم إشارة للبعيد. والإشارة إلى البعيد - كما نعلم - تستعمل أحياناً لإضفاء الاحترام والتبجيل على مقام الشخص أو الشيء المشار إليه، هنا أيضاً أُشير إلى الرسل باسم الإشارة «تلك» لتبيان مقام الأنبياء الرفيع.

اختلف المفسرون في المقصود بالرسل هنا، هل هم جميع الرسل والأنبياء؟ أم هم الرسل الذين وردت أسماؤهم أو ذكرت حكاياتهم في ماسبق من آيات هذه السورة فقط، مثل إبراهيم، موسى، عيسى، داود، اشموئيل؟ أم هم جميع الرسل الذين ذكرهم القرآن حتى نزول هذه الآية؟

ولكن يبدو أن المقصود هم الأنبياء والمرسلون جميعاً، لأن كلمة «الرسل» جمع حلّي بالألف واللام الدالّتين على الاستغراق، فتشمل الرسل كافة.

«فضلنا بعضهم على بعض»

يتضح جلياً من هذه الآية أن الأنبياء - وإن كانوا من حيث النبوة والرسالة متماثلين - هم من حيث المركز والمقام ليسوا متساوين لاختلاف مهماتهم. وعلى الرغم من أنهم جميعاً كانوا مضحين، لكن تضحياتهم كانت مختلفة أيضاً. ولهذا يقول «فضلنا بعضهم على بعض».



«منهم من كلم الله»

هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، وواضح أن المقصود بالآية موسى عليه السلام المعروف باسم «كليم الله»، كما أن الآية ١٦٣ من سورة النساء تقول عنه «وكلم الله موسى تكليماً». أما القول بأن المقصود هو نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، وأن التكليم هو الوحي، فإنه قول بعيد الاحتمال، بدلالة الآية ٥١ من سورة الشورى.

«ورفع بعضهم درجات»

هنا إشارة إلى التفاضل بين الأنبياء بالدرجات والمراتب. ولكن بما أن الآية أشارت في البداية إلى اختلاف درجات الأنبياء، فإن الغرض من ذكرها هنا قد يكون إشارة إلى أنبياء معينين، وعلى رأسهم نبي الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، لأن دينه آخر الأديان وأكملها، فمن تكون رسالته إبلاغ أكمل الأديان، لابد أن يكون هو نفسه أرفع المرسلين، خاصة وأن القرآن يقول فيه: «وجئنا بك على هؤلاء شهيداً»<sup>١</sup> أي أن كل نبي يوم القيامة شهيد على أمته، وأنت شهيد على جميع الأنبياء.

ودليل آخر على هذا الموضوع، وهو أن الآية السابقة تشير إلى فضيلة موسى عليه السلام، والآية التالية تبين فضيلة عيسى عليه السلام، فالمقام يتطلب الإشارة إلى فضيلة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، لأن كل واحد من هؤلاء الأنبياء الثلاثة كان صاحب أحد الأديان الثلاثة العظيمة في العالم. فإذا كان اسم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم قد جاء بين اسميهما، فلا عجب في ذلك، أو ليس دينه الحد الوسط بين دينيهما وأن كل شيء قد جاء فيه بصورة معتدلة ومتعادلة؟ ألا يقول القرآن: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً»<sup>٢</sup>؟

ومع ذلك، فإن الآيات القادمة تدل على أن المقصود من «رفع بعضهم درجات» هم بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم ونوح وأمثالهما، إذ يقول سبحانه في الآية التالية: «ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم» أي لو شاء الله ما أخذت أمم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها. وهكذا ندرك أن العبارات المارة تقصد الأنبياء السابقين.

### «وأتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس»

أي أننا وهبنا عيسى عليه السلام براهين واضحة مثل شفاء المرضى الميؤوس من شفائهم وإحياء الموتى، والمعارف الدينية السامية، وزدنا من قوته بروح القدس. أمّا عن روح القدس، هل هو حامل الوحي جبرئيل، أم أنه قوى أخرى غامضة موجودة بصورة متباينة في جميع المؤمنين. فارجع إلى تفسير الآية ٨٧ من سورة البقرة «الجزء الأول من هذا التفسير» تجديحاً وافياً عنه.

### «ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات»

تشير هذه الآية إلى حقيقة كون عظمة مقام الأنبياء لم تمنع من حصول الاختلافات إلى حدّ وقوع الحرب بين أتباعهم، وذلك لأنّ الله خلق الانسان حراً، وطريق تكامله يقتضي أن يختار بنفسه ويملّ اختياره طريق الحقّ والفضيلة، ولو شاء إرادة الله لخلقهم بفرائر معينة كالحيوانات بحيث إنّ تلك الفرائر تدفع بهم للسير في طريق الهداية والسلام. ولكن اجتناب طريق الهداية وطريق السلام والابتعاد عن الحروب لا يكون في مثل هذه الحالة فضيلة، لأنّه مفروض على الانسان فرضاً جبرياً.

### «ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر»

هذه الاختلافات نشأت من الناس أنفسهم، إذ لا اختلاف بين الأنبياء، فكلمهم كانوا يسعون إلى هدف واحد. ولكن إيمان بعض الناس بتعاليمهم، ومخالفة بعض الناس لها، كان السبب في ظهور الاختلافات.

### «ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد»

هذا تأكيد ثان على أنّ أمر إجبارهم على عدم الاقتتال سهل ميسور على الله، ولكنّه يفعل ما يريد وفق الحكمة المنسجمة مع تكامل الانسان، ولذلك تركه مختاراً حتى وإن أساء بعضهم استعمال هذه الحرية.

وقفه

هل الأديان تسبّب الاختلافات؟

يتهم بعض الكتاب الغربيين الأديان على أنّها هي سبب التفرقة والنزاع بين أفراد



البشر، وهي السبب في إراقة الكثير من الدماء، فالتاريخ شهد الكثير من الحروب الدينية، وهكذا سعوا إلى إيدان الأديان واعتبارها من الأسباب المثيرة للحروب والمخاصمات. وإزاء هذا القول لابد من الانتباه إلى مايلي:

أولاً: أنّ الاختلافات - كما جاء في الآية المذكورة - لا تنشأ في الحقيقة بين الأتباع الصادقين لدين من الأديان بل هي بين أتباع الدين ومخالفه. وإذا ما شاهدنا صراعاً بين أتباع مختلف الأديان فإنّ ذلك لم يكن بسبب التعاليم الدينية، بل بسبب تحريف التعاليم والأديان وبالتعصب المقيت ومزج الأديان السماوية بالخرافات.

ثانياً: أنّ الدين - أو تأثيره - قد انحسر اليوم عن قسم من المجتمعات البشرية، ومع ذلك نرى أنّ الحروب قد ازدادت قسوةً واتساعاً وانتشرت في مختلف أرجاء العالم. أفهذه سببها الدين؟! أم أنّ روح الطغيان في مجموعة من البشر هي السبب الحقيقي لهذه الحروب، ولكّنها تظهر اليوم بلبوس الدين، وفي يوم آخر بلبوس المذاهب الاقتصادية والسياسية، وفي أيام أخرى بقوالب ومسميات أخرى؟! وعليه فالدين لا ذنب له في هذا إنّما الطغاة هم الذين يشعلون نيران الحروب بحجج متنوعة.

ثالثاً: أنّ الأديان السماوية - وعلى الأخصّ الاسلام - التي تكافح العنصرية والقومية، كانت سبباً في إلغاء الحدود العنصرية والجغرافية والقبلية فقضت بذلك على الحروب التي كانت تتأثر باسم هذه العوامل. وعليه فإنّ الكثير من الحروب في التاريخ قد أخذت نيرانها بفضل الدين. كما أنّ روح السلام والصداقة والأخلاق والعواطف الانسانية التي ترفع لواءها جميع الأديان السماوية، كان لها أثر عميق في تخفيض الخصومات والمشاكسات بين مختلف الأقوام.

رابعاً: أنّ من رسالات الأديان السماوية تحرير الطبقات المحرومة المعذبة، وكانت هذه الرسالة هي سبب الحروب التي شتها الأنبياء وأتباعهم على الظالمين والمستغلين، من أمثال فرعون والنمرود. إنّ هذه الحروب التي تعتبر جهاداً في سبيل تحرير الانسان، ليست عيوباً تلصق بالأديان، بل هي من مظاهر فخرها واعتزازها وقوتها. إنّ حروب رسول الاسلام صلى الله عليه وآله وسلم مع المشركين من العرب والمرايين في مكّة من جهة، ومع قيصر وكسرى من جهة أخرى، كانت كلّها من هذا القبيل.



## الآية

٢٥٤ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

### التفسير

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن الأمم الماضية وجهاد حكوماتها يأتي الحديث في هذه الآية عن واجبات المسلمين وما ينفعهم في تقوية بنيتهم الدفاعية والحكومية والاجتماعية، فتخاطب المؤمنين طالبة منهم الإنفاق. ولعلّ المقصود بالإنفاق في هذه الآية هو الإنفاق الواجب، أي الزكاة، لأنّ الآية بعد ذلك تهدّد المتخلفين بعقاب يوم القيامة. ثم إنّ الإنفاق الواجب هو الذي يعزّز بيت المال ويقوّي كيان الحكومة. وهذه المناسبة يفيد تعبير «مما» إنفاق جزء من المال الذي يملكه المنفق لا كلّه.

«مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ»

عليكم أن تنفقوا ما دمتم اليوم قادرين على ذلك، لأنّ العالم الآخر الذي هو محلّ حصاد مازرعتموه في الدنيا لن يتأتّى لكم فيه أن تفعلوا شيئاً، فلا معاملات ولاصفقات تجارية تستطيعون بها أن تشتروا السعادة والخلاص من العقاب، ولا هذه الصداقات المادّية التي تكسبونها في الدنيا بأموالكم تنفعكم في شيء هناك لأنّ أصدقاءكم أنفسهم يعانون نتائج أعمالهم ولا يدفعون من أنفسهم للآخرين، ولا تنفعكم شفاعتكم، لأنكم بتخلفكم حتى عن الإنفاق الواجب لم تفعلوا ما هو جدير بأن يشفع لكم. وعليه فإنّ جميع أبواب النجاة مسدودة بوجوهكم.

«والكافرون هم الظالمون»

يريد القرآن في هذه الآية أن يوضح هذه الحقيقة:

أولاً: أنّ الكافرين يظلمون أنفسهم، فبتركهم الانفاق الواجب وسائر التكاليف الدينية والانسانية حرموا أنفسهم من أعظم السعادات، وأنّ أعمالهم هذه هي التي تثقل كواهلهم في العالم الآخر، لذلك فإنّ الله لم يظلمهم أبداً.

ثانياً: يظلم الكافرون أفراد مجتمعهم أيضاً، لأنّ الكفر منبع القسوة وتحجّر القلب والتمسك بالمادة وعبادة الدنيا، وهذه كلّها من مصادر الظلم، لابتدء من الاشارة هنا إلى أنّ الكفر في الآية يعني التمرد والعصيان والتخلف عن إطاعة أمر الله لورود الكلمة بعد الأمر بالانفاق. إنّ استعمال الكفر بهذا المعنى شائع في القرآن وغيره من النصوص الاسلامية.

\*\*\*

## الآية

٢٥٥ - «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

آية الكرسي:

اشتهرت هذه الآية في الأخبار باسم «آية الكرسي»، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين يولون أهمية خاصة لهذه الآية. جاء في تفسير العياشي عن الامام الصادق عليه السلام إن أبا ذر سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي آية أنزلها الله عليك أعظم؟ قال: آية الكرسي. وجاء في تفسير الدر المنثور عن أبي امامة أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أعظم آية نزلت عليك من بين آيات القرآن؟ فقال: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» آية الكرسي.

وفي كتاب «الأمالى» للشيخ عن أمير المؤمنين عليه السلام أن علياً عليه السلام لم يترك قراءة آية الكرسي في ليلة من الليالي منذ أن سمع بفضلها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلم أنها نزلت إلى النبي من كنز تحت العرش ولم تعط لنبي قبله. الروايات عن أهمية آية الكرسي كثيرة عند الشيعة والسنة. إن مختلف الأقوال في أهمية هذه الآية تأتي من عظمة محتوياتها مما سنمربها خلال التفسير.

## التفسير

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»

«الله» يعني الذات الواحدة جامعة صفات الكمال، إنه خالق عالم الوجود، لذا ليس



في عالم الوجود معبود جدير بالعبادة غيره، بعبارة «لا إله إلا الله» يبين القرآن وحدانية خالق الوجود التي هي أساس الاسلام، ولكن هذه الحقيقة - كما قلنا - موجودة في لفظة «الله». لذلك فإن «لا إله إلا هو» تأكيد لتلك الحقيقة نفسها.

«الحي» من كانت فيه حياة، وهذه الصفة المشبهة، كمثيلاتها تدلّ على الدوام والاستمرار. وحياة الله حياة حقيقية، لأنّ حياته عين ذاته، وليس عارضة عليه مأخوذة من غيره. في الآية ٥٨ من سورة الفرقان يقول: «وتوكل على الحي الذي لا يموت». هذا من جهة، ومن جهة أخرى تكون الحياة الكاملة حياة لا يعترها الموت، وعليه فإنّ الحياة الحقيقية هي حياته الباقية من الأزل الى الأبد، أمّا حياة الانسان التي يخاطبها الموت في هذه الدنيا فلا يمكن أن تكون حياة حقيقية، لذلك نقرأ في الآية ٦٤ من سورة العنكبوت: «وما هذه الحياة الدنيا إلا هُوَ وِلَعِبٌ وَأَنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ». وعلى ذلك فإنّ الحياة الحقيقية هي التي تختصّ بالله.

### ما مفهوم «الله حيّ»

في التعبير السائد نقول للكائن أنه حيّ إذا كان يتّصف بالنمو والتغذية والتكاثر والجذب والدفع، وقد يتّصف بالحسّ والحركة. ولكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ بعضاً من السدج قد يحسبون حياة الله شبيهة بهذه، مع علمنا بأنّه لا يتّصف بأية واحدة من هذه الصفات. هذا هو القياس الذي يوقع الانسان في أخطاء في حقل معرفة الله، حين يقيس صفات الله بصفاته.

«الحياة» بمعناها الواسع الحقيقي هي العلم والقدرة، وعليه فإنّ من يملك العلم والقدرة اللامتناهيتين يملك الحياة الكاملة.

حياة الله هي مجموعة علمه وقدرته، وفي الواقع بالعلم والقدرة يمكن التمييز بين الحيّ وغير الحيّ. أمّا النمو والحركة والتغذية والتكاثر فهي صفات كائنات ناقصة ومحدودة، فهي تكمل نقصها بالتغذية والتكاثر والحركة، أمّا الذي لا نقص فيه فلا يمكن أن يتّصف بمثل هذه الصفات.

### أللخالق خالق؟

يتضح من ذلك أنّ اعتراض الماديين «إذا كان الله قد خلق كل شيء فن الذي

«خلق الله؟» يحلّ نفسه بنفسه، لأنّ أساس هذا الاعتراض مبنيّ على المقولة الواهية القائلة بأنّ «لكلّ موجود خالق» مع أنّ هذه المقولة ليست كلّية، لأنّ الموجودات التي لا بدّ لها من خالق هي المخلوقات التي ينبع وجودها من خارج ذاتها، وبعبارة أخرى: إنّ الحياة والوجود ليسا جزء من ذاتها - أي أنها ممكنة الوجود -. أمّا الكائن الذي يتبع الوجود من ذاته، أو بتعبير أفضل، كيانه عين وجوده، فلا حاجة له إلى خالق يهبه الحياة، فهو قد كان منذ الأزل وهو باقٍ حتى الأبد، لم يداخل وجوده عدم مطلقاً حتى يكون بحاجة إلى خالق، فهو واجب الوجود.

وبعبارة أبسط: إنّ كلّ حقيقة موجودة في هذا العالم تنتهي أخيراً إلى مصدرها. فإذا سأل سائل مثلاً: لِمَ هذه الغرفة مضيئة؟ قيل له: النور هو الذي يضيئها. فإذا سأل: لماذا النور مضيء؟ قيل: إضاءة النور لا تحتاج إلى سؤال، فالإضاءة من خصائص النور الذاتية. هذا ينطبق بخلافه على وجود كائنات هذا العالم، فإذا سئل: لماذا وجد الإنسان أو النبات وكلّ عالم الخلق؟ قيل: خلق الله كلّ هذه الأشياء، وحياتها ووجودها من الله.

أمّا إذا سئلنا: لماذا الله موجود؟ نقول: الوجود هو ذاته بعينها وهو مصدر عالم الوجود. القيوم صيغة مبالغة من القيام. لذلك فالكلمة تدلّ على الموجود الذي قيامه بذاته، وقيام كلّ الكائنات بوجوده، وبعبارة أخرى: جميع كائنات العالم تستند إليه.

بديهيّ أنّ القيام هو الوقوف الشائع في الكلام اليومي، وبالهئية المعروفة، ولكن بما أنّ هذا المعنى لا يتفق مع الله المنزه عن الصفات الجسميّة، لذلك فالمقصود به هو القيام بالخلق والتدبير والتعهد، فإنّه هو الذي خلق المخلوقات كلّها وتعهّد بتدبيرها وتربيتها وإدامتها، ولن يغفل عن كلّ هذا لحظة واحدة، فهو قائم دائماً وأبداً وباستمرار دون توقّف.

يتّضح من هذا أنّ «قيوم» هي في الواقع أساس كلّ صفات الفعل - وهي الصفات التي تبيّن علاقة الله بالموجودات مثل الخالق، الرازق، الهادي، المحيي، وأمثالها -.

فالقيام بالخلق وتدبير أمور العالم يشمل كلّ هذه الأمور فهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي، وهو الذي يميت، وهو الذي يهدي. وعليه فإنّ صفات الخالق والرازق والهادي والمحيي وأمثالها تتجمّع كلّها في «القيوم».

«لا تأخذه سنةٌ ولا نوم»

«السينة» هي الغفوة والغفلة، أي النوم الخفيف. و«النوم» هي الحالة التي تركد فيها بعض حواسّ الإنسان لعوامل طبيعيّة. إنّ عبارة «لا تأخذه سنةٌ ولا نوم» هي في الواقع تأكيد

صفة «القيوم» التي يوصف بها الله، لأنّ القيام الكامل والمطلق بتدبير عالم الوجود يتطلّب عدم إغفال ذلك حتى للحظة واحدة. أي أنّ الله لا يغفل طرفه عين عن حكمه المطلق على عالم الوجود وإدارته.

لذلك فكلّ صفة لا تتفق مع قيومية الله تنتفي من ساحة قدس الله تلقائياً، بل أنّ ذاته منزّهة حتى عن أتفه عامل يمكن أن يؤدي إلى أيّ تهاون في عمله، مثل «اليسنة».

أما سبب تقديم «اليسنة» على «النوم» في الآية مع أنّ القويّ يُذكر عادة قبل الضعيف، فيعود الى التالي الطبيعي في عملية النوم، إذ تنتاب المرء «اليسنة» أولاً ثمّ تزداد عمقاً حتى تدخل في النوم العميق.

تشير هذه الآية إلى حقيقة استمرار فيض اللطف الإلهي وديمومته وعدم انقطاعه عن وجوده لحظة واحدة، فهو ليس كعبادة الذين يغفلون عن الآخرين بسبب النوم أو أيّ عامل آخر.

يلاحظ أنّ تعبير «لا تأخذه» تعبير رائع يؤدي الغرض بدقّة، وهو يصوّر استيلاء النوم على الانسان تصويراً مجسّداً، وكأنّ النوم كائن قويّ ذو مخالف تمسك بالانسان بقوّة وتأسره، إنّ ضعف أقوى الناس أمام سلطان النوم أمر لا اختلاف فيه.

### مالكيّة الله المطلقة

«له ما في السماوات وما في الأرض»

لا يكون هناك قيام بشؤون العالم بغير ملكية السماوات والأرض وما فيها، لذلك فهذه الآية - بعد ذكر قيومية الله - تشير إلى حقيقة كون العالم كلّ ملك خاصّ لله، وأنّ كلّ تصرّف يحدث فيه فيأمر منه.

وعليه، فإنّ الانسان ليس المالك الحقيقي لما عنده ولما يقع تحت تصرّفه. بل أنّه يتصرّف فيه لمُدّة محدودة ووفق شروط معيّنة قرّرها المالك الحقيقي، لذلك فعلى هؤلاء المالكين الموقّنين أن يلتزموا تمام الالتزام بالشروط التي وصفها المالك الحقيقي، وإلّا فإنّ مالكيّتهم الموقّنة هذه تصبح باطلة وتصرّفهم غير جائز.

الشروط المطلوبة للتصرّف بملك الله هي التي وردت في الشرع وأبغت للناس. من الواضح أنّ التقيّد بهذا يعتبر في الواقع عاملاً مهماً من عوامل التربية، إذا اعتقد الانسان أنّه ليس المالك الحقيقي لما يملك وإنما هو يتصرّف به لفترة قصيرة من الزمن،



فسيمتنع - دون شك - عن الاعتداء على حقوق الآخرين وعن الحرص والطمع والاحتكار والبخل وأمثالها مما ينشأ في الانسان نتيجة التصاقه بالدنيا فيكون ذلك مدعاً لتربيته تربية تجعله قانعاً بحقوقه المشروعة.

### «من ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه»

هذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكاري، أي ما من أحد يتقدم بشفاعته إليه بإذنه. هذه الآية تكمل في الواقع معنى قيومية الله ومالكيته المطلقة لجميع ما في عالم الوجود. أي أننا إذا رأينا أحداً يشفع عند الله، فليس معنى ذلك أنه يملك شيئاً وأن له تأثيراً مستقلاً، بل أن مقامه في الشفاعة هبة من الله. ولما كانت شفاعته بإذن الله، فإن هذا بذاته دليل آخر على قيومية الله ومالكيته.

### وقفه

#### الشفاعة ليست محسوبة

«الشفاعة» هي العون الذي يقدمه قويّ لضعيف لكي يساعده على اجتياز مراحل تكامله بسهولة ونجاح.

إلا أن الكلمة تستعمل عادةً في التوسط لغفران الذنوب. غير أن مفهوم الشفاعة أوسع من ذلك وتشمل جميع العوامل والدوافع والأسباب في عالم الوجود، على سبيل المثال التربة والماء والهواء وأشعة الشمس هي العوامل الأربعة التي تشفع لبذرة النبات وتعينها على الوصول إلى مرحلة النضج لتصبح شجرة أو نبتة متكاملة. ولو نظرنا إلى الشفاعة في الآية الكريمة بهذا المعنى الواسع أدركنا أن وجود العوامل والأسباب المختلفة لا يحدّد مالكية الله المطلقة ولا يقلل منها، لأنّ تأثير هذه العوامل كافة لا يكون إلا بإذن الله وأمره، وهذا أيضاً دليل على قيوميته ومالكيته.

بيد أن بعضهم يظنّ أنّ الشفاعة في المفاهيم الدينية تشبه التوصيات والمحسوبيات والمنسوبيات، وأنّ مفهومها العام هو السماح للانسان أن يرتكب ما يشاء من المعاصي، ثم يتوسّل بالشفاعة لغفران ذنوبه كلّها بيسر وسهولة!!

ولكن الأمر ليس كذلك، فلا المعترضون أدركوا شيئاً من منطق الدين في موضوع الشفاعة، ولا العاصون المتجرّئون على حدود الله فهموا ذلك. فالشفاعة التي يقوم بها بعض عباد الله المقربين يمكن اعتبارها - كما قلنا - شفاعة تكوينية تتحقّق بوساطة عوامل طبيعية،

كما تتحقق في بذرة النبات. وكما أنّ البذرة لا تنمو إن لم تكن فيها عوامل الحياة حتى لو سطعت عليها الشمس وهبت عليها الرياح وهطل عليها المطر اهتوت سنوات طويلة، كذلك شفاعاة أولياء الله لغير المؤهلين، لن يكون لها أي أثر، أو قلّ إنهم لا يمكن أن يشفعوا لأمثال هؤلاء.

الشفاعة تستلزم نوعاً من العلاقة المعنوية بين الشفيع والشفوع له. لذلك فإنّ على من يرجو الشفاعاة أن يقيم في هذه الدنيا علائق روحية مع من يتوقّع شفاعته. إنّ هذه العلائق ستكون - في الواقع - وسيلة من وسائل تربية المشفوع له بحيث إنّها تقربه من مدرسة أفكار الشفيع وأعماله، وهذا ما سيوصله إلى أن يكون مؤهلاً لنيل تلك الشفاعاة. وبناءً على ذلك، فالشفاعة عامل تربوي، وليست نوعاً من المحسوبة والمنسوبة، ولا ذريعة للتصلّ عن المسؤولية.

ومن هذا يتّضح أنّ الشفاعاة لا تغتبر إرادة الله بشأن العصاة المذنبين، بل أنّ العاصي والمذنب - بارتباطه الروحي بشفيعه - يحظى بتربية تؤهله لنيل عفو الله تعالى<sup>١</sup>.

«يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم»

بعد الإشارة إلى الشفاعاة في الآية السابقة، وإلى أنّ هذه الشفاعاة لا تكون إلّا بإذن الله، تأتي هذه الآية لبيان سبب ذلك فتقول إنّ الله عالم بماضي الشفعاء ومستقبلهم، وبما خفي عليهم أيضاً. لذلك فهم غير قادرين على أن يبيّنوا عن المشفوع لهم أموراً جديدة تحمل الله على إعادة النظر في أمرهم بسببها وتغيير حكمه فيهم.

وذلك لأنّ الشفيع - في الشفاعات العادية - يؤثر في المتشفّع عنده بطريقتين اثنتين: فهو إمّا أن يعمد إلى ذكر صفات ومؤهلات المشفوع له التي تدعو إلى إعادة النظر في أمره. أو أن يبيّن للمتشفّع عنده العلاقة التي تربط المشفوع بالشفيع ممّا يستدعي تغيير الحكم إكراماً للشفيع.

بديهي أنّ كلا هذين الاسلوبين يعتمدان على كون الشفيع يعلم أشياء عن المشفوع له لا يعلمها المتشفّع عنده. أمّا إذا كان المتشفّع عنده محيطاً إحاطة كاملة بكلّ شيء ممّا يتعلق بكلّ شخص، فلا يكون لأحد أن يشفع لأحد عنده، وذلك لأنّ المتشفّع عنده أعلم بمن

١ - في المجلد الأول من هذا التفسير بحث وآف تحت عنوان «القرآن والشفاعة» راجع ص ١٦٣ منه.

يستحقّ الشفاعة فيجيز للشفيع أن يشفع له.

ثم إنّه «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم» وهذا تأكيد لقدرة الله الكاملة وعدم قدرة الآخرين في قبالة، إذ أنّ من لا يعرف شيئاً عن الماضي والمستقبل ولا يعلم شيئاً من غيب السماوات والأرض يكون ذا قدرة محدودة. أمّا من يعرف كلّ شيء وفي كلّ عصر وزمان، فلن تكون لقدرته نهاية، لذلك فإنّ أيّ عمل - حتى الشفاعة - ينبغي أن يكون بأمر منه.

إلى هنا اتّضحت لنا مسألة الشفاعة وعلاقة هذه الآية بالآيات السابقة، أمّا المقصود من «ما بين أيديهم» و«وما خلفهم» فإنّ القرآن يستعمل هذا التعبير أحياناً للدلالة على المكان، وأحياناً أخرى للدلالة على الزمان. ففي الآية ١٧٠ من سورة آل عمران نقراً: «ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم» من الواضح هنا أنّ التعبير زمني. ثمّ نقراً في الآية ١٧ من سورة الأعراف «ثمّ لا تبتئهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم»، فهنا المكان هو المقصود.

أمّا في الآية التي نحن بصددنا فالتعبير قد يجمع بين المكان والزمان أي أنّ الله يعلم ما كان في الماضي وما يكون في المستقبل، وما هو أمام أنظارهم ويعلمونه، وما هو خلفهم ومحجوب عنهم ولا يعلمون عنه شيئاً، وعلى هذا فإنّ الله محيط بكلّ أبعاد الزمان والمكان، وإنّ الشفعاء لا يستطيعون أن يأتوا بشيء جديد يكشفونه أمام الله.

«ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء»

هذه الفقرة أيضاً تؤكد لما سبق من سعة علمه ومحدودية علم الشفعاء بإزاء علمه الذي لاحظ لهم منه إلاّ بالمقدار الذي يريد هو أن يعلموه.

يتبيّن من هذه الآية أيضاً افتقاد البشر للعلم الذاتي، وأنّ كلّ ما عند الناس من علم مصدره الله، فهو الذي يزيح الستار عن حقائق الخلق شيئاً فشيئاً بمضيّ الزمان، ويضع معلومات جديدة في متناول أيديهم، ويوسع من أفق معرفتهم.

وهذا قد يضع الله بعض العلوم الغيبية في متناول من يشاء من عباده، فيطلعهم على ما يشاء من أسرار الغيب. وهذا ردّ على الذين يعتقدون أنّ علم الغيب غير متاح للبشر، وهو أيضاً تفسير للآيات التي تنفي علم الغيب عن البشر.

فالإنسان بذاته لا علم له بالغيب إلاّ بالمقدار الذي يريده له الله.

وسياتي إن شاء الله مزيد من الشرح لهذا الموضوع في مكانه عند تفسير الآيات



الخاصة بالغييب.

## ما العرش والكرسي؟

«وسع كرسيه السماوات والأرض»

«الكرسي» من كرس بوزن ارث، ومعناه أصل الشيء وأساسه، كما يطلق على كل شيء متجمع ومتربط، ولهذا يطلق على المقعد الواطئ المتعارف عليه للجلوس، ويقابله «العرش» الذي يعين السقف، أو الشيء ذا السقف، أو الكرسي ذا القوائم المرتفعة. ولما كان الاستاذ أو المعلم يجلس أحياناً على كرسي أثناء التدريس، فقد انتقل اسم «الكرسي» ليدل على العلم، وقد يستعمل رمزاً للسلطة والسيطرة أو يكون كناية عن الحكومة والحكم. في هذه الآية نقرأ عن كرسي الله أنه يسع السماوات والأرض. وعليه فيمكن أن يكون للكرسي عدة معان:

١ - منطقة نفوذ الحكم: أي أن حكم الله نافذ في السماوات والأرض وأن منطقة نفوذه تشمل كل مكان، أي أنه يشمل عالم المادة برمته، بما فيه من أرض ونجوم ومجرات وسُدُم.

وعلى هذا يكون «العرش» مرحلة أرفع وأعظم من عالمنا المادي هذا، لأن العرش - كما قلنا - يعني السقف أو المسقف أو مقعداً أعلى من الكرسي. وهذا يشمل العرش عالم الأرواح والملائكة وما وراء الطبيعة، وهذا يكون بالطبع إذا وضع الكرسي في قبال العرش بحيث يعني الأول «عالم المادة والطبيعة» ويعني الثاني «عالم ما وراء الطبيعة».

ولكن العرش له معانٍ أخرى كما سيأتي في تفسير الآية ٥٣ من سورة الأعراف، خاصة إذا لم يذكر في قبال الكرسي، وعندئذ يمكن أن يكون بمعنى عالم الوجود كله.

٢ - منطقة نفوذ العلم: أي أن علم الله يحيط بجميع السماوات والأرض وأن ما من شيء يخرج عن منطقة نفوذ علمه، لأن الكرسي - كما قلنا - قد يكون كناية عن العلم. وهناك أحاديث كثيرة تعتمد هذا المعنى، من ذلك ما رواه حفص بن غياث عن الامام الصادق عليه السلام أنه سأله عن معنى «وسع كرسيه السماوات والأرض» قال: هو العلم<sup>١</sup>.

٣ - شيء أوسع من السماوات والأرض كلها بحيث إنه يحيط بها من كل جانب. وعلى هذا يكون معنى الآية: كرسى الله يضم جميع السماوات والأرض ويحيط بها. وقد نقل هذا التفسير عن الامام علي عليه السلام أنه قال: «الكرسيُّ محيطٌ بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى».

بل يستفاد من بعض الروايات أنّ الكرسي أوسع بكثير من السماوات والأرض. فقد جاء عن الامام الصادق عليه السلام قوله: «ما السماوات والأرض عند الكرسي إلا كحلقة خاتم في فلاة، وما الكرسي عند العرش إلا كحلقة في فلاة». المعنيان الأول والثاني مفهومان، أما المعنى الثالث فأمر لم يتوصل العلم البشري بعد لمعرفة وكشف الستار عنه، فالعالم الذي يضم في زاوية منه السماوات والأرض لم يثبت وجوده بالطرق العلمية حتى الآن، كما أنه ليس هناك أي دليل على عدم وجوده، فالعلماء يعترفون جميعاً بأن اتساع السماء والأرض يزداد بمرور الأيام وتقدم وسائل المعرفة العلمية، وما من أحد يستطيع أن يزعم أنّ سعة عالم الوجود هو هذا الذي يعرفه العلم اليوم، ولا يُستبعد أن تكون هناك عوالم أخرى لا تعد ولا تحصى خارجة عن نطاق وسائل الأبصار عندنا اليوم. نضيف هنا أنّ التفاسير الثلاثة المذكورة لا يتعارض بعضها مع بعض، وأنّ عبارة «وسع كرسى السماوات والأرض» يمكن أن تشير إلى حكومة الله المطلقة ونفوذ قدرته في السماوات والأرض، كما تشير في الوقت نفسه إلى علمه النافذ، وكذلك إلى عالم أوسع بكثير من عالمنا هذا. وهذه الآية تكمل الآيات السابقة عن سعة علم الله.

بعبارة موجزة أنّ عرش حكومة الله وقدرته يهيمن على السماوات والأرض جميعاً، وأنّ كرسى علمه يحيط بكلّ هذه العوالم، وما من شيء يخرج عن نطاق حكمه ونفوذ علمه.

«ولا يؤوده حفظها»

«يؤوده» من (أود) على وزن قول بمعنى الثقل والمشقة، أي أنّ حفظ السماوات والأرض ليس فيه أي ثقل أو مشقة على الله، فهو ليس مثل مخلوقاته التي يتعبها الحفاظ على الأشياء ويوهنها، ذلك لأنّ المخلوقات ضعيفة محدودة القدرة، وقدرته غير محدودة، ومن لا حدود لقدرته لا يكون للثقل والحفّة والصعب والسهل مفهوم عنده. فهذه مفاهيم تصدق عند من تكون قدراتهم محدودة.

مما تقدّم يتضح أنّ الضمير في «يؤوده» يعود على الله، ويؤكد هذا ما سبق من آيات

والآية التالية، فضماؤها كلها تعود على الله، وعليه فإن احتمال عودة هذا الضمير إلى «الكرسي» - باعتبار أن حفظ السماوات والأرض ليس ثقيلًا على الكرسي - ضعيف جداً.

### «وهو العليّ العظيم»

هذه الآية تؤكد لما سبق. أي أن الله الذي هو أرفع وأعلى من كل شبيه وشريك، ومنزه عن كل نقص وعيب، وهو العظيم اللامحدود، لا يصعب عليه أي عمل ولا يتعبه حفظ عالم الوجود وتدبيره، ولا يغفل عنه أبداً، وعلمه محيط بكل شيء.

\*\*\*



## الآية

٢٥٦ - « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ  
بِالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ ».

## النزول

يقول الطبرسي في مجمع البيان في سبب نزول هذه الآية: كان لرجل من المدينة اسمه «الحصين» ولدان دعاهما إلى اعتناق المسيحية بعض التجار الذين كانوا يقدون على المدينة، فتأثر هذان بما سمعا واعتنقا المسيحية، ورحلا مع أولئك التجار إلى الشام عند عودتهم. فأزعج ذلك الحصين، وأقبل يخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما حدث، وطلب منه أن يعمل على إعادة ولديه إلى الاسلام، وسأله إن كان يجوز إجبارهما على الرجوع إلى الاسلام، فنزلت الآية المذكورة وبيّنت أن «لا إكراه في الدين».

وجاء في تفسير المنار أنّ حصين كان يريد إكراه ولديه على الرجوع إلى أحضان الاسلام، فجاءا مع أبيهما لعرض الأمر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الحصين: كيف أجزى نفسي أن أنظر إلى ولديّ يدخلان النار دون أن أفعل شيئاً؟ فنزلت الآية.

## التفسير

«الرشد» لغوياً تعني الهداية والوصول إلى الحقيقة، بعكس «الغي» التي تعني الانحراف عن الحقيقة والابتعاد عن الواقع. ولما كان الدين يعني بأرواح الناس وأفكارهم، وهو مبني على أساس من الايمان واليقين، فطريقه المنطق والاستدلال. وحين أراد بعضهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوم بالقوة والإكراه بتغيير عقائد الناس كالجبارين من الحكّام، جاءت الآية بالجواب الصريح قائلة إنّ الدين ليس من الأمور التي

تفرض بالإكراه والإجبار.

هذه الآية ردّ حاسم على الذين يتهمون الاسلام بأنه توسّل أحياناً بالقوة وبجد الحسام للتقدّم والفتح.

حين لم يجرّ الاسلام والبدأ أن يتوسّل بالضغط والإكراه لحمل ابنه على تغيير عقيدته الدينية، فإنّ واجب الآخرين بهذا الشأن يكون واضحاً، إذ لو كان حمل الناس على تغيير أديانهم بالقوة والإكراه جائزاً في الاسلام لكان الأولى أن يبيح للأب أن يتوسّل بالإكراه لحمل ابنه على تغيير دينه، وهذا ما لم يحصل.

### وقفه

#### الدين لا يُفرض

لا يمكن للاسلام ولا للأديان الحقّة الأخرى أن يُفرض فرضاً على الناس لسببين:

١ - بعد كلّ تلك الأدلّة والبراهين الواضحة والاستدلالات المنطقية والمعجزات الجليلة لم تكن ثمة حاجة لذلك. إنّها تستخدم القوة من أعوزه المنطق والحجّة. والدين الإلهي ذو منطق متين وحجّة قوية.

٢ - أنّ الدين القائم على أساس مجموعة من العقائد القلبية لا يمكن أن يُفرض بالإكراه. إن عوامل القوة والسيوف والقدرة العسكرية يمكنها أن تؤثر في الأجسام، لا في الأفكار والمعتقدات.

يتضح ممّا تقدّم الردّ على الإعلام الصليبي - المسموم ضدّ الاسلام - القائل «إنّ الاسلام انتشر بالسيوف» إذ لا قول أبلغ ولا أفصح من «لا إكراه في الدين» الذي أعلنه القرآن.

هؤلاء الحاقدون يتناسون هذا الإعلان القرآني الصريح، ويحاولون من خلال تحريف مفهوم الجهاد وأحداث الحروب الاسلامية أن يشبّثوا مقولتهم، بينما يتضح بجلاء لكلّ منصف أنّ الحروب التي خاضها الاسلام كانت إمّا دفاعية، وإمّا تحريرية. لم يكن هدف هذه الحروب السيطرة والتوسّع، بل الدفاع عن النفس، أو إنقاذ الفئة المستضعفة الراححة تحت سيطرة طواغيت الأرض وتحريرها من ربة العبودية لتستنشق عذير الحرية وتختار بنفسها الطريق الذي ترتئيه.

إنّ الشاهد الحيّ على هذا هو ما تكرر حدوثه في التاريخ الاسلامي، فقد كان

المسلمون إذا افتتحوا بلداً تركوا أتباع الأديان الأخرى أحراراً كالمسلمين .  
أما الضريبة الصغيرة التي كانوا يتقاضونها منهم باسم الجزية، فقد كانت ثمناً للحفاظ على أمنهم، ولتغطية ما تتطلبه هذه المحافظة من نفقات، وبذلك كانت أرواحهم وأموالهم وأعراضهم مصونة في حى الاسلام. كما أنهم كانوا أحراراً في أداء طقوسهم الدينية الخاصة بهم.

جميع الذين يطالعون التاريخ الاسلامي يعرفون هذه الحقيقة، بل المسيحيون الذين كتبوا في الاسلام يعترفون بهذا أيضاً. يقول مؤلف «حضارة الاسلام والعرب»: «كان تعامل المسلمين مع الجماعات الأخرى من التساهل بحيث إن رؤساء تلك الجماعات كان مسموحاً لهم بإنشاء مجالسهم الدينية الخاصة».

وقد جاء في بعض كتب التاريخ أن جمعاً من المسيحيين الذين كانوا قد زاروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للتحقيق والاستفسار أقاموا قداساً في مسجد النبي في المدينة بكل حرية.

إن الاسلام - من حيث المبدأ - توسل بالقوة العسكرية لثلاثة أمور.

١ - محو آثار الشرك وعبادة الأصنام، لأن الاسلام لا يعتبر عبادة الأصنام ديناً من الأديان، بل يراها انحرافاً ومرضاً وخرافة، ويعتقد أنه لا يجوز مطلقاً أن يسمح لجمع من الناس أن يسيروا في طريق الضلال والخرافة، بل يجب إيقافهم عند حدّهم. لذلك دعا الاسلام عبدة الأصنام إلى التوحيد، واذاقاوموه توسل بالقوة وحطم الأصنام وهدم معابدها، وحال دون بروز أي مظهر من مظاهر عبادة الأصنام، لكي يقضي تماماً على منشأ هذا المرض الروحي والفكري.

وهذا يتبين من آيات القتال مع المشركين، مثل الآية ١٩٣ من سورة البقرة: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة». وليس هناك أي تعارض بين الآية التي نحن بصدددها وهذه الآية، ولانسخ في هذا المجال.

٢ - لمقابلة المتآمرين للقضاء على الاسلام، عندئذ كانت الأوامر تصدر بالجهاد الدفاعي وبالتوسل بالقوة العسكرية. ولعل معظم الحروب الاسلامية على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت من هذا القبيل، مثل حرب أحد والأحزاب وحنين وموثة وتبوك .

٣ - للحصول على حرية الدعوة والتبليغ. إن لكل دين الحق في أن يكون حرّاً في



الاعلان عن نفسه بصورة منطقية، فإذا منعه أحد من ذلك فله أن ينتزع حقه هذا بقوة السلاح.

«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى»

«طاغوت» صيغة مبالغة من طغيان، بمعنى الاعتداء وتجاوز الحدود، ويطلق على كل ما يتجاوز الحد. لذلك فالطاغوت هو الشيطان والصنم والمعتدي والحاكم الجبار والمتكبر، وكل معبود غير الله، وكل طريق لا ينتهي إلى الله. والكلمة تعني المفرد وتعني الجمع.

أما المقصود بالطاغوت، فالكلام كثير بين المفسرين. قال بعض إنّه الصنم، وقال بعض إنّه الشيطان، أو الكهنة، أو السحرة، ولكن الظاهر أنّ المقصود هو كل أولئك، بل قد تكون أشمل من كل ذلك وتعني كل متعد للحدود، وكل مذهب منحرف ضال.

إنّ الآية في الحقيقة تأييد للآيات السابقة التي قالت أن «لا إكراه في الدين»، وذلك لأنّ الدين يدعو إلى الله، منبع الخير والبركة وكلّ سعادة، بينما يدعو الآخرون إلى الخراب والانحراف والفساد. على كل حال: إنّ التمسك بالايان بالله أشبه بالتمسك بعروة النجاة الوثقى التي لا يمكن أن تنفصم.

«والله سميعٌ عليمٌ»

الإشارة في نهاية الآية تكون إلى الحقيقة القائلة إنّ الكفر والايان ليسا من الأمور الظاهرية، لأنّ الله عالم بما يقوله الناس علانية - وفي الخفاء - وكذلك هو عالم بما يكتنه الناس في ضمائرهم وقلوبهم.

في هذه الجملة ترغيب للمؤمنين الصادقين، وترهيب للمنافقين.

## الآية

٢٥٧ - «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

## التفسير

«ولي» في الأصل بمعنى القرب وعدم الانفصال. وسيأتي شرحها في تفسير آية «إنما  
وليتكم الله ورسوله...».

وهي تطلق، لذلك، على من يربّي ويرعى شؤون من يحتاج إلى ذلك، وتطلق كلمة  
«ولي» أيضاً على الصديق والرفيق الحميم. غير أنّ الإطلاق الأول هو المقصود في الآية.  
بعد أن أُشير في الآيات السابقة إلى مسألة الكفر والإيمان، وتميّز الحقّ عن الباطل،  
والطريق المستقيم عن الطريق المنحرف، توضح هذه الآية الكريمة استكمالاً للموضوع أنّ لكلّ  
من المؤمن والكافر قائداً وهادياً ومسيراً خاصاً به. قائد المؤمنين وهاديهم هو الله، ومسيرهم هو  
الخروج من الظلمات إلى النور. أمّا الكافرون فقائدهم هو الطاغوت، ومسيرهم - بعكس  
أولئك - من النور إلى الظلمات، ومصيرهم معلوم، فهم سيكونون في النار دائماً.

«أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»

هنا ينبغي الالتفات إلى نقطتين:

إنّ تشبيه الإيمان والكفر بالنور والظلمة تشبيه بليغ رائع. إنّ النور منبع الحياة وكلّ  
البركات ومصدر الرشد والنمو والتكامل والتحرّك ومنطلق الاطمئنان والمعرفة والهداية، بينما  
الظلام رمز الصمت والموت والنوم والجهل والضلال والخوف.

النقطة الثانية هي أنّ الظلام في هذه الآية وفي الآيات الأخرى يأتي بصيغة الجمع:  
ظلمات. والنور يأتي بصيغة المفرد. وهذا يشير إلى أنّ مسيرة الحقّ ليس فيها تفرّق وتشتّت بل

هي مسيرة واحدة موحدة، إنها كالخط المستقيم بين نقطتين فهو واحد دائماً ولا يمكن أن يتعدّد. أمّا الباطل والكفر فهما مصدر جميع أنواع الاختلاف والتشتت. وأهل الباطل غير منسجمين في باطلهم، وليست لهم وحدة في الهدف، تماماً مثل الخطوط المائلة المرسومة بين نقطتين، حيث يكون عددها على طرفي الخطّ المستقيم غير محدود ولا معدود.

\*\*\*



## الآية

٢٥٨ - «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

## التفسير

تعقيباً على الآية السابقة التي تناولت هداية المؤمنين في نور الولاية وهداية الله، وضلال الكافرين لا تباعهم الطاغوت، يذكر الله في هذه الآية شاهداً حياً على ذلك من حياة إبراهيم عليه وعلى نبيتنا أفضل الصلاة والسلام وهو حوار دار بين إبراهيم عليه السلام وأحد الجبارين في زمانه ممن كان غرور السلطان قد أثملمه، إذ سأل هذا الجبار إبراهيم عن ربه، فقال إبراهيم: إنه الذي يحيي ويميت، وهو بهذا قد عرض - في الحقيقة - أعظم دليل على عظمة الخلق، قانون الحياة والموت، باعتباره معلماً من معالم قدرة باري الخلائق وعالم الوجود، وبرهاناً على سعة علمه، إلا أن الجبار المغرور توصل بالسفسطة والتزوير لكي يخدع الناس ومن حوله، فقال: أنا أيضاً أحيي وأميت وأن قانون الحياة والموت بيدي.

على الرغم من أن القرآن لا يذكر ما تلا ذلك من كيفية قيام الجبار بإثبات سفسطته إثباتاً عملياً، ولكن الأحاديث والتواريخ تقول إنه أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر، ثم قال لإبراهيم: أرايت كيف أن الحياة والموت بيدي؟ من الجدير بالملاحظة أن الدليل الذي جاء به إبراهيم بشأن الحياة والموت كان دليلاً قوياً، ولكن قدرة العدو على التوصل بالمغالطة أمام السذج من الناس دعت إبراهيم لأن يقدم دليلاً آخر فقال:

إن الله يخرج الشمس من الأفق الشرقي، فإذا كنت أنت الحاكم على عالم الوجود، فأنت بها أنت من المغرب. عندئذ اسقط في يد العدو وهت ولم يستطع أن يجير جواباً أمام هذا

المنطق الحي . وهذا أفضل طريق لإسكات كل عدو عنيد .

إن قضية الحياة والموت أهم من قضية السماء وحركة الشمس والقمر من حيث كونها برهاناً على علم الله وقدرته، لهذا السبب أورده إبراهيم دليلاً أول ، ولو كان في ذلك المجلس أناس يعقلون ويفكّرون لا كتفوا بهذا الدليل واقتنعوا به، إذ أن كل امرئ يعرف أن مسألة إطلاق سراح سجين وقتل آخر لا علاقة لها بقضية الاحياء والاماتة الطبيعيين أبداً، أما البسطاء السذج-البعيدون عن التفكير العميق السليم والذين يتأثرون عادةً بتضليل هذا المتجبر وسفسطه - فيحتاجون إلى دليل آخر، من هنا قدم إبراهيم عليه السلام دليله بشأن شروق الشمس وغروبها لكي يتضح الحق للجميع .

هنا نشير إلى بضع نقاط :

١ - القرآن لا يذكر اسم هذا الشخص الذي حاج إبراهيم، ويشير إليه بقوله:

«أن آتاه الله الملك» أي أنه لغوره بحكمه قام بمحاججة إبراهيم .

صاحب تفسير الدر المنثور نقل عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام رواية تذكر أنه

«التمرد بن كنعان» وكتب التاريخ تذكر هذا الاسم أيضاً .

٢ - على الرغم من عدم تعرض القرآن لذكر وقت هذا الحوار، فالقرائن تدل على أنه

وقع بعد قيام إبراهيم بتحطيم الأصنام ونجاته من النار، إذ من الواضح أنه قبل إلقائه في النار لم تكن لتجري أمثال هذه المجادلات، لأن عبدة الأصنام ما كانوا يسمحون له بالكلام وهم يعتبرونه مجرمًا، ينبغي أن ينال بأسرع وقت جزاؤه على فعلته الشنيعة بتحطيم آلهتهم المقدسة!

إنهم سألوه عن سبب فعلته ثم أصدروا أمرهم بإحراقه وهم غاضبون، ولكن عندما خرج من النار سليماً على تلك الصورة العجيبة استطاع أن يصل إلى التمرد وأن يحاوره .

٣ - يتبين جلياً من الآية أن التمرد لم يكن في الواقع يبحث عن الحقيقة بل كان

يريد أن يظهر باطله بمظهر الحق . ولعل استعمال الفعل «حاج» قصد به هذا، لأنه يستعمل عادة في أمثال هذه الحالات .

٤ - يستدل من الآية بصورة واضحة أن جبار ذلك الزمان كان يدعي الالوهية، لا

ليعبدوه فحسب، بل ليؤمنوا به خالقاً لهذا العالم أيضاً، أي أنه كان يرى نفسه معبوداً وخالقاً .

وليس في هذا ما يدعو الى العجب، ففي الوقت الذي يسجد فيه الناس لأصنام من

الحجر والخشب، وفضلاً عن عبادتها يعتبرونها مؤثرة في إدارة العالم وتساهم فيها، فإن الفرصة

مناسبة لجبار مخادع أن يستغل الناس ويستغل سذاجتهم ويدعوهم إليه ويظهر نفسه بمظهر

صنم يعبدونه ويعتبرونه خالقاً.

## وقفه

### تاريخ عبادة الأصنام

يصعب لنا بيان تاريخ لعبادة الأصنام وتعيين مبدأ له، فنذ أقدم الأزمنة التي نعرف تاريخها اليوم كانت عبادة الأصنام سائدة بين البشر الذين كانت أفكارهم منحطة وعلى مستوى واطىء.

الواقع أنّ عبادة الأصنام نوع من التحريف في العقيدة الفطرية الطبيعية المودعة في الانسان المتمثلة في عبادة الله. ولما كانت هذه الفطرة موجودة في الانسان دائماً فإنّ تحريفها كان أيضاً موجوداً بين المجموعات البشرية المنحطة دائماً. لذلك يمكن القول إنّ تاريخ عبادة الأصنام يكاد يوازي تاريخ ظهور الانسان على الأرض، ذلك لأنّ الانسان بمقتضى فطرته وخلقته يتوجّه إلى قوّة فوق الطبيعة. إنّ طبيعته هذه كانت تؤيدها أدلّة واضحة من نظام الوجود تقضي بوجود مبدأ عالم قادر، وكان الانسان يدرك هذا بقدر ما عن طريقين - فطرته وعقله - ولكن الاحساس بالجوع الموجود في الأطفال إذا لم يوجّه في الوقت المناسب إلى الغذاء السليم فإنّ الطفل قد يمدّ يده إلى أشياء كالطين والتراب مثلاً، ويتعوّد على ذلك بالتدرّج فيفقد صحّته من جراء ذلك. كذلك الانسان الذي يبحث عن الله بفطرته وعقله إذا لم يوجّه الوجهة الصحيحة يمدّ نظره إلى مختلف الآلهة والأصنام المصطنعة، فينحني ويسجد لها ويسبغ عليها كلّ صفات الالهية.

ولا حاجة إلى القول بأنّ قصيري النظر والسفهاء يسعون إلى أن يجسّموا كلّ شيء في قالب حسي، لأنّ فكرهم لا يفارق منطقة المحسوسات أبداً، لذلك كان يصعب عليهم عبادة إله غير منظور ومرئي، ورجعوا في صبّ آلهتهم في قالب حسي. إنّ هذا الجهل إذا امتزج بفطرة عبادة الله يظهر في صورة عبادة الأصنام والآلهة المجسّدة.

وقيل من جهة أخرى: إنّ الأقوام السالفة كانت تقدّس أنبياءها وشخصياتها الدينية، فاذا توفي هؤلاء أقامت لهم التماثيل لإحياء ذكراهم مدفوعين بروح تقديس الأبطال، والغلو التي نجدها في ضعفاء العقول ومن ثمّ تقديس تماثيلهم إلى حدّ التآليه، وكان هذا سبباً آخر من أسباب عبادة الأصنام.

ومن الأسباب الأخرى لعبادة الأصنام هو أنّ عدداً من الموجودات الطبيعية التي هي



مصدر خير وبركة للانسان كالقمر والشمس والنار والماء وغيرها قد أثارت اهتمام الانسان بها، فراح يحني رأسه أمامها تعظيماً لها واعترافاً منه بجميلها دون أن يوسع أفق تفكيره ليرى المبدأ الأول في خلق العالم وراء تلك الموجودات، فاتخذ هذا التقدير والاحترام بمرور الزمان صورة عبادة لهذه الموجودات.

إنّ منشأ كلّ أنواع عبادة الأصنام شيء واحد، وهو الانحطاط الفكري والجهل وعدم وجود الهادي المخلص إلى البحث عن الله، الأمر الذي يمكن الوقاية منه باتّباع تعاليم الأنبياء وتربيتهم وإرشاداتهم.

\*\*\*

## الآية

٢٥٩ - «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَيَّ قَرْبَةً وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَيَّ عُرُوشَهَا قَالَ أَنِّي يُخَيِّبِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

## التفسير

تقص هذه الآية حكاية أحد الأنبياء القدامى، وهي من الشواهد الحية على مسألة البعث. دارت الآيات السابقة - التي استعرضت الحوار بين إبراهيم عليه السلام والنمرود - حول التوحيد ومعرفة الله. أما هذه الآية والآيات التالية فتدور حول المعاد والحياة بعد الموت. تبدأ بشرح الحكاية بصورة مجملة ثم نباشر بالتفسير.

الآية تشير إلى حكاية رجل سافر على حماره ومعه طعام وشراب، فربقرية قد تهدمت وتحولت إلى أنقاض تتخللها عظام أهلها النخرة. وإذ رأى هذا المشهد المروع قال: كيف يقدر الله على إحياء هؤلاء الأموات؟

لم يكن تساؤله بالطبع من باب الشك والإنكار، بل كان من باب التعجب، إذ أن القرائن الأخرى في الآية تدل على أنه كان أحد الأنبياء، وقد تحدث إليه الله، كما أن الأحاديث تؤيد هذا كما سيأتي.

عند ذلك أماته الله مدة مائة سنة، ثم أحياه مرة أخرى وسأله: كم تظن أنك بقيت في هذه الصحراء؟ فقال وهو يحسب أنه بقي سويعات: يوماً أو أقل، فخاطبه الله بقوله: بل بقيت هنا مائة سنة، انظر كيف أن طعامك وشرابك طوال هذه المدة لم يصبه أي تغير بإذن الله. ولكن لكي تؤمن بأنك قد أمضيت مائة سنة كاملة هنا انظر إلى حمارك الذي تلاشى ولم يبق منه شيء بموجب نواميس الطبيعة، بخلاف طعامك وشرابك، ثم انظر كيف إننا

نجمع أعضائه ونحبيه مرة أخرى. فعندما رأى كل هذه الأمور أمامه قال: «أعلم أن الله على كل شيء قدير»، أي: إنني الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصورة مجسمة أمامي. ومن هذا النبي الذي تحدّثت عنه هذه الآية؟ ثمّة أقوال عديدة: قال بعض: إنّه «ارميا». وقال آخرون: إنّه «الحضر». إلّا أنّ أشهر الأقوال: إنّه «العزيز» وهذا ما يؤيده حديث عن الإمام الصادق عليه السلام. واختلفت الأقوال أيضاً بشأن القرية المذكورة، قال بعض: إنّها «بيت المقدس» التي دمرها نبوخذ نصر، وهو احتمال بعيد. نعود إلى تفسير الآية:

«أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها»

هذه الآية - كما قلنا - تكلمة للآية السابقة التي دارت حول التوحيد. هذه الآية والآيات التالية لها تجسّد مسألة المعاد.

«عروش» جمع عرش وهنا تعني السقف. وخاوية في الأصل بمعنى خالية ولكنها هنا كناية عن الخراب والدمار، فالبيوت العامرة تكون عادةً مسكونة، أما الدور الخالية فإمّا أن تكون قد تهدّمت من قبل، أو أنّها تهدّمت بسبب خلوها من الساكنين، وعليه فإنّ «وهي خاوية على عروشها» تعني أنّ دور تلك القرية كانت كلّها خربة، فسقوفها كانت قد هوت ثم انهارت الجدران عليها، وهذا هو الخراب التام إذ أنّ الانهدام يكون عادةً بسقوط السقف أولاً وتبقى الجدران قائمة بعض الوقت ثم تنهار فوق السقف.

«قال أنتى يحبي هذه الله بعد موتها»

الظاهر أنّ أحداً لم يكن مع النبي في هذه الواقعة، فهو بهذا يخاطب نفسه. بديهي أنّ القرية هنا تعني أهل القرية، وهذا يعني أنّه كان يرى عظام أهل القرية بعينيه، فأشار إليها وهو ينطق بتساؤله.

«فأماته الله مائة عام ثم بعثه»

يرى أكثر المفسرين أنّ هذه الآية تعني أنّ الله قد أمات النبي المذكور مدة مائة سنة ثم أحياه بعد ذلك، وهذا ما يستفاد من كلمة «أماته». إلّا أنّ صاحب تفسير المنار يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى نوع من النوم الطويل المعروف عند بعض الحيوانات المسمّى بالسبات.



حيث يفظ الكائن الحي في نوم عميق وطويل دون أن تتوقف فيه الحياة، كالذي حدث مثلاً عند أصحاب الكهف.

وإذا كان النوم لبضع سنوات ممكناً، فهو على رأي صاحب المنار ممكن أيضاً لمائة عام وإن لم يكن اعتيادياً. ويلزم في قبول الخوارق أن تكون ممكنة لا محالة عقلاً.

ولكن ليس في هذه الآية ما يدل على صحة هذا القول، بل أنّ ظاهر الآية يدل على أنّ النبي قد فارق الحياة، وبعد مائة سنة استأنف الحياة مرة أخرى. ولا شك أنّ موتاً وحياتاً كهذين هما من خوارق العادات، وإن لم يكن مستحيلاً. وعلى كلّ حال فإنّ الحوادث الخارقة للعادة في القرآن ليست منحصرة بهذه الحادثة بحيث نعمد إلى تأويلها.

نعم نستطيع في هذا المجال ذكر مسألة النوم الطويل الطبيعي أو السبات الشتوي لبعض الحيوانات التي تنام خلال أشهر الشتاء وتستيقظ عند انخفاض حدّة البرد، أو مسألة انجماد بعض الحيوانات انجماداً طبيعياً، أو تجميد بعض الأحياء على يد البشر لمدد طويلة دون أن تموت، كلّ ذلك لتقريب فكرة الاماتة والأحياء مدّة عام إلى الأذهان، ويكون ذكر هذه المسائل بهدف الخروج بالنتيجة التالية:

إنّ الله القادر على إبقاء الأحياء مئات السنين في نوم طويل أو انجماد ثم إيقاظها وإعادةها إلى حالتها الأولى هو قادر على إحياء الموتي.

إننا بقبولنا أصل المعاد وإحياء الموتي في البعث وكذلك بقبول خوارق العادات والمعجزات على أيدي الأنبياء ليس ثمة ما يدعوننا إلى محاولة تفسير جميع آيات القرآن بسلسلة من المسائل العادية والطبيعية مخالفين بذلك ظاهر الآيات، فهذا ليس صحيحاً ولا لزوم له.

«قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم»

يسأل الله نبيه في هذه الآية عن المدّة التي قضاها في النوم، فيتردّد في الجواب بين قضائه يوماً كاملاً أو جزءاً من اليوم. يستفاد من هذا التردّد أنّ الساعمة التي أماته الله فيها تختلف عن الساعة التي أحياه فيها من ساعات النهار، كأن تكون إماتته قد حدثت مثلاً قبل الظهر، وأعيد إلى الحياة بعد الظهر. لذلك انتابه الشكّ أن كان قد نام يوماً كاملاً بليله ونهاره، أم أنّه لم يتم سوى بضع ساعات من النهار. ولهذا بعد أن قال إنّه قضى يوماً، راوده الشكّ فقال «أو بعض يوم». ولكنته ما لبث أن سمع الله يقول له: «بل لبثت مائة عام».

«فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه»

لم يتسنه من السنة، أي لم تمض عليه مدة سنة، لعدم تعفنه وتفسخه. وعلى ذلك يكون معنى الآية: لاحظ طعامك وشرابك تجده كأنه لم تمض عليه سنة ولا مدة زمنية، فلم يتغير، أي أن الله القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسخ والفساد كالطعام والشراب، قادر أيضاً على إحياء الموتي بيسر. فإبقاء الطعام والشراب نوع من إدامة الحياة لهذه المواد السريعة التفسخ، وعملية الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتي!

إلا أن الآية لا تشير إلى ماهية طعام النبي وشرابه. يقول بعض: إن طعامه كان فاكهة التين وكان شرابه عصير بعض الفواكه، وكلاهما يسرع إليه الفساد والتفسخ، كما هو معلوم، لذلك فإن بقاءهما هذه المدة الطويلة دو تلف أمر مهم.

«وانظر إلى حمارك»

لم يذكر القرآن عن حماره شيئاً في الآيات السابقة إلا أن الآيات التالية تشير إلى أن حماره قد تلاشى تماماً بمضي الزمان، ولولا ذلك لما كان هناك ما يشير إلى انقضاء مائة سنة، وهذا أمر عجيب أيضاً، لأن حيواناً معروفاً بطول العمر يتلاشى على هذه الصورة بينا الذي يطرأ عليه التفسخ السريع كالفاكهة وعصيرها لم يتغير لا في الرائحة ولا في الطعم، وهذا منتهى الاظهار لقدرة الله.

«ولنجعلك آية للناس»

أي أن حكايتك هذه ليست آية لك وحدك بل هي كذلك للناس جميعاً.

«وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً»

النشوز هو الارتفاع والبروز، ويعني هنا نقل العظام من مكان إلى آخر وتركيبها ببعض. فعنى الآية يكون: انظر إلى هذه العظام النخرة كيف نقلها من مواضعها ونبط بعض ببعض ثم نغطيها باللحم ونحييها. واضح أن العظام المقصودة هي عظام حماره المتلاشي،

١ - الضمير في «لم يتسنه» مفرد وعائده مثنى: الطعام والشراب، وأنها أفرد لقصد الجنس،

فكلاهما من جنس واحد.

لا عظام أهل القرية لما في ذلك من انسجام مع الآيات السابقة.

«فلما تبين له قال أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير»

عندما اتّضحت كلّ هذه المسائل للنبي المذكور قال إنه يعلم أنّ الله قادر على كلّ شيء. لاحظ أنه لم يقل: الآن علمت كقول زليخا بشأن يوسف «الآن حصحص الحق»، بل قال «أعلم» أي انني أعترف الآن بعلمي.

\*\*\*



## الآية

٢٦٠ - «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

## التفسير

يذكر معظم المفسرين وكتاب التاريخ في تفسير هذه الآية الحكاية التالية:  
مر إبراهيم عليه السلام يوماً على ساحل البحر، فرأى جيفة مرمية على الساحل، نصفها في الماء ونصفها على الأرض تأكل منها الطيور وحيوانات البر والبحر من الجانبين، وتتنازع أحياناً فيما بينها على الجيفة. عند رؤيه إبراهيم عليه السلام هذا المشهد خطرت مسألة يود الجميع لو عرفوا جوابها، وهي كيفية عودة الأموات إلى الحياة بعد موتها، قال في نفسه: لو حصل مثل هذا لجثة إنسان وأصبح طعاماً يؤلف جزء من أجسام حيوانات كثيرة فكيف يحصل البعث ويعود ذلك الجسد الانساني نفسه إلى الحياة؟

فخاطب إبراهيم عليه السلام الله وقال «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» فأمره الله أن يأخذ أربعة طيور ويخلط لحمها ثم يقسمها ويضع كل قسم على جبل، ثم يدعو الطيور إليه، وعندئذ سوف يرى مشهد يوم البعث. فامتثل للأمر واستولت عليه الدهشة لرؤية أجزاء الطيور تتجمع وتأتيه من مختلف النقاط وقد عادت إليه الحياة.

وثمة تفسير آخر للآية نقله الفخر الرازي عن أبي مسلم، يخالف آراء بقية المفسرين، نقله هنا لأن مفسراً معاصراً هو صاحب المنار قد اختار هذا الرأي.

يقول صاحب المنار نقلاً عن أبي مسلم: ليس في الكلام ما يدل على أنه فعل ذلك، وما كل أمر يقصد به الامتثال، فإن من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر لا سيما إذا أريد زيادة

البيان، كما إذا سألك سائل: كيف يصنع الخبر مثلاً؟ فتقول: خذ كذا وكذا وافعل به كذا وكذا يكن خبراً. تريد هذه كَيْفِيَّتَهُ ولا تعني تكليفه صنع الخبر بالفعل.

قال: وفي القرآن كثير من الأمر الذي يراد به الخبر. والكلام هاهنا مثل لإحياء الموتى. ومعناه خذ أربعة من الطير فضّمها إليك وأنسها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإنّ الطيور من أشدّ الحيوانات استعداداً لذلك، ثم اجعل كلّ واحدة منهنّ على جبل ثم ادعها فإنّها تسرع إليك، ولا يمنعها تفرّق أمكنتها وبعدها من ذلك. كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى، يدعوهم بكلمة التكوين (كونوا أحياء) فيكونوا أحياء، كما كان شأنه في بدء الخلق «إذ قال للسموات والأرض اثبتا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين».

ودليل أبي مسلم على ما ذهب إليه:

١ - إنّ المشهور في اللغة في قوله «فصرهنّ» أملهنّ، وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدلّ عليه.

٢ - لو كان المراد بـ«صرهنّ» قطعهنّ لم يقل «إليك» فإنّ ذلك لا يتعدى بـ«إلى».

٣ - إنّ الضمير في قوله «ثم ادعهنّ» عائد إليها لا إلى أجزائها.

سيأتي الردّ على هذه الاستدلالات خلال تفسير الآية. وتلزم الإشارة هنا إلى أنّ إبراهيم عليه السلام ظنّ أن يرى مشهد البعث رؤية حسّية لكي يطمئنّ قلبه. ولا شك أنّ ضرب المثل أو التشبيه لا يجسّد مشهداً، ولا يكون مدعاةً لتطمين الخاطر. لقد كان إبراهيم عليه السلام مقتنعاً عقلياً ومنطقياً بالبعث، ولكنّه كان يريد أن يدرك ذلك عن طريق الحسّ أيضاً.

والآن نبدأ بتفسير الآية ليتضح لنا أيّ التفسيرين أقرب وأنسب:

«وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى»

سبق أن قلنا إنّ هذه الآية تكملّة للآية السابقة في موضوع البعث، يفيد تعبير «أرني كيف...» أنّه طلب الرؤية والشهود عياناً لكيفية حصول البعث لا البعث نفسه.

«قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي»

كان من الممكن أن يتصور بعضهم أنّ طلب إبراهيم عليه السلام هذا إنّما يدلّ على تزلزل إيمان إبراهيم عليه السلام، وإزالة هذا التوهم أوحى إليه السؤال: «أو لم تؤمن؟» لكي

يأتي جوابه موضحاً الأمر، ومزياً كلّ التباس قد يقع فيه البعض في تلك الحادثة، لذلك أجاب إبراهيم عليه السلام «بلى ولكن ليطمئن قلبي». يفهم من هذه الآية أيضاً على أنّ الاستدلالات العملية والمنطقية قد تؤدي إلى اليقين ولكنها لا تؤدي إلى اطمئنان القلب، إنها ترضي العقل لا القلب ولا العواطف. إنّ ما يستطيع أن يرضي الطرفين هو الشهود العيني والمشاهد الحسيّة. هذا موضوع مهمّ سوف نزيده إيضاحاً في موضعه.

«قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثم اجعل على كلّ جيلٍ منهنّ جزءاً»

«صرهنّ» من الصورى أي الميل، فيكون معنى الفعل: أملهنّ. وقيل إنّ المعنى قطعهنّ، وقيل: صح بهنّ، ومعنى التقطيع أنسب، أي خذ أربعة من الطير واذهبهنّ وقطعهنّ واخلفهنّ.

لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجاً من البعث وعودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها. وهذا لا يتلف مع أملهنّ ولا مع صح بهنّ وعلى الأخصّ ما يأتي بعد ذلك «ثم اجعل على كلّ جيلٍ منهنّ جزءاً» وهذا دليل على أنّ الطيور قد قطعت أولاً وصارت أجزاء. ولعلّ الذين قالوا إنّ «صرهنّ إليك» تعني استمالتهنّ وایناسهنّ قد غفلوا عن لفظة «جزءاً» هذه.

#### ملاحظات

١ - لا شك أنّ الطيور الأربعة كانت من أربعة أنواع مختلفة، وإلا فإنّ هدف إبراهيم عليه السلام من عودة كلّ جزء إلى أصله لا يتحقّق. وفي بعض الروايات أنّ هذه الطيور كانت طاووساً وديكاً وحمامةً وغباباً، فكان الاختلاف بينها كبيراً ويرى بعض أنّها مظهر للصفات والخصال المختلفة في البشر. فالطاووس يمثّل العجب والخيلاء والتكبر، والديك يمثّل الرغبات الجنسية الشديدة، والحمامة تمثّل اللهو واللعب، والغراب يمثّل الآمال والمطامح البعيدة.

٢ - لم يرد في القرآن ذكر عدد الجبال التي وضع عليها إبراهيم أجزاء الطيور، ولكن الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام تقول أنّها عشرة. ولهذا قيل: إنّ من يوصي بإنفاق جزء من أمواله في أمر من الأمور دون تعيين النسبة فإنّ صرف عشرة بالمائة



يكفي<sup>١</sup>.

٣ - متى وقعت هذه الحادثة؟ أوقعت عندما كان إبراهيم في بابل أم بعد نزوله بالشام؟ يظهر أنّ ذلك قد حدث في الشام، لأنّ منطقة بابل خالية من الجبال.

«ثم ادعهنّ يأتينك سعياً»

عندما دعاهنّ تجمعت أجزاءهنّ وتركبت وعادت إلى الحياة، لا شك أنّ هذا أمر خارق للعادة، ولكن عندما نؤمن بأنّ الله هو الحاكم على قوانين الطبيعة، وليس محكوماً لها، فالمسألة تصبح واضحة.

ويرى بعضهم أنّ «سعياً» تعني أنّ الطيور بعد أن عادت إليهنّ الحياة لم يطرن بل مشين مشياً إلى إبراهيم عليه السلام، لأنّ السعي هو المشي السريع. وينقل عن الخليل بن أحمد أنّ إبراهيم عليه السلام كان يمشي عندما جاءت إليه الطيور - أي أنّ «سعياً» حال من إبراهيم لامن الطيور - ولكن بالرغم من كلّ هذا فليس ثمة ما يمنع أن تكون «سعياً» كناية عن الطيران السريع.

«واعلم أنّ الله عزيز حكيم»

بعد أن رأى إبراهيم ذلك المشهد المدهش أوحى إليه أن: انظر إلى هذا المشهد إنّ الله على كلّ شيء قدير، وإنّ أعماله كلّها حكيمة، فهو بعلمه وقدرته اللامتناهيتين لا تصعب عليه معرفة أجزاء الطيور المتفرقة المختلفة، ولا جمعها وتركيبها.

وقفات

المعاد الجسماني

معظم الآيات الواردة في القرآن المجيد بشأن البعث تشرح وتوضح المعاد الجسماني. إنّ العلم بالمفاهيم القرآنية الخاصة بالمعاد يعلم أنّ ما يذكره القرآن هو المعاد الجسماني فقط، أي عندما يبعث الناس يكون البعث للجسم والروح معاً. لذلك فالقرآن يعبر عن ذلك بأنّه إحياء الموتى، ولو كان البعث يقتصر على الروح،

لما كان للإحياء أي مفهوم.  
وهذه الآية تشرح بكلّ وضوح كيفية تجمّع أجزاء الجسد المتناثرة، وهو مارآه إبراهيم عليه السلام بعينه.

### شبهة الاكل والمأكول

من الشرح الذي أوردناه عمّا حدا بإبراهيم عليه السلام إلى طلب مشاهدة إحياء الموتى حكاية الجيفة التي كان يأكل منها حيوانات البر والبحر نفهم أنّ اهتمام إبراهيم عليه السلام كان منصباً على أن يعرف كيف يمكن إرجاع جسد ميت إلى حالته الأولى بعد أن اكلته الحيوانات وأصبح جزءاً من أجساد تلك الحيوانات؟ وهذا ما يطلق عليه في علم العقائد اسم شبهة الاكل والمأكول.

لتوضيح ذلك نقول: إنّ الله سبحانه يعيد الانسان في يوم القيامة بهذا الجسد المادي. وبعبارة أخرى يعود جسم الانسان وتعود روحه أيضاً.

في هذه الحالة يبرز تساؤل يقول: إذا استحال جسد الانسان إلى تراب، وامتنعت جذور الأشجار والنباتات وأصبح ثمراً اكله إنسان آخر وغدا جزءاً من جسده. أو إذا افترضنا مثلاً سنوات قحط شديدة اكل فيها إنسان لحم إنسان، فإلى أيّ جسد ستعود هذه الأجزاء المأكولة؟ فإذا غدت جزء من الجسد الأول أصبح الجسد الثاني ناقصاً، وإن بقيت جزء من الجسد الثاني نقص الأول أو انعدم.

### الجواب:

هذا الاعتراض القديم أجاب عليه الفلاسفة وعلماء العقائد إجابات مختلفة لا نرى ضرورة لدرجها جميعاً هنا. وهناك آخرون لم يستطيعوا أن يعثروا على جواب مقنع، فراحوا يؤولون الآيات المرتبطة بالمعاد الجسماني وعمدوا إلى اعتبار شخصية الانسان منحصرة بالروح والخصائص الروحية، مع أنّ شخصية الانسان لا تنحصر بالروح فقط، ولا الآيات الخاصة بالمعاد الجسماني غامضة بحيث يمكن تأويلها، بل هي صريحة صراحة قاطعة كما قلنا.

وهناك غيرهم قالوا بنوع من المعاد الجسماني الذي لا يختلف كثيراً عن المعاد الروحاني. إلا أننا نجد أمامنا طريقاً أكثر وضوحاً بالاعتماد على النصوص القرآنية ويتفق مع ما توصل إليه العلم الحديث، ويحتاج توضيحه إلى عدّة مقدمات.

١ - إننا نعلم أنّ أجزاء جسد الانسان تتبدّل مرّات عديدة من الطفولة إلى الموت، حتى خلايا الدماغ التي لا تتغيّر من حيث العدد، تتغيّر من حيث الأجزاء، فهي من جهة تتغذّى ومن جهة أخرى تتجزّأ، وهذا نفسه يؤدي إلى تبديلها الكامل على مدى الزمن، بحيث إنّ بعد مرور عشر سنوات لا تبقى أية ذرّة من ذرّات الجسم القديمة.

ولكن الذرّات السابقة عندما تكون على أعتاب الهلاك تنقل جميع خواصّها وآثارها إلى الخلايا الجديدة، لذلك فإنّ مميّزات الانسان الجسمية كالطول والشكل والهيئة وغيرها من الكيفيات الجسمانية تبقى ثابتة على مرور الزمان، وهذا لا يكون إلّا بانتقال هذه الصفات إلى الخلايا الجديدة، لاحظ هذا بدقّة.

وعليه فإنّ الأجزاء الأخيرة من كلّ إنسان، إذ تتبدّل بعد الموت إلى تراب، تكون حاوية على مجموعة من الصفات التي اكتسبتها على امتداد عمرها، فهي تاريخ ينطق بمسيرة جسم الانسان على امتداد العمر كلّ.

٢ - صحيح أنّ الروح هي الأساس الذي تبنى عليه شخصية الانسان ولكن ينبغي أن نعرف أنّ الروح تتكامل وتتربّي بالجسم، وهما يتبادلان التأثير. لذلك فكما أنّ جسدين لا يتشابهان من جميع الجهات كذلك لا تشابه روحان من جميع الجهات أيضاً.

ولهذا السبب فإنّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلاً كاملاً إلّا مع الجسد الذي تربّت وتكاملت معه. لذلك ففي البعث لابدّ من حضور الجسد السابق نفسه لكي تستطيع الروح الاندماج به وتستأنف نشاطها في عالم أسمى، ولتجني ثمار أعمالها.

٣ - تتمثّل في كلّ ذرّة من ذرّات الجسم جميع صفاته، أي أنّنا لو أمكننا أن نربي كلّ خلية من خلايا جسم الانسان لتصبح إنساناً كاملاً، فإنّ ذلك الانسان سوف يحمل جميع صفات الانسان الذي أخذ منه هذا الجزء، لاحظ بدقّة.

أكان في اليوم الأوّل أكثر من خلية واحدة؟ خلية النطفة التي كانت تحمل جميع الصفات، ثم راحت كلّ خلية تنشطر إلى خليتين على التوالي حتى اكتملت جميع خلايا الجسم؟ وعليه فإنّ كلّ خلية في جسم الانسان هي جزء من الخلية الأولى بحيث لو أنّها تربّت لاستحالت إلى إنسان شبيه بالأوّل يحمل صفاته من جميع الجهات.

والآن مع أخذ هذه المقدمات الثلاث بنظر الاعتبار نباشرنا بإجابة على الاعتراض المذكور.

في القرآن آيات تقول بوضوح: إنّ الذرّات الموجودة في جسم الانسان عند الموت هي



التي تعود إلى ذلك الجسد يوم القيامة<sup>١</sup>. فإذا كان شخص آخر قد طعم من لحمه فإنّ الأجزاء التي طعمها تنفصل عنه وتعود إلى الجسم الأصلي، كلّ ما في الأمر أنّ جسم الشخص الآخر يصبح ناقصاً، ولكن ينبغي أن نقول إنّه لا ينقص، بل يصغر، لأنّ أجزاء الجسم المأكول تكون قد انتشرت في كلّ أجزاء الجسم الآكل، ولذلك فإنّ الجسم الآكل حين تُسترجع منه الأجزاء ينحف ويصغر بنسبة ما يؤخذ منه. فالذي يزن ستين كيلو غراماً، مثلاً، حين يؤخذ منه أربعون كيلو غراماً لتعطى للشخص الأول يصغر بحيث لا يزيد على وزن طفل.

وهل يسبّب هذا مشكلة؟ كلّاً طبعاً، لأنّ هذا الجسد الصغير يكون حاوياً على جميع صفات الشخص دون زيادة ولا نقصان، وعند البعث يكون كالطفل الذي يولد صغيراً ثم ينمو ويكبر ويحشر بهيئة إنسان كامل. وليس في هذا النوع من النمو عند البعث أيّ إشكال عقلي أو نقلي.

هل هذا النمو عند البعث فوريّ أم تدريجيّ؟ هذا ما لا نعلمه، ولكن الذي نعلمه هو أنّه سواء أكان هذا أم ذاك، فلا يثير أيّة مشكلة، والمسألة محلولة في كلتا الحالتين. ويبقى سؤال واحد، وهو: إذا كان كلّ جسد الشخص الآكل مكوّناً من أجزاء جسد الشخص المأكول، فما العمل؟

الجواب بسيط لأنّ حالة كهذه مستحيلة الوجود، ففضية الأكل والمأكول تقتضي أن يكون هناك أولاً جسد معيّن ثم يتغذى على جسد آخر وينمو، وعلى هذا فلا يمكن أن تكون جميع أجزاء جسم الآكل متكوّنة من أجزاء جسم المأكول، إذ ينبغي أن نفترض أولاً وجود جسم سابق حتى يمكن أن يتغذى على جسم آخر، وعليه فإنّ جسم الثاني سوف يكون جزء من جسم الأول لا كلّهُ، فتأمل.

يتضح من هذا الشرح أنّ مسألة المعاد الجسماني بجسم الانسان نفسه ليس فيه أيّ إشكال، ولا حاجة إلى تأويل الآيات الصريحة في إثبات هذا الموضوع.

\*\*\*

## الآية

٢٦١ - «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

## التفسير

### الإنفاق محلّ مشكلة الفوارق الطبقيّة

من المشاكل الكبرى التي عانى الانسان منها دوماً، ولازال يعاني رغم كلّ ماحقته البشر من تقدّم صناعي ومادّي هي مشكلة التباين الطبقي المتمثلة بالفقر المدقع في جانب وتراكم الثروة في جانب آخر.

إنك لترى بعضهم يكتنز من الثروة بحيث إنه لا يستطيع أن يحصيها، وترى بعضهم من الفقر في عذاب ممض بحيث لا يستطيع أن يجد حتى الضروريّ اللازم لحياته كالحدّ الأدنى من الغذاء والملبس والمأوى.

لاشكّ أنّ المجتمع الذي يقوم قسم من بنيانه على الغنى الفاحش، والقسم الأعظم على الفقر المدقع والجوع القاتل، لا دوام له، ولن يصل إلى السعادة الحقيقية أبداً. إنّ مجتمعاتنا بهذا يسوده حتماً الملح والاضطراب والقلق والخوف وسوء الظن، ومن ثمّ العداة والصراع. هذا التباين الطبقي الذي كان موجوداً في القديم قد تفسّش فينا اليوم - مع الأسف - بأكثر وأخطر ممّا سبق، ذلك لأنك تجد أبواب التعاون الانساني الحقيقي قد أغلقت بوجوده الناس وفتحت بمكانها أبواب الربا الفاحش الذي هو من أهمّ أسباب اتّساع الهوة الطبقيّة بين الناس على اختلاف أنواعه، ولا أدلّ على ذلك من ظهور الشيوعية وأمثالها، وإراقة الدماء في أنواع الحروب المروعة التي اندلعت في قرننا الأخير وما زالت مندلعة هنا وهناك في أنحاء مختلفة من العالم، ومعظمها ذات منشأ اقتصادي وردّ فعلٍ لحرمان أكثرية شعوب العالم.

سعى العلماء والمذاهب الاقتصادية في العالم للبحث عن علاج، واختار كلّ طريقاً، فالشيوعية اختارت إلغاء الملكية الفردية، والرأسمالية اختارت طريق استيفاء الضرائب

الثقيلة وانشاء المؤسسات الخيرية العامة (وهي شكلية اكثر من كونها حلاً لمشكلة الطبقة)، ظانين أنهم بذلك يكافحون هذه المشكلة، لكن أياً من هؤلاء لم يستطع في الحقيقة أن يخطو خطوة فعالة في هذا السبيل، وذلك لأنّ حلّ هذه المشكلة غير ممكن، ضمن الروح المادية التي تسيطر على العالم.

بالتدقيق في آيات القرآن الكريم يتّضح أنّ واحداً من الأهداف التي يسعى لها الاسلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلة الناشئة من الظلم الاجتماعي بين الطبقتين الغنية والفقيرة، ورفع مستوى معيشة الذين لا يستطيعون رفع حاجاتهم الحياتية ولا توفير حد أدنى من متطلباتهم اليومية دون مساعدة الآخرين. وللوصول إلى هذا الهدف وضع الاسلام برنامجاً واسعاً يتمثل بتحريم الربا مطلقاً، وبوجوب دفع الضرائب الاسلامية كالزكاة والخمس، والحثّ على الانفاق، وقرض الحسنه، والمساعدات المالية المختلفة، وأهمّ من هذا كلّهُ هو إحياء روح الاخوة الانسانية في الناس.

«مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة»

يقول بعض المفسرين: إنّ المقصود بالإنفاق هنا هو الإنفاق في الجهاد نظراً لورود ذكر الجهاد قبل بضع آيات، ولكن هذا لا يوجب التخصيص لأنّ «سبيل الله» الذي ورد مطلقاً يشمل كلّ إنفاق حسن. ثم إنّ الآيات التالية تبحث موضوعاً يختلف عن موضوع الجهاد، وهو موضوع «الإنفاق» بصورة مستقلة، كما أنّ الروايات تشير إلى المعنى العام للآية كما نقل صاحب تفسير مجمع البيان.

في هذه الآية يشبه الله المنفقين في سبيله بالبذرة التي تزرع في أرض خصبة مع أنّ التشبيه ينبغي أن يكون بين الإنفاق نفسه والبذرة، أو ينبغي تشبيههم بالفلاح الذي يبذر البذرة في الأرض. لذلك يقول المفسرون: ينبغي تقدير شيء محذوف في الآية مثل كلمة «صدقات» قبل الذين أو كلمة «بأذر» قبل حبة.

ولكن ليس هناك أيّ دليل على شيء محذوف يستوجب التقدير، بل أنّ تشبيه المنفقين بحبات كثيرة البركة تشبيه رائع وعميق يريد القرآن أن يقول: إنّ عمل كلّ إنسان انعكاس عن وجوده.

وكلّما اتّسع العمل اتّسع في الواقع وجود ذلك الانسان، ألا تعتبر أعمال كلّ انسان تغييراً شكلياً لقواه ومواده الجسمية!؟



وبعبارة أوضح: لا يفصل القرآن عمل الانسان عن وجوده بل يرى الانسان وعمله مظهرين مختلفين لحقيقة واحدة. لذلك فإن الآية قابلة للتفسير بغير أن نفترض محذوفاً مقدراً. فالآية إشارة إلى حقيقة عقلية، أي أنّ مثل هؤلاء المنفقين كممثل البذور الكثيرة الثمر التي ترسل جذورها وأغصانها إلى جميع الجهات وتفيض ببركتها على كلّ الأرجاء.

«أثبتت سبع سنابل في كلّ سنبله مائة حبة»

يصف الله في هذه الآية تلك الحبة المباركة بأنّها تخرج سبع سنابل وفي كلّ سنبله مائة حبة، وهكذا فهي تسبق أصلها سبعمائة مرة.

هل هذا تشبيه افتراضي، وهل توجد حبة تنتج سبعمائة حبة؟ أم أنّ المقصود نوع خاص من الحبوب (كالدخن) التي تعطي هذا القدر من الناتج؟  
يقال إنّ هذا العدد لم يشاهد في القمح وأمثاله، ويلفت النظر أنّ الصحف كتبت أخيراً أنّ بعض مزارع القمح أنتجت في سنوات الخصب سنابل طويلة يحمل بعضها نحواً من أربعة الآف حبة، وهذا يدلّ على أنّ تشبيه القرآن واقعي حقيقي.

«والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم»

«يضاعف» من الضعف بوزن شعر، وهو مقدار مرتين أو أكثر، وعليه فإنّ مفهوم الآية يفيد بأنّ الله يزيد هذه البركة لمن يشاء وبالقدر الذي يشاء، مرتين أو أكثر. وقد أشرنا آنفاً إلى وجود حبوب تعطي أضعاف السبعمائة حبة، لذلك فالتشبيه حقيقي..  
وفي آخر الآية إشارة إلى سعة الله وعلمه بكلّ شيء، لكي يدرك المنفقون أنّ الله يعلم أعمالهم ونياتهم وقادر على أن يفيض عليهم بكلّ نعمة.

## الآية

٢٦٢ - «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

## التفسير

### الإففاق المأجور

الإففاق في سبيل الله ذكر في هذه الآية مطلقاً أيضاً ليشمل كل عمل صالح.

«ثم لا يتبعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذى»

يتبين من هذا أن الإففاق في سبيل الله لا يكون مقبولاً إلا إذا ابتعد عن المنّ على محتاجيه أو الأذى الذي يصيبهم من جراء ذلك .  
وعليه فإنّ من ينفق ماله في سبيل الله، ولكنته يمنّ به على الذين ينفقه عليهم، أو ينفقه بأسلوب يوجب الأذى والألم للآخرين يكون بعمله غير الحميد هذا قد حرم نفسه عن الثواب.

إنّ ما يثير الاهتمام أكثر في هذه الآية هو أنّ القرآن لا يعتبر رأسمال الانسان في الحياة مقتصرأ على رأس المال المادي، بل يحسب حساب رؤوس الأموال المعنوية والاجتماعية أيضاً.

إنّ من يعطي شيئاً لأحد ويمنّ عليه به أو يقوم بما يثير الألم في نفس المعطي له ويخرج عواطفه فإنّه لا يكون قد أعطاه شيئاً في الواقع، لأنّه إذا كان قد أعطاه رأسمال، فإنّه قد أخذ منه رأسمال أيضاً، بل لعلّ المنة التي يمنّ بها عليه ونظرة التحقير التي ينظرها إليه ذات أضرار باهضة يفوق ثمنها ما أنفقه من مال.

إذا لم ينل أمثال هؤلاء الأشخاص أيّ ثواب على إنفاقهم هذا فهو أمر طبيعي وعادل. وقد يصحّ القول إنّ هؤلاء في كثير من الأحوال هم المدينون لا الدائنون لأنّ كرامة

الانسان أغلى بكثير من أي مال وثروة.

ولاحظ في الآية إنَّ كلمتي المَنَّ والأذَى مسبوقتان بـ(ثم) التي تفيد التراخي، أي وجود فترة زمنية بين فعلين. فيكون معنى الآية: إن الذين ينفقون، وبعد ذلك لا يمتنون على أحد ولا يؤذون أحداً يكون ثوابهم محفوظاً عند الله.

يعني هذا ضرورة الابتعاد عن المَنَّ والأذَى لا في حالة الإنفاق فحسب، بل عليه أن لا يمينَ عليه في أوقات تالية عن طريق تذكير المنفق عليه بالإنفاق، وهذا دليل على الدقة المتناهية التي يبتغيها الاسلام من الخدمات الاسلامية الخالصة.

لابد من القول إنَّ المَنَّ والأذَى اللذين يحبطان قبول الإنفاق لا يختصان بالإنفاق على الفقراء فقط بل تجبها لازم في جميع الأعمال العامة والاجتماعية كالجهاد في سبيل الله والأعمال ذات المنفعة العامة التي تتطلب بذل المال.

«لهم أجرهم عند ربهم»

تطمئن هذه الآية المنفقين أن أجرهم محفوظ عند الله لكي يواصلوا هذا الطريق بثقة ويقين.

فما كان عند الله باقي ولا ينقص منه شيء، بل أن إضافة «رب» إلى «هم» قد يشير إلى زيادة الأجر ونموه.

«ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»

سبق أن قلنا إنَّ الخوف يكون من المستقبل، والحزن على ما مضى. وعليه فإن المنفقين بعلمهم أنَّ جزاءهم محفوظ عند الله لن ينتابهم الخوف من يوم البعث الآتي، ولا هم يحسّون بالحزن على ما أنفقوه في سبيل الله.



## الآية

٢٦٣ - «قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَلِيمٌ».

## التفسير

هذه الآية تكمل ما بحثته الآية السابقة، فتقول إنَّ عمل من يتعامل مع أرباب الحاجات بالقول الحسن والأخلاق الحميدة ولا يواجه إصرارهم وإلحاحهم وإن كان خشناً - إلا بالعفو- خير من الإنفاق الذي يكون معه أذى.

تبيّن هذه الآية منطق الاسلام في قيمة الأشخاص الاجتماعية وكرامتهم، وترى أن أعمال الذين يسعون في حفظ رؤوس الأموال الانسانية، ويعاملون المحتاجين باللطف ويقدمون لهم التوجيه اللازم، ولا يفشون أسرارهم، أفضل وأرفع من إنفاق أولئك الأنانيين ذوي النظرة الضيقة الذين إذا قدموا عوناً صغيراً يتبعونه تجريح الناس المحترمين وتحطيم شخصياتهم. في الحقيقة إن أمثال هؤلاء الأشخاص ضررهم أكثر من نفعهم، فهم إذا أعطوا ثروة عرضوا ثروات للإبادة والضياع.

يتّضح ممّا قلناه إنَّ لتعبير «قول معروف» مفهوماً واسعاً يشمل كلّ أنواع القول الطيب والتسليّة والتعزية والارشاد.

المغفرة بمعنى العفو بإزاء خشونة المحتاجين، أولئك الذين طفق كيل صبرهم بسبب تراكم الابتلاءات عليهم، فنزل ألسنتهم أحياناً بالخشن من القول ممّا لا يودّونه قليلاً. هؤلاء بعنفهم هذا إنمّا يريدون أن ينتقموا من المجتمع الذي ظلمهم وغمط حقوقهم، فأقلّ ما يمكن للمجتمع الثري أن يقابل به حرمان هؤلاء المحرومين هو أن يتحمّل منهم اندفاعاتهم اللفظية التي هي شرر النار التي تستعر في قلوبهم فتنتقل على ألسنتهم.

لاشكّ أن تحمّل عنفهم وخشونتهم والعفو عنها يخفّف عنهم ضغط عقديهم النفسية، وبهذا تتضح أكثر أهمية هذه الأوامر الإلهية.

يرى بعض أن المغفرة يُقصد بها هنا المعنى الأصلي وهو السر والإخفاء. أي سر أسرار المحتاجين الذين لهم كرامتهم مثل غيرهم. غير أن هذا التفسير لا يتعارض مع ما قلناه، لأننا إذا فسرنا المغفرة بمعناها الأوسع فهي تشمل العفو كما تشمل السر والإخفاء أيضاً.

جاء في تفسير نور الثقلين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا سألت السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردوا عليه بوقار ولين إما ببذل يسير أو رد جميل، فإنه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جانٍ ينظرونكم كيف صنيعكم فيما حوّلكم الله تعالى»<sup>١</sup>

في هذا الحديث يبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جانباً من آداب الإنفاق.

### والله غنيّ حلیم

إن العبارات القصيرة التي تأتي في ختام الآيات عادةً وتورد بعض صفات الله تعالى ترتبط حتماً بمضمون الآية نفسها. وعلى هذا فمن الممكن أن يكون المقصود من «والله غنيّ حلیم» هو: أن الانسان ظالم بالطبع، ولذلك فإنه إذا نال منصباً وحصل ثروةً حسب نفسه غنياً ولم يعد بحاجة إلى الآخرين، وقد تحذو به هذه الحالة إلى استعمال الخشونة والتهجم ضدّ المحرومين والمحتاجين. لذلك يقول القرآن إن الغنيّ بذاته هو الله، فالله هو وحده الغنيّ الذي لا يحتاج شيئاً، أما إحساس البشر بأنه غنيّ فسراب خادع، لا ينبغي أن يؤدي إلى الطغيان والتعالي على الفقراء. ثم إن الله حلیم بالنسبة للذين لا يشكرون، فعلى المؤمنين أن يكونوا كذلك أيضاً.

وقد تكون الآية إشارة إلى أن الله غنيّ عن إنفاقكم. وأن ماتنفقونه إنما هو خيركم أنفسكم فلا تمتوا على أحد. ثم إن الله حلیم باتجاه خشونتك ولا يتعجل معاقبتكم لعلمكم تستيقظون وتصلحون أنفسكم.

\*\*\*

## الآيتان

٢٦٤ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

٢٦٥ - «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَنَشِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبَوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَظَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

## التفسير

### دوافع الإنفاق ونتائجه

في هاتين الآيتين نهي للمؤمنين عن المنِّ والأذى عند إنفاقهم في سبيل الله، لأن ذلك يحبط أعمالهم. ثم يضرب القرآن مثلاً للإنفاق المقترن بالمنِّ والأذى، ومثلاً آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص والعواطف الانسانية.

تصوّر قطعة حجر صلد تغطيه طبقة خفيفة من التراب، وقد وضعت في هذا التراب بذور سليمة، ثم عرض الجميع للهواء الطلق وأشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك اهتوت على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب والبذور وبعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته وصلابته التي لا تنفذ فيها الجذور، وهذا ليس لأن أشعة الشمس والهواء الطلق والمطر كان لها تأثير سييء، بل لأن البذر لم يزرع في المكان المناسب، ظاهر حسن وباطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه. قشرة خارجية من التربة لا تعين على نمو النبات الذي يتطلب الوصول إلى الأعماق لتتغذى الجذور.

يشبه القرآن الإنفاق الذي يصاحبه الرياء والمته والأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التي تغطي الصخرة الصلدة والتي لا نفع فيها، بل أنها بمظهرها من التربة التي تغطي



الصخرة الصلدة والتي لا نفع فيها، بل أنّها بمظهرها تخدع الزارع وتذهب بأتباعه أدراج الرياح. هذا هو المثل الذي ضربه القرآن في الآية الأولى للإنفاق المرأى الذي يتبعه المنّ والأذى<sup>١</sup>.

### مثال رائع آخر

تصوّر مزرعة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل النسيم الطلق وأشعة الشمس الوفرة والمطر الكثير النافع، وإذا لم يهطل المطر ينزل الطلّ أو المطر الخفيف ليحافظ على طراوة المزرعة ولطافتها وينعها، فتكون النتيجة أنّ مزرعة كهذه تعطى ضعف ماتعطي المزارع الأخرى، فهذه الأرض فضلاً عن كونها خصبة بحيث يكفي الطلّ والمطر الخفيف، ناهيك عن المطر الغزير لا يتناح حاصلها، فضلاً عن كونها تستفيد كثيراً من الهواء الطلق وأشعة الشمس وتلفت الأنظار بجمالها، فإنها لوقوعها على مرتفع تكون في مأمن من أن تجرفها السيول. إنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لتمكّن الإيمان واليقين في قلوبهم وأرواحهم، هم أشبه بتلك المزرعة ذات الحاصل الوافر المفيد والثمين.

### ملاحظات:

- ١ - إنّ عبارة «لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى» تفيد بأنّ بعض الأعمال يمكن أن تبدد نتائج بعض الأعمال الحسنة، وهذا هو الإحباط الذي مرّسره في ذيل الآية ٢١٧ من هذه السورة.
- ٢ - عبارتها «ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم» تبيان دوافع الإنفاق الإلهي السليم وهما دافعان: ابتغاء مرضاة الله، وتقوية روح الإيمان والاطمئنان في القلب. هذه الآية تقول إنّ المنفقين الحقيقيين هم الذين يكون دافعهم رضا الله وتربية الفضائل الانسانية وتثبيتها في الانسان، وإزالة الاضطراب والقلق اللذين يحصلان في نفس المرء بإزاء مسؤوليته نحو المحرومين. وعليه فإنّ «من» في الآية تعني «في» نفوسهم.
- ٤ - وجملته «والله بما تعملون بصير» المذكورة في آخر الآية الثانية تحذير إلى جميع الذين يريدون القيام بعمل صالح كي يأخذوا حذرهم لئلا يخالط عملهم ونيتهم واسلوب عملهم أي تلوث، لأنّ الله يراقب أعمالهم.

---

١ - صفوان: جمع مفردة صفوانة، وتعني الصخرة الصافية. والوايل: هو المطر الشديد الكبير. والصلد: بمعنى الحجر الأملس. وضعفين: تثنية الضعف ولكنه لا يعني أربع مرات بل مرتين مثل زوجين التي تعني طرفين، تأمل بدقة.



## ملاحظتان

١ - يستفاد من «وأصابه الكِبَر وله ذرّة ضعفاء» إنّ الإنفاق في سبيل الله ومدّ يد العون للمحتاجين أشبه بالبستان اليانع الذي ينتفع بثمره صاحبه وأبناؤه أيضاً. ولكن الرياء والمن والأذى لا تحرم صاحبه وحده من ثمرات عمله بل أنّ ذلك يحرم حتى أبنائه والأجيال التالية من بركات تلك الأعمال الصالحات. وهذا دليل على أنّ الأجيال القادمة تشارك الأجيال السابقة في الانتفاع بثمرات العمل الطيب.

وهو كذلك أيضاً على الصعيد الاجتماعي، إذ أنّ المحبوبة والثقة التي ينالها الآباء نتيجة لأعمالهم الصالحة بين الناس، وتكون خير رأسمال لأبنائهم من بعدهم.

٢- عبارة «إعصار فيه نار» قد تكون إشارة إلى رياح السموم التي تحرق الزرع وتحرق المياه، أو الرياح التي تكتسب الحرارة من المرور على الحرائق فتكتسح معها النيران المحرقة وتحملها إلى مناطق أخرى، أو قد تكون إشارة إلى العواصف التي تصاحبها الصواعق فتصيب الأرض وتحيلها إلى رماد، إنها على كلّ حال إشارة إلى إبادة سريعة<sup>١</sup>.

\*\*\*

\*\*\*

١ - الإعصار ريح تثير الغبار، وهي تهب من اتجاهين مختلفين، بحيث إنها تتجه من الأرض عمودياً إلى السماء.



## الآية

٢٦٧ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».

## النزول

عن الصادق عليه السلام أنها نزلت في أقوام لهم رباً في الجاهلية، وكانوا يتصدقون منه، فنهاهم الله عن ذلك وأمر بالصدقة من الطيب الحلال.  
عن علي عليه السلام أنها نزلت في قوم كانوا يأتون بالحشف (وهو أردأ التمر) فيدخلونه في الصدقة<sup>١</sup>.

ليس بين الروایتين أي تعارض، ولعل الآية قد نزلت في كلتا الجماعتين، فالشأن الأول يخص الطهارة المعنوية، ويخص الثاني طيب الظاهر المادي.

ولكن ينبغي الإشارة إلى أن المرابين في الجاهلية امتنعوا عن تعاطي الربا بعد نزول الآية ٢٧٥ من سورة البقرة ولم تحرم عليهم أموالهم السابقة، أي أن الآية لم يكن لها أثر رجعي، ولكن من الواضح أن هذا المال وإن يكن حلالاً، يختلف عن الأموال الأخرى، فكان في الحقيقة أشبه بأموال آتية عن طرق مكروهة.

## التفسير

ما الأموال التي يمكن إنفاقها؟

شرحت الآيات السابقة ثمار الإنفاق، وصفات المنفقين، والأعمال التي قد تبطل أعمال الإنفاق الانسانية في سبيل الله. وهذه الآية تبين نوعية الأموال التي يمكن أن تنفق في سبيل الله.

في بداية الآية يأمر الله المؤمنين أن ينفقوا من (طيبات) أموالهم. والطيب في اللغة هو الطاهر النقي من الناحية المعنوية والمادية، أي الأموال الجيدة النافعة والتي لا شبهة فيها من حيث حليتها. ويؤيد عمومية الآية الروايتان المذكورتان في سبب النزول.

كما أنّ جملة «لستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه» أي أنكم أنفسكم لا تأخذون غير الطيب من المال إلا إذا أغمضتم أعينكم كارهين، دليل على أنّ المقصود ليس الطهارة الظاهرية فقط، لأنّ المؤمنين لا يقبلون مالاً تافهاً ملوثاً في ظاهره، كما لا يقبلون مالاً مشبوهاً مكروهاً إلا بالإكراه والتغاضي.

«ومما أخرجنا لكم من الأرض»

كانت عبارة «ما كسبتم» إشارة إلى الدخل التجاري، وهذا التعبير إشارة إلى الدخل الزراعي وعائدات المناجم، فهو يشمل كلّ أنواع الدخل لأنّ أصل دخل الانسان ينبع من الأرض ومصادرها المتنوعة، بما فيها الصناعة والتجارة وتربية المواشي وغير ذلك.

تقول هذه الآية: إننا وضعنا مصادر الثروة هذه تحت تصرفكم، لذلك ينبغي أن لا تمتنعوا عن إنفاق خير ما عندكم في سبيل الله.

«ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه»

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التي لا قيمة لها أو الساقطة التي لم تعد تنفعهم في شيء. إنّ هذا النوع من الإنفاق لا هو يربّي الانسان تربية معنوية للروح الانسانية في المنفق، ولا هو يرتق فتقاً محتاج، بل لعله إهانة له وتحقير. فجاءت هذه الآية تنهي الناس نهياً صريحاً عن هذا وتقول لهم: كيف تنفقون مثل هذا المال الذي لا تقبلونه أنتم أنفسكم إذا عرض عليكم إلا إذا اضطررتم إلى قبوله؟ أترون إخوانكم المسلمين، بل أترون الله الذي في سبيله تنفقون أقلّ شأناً منكم؟

الآية تشير في الواقع إلى فكرة عميقة وهي أنّ للإنفاق في سبيل الله طرفين، فالمحتاجون في طرف، والله في طرف آخر. فاذا اختير المال المنفق من زهيد الأشياء ففي ذلك إهانة لمقام الله العزيز الذي لم يجده المنفق جديراً بطيبات ما عنده كما هو إهانة للذين يحتاجونه، وهم ربما يكونون من ذوي الدرجات الايمانية السامية، وعندئذ يسبّب لهم هذا المال الرديء الألم والعذاب النفسي.

ثم إنَّ «ولا تيمّموا» - وتعني: لا تتقصدوا - إشارة إلى أنّ النهي لا يشمل ما قد يندسّ من المال الرديء في المال الطيّب دون تقصد، وإنّما موجّه إلى الذين يتعمّدون ذلك ويقصدونه.

«واعلموا أنّ الله غنيّ حميد»

أي لا تنسوا أنّ الذي تنفقون من أجله هو الله الذي لا حاجة له بإنفاقكم، فهو غنيّ عن العالمين، وهو اللائق بالحمد والثناء، لأنّه وضع كلّ هذه النعم تحت أيديكم. وحميد قد تعني حامد، أي أنّه على الرغم من غناه عن إنفاقكم فإنّه يحمّدكم على ما تنفقون، فاسعوا أن يكون ما تنفقون في سبيله طاهراً طيباً.

\*\*\*



## الآية

٢٦٨ - «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَتَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

## التفسير

### مكافحة موانع الإنفاق والأفكار الشيطانية

في البداية تقول الآية: إنكم عند الإنفاق أو أداء الزكاة يخوفكم الشيطان من الفقر - على الأخص إذا أردتم أن تنفقوا من طيبات ماتلكون، كما أُشير إلى ذلك في الآية السابقة - بحيث إن وسوسة الشيطان هذه تمنعكم من الإنفاق ومن أداء الزكاة والخمس أيضاً. ينبه الله الناس بهذا إلى أن الامتناع عن الإنفاق خشية الفقر فكرة غير صحيحة وهي وسوسة شيطانية، ولما كانت فكرة الخوف من الفقر قد تبدو منطقية يؤكد قائلاً: «ويأمركم بالفحشاء» أي أنه يحرضكم على العصيان وارتكاب الاثم. وعليه فإن الخوف من الفقر لا أساس له لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى الباطل والضلال في الحقيقة أن كل فكرة سلبية ومانعة وقصيرة النظر إنما هي انحراف عن الفطرة السليمة واستسلام لوسوسة الشيطان. أما الفكرة الإيجابية والبتاءة والمحركة وبعيدة النظر فإنها من الإلهامات الإلهية والفطرة السليمة.

ولما كانت الوسوس الشيطانية على خلاف نواميل الخلق والستة الإلهية فإن نتائجها السلبية الضارة لا تحفى على أحد. يقابل ذلك أن الأوامر الإلهية المنسجمة المتماشية مع الخلق والفطرة تؤدي إلى الحياة السعيدة.

لتوضيح هذا ينبغي أن نقول: إن النظرة الأولى إلى الإنفاق وبذل المال توحى أن يؤدي إلى نقص المال، وهذه هي النظرة القصيرة الشيطانية، ولكننا بتدقيق النظر واتساعه ندرك أن الإنفاق هو ضمان بقاء المجتمع، وتحكيم العدل الاجتماعي، وتقليل الفواصل الطبقيّة، والتقدم العام.

وبديهي أن تقدم المجتمع يعني أن الأفراد الذين يعيشون فيه يكونون في رخاء ورفاه، وهذه هي النظرة الواقعية الإلهية.

يريد القرآن بهذا أن يعلم الناس أن الإنفاق وإن بدا في الظاهر أنه أخذ ولكته في الواقع عطاء وإنما لرؤوس أموالهم مادياً ومعنوياً.

في عالمنا اليوم حيث نشاهد نتائج الاختلافات الطبقيّة والمآسي الناتجة عن الظلم في تقسيم الثروة، نستطيع أن نفهم معنى هذه الآية بوضوح.

كما أن الآية تفيد أيضاً أن هناك نوعاً من الارتباط بين ترك الإنفاق والفحشاء. فإذا كانت الفحشاء تعني البخل، فتكون علاقتها بترك الإنفاق هو أن هذا الترك صفة البخل الذميمة في الانسان شيئاً فشيئاً. وإذا كانت تعني الإثم مطلقاً أو الفحشاء في الأمور الجنسية فإن علامة ذلك بترك الإنفاق لا تحفى، إذ أن منشأ كثير من المعاصي والانحرافات الجنسية هو الفقر والحاجة. يضاف إلى ذلك أن للإنفاق آثاراً ونتائج معنوية مباركة لا يمكن إنكارها.

«والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً»

جاء في تفسير مجمع البيان عن الامام الصادق عليه السلام أن في الإنفاق شيئين من الله وشيئين من الشيطان، فاللذان من الله هما غفران الذنوب والسعة في المال، واللذان من الشيطان هما الفقر والأمر بالفحشاء.

وعليه فإن المقصود بالمغفرة هو غفران الذنوب، والمقصود بالفضل هو ازدياد رؤوس الأموال بالإنفاق، كما رواه ابن عباس.

وقد جاء عن الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إذا ضاقت بكم الأمور فاعقدوا مع الله صفقة بالإنفاق، أنفقوا لتنجوا من الفقر.

«والله واسعٌ عليم»

في هذا إشارة إلى أن الله قدرةً وعلماً واسعين لا ينتهيان، فهو قادر على أن يفي بما يعد، ولا شك أن المرء يطمئن إلى هذا الوعد، لا كالوعد الذي يعده الشيطان المخادع الضعيف الذي يجر المرء إلى العصيان، فالشيطان ضعيف وجاهل بالمستقبل، ولذلك ليس وعده سوى الضلال والتحرير على الإثم.

## الآية

٢٦٩ - «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدْرَأُونَ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ».

## التفسير

للحكمة معاني كثيرة منها: معرفة أسرار عالم الوجود، ومعرفة حقائق القرآن والوصول إلى الله بالقول والعمل، وأخيراً معرفة الله، بهذه كلها تنطوي تحت المعنى الواسع للحكمة. وعليه فإنّ علاقة هذه الآية بالآيات السابقة هي أنّ الله يهب لبعض الناس - لطهارتهم ومجاهدتهم - علماً وبصيرةً يستطيع بهما أن يدرك فوائد الإنفاق وآثاره ودوره الحياتي في المجتمع، وأن يميّز بين الإلهامات الإلهية والوساوس الشيطانية. وبعبارة أخرى: نلاحظ أنّ الكلام في الآية السابقة كان على وعد الله بالمغفرة والبركة بإزاء الإنفاق، وعلى وسوسة الشيطان وتخويفه من الفقر. وفي هذه الآية إشارة إلى حقيقة كون الحكمة هي وحدها التي تستطيع أن تميّز بين الحاذبتين الإلهية والشيطانية فتنجي المرء من وسوسة الشيطان.

بديهي أنّ القصد من «مَنْ يَشَاءُ» ليس إسباغ الحكمة على كلّ من هب ودبّ بغير حساب، بل أنّ مشيئة الله هي دائماً منبعثة عن حكمة، أي أنه يمنحها لمن يستحقّها ويرويه من سلسبيل هذه العين الزلال.

«وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا»

رغم أنّ واهب الحكمة هو الله فإنّ اسمه لم يرد في هذه الآية وإنما بني الفعل للمجهول «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ».

ولعلّ المقصود هو أنّ الحكمة أمر حسن بذاته بصرف النظر عن مصدرها ومنشئها. من الملاحظ أنّ الآية تقول: إذا نزلت الحكمة بساحة أحد فقد نزلت بساحته البركة



والخير الكثير لا الخير المطلق، لأنّ السعادة والخير المطلق ليسا في العلم وحده بل العلم أهمّ عامل لهما.

«وما يذكّر إلاّ أولوا الألباب»

التذكّر هو حفظ العلوم والمعارف في داخل الروح. والألباب جمع لب وهو قلب كلّ شيء ومركزه، ولهذا قيل للعقل اللب. تقول هذه الفقرة من الآية إنّ أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق ويتذكّرونها. رغم أنّ جميع الناس ذو عقل - عدا المجانين - فلا يوصفون جميعاً بأولي الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشقّون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

\*\*\*

## الآية

٢٧٠ - «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ».

### التفسير

تقول الآية: إِنَّ كُلَّ مَا تَنفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - سواء الواجب منه أم غير الواجب، القليل منه أم الكثير، حلالاً كان مصدره أم حراماً، مخلصاً كان الإنفاق أم مرانياً، أتبعه المن والأذى أم لم يتبعه، أكان ممّا أوجب الله الإنفاق منه أم ممّا أوجبه الانسان بالنذر على نفسه - فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ تَفَاصِيلَهُ وَيُثِيبُ عَلَيْهِ أَوْ يَعَاقِبُ.

### «وما للظالمين من أنصار»

أي أنّ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله - وبذلك يكونون عوناً للمحروم والمحتاج، أو يصرفون أموالهم في مجالات النفع العام للمجتمع للخدمة والرفاه العامين - فإنفاقهم يكون لهم سنداً ومدداً قوياً، بينما البخلاء الذين يجمعون المال، أو الذين ينفقون رياءً ويؤذون الناس بما ينفقون، يكونون محرومين من هذا السند والمدد.

وقد تكون الآية إشارة إلى أنّ هؤلاء المرائين والبخلاء والذين ينفقون بالمن والأذى لن يكون لهم نصير ولا شفيع فيما ينتظرهم يوم القيامة من عقاب، فهؤلاء أناس ظالمون سحقوا حقوق المحرومين، لذلك ليس ثمة من يدافع عنهم يوم المحاكمة الكبرى، وهذه من خصائص وآثار الظلم على اختلاف ألوانه وأشكاله.

## الآية

٢٧١ - «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

## التفسير

### كيف يكون الإنفاق؟

لا شك أن لكل من الإنفاق العلني والإنفاق الخفي في سبيل الله آثاراً نافعة، فإذا كان الإنفاق واجباً للإعلان عنه يشجع الآخرين على القيام بمثله، كما يرفع عن المنفق تهمة إهماله لواجبه.

أما إذا كان الإنفاق مستحياً، فإنه يكون في الواقع أشبه بالدعاية والإعلان العملي لحث الناس على فعل الخير، ومساعدة المحتاجين، والقيام بالأعمال الخيرية الاجتماعية العامة.

أما الإنفاق الخفي البعيد عن الأنظار فلا شك أن الرياء وحب الظهور أقل بروزاً فيه، وخلوص النية فيه أكثر خاصة، وأن مد يد العون إلى المحتاجين في الخفاء يحفظ لهم ماء وجههم وكرامتهم، ولذلك تثني الآية على كلا الاسلوبين.

ذهب بعض المفسرين إلى أن الإخفاء يقتصر على الإنفاق المستحب، وأما الإنفاق الواجب كالزكاة وغيره فيفضل في حالة الجهر، وليست هذه بقاعدة عامة، بل تختلف باختلاف حالات الإنفاق.

ففي الحالات التي يكون فيها الجانب التشجيعي أكثر ولا يصادر فيها الإخلاص فالإظهار أولى، وفي الحالات التي يكون فيها المحتاجون من ذوي العزة والكرامة فإن حفظ ماء وجوههم يقتضي إخفاء الإنفاق، كما أنه إذا خشي الاتهام بالرياء وعدم الإخلاص فالإخفاء أولى.

لقد جاء في بعض الأحاديث أن الإنفاق الواجب يفضل فيه الاظهار، والمستحب يفضل فيه الإخفاء.

وقد نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: الزكاة المفروضة تخرج علانية



وتدفع علانية، وغير الزكاة ان دفعه سرّاً فهو أفضل<sup>١</sup>.  
 إلا أنّ هذه الأحاديث لا تتعارض مع ما قلناه آنفاً لأنّ أداء الواجب يكون أقلّ امتزاجاً بالرياء، فهو واجب لا بدّ أن يؤدّيه كلّ مسلم في محيط إسلامي كالضريبة اللازمة التي يدفعها الجميع، وعليه فإنّ إظهار هذا الإنفاق أفضل، أمّا الإنفاق المستحبّ فليس إلزامياً لذلك، فإنّ إظهار إنفاقه قد يشوبه شيء من الرياء وعدم خلوص النية، فيكون الأجر إخفاؤه.

### «ويكفر عنكم من سيئاتكم»

يتضح من هذه الآية أنّ للإنفاق في سبيل الله أثراً في غفران الذنوب، فالتكفير عن السيئات - أي تغطية الذنوب - كناية عن ذلك.  
 بديهي أنّ هذا لا يعني أنّ إنفاق بعض المال يذهب بكلّ ذنوب الانسان، ولذلك لا بدّ من ملاحظة استعمال «من» التي تعني التبويض، أي أنّ الغفران يشمل قسماً من ذنوب الانسان، وأنّ هذا القسم يتناسب مع مقدار الإنفاق وميزان الإخلاص.  
 هنالك أحاديث كثيرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفي كتب أهل السنة.

من ذلك: «صدقة السرّ تطفيء غضب الربّ وتطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار». كما جاء أيضاً: «سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: الامام العدل، والشابّ الذي نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه يتعلّق بالمساجد حتى يعود إليها، ورجلان تحابا في الله واجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدّق فأخفاه حتى لم تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

### «والله بما تعملون خبير»

المعنى هو أنّ الله عالم بما تنفقون سواء أكان علانية أم سرّاً، كما أنّه عالم بنياتكم وأغراضكم من إعلان إنفاقكم ومن إخفائه. على كلّ حال أنّ الذي له تأثير في الإنفاق هو النية الطاهرة والخلوص في العمل لله وحده، لأنّه هو الذي يجزي أعمال العبد، وهو عالم بما يخفي ويعلم.

## الآية

٢٧٢ - «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ».

## النزول

جاء في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ المسلمين لم يرضوا بالإنفاق على غير المسلمين فنزلت هذه الآية تحيز لهم ذلك عند الضرورة. وهناك سبب نزول آخر لهذه الآية قريب من سبب النزول السابق. فقد جاء أنّ امرأة مسلمة تدعى «أسماء» كانت في رحلة عمرة القضاء مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاءتها أمّها وجدّتها تطلبان بعض العون منها، ولكن لما كانتا من المشركين وعبدة الأصنام، فقد امتنعت أسماء عن مد يد المساعدة اليهما، وقالت: لا بدّ أن أستجيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك لأنكما لستا على ديني. وأقبلت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تستجيزه فنزلت الآية المذكورة.

## التفسير

«ليس عليك هداهم»

هذا الخطاب موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلاقته بما سبق من آيات واضحة، لأنّ الآيات السابقة تحدّثت عن الإنفاق عموماً، فجاءت هذه الآية تشرح جواز الإنفاق على غير المسلمين، أي أنّ الامتناع عن مساعدة المحتاجين من غير المسلمين بهدف الضغط عليهم لاعتناق الاسلام ليس أمراً صحيحاً.

فكما أنّ نعم الله وآلائه في هذا العالم تشمل الجميع بصرف النظر عن العقيدة والدين، كذلك ينبغي أن يشمل إنفاق المؤمنين المستحب رفع حاجات الناس غير المسلمين

أيضاً إذا اقتضت الظروف.

الإتفاق على غير المسلمين يجب أن يكون ذا طابع إنساني وأن يتجه إلى تفهيم هؤلاء روح الاسلام الانسانية السمحة، وبديهي أن هذا الاتفاق لا يجوز حين يؤدي إلى تقوية الكفر ودعم خطط الأعداء المشؤومة.

من الواضح أن المقصود من عدم وجوب هداية الناس على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يعني أنه غير مكلف بإرشاد الناس وهدايتهم إذ أن الإرشاد والدعوة من أهم جوانب مسؤولية النبي. إنها المقصود أنه غير مكلف بممارسة الضغط لحمل الناس على الهداية. بعبارة أخرى: المقصود هو نفي الهداية الإجبارية لا الاختيارية، أو المقصود نفي الهداية التكوينية لا التشريعية، كما سيوضح.

## وقفات

### أنواع الهداية

للهداية أنواع مختلفة:

١ - الهداية التكوينية: وهي تعني أن الله تعالى قد خلق مجموعة من عوامل التقدم والتكامل في مختلف كائنات هذا العالم، يشمل ذلك الانسان وجميع الكائنات الحية بل حتى الجمادات، وهذه العوامل تدفع الموجودات نحو تكاملها.

إن نمو الجنين في رحم أمه ورشده، ونمو البذرة في باطن الأرض ورشدها، وحركة السيارات والمنظومات الشمسية في مداراتها، وأمثال ذلك نماذج مختلفة من الهداية التكوينية. وهذا النوع من الهداية إلهي، ووسائلها عوامل وأسباب طبيعية وماوراء الطبيعية. يقول القرآن المجيد: «الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»<sup>١</sup>.

٢ - الهداية التشريعية: هذه تعني هداية الناس عن طريق التعليم والتربية، والقوانين، والحكومات العادلة، والموعظة والنصيحة. وهذه الهداية يقوم بها الأنبياء والأئمة والصالحون والمربون المخلصون. وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله: «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»<sup>٢</sup>.

٣ - الهداية التوفيقية: وهي الهداية الى تهيئة الوسائل ووضعها في متناول الأفراد



لكي يستفيدوا منها حسبما يشاءون في مضمار التقدّم، كبناء المدارس والمساجد ومعاهد التربية، وإعداد الكتب ووضع الخطط وتدريب المرّين والمعلّمين المؤهّلين، وهذا النوع من الهداية يقع بين الهدايتين التكوينية والتشريعية. يقول القرآن: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»<sup>١</sup>.

٤ - الهداية نحو النعمة والثوبة: وهذه تعني هداية الأفراد اللائقين للانتفاع بنتائج أعمالهم الصالحة في العالم الآخر، وهي هداية تختصّ بالمؤمنين الصالحين. يقول القرآن: «سبيدهم الله ويصلح بالهم»<sup>٢</sup>.

هذه الآية جاءت بعد ذكر توضّحية الشهداء في سبيل الله. واضح أنّ هذا النوع من الهداية ترتبط بتمتّع هؤلاء بشمار أعمالهم في الآخرة.

الواقع أنّ هذه الأنواع الأربعة من الهداية تشكّل مراحل مختلفة متوالية لحقيقة واحدة. ففي البداية تكون الهداية التكوينية التي يهدي بها الله مخلوقاته ومنها الانسان الذي أودع فيه العقل والفكر والقوى الأخرى.

يلي تلك الهداية هداية الأنبياء والرسل الذين يهدون الناس إلى طريق الحق. والهداية هنا بمعنى الإرشاد والتبليغ.

ثم تأتي مرحلة العمل فيشمل الله مخلوقاته بتوفيقه فتتمهد لهم سبل وطرائق تسير عليها نحو التكامل. وهذه هي هداية التوفيق.

وفي العالم الآخر ينالون جزاء أعمالهم الصالحات.

هداية الإرشاد والدعوة التي تشكّل واحداً من أنواع الهداية الأربعة هي من واجبات الأنبياء والأئمة، وقسم منها ممّا يتناول تمهيد الطرق، يدخل معظمه ضمن واجبات الحكومات الإلهية للأنبياء والأئمة، والباقي يختصّ بالله تعالى.

وعليه حيثما نجد في القرآن سلب الهداية عن الأنبياء، فذلك لا يخصّ النوعين الأوّلين.

«ولكنّ الله يهدي من يشاء»

وهي هداية لا تأتي اعتباراً بدون حكمة ولا حساب، أي أنّه لا يمكن أن يهدي هذا

ويحرم ذلك بغير سبب، فعلى الانسان أن يكون جدير بالهداية لكي ينالها ويستفيد منها. نستخلص من هذه الآية حقيقة أخرى، وهي أنه يخاطب نبيّه قائلاً: إذا ظهر بين المسلمين - بعد كل ذلك التحذير من الإنفاق المصحوب بالرياء والمن والأذى - أفراد مايزالون يلوثون إنفاقهم بهذه الأمور فلايسؤك ذلك، إن واجبك هو بيان الأحكام وتهيئة المناخ الاجتماعي السليم، وليس من واجبك أبداً أن تجبرهم على تجنب هذه الأمور. وهذا التفسير لا يتنافى مع التفسير السابق، فكلاهما محتملان.

### أثر الإنفاق في حياة المنفق

«وما تنفقوا من خيرٍ فلاأنفسكم»

يتبين من هذه الآية أنّ فوائد الإنفاق تعود على المنفقين أنفسهم، وهذا تدفعهم نحو هذا العمل الانساني، وطبيعي أنّ الانسان يزداد حماساً لممارسة علمه حين يعلم أنّ منافع هذا العمل تعود إليه.

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ المنافع التي تعود على المنفق من إنفاقه هي ما يناله من ثواب في الآخرة، هذا بالطبع صحيح، ولكن ينبغي أن لا يتصور أنّ نتائج الإنفاق أخروية فحسب، بل أنّ له منافع في هذه الدنيا أيضاً مادّية ومعنوية. ففائدته المعنوية هي أنّ روح البذل والانسانية والتضحية والاخوة تترتب في المنفق. وهذه في الواقع وسيلة مؤثرة في تكامل شخصية الانسان وتربيته.

أما فائدته المادّية فإنّ وجود أناس معدمين فقراء في مجتمع ما يسبب الانفجارات الخطرة التي قد تبتلع مبدأ الملكية نفسه ابتلاءً في ثورتها فلا تبق ولا تذر. الإنفاق يقلّل من الفواصل الطبقيّة ويزيل أمثال هذا الخطر الذي يهدّد الأفراد الأثرياء في المجتمع، فالإنفاق يطفيء لهيب غضب الطبقات المحرومة المحرق ويقضي على روح الانتقام في نفوسهم.

من هنا فالإنفاق لصالح المنفقين من حيث الأهميّة الاجتماعية والسلامة الاقتصادية والجوانب المختلفة المادّية والمعنوية.

«وما تنفقون إلّا ابتغاء وجه الله»

أي أنّ المسلمين لا ينفقون أموالهم إلّا في سبيل الله وطلباً لرضاه.

يقول بعض المفسرين إن هذه الجملة الخبرية يقصد بها النهي، أي أن على المسلمين أن لا ينفقوا أموالهم إلا في سبيل الله ولمرضاته، فالإنفاق الذي يعود على المنفق بالنفع إنما هو الذي ينفق في سبيل الله.

ما معنى «وجه الله»؟

وجه بالاضافة إلى معناها المعروف فقد تستعمل بمعنى ذات وعندئذ «وجه الله» تعني ذات الله التي يجب أن يتوجه إليها المنفقون في إنفاقهم، وعليه فإن ورود كلمة «وجه» في هذه الآية وفي غيرها إنما يقصد به التوكيد، فمن الواضح أن قولنا «لوجه الله» أو «لذات الله» أكثر تأكيداً من قولنا «لله». فيكون المعنى أن الإنفاق لله حتماً لا لغير الله. ثم إن الوجه أشرف جزء من أجزاء الجسم الظاهرة، ففيه أهم أعضاء الانسان كالبصر والسمع والنطق. ولهذا حيثما استعملت كلمة «الوجه» كان القصد إيصال معاني الشرف والأهمية، واستعمالها هنا استعمال كناية يفهم منه الاحترام والأهمية، وإلا فإن الله منزّه عن الصورة الجسدية.

«وما تنفقون من خير يوفت إليكم وأنتم لا تظلمون»

هذه الآية تزيد من إيضاح الموضوع السابق، أي لا تظنوا أن منافع الإنفاق قليلة، فكل ما تنفقونه يعود إليكم كاملاً، ولن يصيبكم من جرّاء ذلك أي ظلم، وعليه فلا تبخلوا بالإنفاق، ولتبسطوا أيديكم وقلوبكم. وهذه الآية دليل آخر على تجسيد الأفعال، إذ تقول إن الذي تنفقونه يعود إليكم نفسه.



## الآية

٢٧٣ - «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ».

## النزول

نقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: إن هذه الآية نزلت في أصحاب «الصفة». وهم جمع نحو أربعمئة شخص من مسلمي مكة وأطراف المدينة ممن لم يكن لهم مأوى يأوون إليه في المدينة، ولا قريب يؤويهم في منزله، فاتخذوا من مسجد النبي منزلاً معلنين استعدادهم للذهاب إلى ميادين الجهاد دائماً، ولكن بما أن بقاءهم في المسجد لم يكن ينسجم مع شؤونه فقد أمروا بالانتقال إلى «صفة» دكة عريضة كانت خارج المسجد. ونزلت الآية تحث المسلمين أن يغدقوا مساعداتهم على إخوانهم هؤلاء فأعانوهم.

## التفسير

### خير مواضع الإنفاق

بيّن الله في هذه الآية أفضل مواضع الإنفاق، وهي التي تتصف بالصفات التالية:

- ١ - «الذين أحصروا في سبيل الله» أي الذين شغلتهم الأعمال الهامة كالجهاد ومحاربة العدو، وتعليم فنون الحرب، وتحصيل العلوم الأخرى، عن العمل في سبيل الحصول على لقمة العيش كأصحاب الصفة الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف.
- ٢ - الذين «لا يستطيعون ضرباً في الأرض» أي الذين لا يقدرّون على الترحال لكسب العيش بالسفر إلى القرى والمدن الأخرى حيث نعم الله وافرته. وعليه فإنّ القادرين على كسب معيشتهم يجب أن يتحمّلوا عناء السفر في سبيل ذلك وأن لا يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلّا إذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد في سبيل الله.

٣ - الذين «يحبسهم الجاهل أغنياء من التعقّف» هؤلاء الذين لا يعرف الآخرون شيئاً عن بواطن أمورهم، ولكنهم - لما فيهم من عفة النفس والكرامة - يظنون من الأغنياء.

٤ - الذين «تعرفهم بسيماهم».

السيما: العلامة. فهؤلاء وإن لم يفصحوا بشيء عن حالهم، فإنّ على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدركها العارفون، فلون وجناتهم ينبيء عمّا خفي من أسرارهم.

٥ - الذين «لا يسألون الناس إلحافاً» أي أنّهم لا يشبهون الفقراء السخّاذين الذين يلحّون في الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلاً عن الإلحاف، فالإلحاح في السؤال شيمة ذوي الحاجات العاديين، وهؤلاء ليسوا عاديين. وقول القرآن إنّهم لا يلحفون في السؤال لا يعني أنّهم يسألون إلحافاً، بل يعني أنّهم ليسوا من الفقراء العاديين حتّى يسألوا، ولذلك لا تتعارض هذه الفقرة من الآية مع قوله تعالى: «تعرفهم بسيماهم» لأنّهم لا يُعرفون بالسؤال.

ثمّة احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أنّهم إذا اضطرتهم الحالة إلى إظهار عوزهم فإنّهم لا يلحفون في السؤال أبداً بل يكشفون عن حاجتهم بأسلوب مؤدّب أمام إخوانهم المسلمين.

«وما تنفقون من خير فإنّ الله به عليم»

في هذه الآية حثّ على الإنفاق، وعلى الأخصّ الإنفاق على ذوي النفوس العزيزة الأبية، لأنّ المنفقين إذا علموا أنّ الله عالم بما ينفقون حتّى وإن كان سرّاً وأنه سوف يشيهم على ذلك، فستزداد رغبتهم في هذا العمل الكبير.

## الآية

٢٧٤ - «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

## التفسير

### الإنفاق بكل صورة

أحاديث كثيرة تؤكد «أن هذه الآية قد نزلت في عليّ عليه السلام لأنه كان ينفق درهماً في الليل ودرهماً في النهار، ودرهماً علانية ودرهماً سراً»<sup>١</sup> لكن الآية - كعادة القرآن - تذكر حكماً كلياً بشأن أساليب الإنفاق وطرقه وتعيّن واجب المنفقين وتؤكد أنّ إعلانه وإخفائه ينبغي أن تراعى فيها الجوانب الأخلاقية والاجتماعية وشخصية الذين ينفق عليهم. أي حين لا يكون ثمة مبرر لإظهار الإنفاق على المحتاجين، فليكن الإنفاق غالباً في الخفاء لحفظ كرامة المحتاجين وتركيزاً لإخلاص النية.

وإذا تطلّبت المصلحة إعلان الإنفاق كتعظيم الشعائر الدينية والترغيب والحثّ على الإنفاق بدون أن يؤدي ذلك إلى هتك حرمة أحد من المسلمين فليعلن عنه.

إنّ الله يعد هؤلاء الأجر والثواب، إذ يقول: «فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

إن الإنسان يعلم أنّه لكي يدبر أموره المعاشية والحياتية يحتاج إلى المال والثروة، فإذا فقد ثروته ينتابه الحزن على ذلك، ويشتد به الخوف على مستقبله لأنّه لا يعلم ما ينتظره في مقبلات الأيام. هذه الحالة غالباً ماتمّنّع الإنسان من الإنفاق، إلّا الذين يؤمنون من جهة بوعود الله ويعرفون من جهة أخرى آثار الإنفاق الاجتماعية. فهؤلاء لا ينتابهم الخوف والقلق من الإنفاق في سبيل الله على مستقبلهم لا يحزنون على إنفاقهم جانباً من أموالهم لأنهم يعلمون أنّهم بإزاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل الله وبركات إنفاقهم الفردية والاجتماعية والأخلاقية في الدنيا والآخرة.

١ - نور الثقلين: ج ١ ص ٢٩٠ و ٢٩١. ورد مضمون هذا الحديث في كتب تفسير أهل السنة أيضاً، وينقله صاحب «الدر المنثور» عن ابن عساکر والطبراني وأبي حاتم وابن جرير وغيرهم.



## الآيات

٢٧٥ - «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

٢٧٦ - «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ

أَيْمٍ».

٢٧٧ - «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا

الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

## الربا في القرآن

في الآيات التي مضت كان الكلام على الإنفاق وبذل المال لمساعدة المحتاجين وفي سبيل رفاه المجتمع. وفي هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذي يقف في الجهة المضادة للإنفاق، والواقع هو أنّ هذه الآيات تكمل هدف الآيات السابقة لأنّ تعاطي الربا يزيد من الفواصل الطبقيّة ويركّز الثروة في أيدي فئة قليلة ويسبّب فقر الأكثرية.

هذه الآيات شديدة وصریحة في منع الربا، ولكن يبدو منها أنّ موضوع الربا قد سبق التطرّق إليه. فإذا لاحظنا تاريخ نزول هذه الآيات تتضح لنا صحّة ذلك فبحسب ترتيب نزول القرآن، السورة التي ورد فيها ذكر الربا لأول مرّة هي سورة الروم، وهي السورة الثلاثون التي نزلت في مكّة، ولا نجد في غيرها من السور المكيّة إشارة إلى الربا.

لكن الحديث عن الربا في السورة المكيّة جاء على شكل نصيحة أخلاقية «وما آتیتم

من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله»<sup>١</sup>.

أي أنّ قصيري النظر قد يرون أنّ الثروة تزداد بالربا، ولكنّه لا يزداد عند الله.

ثم بعد الهجرة، تناول القرآن الربا في ثلاث سور أخرى من السور التي نزلت في المدينة وهي بالترتيب: سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة النساء. وعلى الرغم من أن سورة البقرة قد نزلت قبل سورة آل عمران، فلا يُستبعد أن تكون الآية ١٣٠ من سورة آل عمران - وهي التي تحرم الربا تحريماً صريحاً - قد نزلت قبل سورة البقرة والآيات المذكورة أعلاه. على كل حال، هذه الآية وسائر الآيات التي تخص الربا، قد نزلت في وقت كان فيه تعاطي الربا قد راج بشدة في مكة والمدينة والجزيرة العربية حتى غدا عاملاً مهماً من عوامل الحياة الطبقيّة، وسبباً من أهم أسباب ضعف الطبقة الكادحة وطغيان الاستقرائية، لذلك فإنّ الحرب التي أعلنها القرآن على الربا تعتبر من أهمّ الحروب الاجتماعية التي خاضها الاسلام.

### التفسير

«الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»

الخطب هو فقدان توازن الجسم عند المشي أو القيام. فالآية تشبه المراهب بالمصروع أو المجنون الذي لا يستطيع الاحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبط في خطواته.

ولعلّ المقصود هو وصف طريقة «سير المراهبين الاجتماعي» في الدنيا على اعتبار أنّهم أشبه بالمجانين في أعمالهم فهم يفتقرون إلى التفكير الاجتماعي السليم، بل أنّهم لا يشخصون حتى منافعهم الخاصّة، وأنّ مشاعر المواساة والعواطف الانسانية وأمثالها لا مفهوم لها في عقولهم إذ أنّ عبادة المال تسيطر على عقولهم إلى درجة أنّها تعميمهم عن إدراك ماستوذي إليه أعمالهم الجشعة الاستغلالية من غرس روح الحقد في قلوب الطبقات المحرومة الكادحة وما سيعقب ذلك من ثورات وانفجارات اجتماعية تعرض أساس الملكية للخطر، وفي مثل هذا المجتمع سينعدم الأمن والاستقرار، وستصادر الراحة من جميع الناس بمن فيهم هذا المراهب، ولذلك فإنّه يجني على نفسه أيضاً بعمله الجنوني هذا.

ويقال أيضاً إنّ هذا الوصف ينطبق على المراهب يوم القيامة إذ يتقدّم فيها مترحّماً ويحشر كالمجانين.

أكثر المفسرين يرون الاحتمال الثاني، إلا أنّ بعض المفسرين المحدثين يفضلون الاحتمال الأول.

ولكن بما أنّ وضع الانسان في العالم الآخر تجسيد لأعماله في هذا العالم فيحتمل أن

تكون الآية إشارة إلى المعنيين. أي أنّ الذين يقومون في الدنيا قياماً غير متعقل وغير متوازن يخالطه اكتناز جنوبي للثروة سيحشرون يوم القيامة كالمجانين.

إنّ الروايات والأحاديث تشير إلى كلا المفهومين. ففي حديث عن الامام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال:

«أكل الربا لا يخرج من الدنيا حتى يتخبّطه الشيطان»<sup>١</sup>.

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشأن تجسيد حال المرابين الذين لا يهتمهم غير مصالحهم الخاصة، وما ستجرّه عليهم أموالهم المحرّمة قال: «لَمَّا أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ رَأَيْتُ قَوْمًا يُرِيدُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقُومَ فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَقُومَ مِنْ عَظْمِ بَطْنِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرَائِيلُ! قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ»<sup>٢</sup>.

الحديث الأول يبيّن اضطراب الانسان في هذه الدنيا، ويعكس الحديث الثاني حال المرابين في مشهد يوم القيامة، وكلاهما يرتبطان بحقيقة واحدة فكما أنّ الانسان المبطن الأكلول يسمن بإفراط وبغير حساب كذلك المرابون الذين يسمنون بالمال الحرام لهم حياة اقتصادية مريضة تكون وبالاً عليهم.

سؤال: هنا يبرز سؤال وهو: هل الجنون والصرع اللذين أشارت اليهما الآية المذكورة من عمل الشيطان، مع أننا نعلم أنّ الصرع والجنون من الأمراض النفسية التي لها أسباب معروفة في الغالب؟

الجواب: يرى بعضهم أنّ تعبير «مسّ الشيطان» كناية عن الأمراض النفسية والجنون، وهو تعبير كان شائعاً عند العرب، ولا يعني أنّ للشيطان تأثيراً فعلياً في روح الانسان.

ولكن مع ذلك لا يُستبعد أن يكون لبعض الأعمال الشيطانية التي يرتكبها الانسان دون تروٍّ أثر يودّي إلى نوع من الجنون الشيطاني، أي يكون للشيطان على إثر هذه الأعمال فاعليه في الشخص يسبّب اختلال تعادله النفسي. ثم إنّ الأعمال الشيطانية الخاطئة إذا تكرّرت وتراكمت يكون أثرها الطبيعي هو أن يفقد الانسان قدرته على تمييز السقيم من السليم والصالح من الطالح والتفكير المنطقي من المعوج.



## منطق المرابين

«ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا»

هذه الآية تبيّن منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجارة والربا؟ ويقصدون أنّ كليهما يمثّلان معاملة تبادل تراضي الطرفين واختيارهما. يقول القرآن جواباً على ذلك: «وأحلّ الله البيع وحرم الربا» ولم يزد في ذلك شرحاً وتفصيلاً، ربما لوضوح الاختلاف:

فأولاً: في صفقة البيع والشراء يكون كلا الطرفين متساويين بإزاء الربح والخسارة، فقد يربح كلاهما، وقد يخسر كلاهما، ومرة يربح هذا ويخسر ذلك، ومرة يخسر هذا ويربح ذلك، بينما في المعاملة الربوية لا يتحمّل المرابي أية خسارة، فكلّ الخسائر المحتملة يتحمّل ثقلها الطرف الآخر، ولذلك نرى المؤسسات الربوية تتوسع يوماً فيوماً، ويكبر رأسمالها بقدر اضمحلال وتلاشي الطبقات الضعيفة.

وثانياً: في التجارة والبيع والشراء يسير الطرفان في طريق «الانتاج والاستهلاك»، بينما المرابي لا يخطو أية خطوة إيجابية في هذا المجال.

وثالثاً: بشيوع الربا تجري رؤوس الأموال مجرى غير سليم وتترزع قواعد الاقتصاد الذي هو أساس المجتمع، بينما التجارة السليمة تجري فيها رؤوس الأموال في تداول سليم. ورابعاً: الربا يتسبّب في المخاصمات والمنازعات الطبقية، بينما التجارة السليمة ليست كذلك، وهي لا تجرّ المجتمع إلى المشاحنات والصراع الطبقي.

«فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله»

تقول الآية إنّ من بلغته نصيحة الله بتحريم الربا واتّعظ فله الأرباح التي أخذها من قبل «أي أنّ القانون ليس رجعياً» لأنّ القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل والاضطرابات في حياة الناس، ولذلك فإنّ القوانين تنفّذ عادةً من تاريخ سنّها.

وهذا لا يعني بالطبع أنّ للمرابين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدينين بعد نزول الآية بل المقصود إباحة ما جنوه من أرباح قبل نزول الآية.

ثم يقول «وأمره إلى الله» أي أنّ النظر إلى أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلى الله، وإن كان ظاهر الآية يدلّ على أنّ مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير

واضح، ولكن بالتوجه إلى الآية السابقة نفهم أن القصد هو العفو. يظهر من هذا أن إثم الربا من الكبر بحيث إن حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

«ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»

أي أن من يواصل تعاطي الربا على الرغم من كل تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذاباً أليماً في النار دائماً.

إن العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن بالله. لكن الآية تعد المصيرين على الربا بالخلود في النار، ذلك لأنهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين الله، ويلجئون في ارتكاب الإثم. وهذا دليل على عدم صحة إيمانهم وبالتالي فهم يستحقون الخلود في النار. كما يمكن القول إن خلود العذاب هنا كما في الآية ٩٣ من سورة النساء، يعني العذاب المديد الطويل الأمد لا الأبدى الدائم.

كذلك يمكن القول بأن الاستمرار على تعاطي الربا يسبب في أن يموت المرابي وهو غير مؤمن.

«بحق الله الربا ويرى الصدقات»

«المحق» النقصان التدريجي. و«الربا» هو النمو التدريجي. فالمرابي بما لديه من رأسمال وثروة يستحوذ على أتعاب الطبقة الكادحة، وقد يؤدي عمله هذا إلى القضاء عليهم، أو يبذر على الأقل بذور العداة والحقد في قلوبهم بحيث يصبحون بالتدريج متعاطشين إلى شرب دماء المرابين ويتهددون أموالهم وأرواحهم. فالقرآن يقول إن الله يسوق رؤوس الأموال الربوية إلى الفناء.

إن هذا الفناء التدريجي الذي يحق بالفرد المرابي يحق بالمجتمع المرابي أيضاً.

وبالمقابل، إن الذين يتقدمون إلى المجتمع بقلوب مليئة بالعواطف الانسانية وينفقون من رؤوس أموالهم وثرواتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبة الناس وعواطفهم عموماً، وأموال هؤلاء فضلاً عن عدم تعرضها لأي خطر تنمو بالتعاون العام نمواً طبيعياً. وهذا ما يعنيه القرآن بقوله «ويرى الصدقات».

وهذا الحكم يجري في الفرد كما يجري في المجتمع. فالمجتمع الذي يعني بالحاجات العامة تتحرك فيه الطاقات الفكرية والجسمية للطبقة الكادحة التي تؤلف اكثرية المجتمع

وتبدأ العمل، وعلى أثر ذلك يظهر إلى حيز الوجود ذلك النظام الاقتصادي القائم على التكافل وتبادل المنافع العامة.

«والله لا يحبّ كلّ كفّار أنيم»

«الكفّار» من الكفور، بوزن فجور، وهو المغرق في نكران الجميل والكفر بالنعمة، و«الأنيم» هو الموجل في ارتكاب الآثام.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى أنّ المرابين بتركهم الإنفاق والإقراض والبذل في سبيل رفع الحاجات العامة يكفرون بما أغدق الله عليهم من النعم، بل أكثر من ذلك يسخرون هذه النعم على طريق الإثم والظلم والفساد، ومن الطبيعي أنّ الله لا يحبّ أمثال هؤلاء.

«إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم»

مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم الله هناك أناس من المؤمنين تركوا حبّ الذات، وأحيوا عواطفهم الفطرية، وارتبطوا بالله بإقامة الصلاة، وأسرعوا لمعونة المحتاجين بدفع الزكاة، وبذلك يحولون دون تراكم الثروة وظهور الاختلاف الطبقي المؤذي إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند الله ويرون نتائج أعمالهم في الدنيا والآخرة. ثم إنّ هؤلاء لا يعرفون القلق والحزن، ولا يهددهم الخطر الذي يتوجّه إلى المرابين من قبل ضحاياهم في المجتمع.

وأخيراً فإنّهم يعيشون في اطمئنان تام «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».



## الآيات

٢٧٨ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ

مُؤْمِنِينَ».

٢٧٩ - «فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ

رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَلَا تَظْلِمُونَ».

٢٨٠ - «وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

## النزول

جاء في تفسير علي بن إبراهيم أنه بعد نزول آيات الربا جاء شخص يدعى «خالد بن الوليد» إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: كانت لأبي معاملات ربوية مع بني ثقيف، فمات ولم يتسلم دينه، وقد أوصاني أن أقبض بعض الفوائد التي لم تدفع بعد. فهل يجوز لي ذلك؟ فنزلت الآيات المذكورة تنهي الناس عن ذلك نهياً شديداً.

وفي رواية أخرى أنه بعد نزول هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ألا كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن

عبد المطلب».

يتضح من هذا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حملته لإلغاء الديون الربوية

في الجاهلية قد بدأ بأقربائه أولاً. وإذا كان بينهم أشخاص أثرياء مثل العباس ممن كانوا

مثل غيرهم يتعاطون الربا في الجاهلية، فقد ألغى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - أولاً -

ربا هؤلاء.

## التفسير

في الآية الأولى يخاطب الله المؤمنين ويأمرهم بالتقوى ثم يأمرهم أن يتنازعا عما بقي

لهم في ذمة الناس من فوائد ربوية.

يلاحظ أنّ الآية بدأت بذكر الإيمان بالله واختتمت بذكره، ممّا يدلّ بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان بالله.

«فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله»

تتغير في هذه الآية لهجة السياق القرآني، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح وتعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكلّ شدة، وتذّرههم بلهجة صارمة أنّهم إذا وصلوا عملهم الربوي ولم يستسلموا لأوامر الله في الحق والعدل واستمروا في امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا يسع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إلّا أن يتوسّل بالقوة العسكرية لإيقافهم عند حدّهم وإخضاعهم للحق، وهذا بمثابة إعلان الحرب عليهم. وهي الحرب التي تنطلق من قانون: «قاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله»<sup>١</sup>.

لذلك عندما سمع الامام الصادق عليه السلام أنّ مرابياً يتعاطى الربا بكلّ صراحة ويستهزيء بجرمته هدّده بالقتل.

يتّضح من هذا أنّ هذا الحكم يخصّ الذين ينكرون تحريم الربا في الاسلام. على كلّ حال يستفاد من هذه الآية أنّ للحكومة الاسلامية أن تتوسّل بالقوة لمكافحة الربا.

«وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون»

أمّا إذا تبتم ورجعتم عن غيبتكم وتركتم تعاطي الربا فلکم أن تتسلّموا من الناس المدبّنين لكم رؤوس أموالکم فقط «بغير ربح». وهذا قانون عادل تماماً، لأنّه يحول دون أن تظلموا الناس ودون أن يصيبكم ظلم.

إنّ تعبير «لا تظلمون ولا تظلمون» وإن كان قد جاء بشأن المرابين، ولكنّه في الحقيقة شعار إسلامي واسع وعميق، يعني أنّ المسلمين بقدر ما يجب عليهم تجنّب الظلم، يجب عليهم كذلك أن لا يستسلموا للظلم. في الحقيقة لو قلّ الذين يتحمّلون الظلم لقلّ الظالمون أيضاً، ولو أنّ المسلمين أعدوا العدة الكافية للدفاع عن حقوقهم لما تمكن أحد أن

يعتدي على تلك الحقوق ويظلمهم. فقبل أن نقول للظالم: لا تظلم، علينا أن نقول للمظلوم: لا تستسلم للظلم.

«وإن كان ذو عسرة إلى ميسرة»

استكمالاً لبيان حقّ الدائن في الحصول على رأسماله «بدون ربح» تبين الآية هنا حقاً من حقوق المدين، إذا كان عاجزاً عن الدفع، فضلاً عن عدم جواز الضغط عليه وفرض فائدة جديدة عليه كما كانت الحال في الجاهلية، فهو حقيق بأن يمهل مزيداً من الوقت لتسديد أصل الدين عند القدرة والاستطاعة.

إنّ القوانين الإسلامية التي جاءت لتوضيح مفهوم هذه الآية تمنع الدائن من استيلاء على دار المدين وأمتعته الضرورية اللازمة لقاء دينه، إنّما للدائن أن يأخذ الزائد على ذلك. وهذا قانون صريح وإنساني يحمي حقوق الطبقات الفقيرة في المجتمع.

«وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون»

والأفضل من كلّ ذلك الذي سبق بشأن المدين العاجز عن الدفع، هو أن يخطو الدائن خطوة إنسانية كبيرة فيتنازل للمدين عمّا بقي له بدمته فهذا خير عمل إنساني يقوم به، وكلّ من يدرك منافع هذا الأمر يؤمن بهذه الحقيقة.

\*\*\*



## الآية

٢٨١ - «وَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

## التفسير

من المؤلفوف في القرآن أنه بعد بيان تفاصيل الأحكام وجزئيات الشريعة الإسلامية يطرح تذكيراً عاماً شاملاً يؤكد به ما سبق قوله، لكي تنفذ الأحكام السابقة نفوذاً جيداً في العقل والنفس.

لذلك فإنه في هذه الآية يذكر الناس بيوم القيامة ويوم الحساب والجزاء، ويحذرهم من اليوم الذي ينتظرهم حيث يوضع أمام كل امرئ جميع أعماله دون زيادة ولا نقصان، وكل ما حفظ في ملف عالم الوجود يسلم إليه دفعة واحدة، عندئذ تهوله النتائج التي تنتظره. ولكن ذلك حصيلة ما زرعه بنفسه وما ظلمه فيه أحد، إنما هو نفسه ظلم نفسه «وهم لا يظلمون». جدير بالذكر أن هذه الآية من الأدلة الأخرى على تجسّد أعمال الإنسان في العالم الآخر.

يلفت النظر أن تفسير «الدر المنثور» ينقل بطرق عديدة أن هذه الآية هي آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

وهذا لا يتناقض مع كون سورة البقرة ليست آخر سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأن بعض الآيات كما نعلم كانت توضع في سورة سابقة عليها أو لاحقة لها، وذلك بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه.

## أضرار الربا

الربا يخلّ بالتوازن الاقتصادي في المجتمع، ويؤدي إلى تراكم الثروة لدى فئة قليلة،

لأنّ هذه الفئة هي وحدها التي تستفيد من الأرباح بينما لا يجني الآخرون سوى الخسائر والأضرار والضغط.

الربا يشكّل اليوم أهم عوامل مانراه من اتّساع الهوة باستمرار بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وما يعقب ذلك من حروب دموية طاحنة.

الربا لون من ألوان التبادل الاقتصادي غير السليم، يضعف العلاقات العاطفية، ويغرس روح الحقد في القلوب، ذلك لأنّ الربا يقوم في الواقع على أساس أنّ المرابي لا ينظر إلّا إلى أرباحه، ولا يهتمّ الضرر الذي يصيب المدين.

هنا يبدأ المدين بالاعتقاد بأنّ المرابي يتخذ من أمواله وسيلة لتدمير حياة الآخرين. صحيح أنّ دافع الربا يرضخ لعمله هذا نتيجة حاجة قد أُلجأته إلى ذلك. ولكنّه لن ينسى هذا الظلم أبداً، وقد يصل به الأمر إلى الإحساس بأصابع المرابي تشدّد من ضغطها على عنقه وتكاد تخنقه. وفي هذه الحالة تبدأ كلّ جوارح المدين المسكين ترسل اللعنات على المرابي، ويتعطش لشرب دمه. إنّه يرى بأنّ عينيه كيف أنّ حاصل شقائه وتعبه وثمن حياته يدخل إلى جيب هذا المرابي، في مثل هذه الحالة الهائجة تُرتكب عشرات الجرائم المرعبة، فقد يقدم المدين على الانتحار، وقد تدفعه حالته اليائسة إلى أن يقتل المرابي شرّقتله، وقد ينفجر الشعب المضطهد انفجاراً عاماً في ثورة عارمة.

إنّ انفصام علائق التعاون بين الدول المرابية والدول التي تستقرض منها بالربا واضح للعيان أيضاً. إنّ الدول التي تجد ثرواتها تصبّ في خزائن دولة أخرى باسم الربا تنظر دون شكّ بعين البغض والحقد إلى الدولة المرابية، وفي الوقت الذي هي بحاجة إلى أن تستقرض منها فإنّها تتحيّن الفرصة للإعراب عن نقيمتها وكرهها بشتى الوسائل والطرق.

وهذا هو الذي يحدونا إلى القول بأنّ للربا أثراً أخلاقياً سيئاً جداً في نفسية المدين ويثير في قلبه الكره والضعينة، ويفصم عرى التعاون الاجتماعي بين الأفراد والملل. •  
في الأحاديث الإسلامية إشارة إلى آثار الربا الأخلاقية السيئة وردت في جملة قصيرة ولكنها عميقة المعنى. جاء في كتاب «وسائل الشيعة» عن علّة تحريم الربا عن الامام الصادق عليه السلام قال: «إنّها حرّم الله عزّ وجلّ الربا لكي لا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف»<sup>١</sup>.

## الآية

٢٨٢ - «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْتِكُمْ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيْحَسٌ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلِعَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْتِبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْسَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

## التفسير

### تدوين الأوراق التجارية

بعد أن شرّ القرآن على الربا والاحتكار والبخل حرباً شعواء، وضع تعليمات دقيقة لتنظيم الروابط التجارية والاقتصادية، لكي تنمو رؤوس الأموال نمواً طبيعياً دون أن تعثرها عوائق أو تنتابها خلافات ومنازعات.

تضع هذه الآية التي هي أطول آيات القرآن ثمانية عشر بنداً من التعليمات التي تنظم الشؤون المالية، نذكرها على التوالي:

١ - إذا أقرض شخص شخصاً أو عقد صفقة، بحيث كان أحدهما مديناً، فلكي لا يقع أيّ سوء تفاهم واختلاف في المستقبل، يجب أن يكتب بينها العقد بتفاصيله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ».



من الجدير بالذكر أنه يستعمل كلمة «ذَيْن» هنا ولا يستعمل كلمة «قرض»، وذلك لأنَّ القرض هو تبادل شيئين متشابهين كالنقود أو البضاعة التي يقترضها المقرض ويستفيد منها، ثم يعيد نقوداً أو بضاعةً إلى المقرض مثلاً بمثل. أمّا «الذَيْن» فأوسع معنى، فهو يشمل كلّ تعامل، مثل المصالحة والايجار والشراء والبيع وأمثالها، بحيث إنّ أحد الطرفين يصبح مديناً للطرف الآخر. وعليه فهذه الآية تشمل جميع المعاملات التي فيها ذَيْن يَبْقَى في ذمّة المدين، بما في ذلك القرض.

٢ - لكي يطمئن الطرفان على صحّة العقد ويأمننا احتمال تدخل أحدهما فيه، فيجب أن يكون الكاتب شخصاً ثالثاً «وليكتب بينكم كاتب».

على الرغم من أنّ ظاهر الآية يدلّ على وجوب كتابة العقد، يتبيّن من الآية التالية «فان أمن بعضكم بعضاً فليؤدّ الذي أوّمن أمانته» أنّ لزوم الكتابة يتحقّق إذا لم يطمئن الطرفان أحدهما إلى الآخر واحتمل حصول خلافات فيما بعد.

٣ - على كاتب العقد أن يقف إلى جانب الحق، وأن يكتب الحقيقة الواقعة «بالعدل».

٤ - يجب على كاتب العقد، الذي وهبه الله علماً بأحكام كتابة العقود وشروط التعامل، أن لا يمتنع عن كتابة العقد، بل عليه أن يساعد طرفي المعاملة في هذا الأمر الاجتماعي «ولا يأت كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب».

إنّ تعبير «كما علّمه الله» حسب التفسير المذكور للتوكيد ولزيادة الترغيب. ويمكن القول إنّه يشير إلى أمر آخر، وهو ضرورة التزامه الأمانة، وأن يكتب العقد، كما علّمه الله، كتابة متقنة.

بديهيّ أنّ قبول الدعوة الى تنظيم العقود ليست واجباً عينياً، كما يتّضح من قوله سبحانه «ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً».

٥ - على أحد الطرفين أن يملّي تفاصيل العقد على الكاتب. ولكن أيّ الطرفين؟ تقول الآية: المدين الذي عليه الحق: «ويملل الذي عليه الحق».

من المتفق عليه أنّ التوقيع المهمّ في العقد هو توقيع المدين، ولذلك فإنّ العقد الذي يكتب بإملائه يعتبر مستمسكاً لا يمكن له أن ينكره.

٦ - على المدين عن الإملاء أن يضع الله نصب عينيه، فلا يترك شيئاً إلّا قاله ليكتبه الكاتب «وليتق الله ربه ولا يبخر منه شيئاً».

٧ - إذا كان المدين واحداً ممن تنطبق عليه صفة «السفيه»، وهو الخفيف العقل الذي يعجز عن إدارة أمواله ولا يميّز بين ضرره ومنفعته، أو «الضعيف» القاصر في فكره والضعيف في عقله المجنون، أو «الأبكم والأصم» الذي لا يقدر على النطق، فإنّ لوليّه أن يبلي العقد فيكتب الكاتب بموجب إملائه «فإن كان الذي عليه الحقّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يبلي هو فليملل وليّه».

٨ - على «الولي» في الإملاء والاعتراف بالدين، أن يلتزم العدل وأن يحافظ على مصلحة موكله، وأن يتجنّب الابتعاد عن الحقّ «فليملل وليّه بالعدل».

٩ - بالإضافة إلى كتابة العقد، على الطرفين أن يستشهدا بشاهدين «واستشهدوا شهيدين».

١٠ و ١١ - يجب أن يكون الشاهدان بالغين ومسلمين وهذا يستفاد من عبارة «من رجالكم» أي ممن هم على دينكم.

١٢ - يجوز اختيار شاهدين من النساء وشاهد من الرجال «فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان».

١٣ - لا بدّ أن يكون الشاهدان موضع ثقة «ممن ترصّون من الشهداء». يتبين من هذه الآية أنّ الشهود يجب أن يكونوا ممن يُطمأنّ إليهم من جميع الوجوه، وهذه هي «العدالة» التي وردت في الأخبار أيضاً.

وإذا كان الشاهدان من الرجال، فلكلّ منهما أن يشهد منفرداً. أمّا إذا كانوا رجلاً واحداً وامرأتين، فعلى المرأتين أن تدليا بشهادتهما معاً لكي تذكر إحداهما الأخرى إذا نسيت شيئاً أو أخطأت فيه.

أمّا سبب اعتبار شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، فهو لأنّ المرأة كائن عاطفي وقد تقع تحت مؤثرات خارجية، لذلك فوجود امرأة أخرى معها يحول بينها وبين التأثير العاطفي وغيره: «أنّ تَصِلَ إحداهما فتُدْغِرُ إحداهما الأخرى».

١٤ - و يجب على الشهود إذا دُعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير ولا عُذر كما قال: «ولا يَأْب الشهداء إذا ما دُعوا».

وهذا من أهم الأحكام الإسلامية ولا يقوم القسط والعدل إلّا به.

١٥ - سواء أكان الدين صغيراً أو كبيراً فتجب كتابته، لأنّ الإسلام يريد أن لا يقع أيّ نزاع في الشؤون التجارية، حتى في العقود الصغيرة التي قد تجرّ إلى مشاكل كبيرة «ولا

تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله»، والسام هو الملل من أمر لكثرة لبثه. تشير الآية هنا إلى فلسفة هذه الأحكام، فتقول إن الدقة في تنظيم العقود والمستندات تضمن من جهة تحقيق العدالة، كما أنها تطمئن الشهود من جهة أخرى عند أداء الشهادة، وتحوّل من جهة ثالثة دون ظهور سوء الظن بين أفراد المجتمع «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا».

١٦ - إذا كان التعاقد نقداً فلا ضرورة للكتابة «إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها».

«التجارة الحاضرة» تعني التعامل النقدي، و«تديرونها» تعني الجارية في التداول لتوضيح معنى التجارة الحاضرة. وتعبير «فليس عليكم جناح» يعني: ليس هناك ما يمنع من كتابة العقود النقدية أيضاً، وهو خير، لأنه يزيل كل خطأ أو اعتراض محتملين فيما بعد.

١٧ - في المعاملات النقدية وإن لم تحتج إلى كتابة عقد، لا بدّ من شهود: «وأشهدوا إذا تباعتم».

١٨ - وآخر حكم تذكره الآية هو أنه ينبغي ألا يصيب كاتب العقد ولا الشهود أي ضرر بسبب تأييدهم الحق والعدالة: «ولا يضار كاتب ولا شهيد».

والفعل «يضر» يعني - كما فسّرناه - أن لا يصيب الكاتب والشهود ضرر، أي أنه مجهول. ولا حاجة إلى تفسيره بأنه يعني أن لا يصدر من الكاتب والشهود ضرر في الكتابة والشهادة، بعبارة أخرى لا حاجة إلى اعتباره فعلاً معلوماً، لأنّ هذا التأكيد ورد في فقرة سابقة من الآية.

ثم تقول الآية إنه إذا أدى أحد شاهداً أو كاتباً لقوله الحق فهو إثم وفسوق يخرج المرء من مسيرة العبادة لله: «وإن فعلوا فإنه فسوق بكم».

وفي الختام، وبعد كلّ تلك الأحكام، تدعو الآية الناس إلى التقوى وامتنال أمر الله: «واتقوا الله» ثم تقول إن الله يعلمكم كلّ ما تحتاجونه في حياتكم المادية والمعنوية: «ويعلمكم الله» وهو يعلم كلّ مصالح الناس ومفاسدهم ويقرّر ما هو الصالح لهم: «والله بكلّ شيء علم».

ويتبين من عبارة «واتقوا الله ويعلمكم الله» أنّ للتقوى والعبادة أثراً عميقاً في الوعي والبصيرة وزيادة العلم، فالقلب الطاهر يعكس الحقائق كما تعكس المرآة الأشياء.



## الآية

٢٨٣ - «وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

## التفسير

هذه الآية التي تكمل الآية السابقة تشتمل على أحكام أخرى:

١ - عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك في سفر، عندئذٍ على المدين أن يضع شيئاً عند الدائن باسم الرهن لكي يطمئن الدائن «وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة».

قد يبدو من ظاهر الآية لأول وهلة أنّ تشريع «قانون الرهن» يختصّ بالسفر، ولكن بالنظر إلى الجملة التالية وهي «ولم تجدوا كاتباً» يتبين أنّ القصد هو بيان نموذج لحالة لا يمكن الوصول فيها إلى كاتب، وعليه فللطرفين أن يكتبيا بالرهن حتى في موطنها. وهذا أيضاً ما جاء في الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام. وفي المصادر الشيعية والسنية أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد رهن درعه في المدينة عند شخص غير مسلم واقترض منه مبلغاً من المال.

٢ - يجب أن يبقى الرهن عند الدائن حتى يطمئن «فرهان مقبوضة».

جاء في تفسير العياشي أنّ الامام الصادق عليه السلام قال: «لارهن إلاّ مقبوضة».

٣ - جميع هذه الأحكام - من كتابة العقد، واستشهاد الشهود، وأخذ الرهن - تكون في حالة عدم وجود ثقة تامة بين الجانبين، وإلاّ فلا حاجة إلى كتابة عقد. وعلى المدين أن يحترم ثقة الدائن به، فيسدّد دينه في الوقت المعين، وأن لا ينسى تقوى الله «فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدّ الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه».

٤ - على الذين لهم علم بما للآخرين من حقوق في المعاملات أو في غيرها، إذا دعوا للإدلاء بشهادتهم أن لا يكتموها، لأنَّ كتمان الشهادة من الذنوب الكبيرة «ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه».

طبيعيّ أنّ الشهادة تجب علينا إذا لم يستطع الآخرون إثبات الحقّ بشهادتهم، أمّا إذا ثبت الحقّ فيسقط وجوب الإدلاء بالشهادة عن الآخرين، أي أنّ أداء الشهادة واجب كفائي.

وبما أنّ كتمان الشهادة والامتناع عن الإدلاء بها يكون من القلب فقد نسب هذا الاثم إلى القلب<sup>١</sup>، فقال: «فإنه آثم قلبه» ومرة أخرى يؤكد في ختام الآية ضرورة ملاحظة الأمانة وحقوق الآخرين: «والله بما تعملون خبير».

\*\*\*

## الآية

٢٨٤ - «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

## التفسير

الذنوب التي يرتكبها الانسان بعضها ذات طابع خارجي وبعضها باطني قلبي، مثل كتمان الشهادة، ومثل الشرك . تشير هذه الآية إلى أن الله لا يحاسب على الذنوب الظاهرة فحسب، بل أنه يحاسب على الذنوب الباطنية أيضاً، لأنه هو الحاكم على العالم بأرضه وسماواته ولا يخفى عليه شيء . إن الذي لا يحاسب على الذنوب الباطنية هو الذي لا علم له بأسرار السماوات والأرض وظاهر العالم وباطنه، لا الله العالم بكل شيء .  
إن هذه الآية على هذا التفسير لا تتعارض مع الأحاديث الكثيرة التي تقول إن «نية ارتكاب الذنب ليس ذنباً»، لأن تلك الأحاديث تخص النية التي تتقدم الذنوب ذات المظاهر الخارجية، لا الذنوب الباطنية القلبية.

للآية معنى آخر أيضاً، وهو أن عملاً ما يمكن أن يتحقق بصور مختلفة. فالإنفاق مثلاً يمكن أن يكون لله، ويمكن أن يكون نابعاً من حب الشهرة والجاه. تقول الآية: إذا أعلنت نيتك أو أخفيتها فالله عالم بها ويحاسبك بموجبها. هذه الآية تكرر في الواقع مقولة: لا عمل إلا بنية.

ثم تقول: إن الله يغفر الذنوب إذا شاء، ويعاقب عليها إذا شاء: «فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء». بديهي أن إرادة الله أن يغفر أو يعاقب أو يهدي أو يضل لا تكون اعتباطية، بل بحسب الجدارة التي يحصل عليها الانسان، فالله على كل شيء قدير.



## الآية

٢٨٥ - «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

## التفسير

إحدى مزايا الأنبياء على سائر قادة البشر إيمانهم الراسخ بأهدافهم ورسالتهم دون أن يعتورهم أي شك في صحة ما يعتقدون به. يدعو القرآن الناس إلى النبي الذي يدرك دعوته وهدفه بكل وجوده «آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَقْسَمِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ»<sup>١</sup>.

إن الآية التي نحن بصددتها تشير إلى هذا الموضوع ذاته، فتقول إن النبي آمن إيماناً لا يناله التزلزل بالله وبجميع ما أنزل عليه. وهكذا المؤمنون الذين تربوا في مدرسة النبي.

هؤلاء خلافاً لأولئك الذين «يريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض»<sup>٢</sup> يؤمنون بأن لجميع الأنبياء هدفاً واحداً، وأنهم بُعثوا لأمر واحد، ولذلك فإنهم يقولون «لا نفرق بين أحد من رسله».

وهذا لا يتعارض مع القول بأن الأديان اللاحقة نسخت الأديان السابقة، فقد سبق أن قلنا إن تعاليم الأنبياء أشبه بالصفوف المتتالية في المدرسة الواحدة، فالطالب الذي يرتقي إلى صف متقدم يترك ما قرأه في الصف السابق وإن بقي يحترمه.

## الاعتراف بالعبودية

في مواضع العبادة والعبودية لا يزال المؤمنون يقولون: ربنا إننا سمعنا ما قاله رسلك

١ - الأعراف: ١٥٨.

٢ - النساء: ١٥٠.

وأنبياءك وهم يدعوننا إليك فأطعنا بعقولنا وقلوبنا واتبعناهم «وقالوا سمعنا وأطعنا»<sup>١</sup>،  
ولكننا ياربنا نحن بشر، وقد تغلبنا أهواؤنا فتزل أقدامنا، لذلك فإننا نرجو عفوكم ، لأن مسيرنا  
ومنتهاها إليك : «غفرانك ربنا وإليك المصير»<sup>٢</sup>.

\*\*\*

---

١ - السمع في بعض المواضع يعني الفهم والتصديق. وهذه الآية واحدة من تلك المواضع.

٢ - غفرانك : مفعول به لفعل محذوف تقديره نريد غفرانك .

## الآية

٢٨٦ - «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

## التفسير

### أداء الواجب في حدود القدرة

«الوسع» لغة تعني القدرة والاستيعاب. وعليه فإن الآية تؤيد الحقيقة المنطقية القائلة إن التكاليف والفرائض الإلهية لا تتجاوز طاقة الأفراد الاستيعابية أبداً. لذلك يمكن القول بأن كل الأحكام تقيد وتفسر بهذه الآية وتحدد بإطار قدرة الانسان. من البديهي أن مشرعاً حكيماً وعادلاً لا يمكن أن يضع قانوناً على نحو آخر. كما أن الآية تؤكد حقيقة أن الأحكام الشرعية لا تنفصل أبداً عن أحكام العقل والحكمة، بل هي متماشية معها مواكبة لها في كل المراحل.

«لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت»

النقطة الأخرى هي أن العمل بهذه القوانين والأحكام هو الذي يعين مصير الأفراد. تقول الآية إن كل امرئ يحصد نتائج عمله الصالح والظالم، وسواجهه في الدنيا والآخرة، فهي تنبئ الناس إلى مسؤولياتهم وعواقب أعمالهم، وتفند الأساطير التي تبريء بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسؤولين عن أعمال الآخرين دون دليل. تجدر الإشارة إلى أن الآية تطلق على الأعمال الصالحة اسم «الكسب» وعلى الأعمال السيئة اسم «الاكتساب». ولعل السبب هو أن «الكسب» يستعمل بالنسبة إلى الأمور التي يحققها المرء برغبة داخلية وبلا تكليف وهي تناسب فطرته، بينما «الاكتساب»



هو النقطة المقابلة للكسب، أي الأعمال التي تنافي الفطرة وطبيعة الانسان. يفهم من هذا أنّ الأعمال الصالحة مطابقة لمسيرة الفطرة وطبيعة الانسان، بينما أعمال الشر تخالف الفطرة والطبيعة.

أما الراغب الاصفهاني في «مفرداته» فيرى رأياً غير هذا وهو جدير بالملاحظة. يقول: الكسب ما يتحرّاه الانسان ممّا فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظّ ككسب المال، ويقال فيما أخذه لنفسه ولغيره (كأعمال الخير التي لا تقتصر فائدتها على الفاعل وحده، بل قد تعمّ الأقارب وغيرهم) في حين أنّ الاكتساب لا يقال إلاّ فيما تعود نتائجه على الفاعل نفسه، وهو الذنب. هذه الاختلافات في المعنى تصلح طبعاً عندما تستعمل الواحدة في قبال الأخرى.

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»

لما كان المؤمنون يعرفون أنّ مصيرهم يتحدّد بما كسبت أيديهم من أعمال صالحة أو سيئة بموجب قانون «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» لذلك يتضرعون ويخاطبون الله بلفظ «الرب» الذي يوحي بمعاني اللطف في النشأة والتربية قائلين: إذا كنّا قد أذنبنا بسبب النسيان أو الخطأ، فاغفر لنا ذنوبنا برحمتك الواسعة وجنّبنا العقاب.

العقاب على النسيان والخطأ

لماذا الدعاء لأن يغفر الله الذنوب المرتكبة نسياناً أو خطأً؟

فهل الله يعاقب على مثل هذه الذنوب؟

في الجواب لابدّ من القول بأنّ النسيان يكون أحياناً من باب التماهل والتساهل من جانب الانسان نفسه. بديهي أنّ هذا النوع من النسيان لا يضع المسؤولية عن الانسان، كما جاء في القرآن:

«فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا»<sup>١</sup> وعليه فإنّ النسيان الناشيء عن التساهل

يوجب العقاب.

ثم لابدّ من ملاحظة أنّ هناك فرقاً بين النسيان والخطأ. فالخطأ يقال عادة في الأمور التي تقع لغفلة من الانسان وعدم انتباه منه، كأن يطلق رصاصة ليصيد صيداً فتصيب

رصاصته إنساناً فتجرحه. أما النسيان فهو أن يتَّجه الانسان للقيام بعمل ما ولكنه ينسى كيف يقوم بذلك ، كأن يعاقب المرء إنساناً بريئاً ظناً منه أنه المذنب، لنسيانه مميزات المذنب الحقيقي.

«رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا»

«الإصر» عقد الشيء وحبسه. وتطلق على الحمل الثقيل الذي يمنع المرء من الحركة. والإصر. العهد المؤكد الذي يقيد الانسان. وهذا المعنى تطلق الكلمة على العقاب أيضاً.

يطلب المؤمنون من الله في هذه الآية طلبين: الأول أن يرفع عنهم الفروض الثقيلة التي قد تمنع الانسان من إطاعة الله، وهذا هو ماورد على لسان النبي صلى الله عليه وآله بشأن التعاليم الاسلامية، إذ قال «بعثت بالشرية السهلة السمحة».

هنا قد يسأل سائل: إذا كانت السهولة والسماحة في الدين جيدة، فلماذا لم يكن

للأقوام السابقة مثلها؟

في الجواب لابد أن نقول: تفيد آيات في القرآن أن التكاليف الشاقة لم تكن موجودة في أصل شرائع الأديان السابقة، بل فرضت كعقوبات على أثر عصيان تلك الأقوام وعدم إطاعتها، كحرمان بني إسرائيل من أكل بعض اللحوم المحللة بسبب عصيانهم المتكرر.

وفي الطلب الثاني يريدون منه أن يعفيهم من الامتحانات الصعبة والعقوبات التي لا تطاق «ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به». نرى في الفقرة السابقة صيغة «لا تحمّل»، وهنا نرى عبارة «لا تحمّل»، فالأولى تستعمل عادة في المشاكل، والثانية فيما لا يطاق.

«فاعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا»

«عفا» بمعنى أزال آثار الشيء، وأكثر استعمالها مع الذنب بمعنى محو آثار الإثم،

وتشمل الآثار الطبيعية والآثار الجزائية والعقوبات.

أمّا «الغفران» فتعني أن يصون الله العبد من أن يمسه العذاب عقوبة على ذنبه.

وعليه، فإن استعمال الكلمتين يفيد أن المؤمنين طلبوا من الله أن يزيل الآثار

التكوينية والطبيعية لزللهم عن أرواحهم ونفوسهم، لكي لا تصيبهم عواقبها السيئة. كما أنهم طلبوا منه أن لا يقعوا تحت طائلة عقابها. وفي المرحلة الثالثة يطلبون «رحمته الواسعة» التي تشمل كل شيء.

### «أنت مولانا فانصرنا على القول الكافرين»

وفي آخر دعواهم يخاطبون الله على أنه مولاهم الذي يتعهدهم بالرعاية والتربية وطلبون منه أن يمنحهم الفوز والانتصار على الأعداء.

في هاتين الآيتين خلاصة لسورة البقرة كلها، وهما تهدياننا إلى روح التسليم أمام رب العالمين، وتشيران إلى أنه إذا أراد المؤمنون من الله أن يغفر لهم زلاتهم وأن ينصرهم على الأعداء كافة، فلا بد لهم أن ينفذوا برنامج «سمعنا وأطعنا»، أن يقولوا: إننا سمعنا دعوات الداعين وقبلناها بكل جوارحنا وإننا متبعوها، ولن ندخر وسعاً في حث السير على هذا السبيل. وعندئذٍ لهم أن يطلبوا الانتصار على الموانع والأعداء.

إن تكرار كلمة «رب» أي الذي يلفظ بعباده ويريتهم يكمل هذه الحقيقة. ولهذا حثنا أئمة الدين في أحاديثهم على قراءة هاتين الآيتين، ويبنوا مافيها من أبواب الثواب. فاذا تناغم اللسان والقلب في تلاوتها فلا تكون التلاوة مجرد ألفاظ تجري على اللسان، بل يغدو ذلك برنامجاً حياً، فإن تلاوتها تربط بين القلب وخالق الكون، وتضفي الصفاء على الروح وتكون عاملاً على التحرك والنشاط.



## سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مدنيّة، وعدد آياتها ٢٠٠ آية

## الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - «الم».

٢ - «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

٣ - «نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ».

## النزول

يقول بعض المفسرين: إنَّ ثمانين آيةً ونيفاً من هذه السورة قد نزلت في وفد مسيحيي نجران<sup>١</sup> الذي قدم المدينة للتحقيق في أمر الاسلام.

كان الوفد يتألف من ستين شخصاً، فيهم أربعة عشر شخصاً من أشرف نجران وشخصياتها. ثلاثة من هؤلاء الأربعة عشر كانت لهم صفة الرئاسة، واليهم يرجع المسيحيون لحل مشاكلهم. أحدهم يدعى «عاقب» ويسمى «عبد المسيح» أيضاً، كان زعيم قومه المطاع بينهم. والثاني يدعى «السيد» ويسمونه «ايهم» أيضاً، وهو المسؤول عن تنظيم برنامج الرحلة ومعمد المسيحيين. والثالث «أبو حارثة» وكان عالماً وصاحب نفوذ، وبنيت كنائس عديدة باسمه. وحفظ عن ظهر قلب جميع كتب المسيحيين الدينية.

دخل هؤلاء المدينة وهم بملابس قبيلة بني كعب وجاءوا إلى مسجد النبي صلى الله عليه وآله. كان النبي صلى الله عليه وآله قد انتهى من صلاة العصر مع المسلمين. هؤلاء الستون بملابسهم اللامعة الملونة الزاهية أثاروا الانتباه، حتى قال بعض صحابة النبي صلى

---

١ - نجران منطقة في جبال اليمن الشمالية على بعد نحو عشرة منازل من صنعاء، وتسكنها قبائل همدان التي كان لها في الجاهلية صنم باسم «يعوق». ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: نجران اسم لعدد من المواضع.

الله عليه وآله: مارأينا مبعوثين بهذا الجمال!

عندما وصل هؤلاء إلى المسجد كان موعد صلاتهم قد أزف، ففرعوا نواقيسهم بحسب طقوسهم واتجهوا نحو الشرق وشرعوا يصلون، فحاول بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أن يمنعهم، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلب من الصحابة أن يتركوهم وشأنهم.

وبعد الصلاة أقبل «عاقب» و«السيد» على رسول الله صلى الله عليه وآله وبدءا يحادثانه، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وآله إلى الدخول في الاسلام والاستسلام لله. قالوا: قد أسلمنا قبلك.

قال: كذبتا يمنعكما من الاسلام دعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير.

قالوا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى. فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه

أباه؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء ويحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟

قالوا: لا.

قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا

يحدث.

قالوا: بلى.



قال: أستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة، ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها، ثم غدّي كما يغدّي الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟  
قالوا: بلى..  
قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا فأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية<sup>١</sup>.

### التفسير

يجمع المفسرون أنّ هذه السورة مائتا آية، نزلت جميعها في المدينة، وأنها دعيت باسم آل عمران بمناسبة ذكر حكايتهم في الآية ٣٢ وما بعدها.  
الكلام في هذه السورة يدور أكثر ما يدور على الإيمان والاسلام، والثبات على طريق الدفاع عن الاسلام وانتشاره، والحوار المنطقي مع اليهود والمسيحيين والمشركين. كما تبين دروساً كثيرة للمسلمين بشأن تقدّم الاسلام ودحض العقائد الباطلة.  
مواضيع هذه السورة مترابطة ترابطاً يكاد يحكي عن نزولها في مكان واحد. وإليكم التفسير:

«الم»

### تفسير الحروف المقطعة بالعقول الالكترونية

فما يتعلّق بالحروف المقطعة في القرآن، سبق الحديث عنها في بداية سورة البقرة، فلا موجب لتكرار ذلك. إنّما الذي ينبغي عرضه هنا هو النظرية المثيرة التي تقدّم بها مؤخراً عالم مصري نورد هنا خلاصة لها لأهميتها. لاشك أنّ الحكم على صلاحها أو فسادها يستلزم بحثاً دقيقة يقع عبؤها على الأجيال القادمة. إنّما نحن نورد هنا كنظرية ليس غير.  
مجلة «آخر ساعة» المصرية المعروفة نشرت تقريراً عن تحقيقات عجيبة قام بها عالم مصري مسلم بخصوص تفسير بعض آيات القرآن المجيد بواسطة العقول الالكترونية أثارت إعجاب الناس في مختلف أنحاء العالم.  
تلك التحقيقات التي أجراها الدكتور «رشاد خليفة» العالم الكيماويّ المصري

خلال ثلاث سنوات متواصلة، أثبتت أنّ هذا الكتاب السماويّ العظيم ليس من نتاج عقل بشري، وأنّ الانسان غير قادر على الإتيان بمثله.

أجرى الدكتور رشاد تحقيقاته في مدينة «سانت لويس» بمقاطعة «ميسوري» الأمريكية واستخدم في تحقيقاته واستكمالها العقول الالكترونية لفترات طويلة مع أنّ أُجرتها في كلّ دقيقة ١٠ دولارات تبرّع بها المسلمون المقيمون هناك .

كان كلّ جهد الأستاذ المذكور ينصبّ على معرفة معاني الحروف المقطعة في القرآن، مثل «ق،الم،يس». لقد استطاع بحسابات معقّدة أن يثبت وجود علاقة قوية بين هذين الحروف والسورة التي تقع في صدرها فتأمل .

لقد استعان بالعقل الالكتروني لإجراء تلك الحسابات الخاصّة لمعرفة أعداد حروف السور ونسبة وجود كلّ حرف منها، لا لتفسير القرآن.

ولولا هذه الأجهزة ما استطاع أحد أن يجري تلك الحسابات على الورق.

والآن نوجز الاكتشافات الذي توصل إليه العالم المصري: يقول الدكتور رشاد: نعلم أنّ القرآن يضمّ ١١٤ سورة، منها ٨٦ سورة نزلت في مكة و٢٨ سورة في المدينة، ومن بين مجموع سور القرآن ٢٩ سورة تبدأ بحروف مقطّعة.

من الجدير بالذكر أنّ مجموع هذه الحروف يبلغ نصف حروف الهجاء العربية، وهي (أ-ح-ر-س-ص-ط-ع-ق-ك-ل-م-ن-ه-ي) وقد يصفونها بالحروف النيرة.

يقول الدكتور: منذ سنوات وأنا أحبّ أن أعرف معنى هذه الحروف التي تبدو في الظاهر أنّها مقطّعة وتتصدّر بعض السور. وعلى الرغم من رجوعي إلى تفاسير مشاهير المفسّرين فلم أعرّ لديهم على جواب مقنع، فاستعنت بالله واتّكلت عليه وبدأت بحثي:

خطر لي مرّة أنّه ربما تكون هناك علاقة بين هذه الحروف وحروف كلّ سورة تتصدّرها. غير أنّ دراسة الحروف النيرة الأربعة عشر كلّها ضمن حروف سور القرآن المائة وأربعة عشر واستخراج نسبة كلّ حرف والحسابات الكثيرة الأخرى لم تكن من الأمور التي يمكن إجراؤها دون الاستعانة بالعقول الالكترونية. لذلك شرعت أولاً بتعيين تلك الحروف منفردة في جميع سور القرآن، ثمّ تعيين مجموع حروف كلّ سورة، وأعطيتها جميعاً إلى العقل الالكتروني مع رقم كل سورة (لغرض القيام بالحسابات المعقّدة المطلوبة فيما بعد). لقد استغرق هذا العمل مع مقدّماته سنتين من الزمان.

ثمّ عملت على العقل الالكتروني لإجراء تلك الحسابات مدّة سنة كاملة. كانت

النتائج لامعة جداً وكشف الستار لأول مرة في تاريخ الاسلام عن حقائق مذهلة أكدت أعجاز القرآن (إضافة إلى أمور أخرى) من الناحية الرياضية ونسبة حروف القرآن. لقد أوضحت لنا حسابات العقل الالكتروني نسبة وجود كل من الحروف الأربعة عشر في كل سورة من سور القرآن المائة وأربعة عشر.

فثلاً بالحسابات وجدنا أن نسبة حرف القاف، وهو أحد الحروف النورانية في القرآن في سورة «الفلق» تحوز أعلى نسبة (٦٠٠/٧٠٪) وتحوز المرتبة الأولى بين سور القرآن، طبعاً باستثناء سورة «ق». بعدها تأتي سورة «القيامة» التي يبلغ فيها عدد حروف القاف بالنسبة إلى حروف السورة (٣٠٧/٩٠٪)، ثم تأتي سورة «والشمس» ونسبتها (٣٠٦/٩٠٪). ونلاحظ من ذلك أن الفرق بين سورة «القيامة» وسورة «والشمس» يبلغ (٠/١٠٠٪).

وهكذا استخرجنا هذه النسبة في ١١٤ سورة لهذا الحرف ولسائر الحروف النورانية الأخرى، وبذلك ظهرت نسبة مجموع حروف كل سورة إلى كل حرف من الحروف النورانية.

وفيا يلي النتائج المثيرة التي توصل إليها التحقيق:

١ - نسبة حرف «ق» في سورة «ق» أكثر من نسبتها في أية سورة أخرى بدون استثناء. أي أن الآيات التي نزلت طوال ٢٣ سنة - وهي فترة نزول القرآن - في ١١٣ سورة استعملت فيها القاف بنسبة أقل، أنه مثير ومدهش أن يكون إنسان قادراً على مراقبة تعداد كل حرف من الحروف التي يستعملها على مدى ٢٣ سنة، وفي الوقت نفسه يعرب بكل مطلاقة وبدون أي تكلف عما يريد بيانه. لاشك أن أمراً كهذا خارج عن نطاق قدرة الانسان، بل أن مجرد حساب ذلك يتعدّر على أعظم العقول الرياضية بدون الالتجاء إلى العقل الالكتروني.

وهذا كله يدل على أن سور القرآن وآياته ليست وحدها الموضوعة وفق حساب معين، بل حتى حروفه موضوعة بحساب ونظام خاص لا يقدر عليه سوى الله تعالى.

كذلك دلت الحسابات على أن حرف «ص» في سورة «ص» له هذه الخاصية نفسها، أي نسبة وجوده في هذه السورة أكثر من نسبة وجوده في أية سورة أخرى من سور القرآن.

كما أن حرف «ن» في سورة «ن والقلم» يمتاز بنسبة أعلى من وجوده في أية سورة أخرى.



الاستثناء الوحيد هو سورة «الحجر» التي فيها نسبة الحرف «ن» أكثر من سورة «ن والقلم». ولكن ما يلفت هو أن سورة «الحجر» تبدأ بالحروف «الر». وسنجد أن السور التي تبدأ بحروف «الر» يجب أن تعتبر بحكم السورة الواحدة. فإذا فعلنا ذلك نصل إلى النتيجة المطلوبة أي أن عدد حرف «ن» في هذه السور سوف يكون أقل مما في سورة «ن والقلم».

٢ - حروف «المص» في بداية سورة الأعراف، إذا حسبنا حروف الألف والميم والصاد في هذه السورة نجدها أكثر مما هي في أية سورة أخرى.

كذلك «المر» في بداية سورة «الرعد». و«كهيعص» في بداية سورة «مريم»، إذا حسبت الأحرف الخمس كان عددها في هذه السورة أكثر مما هي في السور الأخرى. وهنا تواجهنا ظاهرة جديدة، فالحرف الواحد ليس هو وحده الذي يرد بحساب في السور، بل أن مجموعات الأحرف أيضاً تأتي هكذا بشكل مدهش.

٣ - كان الكلام حتى الآن يدور على الحروف التي تتصدر سورة واحدة من سورة القرآن، أما الحروف التي تتصدر سوراً متكررة، مثل «الر، الم» فإنها تتخذ شكلاً آخر، فالحسابات الالكترونية تقول إن مجموع هذه الحروف الثلاث، مثلاً «أل م» إذا حسبت في مجموع السور التي تتصدرها، وتستخرج نسبتها إلى مجموع حروف هذه السور، نجد أن هذه النسبة أكبر من نسبة وجودها في السور الأخرى من القرآن.

هنا أيضاً تتخذ المسألة شكلاً مثيراً وهو أن حروف كل سورة من سور القرآن ليست هي وحدها التي تقع تحت الضبط والحساب. بل أن مجموع حروف السور المتشابهة تقع تحت حساب متشابه أيضاً.

وهذه المناسبة يتضح أيضاً لماذا تبدأ عدّة سور مختلفة بالحروف «الم» أو «الر» وهذا لم يكن من باب المصادفة والاتفاق.

يقوم الدكتور رشاد بحسابات أعقد على السور التي تتصدرها «حم» لا نتطرق إليها اختصاراً.

يصل الاستاذ المذكور من خلال دراساته هذه إلى حقائق واستنتاجات أخرى أيضاً:

#### ١ - لابتدء من الإبقاء على إملاء القرآن الأصلي

يقول الدكتور: إن هذه الحسابات تصح في حالة الإبقاء على الإملاء الأصلي في

كتابة القرآن، مثل: اسحق وزكوة وصلوة، فلا نكتبها اسحاق وزكاة وصلوة. وإلا فإن الحسابات تحتل.

### ٢ - دليل على عدم تحريف القرآن

هذه التحقيقات تدل على أنّ أيّ تحريف - ولو في كلمة واحدة - لم يطرأ على القرآن من حيث الزيادة والنقصان، وإلا لما ظهرت هذه الحسابات على هذه الصورة.

### ٣ - إشارات عميقة المعنى

في كثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطعة نلاحظ أنه بعد الحروف تأتي الإشارة إلى صدق القرآن وعظمته، مثل: «الم \* ذلك الكتاب لا ريب فيه»، وهذا نفسه إشارة ظريفة إلى علاقة هذه الحروف بإعجاز القرآن.

### نتيجة البحث

نستنتج من هذا البحث أنّ حروف القرآن الكريم الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله على مدى ٢٣ سنة تنتظم في حساب دقيق، فكّل حرف من حروف الهجاء له مع مجموع حروف كلّ سورة نسبة رياضية دقيقة بحيث إنّ الحفاظ على هذا التنظيم والحساب يتعدّر على البشر بدون العقول الالكترونية.

لاشك أنّ التحقيقات التي أجراها العالم المذكور مازالت في بداية الطريق ولا تخلو من النقائص. فيجب أن تتظافر جهود هذا العالم مع غيره للتغلب عليها.

«الله لا إله إلا هو الحي القيوم»

سبق أن شرحنا هذه الآية في تفسير الآية ٢٥٤ من سورة البقرة.

«نزل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس»

هذه الآية تخاطب نبيّ الاسلام صلى الله عليه وآله قائلة إنّ الله الخالد القيوم قد أنزل عليك القرآن الذي فيه دلائل الحقّ والحقيقة، وهو يتطابق تماماً مع ما جاء به الأنبياء

والكتب السابقة «التوراة والانجيل» التي بشرت به<sup>١</sup> وقد أنزلها الله أيضاً هداية البشر.

هنا لابد من ملاحظة مايلي:

١ - أصل «الحق» المطابقة والموافقة، لذلك يقال لما يطابق الواقع «الحق». كما أن وصف الله بالحق ناشيء من كون ذاته القدسية أعظم واقع غير قابل للإنكار. وبعبارة أخرى «الحق» هو الموضوع الثابت المكين الذي لا باطل فيه. والباء في «بالحق» في هذه الآية للمصاحبة، أي يأتيها النبي لقد أنزل عليك الله القرآن مصحوباً بدلائل الحق.

٢ - «التوراة» لفظة عبرية تعني «الشريعة والقانون»، وأطلقت على الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران عليه السلام. وقد تطلق أيضاً على مجموعة كتب العهد القديم أو أسفاره الخمسة.

إن مجموعة كتب العهد القديم تتألف من التوراة وعدد من الكتب الأخرى. والتوراة تتألف من خمسة أقسام، كل قسم يسمى «سفرًا» وهي: «سفر التكوين» و«سفر الخروج» و«سفر لاوي» و«سفر الاعداد» و«سفر التثنية». هذه الأقسام من العهد القديم تشرح تكوين العالم والانسان والمخلوقات وبعضاً من سير الأنبياء السابقين وموسى بن عمران وبني إسرائيل والأحكام.

أما الكتب الأخرى فهي ما كتبه المؤرخون بعد موسى عليه السلام في شرح أحوال الأنبياء والملوك والأقوام التي جاءت بعد موسى بن عمران عليه السلام. بديهي أن هذه الكتب - عدا الأسفار الخمسة - ليست كتباً سماوية واليهود أنفسهم لا يدعون ذلك. وحتى «زبور» داود الذي يطلقون عليه اسم «المزامير» هو شرح مناجاة داود ومواعظه.

أما أسفار التوراة الخمسة ففيها دلائل تشير إلى أنها ليست من الكتب السماوية، بل هي كتب تاريخية دوت بعد موسى بن عمران عليه السلام، إذ فيها بيان موت موسى عليه السلام ومراسيم دفنه، وبعض الحوادث التي وقعت بعده، على الأخص الفصل الأخير من سفر التثنية الذي يثبت أن هذا الكتاب قد كتب بعد موت موسى عليه السلام. يضاف إلى ذلك أن في هذه الكتب الكثير من الخرافات وهي تنسب أموراً فاضحة

١ - أنظر الجزء الأول ص ١٤٦ في تفسير الآية ٤٠ من سورة البقرة، شرح «مصدقاً لما بين يديه».



للأنبياء، وبعض الأقوال الصببانية، مما يؤكد زيف هذه الكتب. والشواهد التاريخية تؤكد أن التوراة الأصلية قد ضاعت، وأن أتباع موسى هم الذين كتبوا هذه الكتب بعده<sup>١</sup>.

٣ - «الإنجيل» كلمة يونانية بمعنى «البشارة» أو «التعليم الجديد» وتطلق على الكتاب الذي نزل على عيسى بن مريم عليه السلام. ومن الجدير بالتنويه أن القرآن كلما أورد اسم كتاب عيسى عليه السلام «الإنجيل» جاء به مفرداً وعلى أنه قد نزل من الله. وعليه فإن الأناجيل المتداولة بين أيدي المسيحيين، وحتى الأشهر منها، وهي الأناجيل الأربعة «لوقا، ومرفس، ومتى، ويوحنا» ليست من الوحي الإلهي، وهذا ما لا ينكره المسيحيون أنفسهم؛ إذ يقولون إن هذه الأناجيل قد كتبت بأيدي تلامذة السيد المسيح عليه السلام بعده بمدة طويلة. ولكنهم يزعمون أن أولئك التلامذة قد كتبوها بإلهام من الله.

هنا يحسن بنا أن نتعرف - ولو بإيجاز - على «العهد الجديد» والأناجيل وكتابتها: إن أهم كتاب ديني عند المسيحيين والذي يعتمدونه على أنه كتاب سماوي هو المجموعة التي يطلق عليها اسم «العهد الجديد».

«العهد الجديد» الذي يبلغ نحو ثلث «العهد القديم» يتألف من ٢٧ كتاباً ورسالة تشمل موضوعات عامة متناثرة ومختلفة، على النحو التالي:

١- إنجيل متى<sup>٢</sup>: وهو الإنجيل الذي كتبه «متى» أحد حوارتي المسيح عليه السلام الاثني عشر في سنة ٣٨ ميلادية، وبعض يقول في سنة ٥٠ أو ٦٠ ميلادية<sup>٣</sup>.

٢ - إنجيل مرفس<sup>٤</sup>: بحسب ما جاء في كتاب «القاموس المقدس» صفحة ٧٩٢، لم يكن مرفس من الحواريين، ولكنّه كتب إنجيله بإشراف «بطرس». قتل مرفس سنة ٦٨ م.

٣ - إنجيل لوقا: كان «لوقا» رفيق سفر «بولص» الرسول. كان «بولص» على عهد المسيح يهودياً متعصباً، ولكنه اعتنق المسيحية بعده. يقال إنه توفي في سنة ٧٠ م، وحسباً يقول مؤلف «القاموس المقدس» ص ٧٧٢: «إن تاريخ كتابة إنجيل لوقا يعود إلى حوالي سنة ٦٣ م».

٤ - إنجيل يوحنا: «يوحنا» كان من تلامذة المسيح عليه السلام ومن أصحاب «بولص». يقول صاحب القاموس المذكور، اعتماداً على عدد من المحققين: إنه أُلّف في

١ - أنظر «الهدى إلى دين المصطفى» و«الرحلة المدرسية». ٢ - متى: على وزن حتى، بمعنى عطاء الله.

٣ - كتاب القاموس المقدس: ص ٧٨٢. ٤ - مرفس: على وزن قُنْفُذ، وقيل على وزن أسْهُم، جمع سهم.

أواخر القرن الأول الميلادي<sup>١</sup>.

يتضح من محتويات هذه الأناجيل، التي تشرح عموماً حكاية صلب المسيح وما جرى بعد ذلك، أنّ جميع هذه الأناجيل قد كتبت بعد المسيح بسنوات وليست كتباً سماوية نزلت على المسيح عليه السلام.

٥ - أعمال الرسل «أعمال الحواريين ودعاة الصدر الأول».

٦ - رسائل بولص الأربعة عشرة إلى جهات مختلفة.

٧ - رسالة يعقوب «الرسالة العشرون من الرسائل السبع والعشرين في العهد

الجديد».

٨ - رسالتا بطرس «الرسالتان ٢١ و ٢٢ من العهد الجديد».

٩ - رسائل يوحنا «الرسائل ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ من العهد الجديد».

١٠ - رسالة يهوذا «الرسالة ٢٦ من العهد الجديد».

١١ - مكاشفة يوحنا «القسم الأخير من العهد الجديد».

استناداً إلى المؤرخين المسيحيين وحسب ما ورد في هذه الأناجيل والكتب والرسائل في العهد الجديد، فإنّ أياً منها ليس كتاباً سماوياً، بل هي كتب كتبت بعد المسيح عليه السلام، ونستنتج من ذلك أنّ الإنجيل الأصلي السماوي الذي نزل على المسيح عليه السلام قد فُقد وليس له وجود الآن. إنّها تلامذة المسيح أدرجوا بعضاً منه في أناجيلهم، ومع ذلك فإنه من المؤسف أن يكون هذا الذي أرجوه ممزوجاً بالخرافات.

أما القول بأنّ على المسلمين أن لا يشكوا في صحّة الأناجيل والتوراة الموجودة - على اعتبار أنّ القرآن قد صدّقها وشهد لها - فإنه قول مردود، وقد أجبنا عليه في المجلد الأول عند تفسير الآية: «وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم».

«وأنزل الفرقان»

بعد ذكر التوراة والإنجيل، يشار إلى نزول القرآن، ولكته سمي الفرقان، لأنّ لفظة «الفرقان» تستعمل في التفريق بين الحقّ والباطل وكلّ ما يميّز الحقّ عن الباطل يقال له «الفرقان». ولذلك يسمّى القرآن حرب بدر «يوم الفرقان»<sup>٢</sup>، ففي ذلك اليوم انتصر فريق

صغير مفتقر لكل أنواع المعدّات الحربيّة على جيش كبير مسلّح ومتفوّق تفوّقاً كبيراً. وكذلك يطلق على معجزات موسى عليه السلام العشر اسم «الفرقان» أيضاً<sup>١</sup>، وتطلق الكلمة أيضاً على العقل والحكمة: «إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً»<sup>٢</sup>. ومن هنا إطلاق لفظة «الفرقان» على القرآن، لأنّه يميّز الحقّ عن الباطل.

جاء في بعض الروايات الاسلامية أنّ لفظة «القرآن» تطلق على هذا الكتاب السماويّ برّمته، أمّا لفظة «الفرقان» فتطلق على الآيات التي تتناول الأحكام العملية والحلال والحرام والبرامج الفردية والاجتماعية<sup>٣</sup>.

\* \* \*

---

١- البقرة: ٥٣.

٢- الأنفال: ٢٩.

٣- تفسير نور الثقلين: ج ١ ص ٣١٠ نقلاً عن أصول الكافي.



## الآية

٤ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو  
انْتِقَامٍ».

## التفسير

بعد نزول آيات الله وشهادة الفطرة والعقل على صدق دعوة الأنبياء وإتمام الحجّة، ليس أمام الانسان إلّا أن يتقبّلها، ورفض الراضين ليس إلّا عن عناد، وهؤلاء بحكم العقل والوجدان يستحقّون العقاب. لذلك نجد في هذه الآية أنّ الله يهدّد منكري آياته بعذاب أليم.

## «والله عزيز ذو انتقام»

«العزيز» الذي يقهر ولا يقهره، وأرض عزاز أي صلبة، والعزير أيضاً كلّ شيء نادر يصعب الوصول إليه، وهو الذي لا يُغلب. وحيثما وصف الله بهذه الصفة فهي بهذا المعنى، أي لا يغلبه أحد، وكلّ إرادة محكمة بإرادته.

ولكي يعرف الكفّار أنّ هذا التهديد جاد، تذكّرهم الآية بأنّ الله عزيز، أي أنّه قاهر، وما من أحد يستطيع أن يقف بوجه تنفيذ تهديداته، إنّهُ في الوقت الذي يكون فيه غفوراً رحيماً، هو نحو الذين لا يستحقّون الرحمة شديد العقاب.

إنّ «الانتقام» غالباً في مفهومنا اليوم يعني لجوء شخص لا يستطيع أن يسامح الآخرين ويغفر لهم أخطاءهم، إلى عمل مقابل قد يكون عنيفاً لا يأخذ حتى مصلحته الخاصة بنظر الاعتبار. بديهي أنّ هذه صفة مذمومة، إذ أنّ على الانسان في كثير من الحالات أن يعفو ويغفر بدلاً من أن ينتقم. غير أنّ «الانتقام» في اللغة ليس بهذا المعنى، بل يعني إنزال العقاب بالمجرم. ولاشك أنّ معاقبة المجرمين العصاة - فضلاً عن كونها ليست من الأمور المذمومة - لا يجوز التهاون فيها، لأنّ هذا التهاون يجانب العدالة والحكمة.

## الآية

٥- «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ».

## التفسير

هذه الآية تكمل الآية السابقة لأننا قرأنا في الآيات السابقة أن الله خالد وقَيوم وهو مدبر عالم الوجود، ومن البديهي أن القيام بهذا كله يعني أن الله قدير وعليم، كما أُشير في الآية السابقة إلى قدرته المطلقة، وهنا الإشارة إلى علمه اللامتناهي: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» وهذا المضمون يرد في آيات أُخرى في القرآن الكريم.

إنّ الدليل على سعة علم الله واضح، فهو في كلّ مكان حاضر وناظر، وبما أنّ وجوده لا تحدّه حدود ولا ينتهي، فهو لا يخلو منه مكان، أي أنه، وإن لم يكن له مكان معيّن، محيط بكلّ شيء. إنّ هذه الإحاطة الإلهية والحضور الدائم في كلّ مكان يستلزمان أن يعلم بكلّ شيء وفي كلّ مكان، علماً «حضورياً» لا علماً «حصولياً»<sup>١</sup>.

\*\*\*

---

١ - العلم الحضورى: يعني أن يكون المعلوم ذاته حاضراً عند العلم. أمّا في العلم الحصولى فإنّ الحاضر عند العالم هو صورة المعلوم ورسمه، فمثلاً أنّ علمي بنفسى علم حضورى لأن نفسى ذاتها حاضرة فى نفسى. أمّا بالنسبة للموجودات الأخرى فعلمنا بها حصولى لأن صورتها فقط هي الحاضرة فى أرواحنا.

## الآية

٦ - «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

## التفسير

تبيّن هذه الآية واحدة من روائع معجزات قدرة الله وعلمه، تلكم هي تصوير الانسان في رحم أمه. إنه لأمر عجيب ومحيّر حقاً أن يصوّر الله الانسان وهو في رحم أمه صوراً جميلة متنوّعة في أشكالها ومواهبها وصفاتها وغرآثرها.

## مراحل تطوّر الجنين من روائع الخلق

إنّ عظمة مفهوم هذه الآية تجلّت اليوم أكثر من ذي قبل نتيجة للتقدّم الكبير في علم الأجنّة. فهذا الجنين يبدأ بخلية، لا شكل لها ولا هيكل ولا أعضاء ولا أجهزة. ولكنها تتخذ أشكالاً مختلفة كلّ يوم وهي في الرحم، وكأنّ هناك فريقاً من الرسّامين المهرة يحيطون بها ويشغلون عليها - ليل نهار وبسرعة عجيبة - ليصنعوا من هذه الذرة الصغيرة وفي وقت قصير إنساناً سويّاً في الظاهر، وفي جوفه أجهزة دقيقة رقيقة معقّدة ومحيّرة. لو أنّ فلماً صوّر مراحل تطوّر الجنين - وقد صوّر فعلاً - وشاهده الانسان يمرّ من أمام عينيه لأدرك بأجلّ مما سبق أن أدركه عظمة الخلق وقدرة الخالق. والعجيب في الأمر أنّ كلّ هذا الرسم يتمّ على الماء الذي يضرب به المثل في عدم احتفاظه بما يرسم عليه.

من الجدير بالذكر أنّه عندما يتمّ اللقاح ويخلق الجنين للمرة الأولى يسرع بالانقسام التصاعدي على هيئة ثمرة التوت التي تكون حبّاتها متلاصقة، ويطلق عليه اسم «مرولا». وفي غضون هذا التقدّم تُخلق «المشيمة» وتتكاثر، وتتصلّ من جهة بقلب الأم بوساطة شريانين ووريد واحد، ومن الجهة الأخرى تتصلّ بسرة الجنين الذي يتغذّى على الدم القادم إلى المشيمة. وبالتدريج وعلى أثر التغذية والتطور واتجاه الخلايا نحو الخارج يتجوّف باطن «المرولا»،



وعندئذ يطلق عليه اسم «البلاستولا»، ولا تلبث هذه حتى يتكاثر عدد خلاياها، مؤلفة كيساً ذا جدارين، ثم يحدث فيه انخفاض يقسم الجنين إلى قسمي الصدر والبطن .  
إلى هنا تكون جميع الخلايا متشابهة ولا اختلاف بينها في الظاهر. ولكن بعد هذه المرحلة يبدأ الجنين بالتصوّر، وتتشكّل أجزاؤه بأشكال مختلفة بحسب وظيفتها المستقبلية، وتتكون الأنسجة والأجهزة، وتقوم كلّ مجموعة من الخلايا ببناء أحد أجهزة الجسم وصياغته، كالجهاز العصبي وجهاز الدورة الدموية، وجهاز الهضم، وغيرها من الأجهزة، حتى يصبح الجنين بعد هذه المراحل من التطوّر في رحم أمّه انساناً كاملاً الصورة. وسوف ندرج - بمشيئة الله - شرحاً كاملاً لتطوّر الجنين ومراحل تكامله في تفسير الآية ١٢ من سورة «المؤمنون» .

لو أخذنا سبب النزول المذكور في أول هذه السورة بنظر الاعتبار، يبدو أنّ هذه الآية تشير إلى قصة مولد المسيح عليه السلام ومعتقدات النصارى. فحين يؤمن المسيحيون أنفسهم أنّ المسيح تربى في رحم أمّه، ليس هو بخالق نفسه، فهو إذاً مخلوق من قبيل خالق صورته بهذا الشكل في رحم أمّه، فكيف يكون والحالة هذه ربّاً؟!

«لا إله إلا هو العزيز الحكيم»

هذه الآية تؤكد أنّ المعبود الحقيقي ليس سوى الله القادر الحكيم الذي يخلق في عالم الرحم أجمل الصور وأبدع الأشكال من قطرة ماء، بل أنّ قدرته وحكمته تحيطان بكلّ هذا العالم. فلماذا إذاً يختارون مخلوقات كالمنسج عليه السلام ويعبدونها، تلك المخلوقات التي تحتاج في كلّ وجودها وجميع مراحل حياتها إلى قدرته وحكمته؟

## الآية

٧ - «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ».

## النزول

جاء في تفسير «نور الثقلين»<sup>١</sup> نقلاً عن كتاب «معاني الأخبار» حديث عن الامام الباقر عليه السلام ما مضمونه: أن نفرأ من اليهود ومعهم «حي بن أخطب» وأخوه، جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله واحتجوا بالحروف المقطعة «الم» وقالوا: بموجب حساب الحروف الأبجدية، فإن الألف في الحساب الأبجدي تساوي الواحد، واللام تساوي ٣٠، والميم تساوي ٤٠، وبهذه فإن فترة بقاء أمتك لا تزيد على إحدى وسبعين سنة! ومن أجل أن يلجمهم رسول الله صلى الله عليه وآله تساءل وقال ما معناه: لماذا حسبتم «الر» وحدها؟ ألم تروا أن في القرآن «المص» و«الر» ونظائرها من الحروف المقطعة، فإذا كانت هذه الحروف تدل على مدة بقاء أمتي، فلماذا لا تحسبونها كلها؟ (مع أن القصد من هذه الحروف أمر آخر) وعندئذ نزلت هذه الآية.

في تفسير «في ظلال القرآن» سبب نزول آخري نسجم من حيث النتيجة مع سبب النزول المذكور، وهو أن جمعاً من نصارى نجران جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله متذرعين بقول القرآن «كلمة الله وروحه» بشأن المسيح عليه السلام في محاولة منهم لاستغلالها بخصوص مسألة «التثليث» و«الوهمية» المسيح، متجاهلين كلاً الآيات الأخرى الصريحة في عدم وجود شريك أو شبهة لله إطلاقاً، فنزلت الآية المذكورة ترد عليهم.

## التفسير

يدور الكلام في هذه الآية على الآيات المحكمة والمتشابهة وكيف يتعامل المؤمنون وغير

المؤمنين مع هاتين المجموعتين من الآيات. ولكي نتفهم المعنى العميق في هذه الآية لابد من ملاحظة النقاط التالية:

### ١- ما المقصود بالآيات المحكمة والمتشابهة؟

«المحكم» من «الإحكام» وهو المنع. ولهذا يقال للمواضيع الثابتة القويّة «محكمة» أي أنها تمنع عن نفسها عوامل الزوال. كما أنّ كل قول واضح وصریح لا يعتوره أي احتمال للخلاف يقال له «قول محكم».

وعليه فإن الآيات المحكمات هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة التي لا مجال للجدل والخلاف بشأنها، كآية: «قل هو الله أحد» و«ليس كمثله شيء» و«الله خالق كل شيء» و«لذكر مثل حظ الأنثيين» وآلاف أخرى مثلها مما تتعلق بالعقائد والأحكام والمواعظ والتواريخ، فهي كلها من «المحكمات».

هذه الآيات المحكمات تسمى في القرآن «أم الكتاب» أي هي الأصل والمرجع والمفسرة والموضحة للآيات الأخرى.

و«المتشابه» هو ما تشابه أجزاؤه المختلفة. ولذلك فالجمل والكلمات التي معانيها معقدة وتنطوي على احتمالات مختلفة، توصف بأنها «متشابهة». وهذا هو المقصود من وصف بعض آيات القرآن بأنها «متشابهات»، أي الآيات التي تبدو معانيها لأول وهلة معقدة وذات احتمالات متعددة، ولكنها تتضح معانيها بعرضها على الآيات المحكمات.

على الرغم من أنّ المفسرين أوردوا احتمالات متعددة في تفسير «المحكم» و«المتشابه»، ولكن الذي قلناه يناسب المعنى الأصلي لهذين المصطلحين كما يتفق مع سبب نزول الآية، وكذلك مع الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية، ومع الآية نفسها، ذلك لأننا نقرأ بعد ذلك أنّ المرغضين يتخذون من الآيات المتشابهات وسيلة لإثارة الفتنة. وهم بالطبع يبحثون لهذا الغرض عن الآيات التي يتحمّل ظاهرها تفسيرات متعددة. وهذا نفسه يدل على أن معنى «المتشابه» هو ذلك الذي قلناه.

لذكر نماذج من الآيات المتشابهات يمكن إدراج بعض الآيات التي تخصّ صفات الله والمعاد، مثل «يد الله فوق أيديهم» بشأن قدرة الله، و«والله سميعٌ عليمٌ» بشأن علم الله، و«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» بشأن طريقة حساب الأعمال.

بديهي أنّ الله لا يبدله «بمعنى العضو» ولا اذن «بالمعنى نفسه» ولا ميزان مثل موازيننا يزن



بها الأعمال. هذه كنايةات عن مفاهيم كلية لقدرة الله وعلمه وميزانه. لا بد من الإشارة إلى أن كلمتي المحكم والمتشابه قد وردتا في القرآن بمعنى آخر. في أول سورة هود نقرأ: «كتاب أحكمت آياته» فهنا أشير إلى أن جميع آيات القرآن محكمات، والقصد هنا هو قوة الترابط والتماسك بينها. وفي الآية ٢٣ من سورة الزمر نقرأ: «كتاباً متشابهاً» أي الكتاب الذي كل آياته متشابهات، وهي هنا بمعنى التماثل من حيث صحتها وحقيقتها.

يتضح مما قلنا بشأن المحكم والمتشابه أن الانسان الواقعي الباحث عن الحقيقة لا بد له لفهم كلام الله أن يضع الآيات جنباً إلى جنب ثم يستخرج منها الحقيقة. فإذا لاحظ في ظاهر بعض الآيات إبهاماً وتعقيداً، فعليه أن يرجع إلى آيات أخر لرفع ذلك الإبهام والتعقيد ليصل إلى كنهها. تعتبر الآيات المحكمات في الواقع أشبه بالشارع الرئيسي، والمتشابهات أشبه بالشوارع الفرعية. لا شك أن المرء إذا أتاه في شارع فرعي سعى للوصول إلى الشارع الرئيسي ليتبين طريقه الصحيح فيسلكه.

إن التعبير عن المحكمات بأمر الكتاب يؤيد هذه الحقيقة أيضاً، إذ أن لفظة «أمر» في اللغة تعني الأصل والأساس، وما إطلاق الكلمة على الأم لأنها أصل الأسرة والعائلة والملجأ الذي يفرغ إليه أبناؤها لحل مشاكلهم. وعلى هذا فالمحكمات هي الأساس والجذر والأم بالنسبة للآيات الأخرى.

## ٢- لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟

إن القرآن جاء نوراً لهداية عموم الناس، فما سبب احتوائه على آيات متشابهات، فيها إبهام وتعقيد بحيث يستغلها المفسدون لاثارة الفتنة؟ هذا موضوع مهم جدير بكل بحث وتدقيق. وعلى العموم يمكن أن تكون النقاط التالية هي السري في وجود المتشابهات في القرآن:

أولاً: أن الألفاظ والكلمات التي يستعملها الانسان للحواراتها هي لرفع حاجته اليومية في التفاهم. ولكن ما أن نخرج عن نطاق حياتنا المادية وحدودها، كأن نتحدث عن الخالق الذي لا يحده أي لون من الحدود، نجد بوضوح أن ألفاظنا تلك لا تستوعب هذه المعاني، فنضطر إلى استخدام ألفاظ أخرى وإن تكن قاصرة لا تنفي بالغرض تماماً من مختلف الجهات. إن هذا القصور في الألفاظ هو منشأ الكثير من متشابهات القرآن. إن آيات مثل «يد الله فوق أيديهم» أو «الرحمن على العرش استوى» أو «إلى ربها ناظرة» التي سوف يأتي تفسيرها في موضعه، تعتبر من هذه النماذج. وهناك أيضاً تعبيرات مثل «سميع» و«بصير»، ولكن بالرجوع إلى الآيات المحكمات يمكن تفسيرها بوضوح.

ثانياً: كثير من الحقائق تختص بالعالم الآخر، أو بعالم ما وراء الطبيعة مما هو بعيد عن أفق

تفكيرنا، وإننا- بحكم وجودنا ضمن حدود سجن الزمان والمكان- غير قادرين على إدراك كنهها العميق. قصور أفق تفكيرنا من جهة، وسموتك المعاني من جهة أخرى، سبب آخر من أسباب التشابه في بعض الآيات، كالتى تتعلق بيوم القيامة مثلاً.

وهذا أشبه بالذي يريد أن يشرح لجنين في بطن أمه مسائل هذا العالم الذي لم يره بعد، فهو إذ لم يقل شيئاً يكون مقصراً، وإذ قال كان لابد له أن يتحدث بأسلوب يتناسب مع إدراكه.

ثالثاً: من أسرار وجود المشابهات في القرآن إثارة الحركة في الأفكار والعقول وإيجاد نهضة فكرية بين الناس. وهذا أشبه بالمسائل الفكرية المعقدة التي يعالجها العلماء لتقوية أفكارهم ولتعميق دقتهم في المسائل.

رابعاً: النقطة الأخرى التي ترد بشأن وجود المشابهات في القرآن، وتؤديها أخبار أهل البيت عليهم السلام، هي أن وجود هذه الآيات في القرآن يصعد حاجة الناس إلى القادة الإلهيين والنبى صلى الله عليه وآله والأوصياء، فتكون سبباً يدعو الناس إلى البحث عن هؤلاء والاعتراف بقيادتهم عملياً والاستفادة من علومهم الأخرى أيضاً. وهذا أشبه ببعض الكتب المدرسية التي أنيط فيها شرح بعض المواضيع إلى المدرس نفسه، لكي لا تنقطع علاقة التلاميذ بأستاذهم، ولكي يستمروا- بسبب حاجاتهم هذه- في التزود منه على مختلف الأصعدة.

وهذا أيضاً مصداق وصية رسول الله صلى الله عليه وآله حين قال «إني تارك فيكم الثقلين. كتاب الله وأهل بيتي وأنها لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»<sup>١</sup>.

### ٣- ما التأويل؟

الكلام كثير بشأن معنى «التأويل»، والأقرب إلى الحقيقة هو أن «التأويل» من «الأول» أي الرجوع إلى الأصل، وهو اتصال العمل أو الكلام إلى الهدف النهائي المراد منه. فإذا أقدم أحد على عمل ولم يكن هدفه من هذا العمل واضحاً، ثم يتوضح ذلك في النهاية، فهذا هو التأويل، كالذي نقرأه في حكاية موسى عليه السلام مع الحكيم الذي كان يقوم بأعمال غامضة الأهداف «مثل تحطيم السفينة» فكان هذا مدعاة لانزعاج موسى، ولكن عندما شرح له الحكيم في نهاية المطاف وعند الفراق أهداف تلك الأعمال، وأنه قصد إلى تخليص السفينة من الوقوع في يد سلطان غاصب وظالم، ختم شرحه بقوله: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً»<sup>٢</sup>



كذلك إذا رأى الإنسان رؤيا لا تتضح له نتائجها، ثم تبين له تعبيرها بمراجعة شخص أو مشاهدة واقعة، فذلك هو تأويل الرؤيا، مثل يوسف عليه السلام الذي قال حين تحققت رؤياه الشهيرة عملياً، أو بعبارة أخرى حين وصلت مرحلتها النهائية: «هذا تأويل رؤياي من قبل»<sup>١</sup>. وهكذا إذا صدر عن الإنسان كلام فيه مفاهيم وأسرار خاصة تشكل الهدف النهائي لذلك الكلام، فتلك هي التأويل.

هذا هو معنى التأويل في الآية. أي أنّ في القرآن آيات ذات أسرار ومعان عميقة غير أنّ ذوي الأفكار المنحرفة والمقاصد الفاسدة يضعون من عندهم تفسيراً أساساً له من الصحة ويستندون إليه لخداع أنفسهم أو غيرهم.

وعليه، فإنّ المقصود من «ابتغاء تأويله» هو أنّ هؤلاء يريدون أن يؤولوا الآيات بصورة تخالف حقيقتها، أي ابتغاء تأويله على خلاف الحق.

وكما قرأنا في سبب نزول هذه الآية أنّ بعض اليهود أولوا تلك الحروف المقطعة في القرآن تأويلاً لا يتفق مع الحقيقة، فقالوا إنّها تحدّد عمر الاسلام. وهكذا المسيحيون أساءوا تأويل «روح منه» ليثبتوا ألوهية المسيح عليه السلام. هذه كلها من قبيل «التأويل بخلاف الحق»، وإرجاعها إلى أهداف بعيدة عن الحقيقة.

#### ٤- من هم الراسخون في العلم؟

هذا التعبير القرآني ورد في موضعين. هذا أحدهما، والآخر في سورة النساء، إذ يقول: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك»<sup>٢</sup>.

ومحسب المعنى اللغوي لهذه الكلمة، فإنّها تعني الذين لهم قدم ثابتة في العلم والمعرفة. طبيعي أن يكون معنى الكلمة واسعاً يضمّ جميع العلماء والمفكرين، إلّا أنّ هناك بين هؤلاء أفراداً متميّزين لهم مكانتهم الخاصة، وهم يأتون على رأس مصاديق الراسخين في العلم وهؤلاء هم الذين تنصرف إليهم الأذهان عند استعمال هذه الكلمة قبل غيرهم.

وهذا هو الذي تقول به بعض الأحاديث التي تفسّر الراسخين في العلم بأنهم النبيّ صلّى الله عليه وآله وأنّمة الهدى عليهم السلام، فقد سبق أن قلنا إنّ لكلمات القرآن ومفاهيمه معاني واسعة ومن مصاديقها البارزة الشخصيات النموذجية السامية التي تُذكر أحياناً وحدها في تفسير تلك



الكلمات والمفاهيم .

عن بريد بن معاوية قال: قلت لأبي جعفر «الباقر» عليه السلام: قول الله «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» قال: يعني تأويل القرآن كله، إلا الله والراسخون في العلم، فرسول الله أفضل الراسخين، وقد علمه جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله منزلاً عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله<sup>١</sup>.

هناك أحاديث كثيرة أخرى في أصول الكافي وسائر كتب الحديث بهذا الشأن، جمعها صاحبنا تفسير «نور الثقلين» وتفسير «البرهان» في ذيل هذه الآية. وكما قلنا فإن تفسير الراسخين بالعلم بأنهم النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام لا يتعارض مع المفهوم الواسع الذي يشمل هذا التعبير، فقد نقل عن ابن عباس أنه قال: أنا أيضاً من الراسخين في العلم، إلا أن كل امرئ يتعرف على أسرار تأويل آيات القرآن بقدر سعته العلمية، فالذين يصدرون في علمهم عن علم الله اللامتناهي لا شك أعلم بأسرار تأويل القرآن، بينما الآخرون يعلمون جزء من تلك الأسرار.

ثمة نقاش هام يدور بين المفسرين والعلماء حول ما إذا كانت عبارة «الراسخون في العلم» بداية جملة مستقلة، أم أنها معطوفة على «إلا الله». وبعبارة أخرى: هل أن معنى الآية هو أنه «ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»؟ أم أنه «ما يعلم تأويله إلا الله» «والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا»؟

إن لكل فريق من مؤيدي هذين الاتجاهين أدلته وبراهينه وشواهد. أما القرائن الموجودة في الآية والأحاديث المشهورة المنسجمة معها فتقول إن «والراسخون في العلم» معطوفة على «الله»، وذلك:

أولاً: يُستبعد كثيراً أن تكون في القرآن آيات لا يعلم أسرارها إلا الله وحده. ألم تنزل هذه الآيات لهداية البشر وتربيتهم؟ فكيف يمكن أن لا يعلم بمعانيها وتأويلها حتى النبي الذي نزلت عليه؟ هذا أشبه بمن يؤلف كتاباً لا يفهم معاني بعض أجزائه سواه!

وثانياً: كما يقول المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»: لم يسبق أن رأينا بين علماء الإسلام والمفسرين من يمتنع عن تفسير آية بحجة أنها من الآيات التي لا يعرف معناها سوى الله، بل كانوا جميعاً يجتهدون ويجهدون لكشف أسرار القرآن ومعانيه.

وثالثاً: إذا كان القصد هو أنّ الراسخين في العلم يسلّمون لما لا يعرفونه، لكان الأولى أن يقال: والراسخون في الإيمان يقولون آمناً به... لأنّ الرسوخ في العلم يتناسب مع العلم بتأويل القرآن، ولا يتناسب مع عدم العلم به والتسليم له.

ورابعاً: أنّ الأحاديث الكثيرة التي تفسّر هذه الآية تؤكد كلّها أنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وعليه فيجب أن تكون معطوفة على «الله». الشيء الوحيد الباقي هو أنّ خطبة «الاشباح» للامام علي عليه السلام في نهج البلاغة يستفاد منها أنّ الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل الآيات ويعترفون بعجزهم.

«واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب»<sup>١</sup>.

ولكن فضلاً عن كون هذه العبارة تناقض بعض الأحاديث المنقولة عنه عليه السلام التي قال فيها: إنّ الراسخين في العلم معطوفة على «الله» وإنّهم عالمون بتأويل القرآن، فإنّها لا تنسجم أيضاً مع الأدلّة التي سبق ذكرها<sup>٢</sup>. وعليه فيلزم تفسير هذه الجملة من خطبة «الاشباح» بما يتفق والأسانيد الأخرى التي بين أيدينا.

### نتيجة الكلام في تفسير الآية

من كلّ ما مرّ قوله تفسيراً لهذه الآية نستنتج أنّ آيات القرآن قسمان: قسم معانيها واضحة جداً بحيث لا يمكن إنكارها ولا إساءة تأويلها وتفسيرها، وهذه هي الآيات «المحكّات». وقسم آخر مواضعها رفيعة المستوى، أو أنّها تدور حول عوالم بعيدة عن متناول أيدينا، كعلم الغيب، وعالم يوم القيامة، وصفات الله، بحيث إنّ معرفة معانيها النهائية وإدراك كنه أسرارها يستلزم مستوى عالياً من العلم، وهذه هي الآيات «المتشابهات».

المنحرفون والشذاذ يسعون لاستخدام إبهام هذه الآيات لتفسيرها بحسب أهوائهم وبخلاف الحق، لكي يثيروا الفتنة بين الناس ويضلّوهم عن الطريق المستقيم. بيد أنّ الله والراسخين في العلم يعرفون أسرار هذه الآيات ويشرحونها للناس، فهم بعلمهم الواسع يفهمون المتشابهات كما يفهمون المحكّات، ولذلك فإنّهم يسلّمون لها قائلين إنّها جميعاً من عند الله «يقولون آمناً به كلّ من عند ربّنا».

وعلى هذا يكون الرسوخ في العلم سبباً في أن يزداد الانسان معرفة بأسرار القرآن. ولاشك أنّ الذين رسخوا في العلم أكثر من غيرهم - كالنبيّ صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى - يعلمون جميع أسرار القرآن، بينما الآخرون يعلمون منها كلّ بقدر سعة علمه. وهذه الحقيقة هي التي تدفع الناس، وحتى العلماء منهم، للبحث عن المعلمين الإلهيين ليتعلموا منهم أسرار القرآن.

### «وما يدرك إلا أولوا الألباب»

تشير هذه الجملة في ختام الآية إلى أنّ هذه الحقائق يعرفها المفكرون وحدهم، فهم الذين يدركون لماذا ينبغي أن يكون في القرآن «محكمات» و«متشابهات»، وهم الذين يعلمون أنّه يجب وضع المتشابهات إلى جانب المحكمات لكشفها. لذلك فقد نقل عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال:

«من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم»<sup>١</sup>.

\*\*\*



## الآيتان

- ٨ - «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ».
- ٩ - «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

## التفسير

بالنظر لاحتمال أن تكون الآيات المتشابهات وأسرارها موضع زلل الناس فإن الراسخين في العلم المؤمنين يلجأون إلى ربهم، إضافة إلى استعمال أسماهم العلمي في إدراك حقيقة الآيات. وهذا ما تبينه هاتان الآيتان على لسان الراسخين في العلم، وتقولان إن الراسخين في العلم والمفكرين من ذوي البصيرة لا يفتأون يراقبون أرواحهم وقلوبهم لئلا ينحرفوا نحو الطرق الملتوية، فيطلبون لذلك العون من الله. فالغرور العلمي يخرج بعض العلماء عن مسيرهم إلى متاهات الضلال، لأنهم يلتفتون إلى عظمة الخلق والخالق وتفاهة ما عندهم من علم، فيحرمون من هداية الله. أما العلماء المؤمنون فيقولون: «ربنا لا تزغ قلوبنا...».

وليس أشد تأثيراً في السيطرة على الميول والأفكار من الاعتقاد بيوم القيامة والمعاد. إن الراسخين في العلم يصححون أفكارهم عن طريق الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، ويحولون دون التأثير بالميول والأحاسيس المتطرقة التي تؤدي إلى الزلل، ونتيجة لذلك يستقيمون على الصراط المستقيم بأفكار سليمة ودون عائق. نعم هؤلاء هم القادرون على الاستفادة من آيات الله كل الاستفادة.

في الحقيقة تشير الآية الأولى إلى إيمان هؤلاء الكامل «بالمبدأ»، وتشير الآية الثانية إلى إيمانهم الراسخ «بالمعاد».

## الآيتان

- ١٠ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».
- ١١ - «كَذَّابَ آلِي فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

## التفسير

بعد بيان مواقف الكفار والمنافقين والمؤمنين نحو الآيات «المحكمات» و«المتشابهات» في الآيات السابقة، تقول هذه الآية: إذا كان الكفار المعاندون يحسبون أنهم بشرواتهم وأبنائهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم في الآخرة فهم على خطأ كبير، فهذه الوسائل قد يكون لها تأثيرها المؤقت في هذه الدنيا، ولكنها عند الله لن يكون لها أي تأثير، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة. لذلك ينبغي ألا يغتر الإنسان بهذه الأمور فتحمله على ارتكاب الإثم، وإلا فإنه يصلى ناراً سيكون هو حطبها.

«وأولئك هم وقود النار»<sup>١</sup>

يفيد هذا التعبير أن نار الجحيم مستعرة بوجود المذنبين، وهؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها ولهبها. نعم ثمة آيات تقول إن الحجارة أيضاً تكون وقود نار جهنم بالإضافة إلى المذنبين. ولكن - كما قلنا في تفسير الآية ٢٤ من سورة البقرة في الجزء الأول - يمكن أن تكون هذه الحجارة هي الأصنام التي كانوا ينحتونها من الحجر. وعليه فإن نار جهنم تستعر بأعمال المذنبين وعبوداتهم الباطلة.

١ - سبق أن قلنا إن «الوقود» هو ما تشتعل به النار كالحطب، لا ما تشتعل به النار

## «كذاب آل فرعون»

«الدأب» إدامة السير، والعادة المستمرة دائماً على حالة واحدة. فهذه الآية تشبه حال الكفار المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله بما كان آل فرعون قد اعتادوا عليه - وكذلك الأقسام السابقة - من تكذيب آيات الله، فأخذهم الله بذنهم وأنزل بهم عقابه الصارم في هذه الدنيا.

هذا في الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لكي يعتبروا بمصير الفراعنة والأقسام السالفة، ويصححوا أعمالهم.

صحيح أن الله «أرحم الراحمين» ولكنه في مواضع تربية عبده «شديد العقاب» أيضاً، ولا ينبغي أن يغترّ العبيد برحمة مولاهم الواسعة أبداً.

يستفاد أيضاً من «الدأب» أن هذا الاتجاه الخطأ - أي العناد إزاء الحقيقة وتكذيب آيات الله - أصبح عادة ثابتة فيهم، ولهذا يهددهم بعذاب شديد، وذلك لأنه مادام الإثم لم يصبح عادةً ونهجاً في الحياة فإن الرجوع عنه ميسور وعقابه خفيف، ولكنه إذا نفذ إلى داخل أعماق الانسان فالرجوع عنه متعذر، والعقاب عليه شديد. فخير للكافرين أن ينتهزوا الفرصة قبل فوات الأوان ويرجعوا عن طريق الضلال.



## الآية

١٢- «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

## النزول

بعد حرب بدر وانتصار المسلمين قال فريق من اليهود: إِنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي قَرَأْنَا وصفه في التوراة والذي لا يهزم في حرب، هو هذا النبي. وقال فريق آخر: لا تستعجلوا حتى تقع حرب أخرى. وعندما وقعت حرب أحد وهزم المسلمون، قالوا: كلاً، نُقسم بالله إِنَّ النَّبِيَّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ كِتَابَنَا لَيْسَ هَذَا. وعلى أثر ذلك لم يعتنقوا الإسلام وازدادوا غلظة على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْمُسْلِمِينَ وَابْتِعَاداً عَنْهُمْ، وَنَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي أُبْرِمُوهُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعْدَ التَّعَرُّضِ لِلْمُسْلِمِينَ. وَرَكِبَ سِتُونَ مِنْهُمْ مَعَ «كَعْبِ بْنِ أَشْرَفٍ» إِلَى مَكَّةَ وَالتَّحَقُّوا بِالْمُشْرِكِينَ وَاتَّفَقُوا مَعَهُمْ عَلَى مَحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ. عِنْدئذٍ نَزَلَتِ الْآيَةُ الْمَذْكُورَةُ تَقُولُ لَهُمْ إِنَّ الْحِسَابَ يَكُونُ فِي نَهَاةِ الْمَطَافِ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ جَمِيعاً سَتَكُونُونَ مِنَ الْمَغْلُوبِينَ.

## التفسير

### تنبؤ صريح

في هذه الآية يبشّر الله نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْإِنْتِصَارِ عَلَى جَمِيعِ الْأَعْدَاءِ، وَيُنذِرُ الْكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ فَضْلاً عَنْ إِدْحَارِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ شَرَّ مَصِيرٍ. إِذَا لَاحِظْنَا سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ، وَكُونَهَا قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ فَشْلِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ، وَظُهُورِ ضَعْفِهِمُ الظَّاهِرِيِّ، وَازْدِيَادِ قُوَّةِ الْأَعْدَاءِ بِاتِّحَادِهِمْ وَتَكَاتُفِهِمْ فَإِنَّ هَذَا التَّنْبُؤَ الصَّرِيحَ وَعَلَى الْأَخْصَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ: «سُتُغْلَبُونَ» يَكُونُ أَمراً مُشِيراً لِلانْتِبَاهِ. وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ آيَاتِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، لِوُجُودِ هَذَا التَّنْبُؤِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ فِيهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا تَشِيرُ فِيهِ الظُّوَاهِرُ إِلَى إِحْتِمَالِ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ.

وَلَمْ تَمُضْ فِتْرَةٌ طَوِيلَةٌ حَتَّى تَحَقَّقَتْ نَبُوءَةُ الْآيَةِ وَهُزِمَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ «بَنُو قُرَيْظَةَ»، وَبَنُو النَّضِيرِ»، وَفِي خَيْبَرَ - أَهْمُ مَعْقَلٍ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ - ائِدْحَرُوا وَتَلَاشَتْ قُوَاهِمُ. كَمَا هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ هَزِيمَةً نَكَرَاءَ.

## الآية

١٣ - «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّائِمَاتِ فَمَثَلُهُنَّ نَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ».

## النزول

نزلت هذه الآية بشأن حرب «بدر». يقول المفسرون إن عدد المسلمين يوم بدر كان ٣١٣ شخصاً، منهم ٧٧ من المهاجرين و٢٣٦ من الأنصار. كان لواء المهاجرين بيد علي عليه السلام، وكان سعد بن عبادة صاحب لواء الأنصار. وكانت عدتهم لا تتجاوز ٧٠ بعيراً، وفرسين، وستة دروع، وثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، في وجه عدو يزيد عدده على الألف، مع الكثير من السلاح ومائة فرس. ومع ذلك فقد انتصر المسلمون بتقديم ٢٢ شهيداً «١٤٤ من المهاجرين و٨ من الأنصار»، في مقابل ٧٠ قتيلاً و٧٠ أسيراً من الأعداء، وعادوا إلى المدينة تزيّهم أكاليل النصر. هذه الآية تحكي جانباً من معركة بدر.

## التفسير

تعقيباً على الآيات السابقة التي حذّر القرآن فيها الكافرين من الاغترار بالمال والأبناء والأتباع، جاءت هذه الآية شاهداً حياً على هذا الأمر، فتدعوهم إلى الاعتبار بما جرى في معركة بدر التاريخية.

«فدكان لكم آية في فئتين التقتا»

كيف لا تكون لهم عبرة، وهم يرون أن جيشاً صغيراً لا يملك شيئاً من العدة، سوى الإيمان الراسخ، ينتصر على جيش يفوقه أضعافاً في العدد والعدة. فلو كان المال والعدد - بغير إيمان - قادرين على شيء لظهر مفعولهما في معركة بدر، ولكن النتيجة كانت معكوسة.

«يروهم مثلهم رأي العين»

تقول الآية إِنَّ الكفار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم. أي أنهم إذا كانوا ٣١٣ شخصاً كان الكفار يرونهم أكثر من ٦٠٠ شخصاً<sup>١</sup>.

وهذا - فضلاً عن كونه إمداداً غيبياً من الله انتصر به المسلمون، لأنَّ الله يمدَّ عباده المجاهدين المؤمنين بمختلف السبل - كان أمراً طبيعياً من حيث جانبه الظاهري، وذلك لأنَّ الضربات الشديدة التي أنزلها المسلمون - بقوة إيمانهم وثربيتهم الاسلامية - على الأعداء، أثارت فيهم الرعب والهلع فظنوا أنَّ هناك قوة أخرى التحقت بالمسلمين، ولذلك ظنوا أنَّ المسلمين يحاربون بضعف قوتهم الأولى وسيطرون على ميدان الحرب سيطرة تامة، مع أنهم قبل الدخول لم يكن يخطر لهم ذلك أبداً بل كانوا يرون المسلمين أقلَّ ممَّا كانوا عليه. في الآية ٤٤ من سورة الأنفال إشارة إلى ذلك أيضاً «وإذ يربكُمهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللکم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً».

تذكروا يوم لقائكم بهم في ميدان الحرب، فقد أظهرناكم في أعينهم قلة لكي لا يتجنبوا حرباً ستؤدي إلى هزيمتهم - كما أظهرناهم في أعينكم قلة لكي لا تضعف معنوياتكم في حرب مصيرية - . وما أن بدأت الحرب حتى تبدلت المشاهد، وظهر المسلمون في أعين الأعداء بأعداد مضاعفة، فكان هذا واحداً من أسباب هزيمتهم.

سنشرح - إن شاء الله معركة بدر شرحاً وافياً عند تفسير الآيات ٤١ - ٤٥ من سورة الأنفال.

«والله يؤيد بنصره من يشاء»

تشير الآية إلى حقيقة أنَّ الله ينصر من يشاء. لقد سمعنا أن قلنا إنَّ مشيئة الله وإرادته لا تكون بغير حساب، بل هي تكون بموجب حكمته وفي حدود لياقة الأفراد، أي أنَّ الله يؤيد الذين يستحقون ذلك.

جدير بالذكر أنَّ النصر الإلهي للمسلمين في الحادثة التاريخية كان ذا جانبين، فقد

١- هذا التفسير يعتمد على إرجاع الضمير في «يرون» إلى الكفار، والضمير «هم» إلى المسلمين. وهذا أوضح التفسيرات العديدة للآية.



كان «نصراً عسكرياً» و«نصراً منطقياً». فن الناحية العسكرية: انتصر جيش صغير مفتقر إلى المعدات الحربية على جيش يبلغ أضعافه عدداً وإمكانات. ومن الناحية المنطقية: فإنَّ الله كان قد أخبر المسلمين صراحةً بهذا النصر قبل بدء الحرب.

«إنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار»

في ختام الآية يؤكد سبحانه أنَّ الذين وهبوا البصيرة بحيث يرون الحقائق كما هي، يعتبرون بهذا الانتصار الذي أحرزه أناس مؤمنون، ويدركون أنَّ أساس هذا الانتصار هو الإيمان... الإيمان وحده.

\*\*\*

## الآية

١٤ - «زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ».

## التفسير

تعقيباً على الآيات السابقة التي اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقي للانسان - لا المال والبنين والأُنصار- تشير هذه الآية إلى حقيقة أن الزوجة والأبناء والأموال إنما هي ثروات تنفع في الحياة المادية هذه، ولكنها لا يمكن أن تشكل هدف الانسان الأصيل. صحيح أنه بغير هذه الوسائل لا يمكن السير في طريق السعادة والتكامل المعنوي، إلا أن الاستفادة منها في هذا السبيل شيء وحبها وعبادتها - بغير أن تكون مجرد وسيلة يستفاد منها - شيء آخر. في هذه الآية بضع نقاط ينبغي الالتفات إليها:

### ١- من الذي جعل الماديات زينة؟

في تعبير «زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...»<sup>١</sup> جاء الفعل مبنياً للمجهول، أي أن الفاعل المجهول قد زين للناس حب الزوجة والأولاد والأموال. في هذه الحالة يخطر للمرء هذا السؤال: ترى من هو الذي زين هذه الأمور للناس؟ بعض المفسرين يرون أن هذه المشتهيات من عمل الشيطان الذي يزينها في أعين الناس، ويستدلون على ذلك بالآية ٢٤ من سورة النمل: «وزين لهم الشيطان أعمالهم» وأمثالها. إلا أن هذا الاستدلال لا يبدو صحيحاً، لأن الكلام في الآية التي نبحث فيها لا تتكلم عن «الأعمال» بل عن الأموال والنساء والأبناء.

١- الشهوات: جمع شهوة، أي حب شيء من الأشياء حباً شديداً، ولكنها في هذه الآية بمعنى المشتهيات.

إنّ التفسير الذي يبدو صحيحاً هو أنّ الله هو الذي زَيَّن للناس ذلك عن طريق الخلق والفضة والطبيعة الانسانية.

إنّ الله هو الذي جعل حبّ الأبناء والثروة في جبلة الانسان لكي يختبره ويسير به في طريق التربية والتكامل، كما يقول القرآن «إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لِيَتَلَوَّهْمُ أَهْمُ أَحْسَنُ عَمَلًا»<sup>١</sup>.

مما يثير الالتفات في الآية أنّ الزوجة أو المرأة قد وردت أولاً، وهذا هو ما يقول به علماء النفس اليوم، بأنّ الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز في الانسان، كما أنّ التاريخ المعاصر والقديم يؤيد أنّ كثيراً من الحوادث الاجتماعية ناشئة عن طغيان هذه الغريزة.

وينبغي القول أيضاً إنّ هذه الآية والآيات المشابهة لا تدمّ العلاقات المعتدلة مع المرأة والأولاد والمال، لأنّ التقدّم نحو الأهداف المعنوية غير ممكن بدون الوسائل المادية، وهي لا تتعارض مع نوااميس الخلق الطبيعية. إنّها المذموم هو الإفراط في هذه العلاقات، وبعبارة أخرى: المذموم هو عبادة هذه الأمور.

## ٢ - ما هي «القناطير المقنطرة» و«الخيل المسومة»؟

«قناطير» جمع قنطار وهو الشيء المحكم، ثم أطلق على المال الكثير. وإطلاق «القنطرة» على الجسر، و«القنطر» على الذكي إنّما هو للاحكام البناء أو الفكر. و«المقنطرة» اسم مفعول يدلّ على الكثرة والمضاعفة، وذكرهما متتالين يعني التوكيد، كقولنا «آلاف مؤلّفة» ونقصد به الكثرة الكاثرة.

هناك من حدّد وزن القنطار بأنّه يساوي سبعين ألف دينار ذهباً، وقال بعض إنّه مائة ألف دينار، وقال آخرون إنّه يساوي اثني عشر ألف درهم، ويقول بعض إنّ القنطار كيس مملوء ذهباً أو فضة.

وفي رواية عن الامام الباقر والامام الصادق عليهما السلام أنّ القنطار مقدار من الذهب الذي يملأ جلد بقرة. إلّا أنّ كلّ هذه تشير إلى المال الوفير.

«الخيل» اسم جمع للفرس، وتطلق على الفرسان أيضاً. والمقصود في الآية هو المعنى الأول طبعاً.



و«المسومة» بمعنى المعلمة أي ذات العلامة، فقد تُعلّم الخيل لإبراز جمال هيكلها ورشاقها، أو لمعرفة أنها مدربة ومعدة للركوب في ميادين القتال. وعليه، فإن الآية تعدد ستة من ثروات الحياة وهي: المرأة، والولد، والمال، والخيول الأصيلة، والمواشي والإبل، والزراعة، وهي أركان الحياة المادية.

### ٣- ما هو «متاع الحياة الدنيا»؟

«المتاع» هو الانتفاع بالشيء بعض الوقت. والحياة الدنيا هي الحياة الواطئة الحقيرة. فيكون معنى الآية: إذا عشق أحد هذه الأشياء الستة وحدها باعتبارها الهدف النهائي للحياة، ولم يستفد منها كسَلَم للصعود في مسيرة حياته، يكون قد اختار لنفسه حياة منحطة.

في الحقيقة أنّ تعبير «الحياة الدنيا» إشارة إلى سير الحياة التكاملي، إذ أنّ هذه الحياة الدنيا تعتبر المرحلة الأولى في ذلك السير. لذلك تشير الآية في النهاية إلى الحياة السامية التي تنتظر الانسان فتقول «والله عنده حسن المآب».

## الآيات

١٥ - «قُلْ أُوْنِبُوْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ دُلِكُمْ لِلدِّينِ اَنَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِالْعِبَادِ».

١٦ - «الَّذِينَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اِنَّا اٰمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ».

١٧ - «الصّٰبِرِيْنَ وَالصّٰدِقِيْنَ وَالْقٰنِتِيْنَ وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ

بِالْاَسْحٰرِ».

## التفسير

هذه الآية توضح الحظ البياني الصاعد لتكامل الحياة الانسانية الذي أُشير إليه في الآية السابقة. تقول الآية: هل أخبركم بحياة تنتظر الأتقياء هي أرفع وأسمى من هذه الحياة المادية المحدودة في الدنيا، تلك الحياة فيها كل ما في هذه الحياة من النعم لكنها بصورتها الكاملة الخالية من أي نقص وعيب.

بساتينها، لا كبساتين الدنيا، لا ينقطع الماء عن الجريان بجوار أشجارها: «تجري من

تحتها الأنهار».

ونعمها دائمة أبدية، لا كنعيم الدنيا السريعة الزوال: «خالدين فيها».

نساؤها خلافاً لكثير من غواني هذه الدنيا، ليس في أجسامهن ولا أرواحهن نقطة

ظلام وخبث: «وأزواج مطهرة».

كل هذا بانتظار المتقين. وأسمى من ذلك كله، النعم المعنوية التي تفوق كل تصور

وهي «رضوان من الله».

نلاحظ أن الآية تبدأ بجملة: «أُوْنِبُوْكُمْ» الاستفهامية الموجهة إلى الفطرة الانسانية

الواعية لكي تكون أنفذ في السامع وأعمق، ثم إن الاستفهام ينصب على «الأنباء» التي تستعمل

للإدلاء بخبرهم جدير بالاستيعاب.

تخبر الآيات المؤمنين أنهم إذا امتنعوا عن اللذائذ غير المشروعة والأهواء الطاغية الممزوجة بالمعصية، فإنهم سيفوزون في الآخرة بلذائذ مشابهة ولكن بمستوى أرفع وخالية من كل نقص وعيب. إلا أن هذا لا يعني حرمان النفس من لذائذ الحياة الدنيا التي لهم أن يتمتعوا بها بصورة مشروعة.

### هل في الجنة لذائذ مادية أيضاً؟

يظن بعضهم أن اللذائذ المادية مقتصرة على الحياة الدنيا، وأن الحياة الأخرى خالية منها، وأن جميع ما جاء في القرآن عن الجنات والفواكه والمياه الجارية والأزواج الطاهرة إنما هي كناية عن مقامات ونعم معنوية من باب «كلم الناس على قدر عقولهم». ولكننا ينبغي أن نقول: إننا بعد أن قبلنا بالمعاد الجسماني استناداً إلى الكثير من آيات القرآن الصريحة، فلا بد أن تكن هناك نعم تناسب الجسم والروح وبمستوى أرفع وأعلى. وفي هذه الآية إشارة إلى كليهما: ما يناسب المعاد الجسماني، وما يناسب المعاد الروحي. في الواقع، إن الذين يعتبرون نعم الآخرة المادية كناية عن نعم معنوية، إنما هم يؤولون ظاهر آيات القرآن دون سبب، كما أنهم ينسون المعاد الجسماني وما يقتضيه. ولعل جملة «والله بصير بالعباد» التي جاءت في آخر الآية إشارة إلى هذه الحقيقة، أي أنه هو الذي يعلم ما يحتاجه الجسم والروح في العالم الآخر، وما هي متطلبات كل منها وهو يضمن إشباع هذه الحاجات على أحسن وجه.

### «الذين يقولون ربنا إننا...»

في هذه الآية والآية التي بعدها نتعرف على المتقين الذين كانوا في الآية السابقة مشمولين بنعم الله العظيمة في العالم الآخر، فتعدّدان ست صفات من صفاتهم الممتازة:

- ١ - إنهم يتوجهون إلى الله بكلّ جوارحهم، والإيمان يضيء قلوبهم، ولذلك يحسّون بمسؤولية كبيرة في كلّ أعمالهم، ويحشّون عقاب أعمالهم خشية شديدة، فيطلبون مغفرته والنجاة من النار: «فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار».

- ٢ - مثابرون صابرون ذوو همّة، ومقاومون عند مواجهتهم الحوادث في مسيرة إطاعتهم لله وتجنّبهم المعاصي، وعند ابتلائهم بالشدائد الفردية والاجتماعية «الصابرين».
- ٣ - صادقون ومستقيمون، وما يعتقدون به في الباطن يعملون به في الظاهر، ويتجنّبون النفاق والكذب والخيانة والتلوّث «والصادقين».



- ٤ - في طريق العبودية لله خاضعون ومتواضعون ومواظبون على ذلك «والقانتين».
- ٥ - إنهم لا ينفقون من أموالهم فحسب، بل هم ينفقون من جميع مالديهم من اليعم المادية والمعنوية في سبيل الله، فيعاجلون بذلك أدواء المجتمع «والمنفقين».
- ٦ - في أواخر الليل وعند السحر، أي عندما يسود الهدوء والصفاء وحين يغط الغافلون في نوم عميق وتهدأ ضوضاء العالم المادي، يقوم ذوو القلوب الحية اليقظة، ويذكرون الله ويطلبون المغفرة منه وهم ذائبون في نور الله وجلاله، وتلهج كل ذرة من وجودهم بتوحيده سبحانه «والمستغفرين بالأسحار».
- في تفسير هذه الآية، روي عن الصادق عليه السلام قال: «من قال في آخر صلاة الوتر في السحر «أستغفر الله وأتوب إليه» سبعين مرة، وداوم على ذلك سنة كتبه الله من المستغفرين بالأسحار»<sup>١</sup>.

### متى السحر؟

«السحر» في أصل اللغة هو «التغطية والاختفاء». ولما كانت ساعات الليل الأخيرة تغطي كل شيء بستار خاص، فقد سميت بالسحر. و«السحر» - بكسر السين - من المادة نفسها، لأن الساحر يقوم بأعمال تخفي أسرارها على الآخرين. وقد يطلق العرب اسم «السحر» - بوزن البشر - على الرثة لاختفاء ما فيها.

لماذا يشار إلى السحر من بين جميع ساعات الليل والنهار، مع أن الاستغفار وذكر الله مطلوبان في كل وقت؟ السبب هو ما تميّز به ساعات السحر من هدوء وسكون وابتعاد عن الأعمال المادية، وللنشاط الذي يشعر به المرء بعد استراحته ونومه، فيكون أكثر استعداداً للتوجه إلى الله. وهذا ما يسهل دركه بالتجربة، حتى أن بعض العلماء يستثمرون وقت السحر لحل المسائل العلمية، إذ أن سراج الفكر وروح الانسان أكثر تلاًواً وسطوعاً في ذلك الوقت من أي وقت آخر. ولما كانت روح العبادة والاستغفار هي التوجه وحضور القلب، فإن العبادة والاستغفار في هذا الوقت أسمى من أي وقت آخر.

\*\*\*

## الآية

١٨ - «شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

## التفسير

يشهد الله في هذه الآية بوحدانيته، كما تشهد الملائكة، ويشهد بعد ذلك العلماء والذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم والمعرفة «شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ». هنا نلفت النظر إلى عدّة نقاط:

### ١ - كيف يشهد الله على وحدانيته؟

المقصود من شهادة الله هنا هو الشهادة العملية والعقلية، لا الشهادة اللفظية. أي أنّ الله بخلقه عالم المخلوقات الذي يسوده نظام موحد، وتشابه قوانينه في كلّ مكان، وتجري وفق برنامج واحد، لتكوّن «وحدة واحدة» و«نظاماً واحداً»، قد أظهر عملياً أنّ الخالق والمعبود في العالم ليس أكثر من واحد، وأنّ كلّ شيء ينبثق من ينبوع واحد. وعليه فإنّ خلق هذا النظام الواحد شهادة ودليل على وحدانيته.

أما شهادة الملائكة والعلماء، فهي شهادة لفظية، فهم بالتعبير اللفظي الذي يناسبهم يعترفون بهذه الحقيقة. إنّ هذا اللون من التفكيك في الآيات القرآنية كثير ففي الآية «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ»<sup>١</sup>، لاشكّ أنّ صلاة الله على النبيّ صلى الله عليه وآله غير صلاة الملائكة عليه، فصلاة الله هي إرسال الرحمة، وصلاة الملائكة هي طلب الرحمة. بديهي أنّ لشهادة الملائكة والعلماء جانبها العملي أيضاً، ذلك لأنهم لا يعبدون سواه، ولا يخضعون لمعبود غيره.

## ٢ - ما القيام بالقسط؟

إنَّ عبارة «فائماً بالقسط» حال من فاعل «شهد» وهو «الله». أي أن الله يشهد بوحدانيته في حالة كونه قائماً بالعدالة في عالم الوجود. وهذا في الحقيقة دليل على شهادته، لأنَّ العدالة هي اختيار الطريق الوسط والمستقيم، بمعزل عن كلِّ إفراط وتفریط وانحراف. ونحن نعلم أنَّ الطريق الوسط المستقيم لا بدَّ أن يكون طريقاً واحداً، كما نقرأ في الآية ١٥٣ من سورة الأنعام «وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبلَ فتنقَرَقَ بِكُمْ عن سبيله». تقول هذه الآية إنَّ طريق الله واحد، بينما طرق المنحرفين والبعيدين عن الله متعدّدة ومتناثرة، وذلك لورود الصراط المستقيم بصيغة المفرد، وسُبل المنحرفين بصيغة الجمع. النتيجة هي أنَّ «العدالة» تصاحب «النظام الواحد»، والنظام الواحد دليل على «المبدأ الواحد». وبناءً على ذلك فإنَّ العدالة بمعناها الحقيقي في عالم الخلق دليل على وحدانية الخالق، فتأمل.

## ٣ - مركز العلماء

تجد في هذه الآية أنَّ العلماء قد وُضِعوا إلى جانب الملائكة، وهذا بذاته تمييز للعلماء على غيرهم. كما يستفاد من الآية أنَّ العلماء إمَّا امتازوا على غيرهم لأنهم بعلمهم توصّلوا إلى معرفة الحقائق، وعلى رأسها معرفة وحدانية الله.

من الواضح أنَّ الآية تشمل جميع العلماء، أمّا قول بعض المفسرين بأنَّ «أولوا العلم» هم الأئمة الأطهار عليهم السلام فلائ الأئمة من أظهر مصاديق ذلك.

ينقل المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» ضمن تفسير هذه الآية، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «ساعة من عالم يتكلىء على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاماً».

يتكرّر تعبير «لا إله إلا هو» في نهاية الآية، ولعلّ التكرار إشارة إلى أنّه كما جاءت في البداية شهادة الله والملائكة والعلماء، كذلك على من يسمع هذه الشهادات أن يرُدّها هو أيضاً معهم، ويشهد على وحدانية المعبود.

ولمّا كان قوله «لا إله إلا هو» تعظيماً وإظهاراً لوحديته، فقد اختتم بالصفتين «العزیز» و«الحكيم» لأنَّ القيام بالقسط يتطلّب القدرة والحكمة، وأن الله القادر على كلِّ شيء،



والعليم بكل شيء هو وحده القادر على إجزاء العدالة في عالم الوجود.  
هذه الآية من الآيات التي كانت موضع اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله دائماً  
وكان يرددها في مواضع مختلفة.  
وروي عن الزبير بن العوام أنّ رسول الله كان يكثر ليلته عرفة من ترديد هذه الآية<sup>١</sup>.

\*\*\*

## الآية

١٩ - «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

## التفسير

روح الدين التسليم للحق

«الدين» في الأصل بمعنى الجزاء والثواب، ويطلق على «الطاعة» والانقياد للأوامر، و«الدين» في الاصطلاح الديني: مجموعة العقائد والقواعد والآداب التي يستطيع الانسان في ظلها أن يبلغ السعادة في الدنيا، وأن يخطو في المسير الصحيح من حيث التربية والأخلاق الفردية والجماعية.

«الاسلام» يعني التسليم، وهو هنا التسليم لله. وعلى ذلك، فإن معنى «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»: إِنَّ الدِّينَ الْحَقِيقِيَّ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ التَّسْلِيمُ لِأَمْرِهِ وَاللِّحْقِيقَةَ. في الواقع لم تكن روح الدين في كل الأزمنة سوى الخضوع والتسليم للحقيقة، إننا أطلق اسم «الاسلام» على الدين الذي جاء به الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِأَنَّهُ أَرْفَعُ الْأَدْيَانَ.

وقد أوضح الامام علي عليه السلام هذا المعنى في بيان عميق فقال: «لأنسبَ الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل».

فالامام في كلمته هذه يضع للاسم ست مراحل، أولاها التسليم أمام الحقيقة، ثم يقول إِنَّ التَّسْلِيمَ بَغْيَرُ يَقِينٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ (إذ أَنَّ التَّسْلِيمَ بَغْيَرُ يَقِينٍ يَعْنِي الْاِسْتِسْلَامَ الْأَعْمَى، لَا التَّسْلِيمَ الْوَاعِي). ثم يقول إِنَّ الْيَقِينَ هُوَ التَّصَدِيقُ (أي أَنَّ الْعِلْمَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، بَلْ لَا بَدَّ مِنَ الْاِعْتِقَادِ وَالتَّصَدِيقِ الْقَلْبِيِّ) وَالتَّصَدِيقُ هُوَ الْاِقْرَارُ (أي لَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْاِيمَانُ قَلْبِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ يَجِبُ إِظْهَارُهُ بِشِجَاعَةٍ وَقُوَّةٍ)، ثُمَّ يَقُولُ إِنَّ الْاِقْرَارَ هُوَ الْأَدَاءُ (أي أَنَّ الْاِقْرَارَ لَا

يكون بمجرد القول باللسان، بل هو التزام بالمسؤولية). وأخيراً يقول إنَّ الأداء هو العمل (أي إطاعة أوامر الله وتنفيذ البرامج الإلهية) لأنَّ الالتزام وتحمل المسؤولية لا يعنيان سوى العمل. أما الذين يسخرون كلَّ قواهم وطاقاتهم في عقد الجلسات تلو الجلسات وتقديم الاقتراحات وما إلى ذلك من الأمور التي لا تتطلب إلَّا الكلام فلاهم تحمّلوا التزاماً ولا مسؤولية، ولاهم وعوا روح الاسلام حقاً.

هذا أجلّ تفسير للإسلام من جميع جوانبه.

«وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلَّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم»

تبيّن هذه الآية منشأ الاختلافات الدينية فتقول: إنَّ الذين يعلمون الحقيقة، ومع ذلك يوجدون الاختلاف في دين الله فإنّما هم مدفوعون بالطغيان والظلم والحسد.

ذلك لأنَّ لكلّ دين سماوي دلائله الواضحة التي لا تترك إيهاماً أمام الذين يبحثون عن الحقيقة. فالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله مثلاً - بالإضافة إلى أنّ المعجزات والدلائل الواضحة في نصوص دينه تؤكد صدقه - وردت أوصافه وعلاماته في الكتب السماوية السابقة التي بقي قسم منها في أيدي اليهود والنصارى، ولذلك بشر علماءهم بظهوره قبل ظهوره، ولكّتهم بعد أن بُعث رأوا مصالحهم في خطر، فأنكروا كلّ ذلك، يحدوهم الظلم والحسد والطغيان.

«ومن يكفر بآيات الله فإنَّ الله سريع الحساب»

هذا بيان لمصير أمثال هؤلاء الذين لا يعترفون بآيات الله. إنهم سوف يتلقون نتائج عملهم هذا، فإلله سريع في تدقيق حساباتهم<sup>١</sup>.

#### منشأ الاختلافات الدينية

مما يلفت النظر في هذه الآية هو أنّ سبب الاختلافات الدينية ليس الجهل وعدم المعرفة دائماً، بل هو على الأكثر الظلم والطغيان والانحراف عن الحقّ وأتباع وجهات النظر الخاصة، فلو تخلّى الناس - وعلى الأخص العلماء منهم - عن التعصب، والحقّد، وضيق النظر،

١ - انظر تفسير الآية ٢٠٢ من سورة البقرة بشأن معنى «سريع الحساب».



والمصالح الخاصة، وتجاوز الحدود، والاعتداء على الحقوق، وتعمقوا في دراسة أحكام الله بنظرة واقعية وبروح من العدالة، فسيرون محجة الحق مضاءة وسيستطيعون حل الاختلافات بسرعة.

هذه الآية في الواقع ردّ دامغ على الذين يقولون: «إنّ الدين هو سبب الخلافات وإراقة الدماء بين البشر على امتداد التاريخ».

هؤلاء يخلطون بين «الدين» و«التعصب الديني» والانحرافات الفكرية. فنحن إذا ما درسنا تعاليم الأديان السماوية نجد أنّها جميعاً تسعى لتحقيق هدف واحد، وكلّها جاءت من أجل سعادة الانسان، وإن كان قد تكاملت تدريجياً على مرور الزمن.

الأديان السماوية أشبه في الواقع بقطرات المطر الذي ينزل من السماء، فكلّ هذه القطرات محيية، ولكنها إذا نزلت على الأراضي السبخة، كالأرض المالحة، والأرض المرّة، اكتسبت طعم تلك الأراضي. فهذه الاختلافات ليست من قطرات المطر، بل هي من تلك الأراضي. ولكن من حيث مبدأ التكامل، فإنّ آخر تلك الأديان يكون أكملها.

## الآية

٢٠ - «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ  
الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ».

## التفسير

«المحاجة» أن يطلب كل واحد أن يرده الآخر عن حجته ومحجته دفاعاً عن عقيدته.  
من الطبيعي أن يقوم أتباع كل دين بالدفاع عن دينهم، ويرون أن الحق بجانبهم.  
لذلك يخاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً قد يحاورك أهل الكتاب (اليهود  
والنصارى...) فيقولون إنهم قد أسلموا بمعنى أنهم قد استسلموا للحق، وربما هم يصرون على  
ذلك، كما فعل مسيحيو نجران مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

فالآية لا تطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يتجنب محاورتهم ومحاجتهم،  
بل تأمره أن يسلك سبيلاً آخر، وذلك عندما يبلغ الحوار منتهاه، فعليه لكي يهديهم ويقطع  
الجدل والخصام أن يقول لهم: إنني وأتباعي قد أسلمنا لله واتبعنا الحق. ثم يسأل أهل  
الكتاب إن كانوا هم أيضاً قد أسلموا لله واتبعوا الحق فعليهم أن يخضعوا للمنطق، فإذا لم  
يستسلموا للحقيقة المعروضة أمامهم، فإنهم لا يكونون قد أسلموا لله. عندئذ لا تمضي في  
مجادلتهم، لأن الكلام في هذه الحالة لا تأثير له، وما عليك إلا أن تبلغ الرسالة لا غير «فإن  
أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ».

«والله بصير بالعباد»

هنا ينبغي الالتفات إلى عدة أمور:

١ - استفاد من الآية ضمناً لزوم تجنب مجادلة المعاندين الذين لا يخضعون للمنطق

السليم.

- ٢ - المقصود بالأميين في هذه الآية هم المشركون، والسبب في وصف المشركين بالأميين في قبال أهل الكتاب - اليهود والنصارى - هو أن المشركين لم يملكوا كتاباً سماوياً حتى يكون حافزاً لهم على تعلّم القراءة والكتابة.
- ٣ - يتضح من هذه الآية بكلّ جلاء أن اسلوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن اسلوب فرض الفكرة والعقيدة، بل كان اسلوبه السعي إلى توضيح الحقائق أمام الناس، ثم يتركهم وشأنهم لكي يتخذوا قرارهم في اتباع الحق بأنفسهم.



## الآيتان

٢١ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» .  
٢٢ - «أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» .

## التفسير

في هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاثة ذنوب كبيرة، هي: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، وقتل الذين يدعون إلى العدالة في دفاعهم عن دعوات الأنبياء، ثم إشارة إلى ثلاثة أنواع من العقوبات: ففي البداية تقول الآية: «فبشرهم بعذاب أليم» ثم تقول: «أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة»، أي أنّ أعمالهم الصالحات سوف تتأثر بذنوبهم الكبيرة فتفقد أثرها وتصبح كأن لم تكن. وفي الختام تقول: إنّ أحداً لن يحميهم من عقوباتهم وما ينتظرهم من عذاب، أي أنّهم محرومون حتى من شفاعة الشفعاء: «وما لهم من ناصرين». سبق أن قلنا في تفسير الآية ٦١ من سورة البقرة، أنّ هذه الآية تشير إلى تاريخ اليهود المضطرب، فهم فضلاً عن إنكارهم آيات الله، فقد تجرأوا على قتل الأنبياء، كما كانوا يقتلون أتباع الأنبياء من المجاهدين. ولكن هذا الحكم والعقاب لا يختص بهم وحدهم، بل يصح بالنسبة إلى جميع الأقوام التي فعلت وتفعل فعلهم. وهنا أيضاً النقاط التالية الجديرة بالملاحظة:

١ - وضعت الآية الداعين إلى العدالة والأمينين بالمعروف في مصاف الأنبياء. وترى الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل هؤلاء، على مستوى واحد، وهذا منتهى اهتمام الاسلام بنشر العدالة في المجتمع. ويتبين من الآية الثانية شدة العقوبات التي ستنزل بالذين يقتلون أمثال هؤلاء الرجال الصالحين. وقد سبق أن قلنا إنّ «الحبط» لا يشمل جميع الذنوب، بل للذنوب

الكبيرة التي تذهب بآثار الاعمال الصالحة<sup>١</sup> وأخيراً عدم قبول آية شفاعة بحقهم، كدليل على عظم ذنوبهم.

٢ - المقصود من «بغير حق» ليس إمكان جواز قتلهم بحق، بل المقصود هو القول بأن قتل الأنبياء كان دائماً ظلماً وبغير حق. فعبارة «بغير حق» قيد توضيحي جاء للتوكيد.

٣ - يستفاد من عبارة «فبشرهم بعذاب أليم» أنها تشمل الكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله أيضاً، مع أننا نعلم أنّ هؤلاء لم يقتلوا أحداً من الأنبياء. وقد أشرنا من قبل إلى السبب وقلنا إذا رضي أحد بفعال قوم وسلوكهم وأفكارهم، فإنه يكون شريكاً لهم في أعمالهم الخيرة والسيئة. ولما كانت هذه الجماعة المعاصرة للنبي من الكفار - وخاصة اليهود - تؤيد أعمال أسلافهم وجرائمهم، فهم يشاركونهم فيما ينتظرهم من العقاب أيضاً.

٤ - «البشارة» هي إخبار الرجل خبراً ساراً يبسط أسارير وجهه. واستعمال هذه الكلمة في الإخبار بالعذاب في هذه الآية وفي غيرها إنما هو نوع من التهديد والاستهزاء بأفكار المذنبين. وهذا أشبه بما هو متداول بيننا اليوم، إذ نقول - مستهزئين - لمن أساء الفعل: حسناً، سوف نكافئك على ذلك.

\*\*\*

## الآيات

- ٢٣ - «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ».
- ٢٤ - «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».
- ٢٥ - «فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

## النزول

جاء في تفسير «مجمع البيان» عن ابن عباس أنه حدث على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أن ارتكب يهودي الزنا مع امرأة محصنة، وعلى الرغم من أن ما جاء في التوراة يقضي بالرجم على أمثال هؤلاء، فإنها لم ينالا عقاباً لأنهما كانا من الأشراف، واتفقا على الرجوع إلى رسول الاسلام صلى الله عليه وآله ليكون هو الحكم، آمليين أن ينالا عقاباً أخف. غير أن رسول الله صلى الله عليه وآله أيد العقاب المعين لهما، فإعترض بعض كبار اليهود على حكم الرسول صلى الله عليه وآله وأنكروا أن يكون في اليهود مثل هذا العقاب. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «بيني وبينكم التوراة» فوافقوا، واستدعوا «ابن صوريا» أحد علمائهم، من فدك إلى المدينة، وعند وصوله عرفه النبي صلى الله عليه وآله وسأله: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم. فقال: أنت أعلم علماء اليهود؟ قال: هكذا يحسبونني، فأمر رسول الله أن يفتحوا أمامه التوراة حيث ذكر الرجم ليقراه، ولكنه لما كان مطلعاً على تفاصيل الحادث قرأ جانباً من التوراة، وعندما وصل إلى عبارة الرجم وضع يده عليها وتخطاها ولم يقرأها وقرأ ما بعدها. فأدرك «عبدالله بن سلام» - الذي كان من علماء اليهود ثم أسلم - مكر ابن صوريا وقام إليه ورفع يده عن الآية وقرأ ما كان قد أخفاه بيده، قائلاً: تقول التوراة: على اليهود، إذا ثبت زنا المحصن بالمحصنة رجماً. فأمر رسول الله أن ينقذ العقاب بحقها



بموجب شريعتهم. فغضب بعض اليهود، فنزلت هذه الآية بحقهم<sup>١</sup>.

### التفسير

هذه الآيات تصرّح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسلون بالتبريرات والأسباب الواهية لتفادي إجراء حدود الله، مع أنّ كتابهم كان صريحاً في بيان حكم الله بغير إبهام، وقد دُعوا للخضوع للحكم الموجود في كتابهم «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم».

ولكن عصيانهم كان ظاهراً ومصحوباً بالإعراض والطغيان واتخاذ موقف المعارض لأحكام الله: «ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون».

يمكن الاستنتاج من «أوتوا نصيباً من الكتاب» أنّ ما كان بين أيدي اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل لم يكن كاملاً، بل كان قسم منها بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويين قد ضاع أو حُرّف.

هذه الآية تؤيدها آيات أُخرى في القرآن، كما أنّ هناك شواهد ودلائل تاريخية تؤكد ما ذهبنا إليه.

وفي الآية الثانية شرح سبب عصيانهم وتمردهم، وهو أنّهم كانوا يحملون فكرة خاطئة عن كونهم من عنصر ممتاز، وهم اليوم أيضاً يحملون هذه الفكرة الباطلة الواضحة في كتاباتهم الدالة على الاستعلاء العنصري.

كانوا يظنون أنّ لهم علاقة خاصة بالله سبحانه، حتى أنّهم سمّوا أنفسهم «أبناء الله» كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود والنصارى في الآية ١٨ من سورة المائدة قولهم: «نحن أبناء الله وأحبّاءه». وبناءً على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانة تجاه العقوبات الربانية، وكانوا ينسبون ذلك إلى الله نفسه. لذلك كانوا يُعتقدون أنّهم لن يعاقبوا على ذنوبهم يوم القيامة إلاّ لأَيّام معدودات: «قالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودات».

١ - في التوراة الموجودة حالياً، في سفر اللاويين في الفصل العشرين، الجملة العاشرة نقرأ ما يلي: «إذا زنا أحد بامرأة غيره، أي بامرأة جاره (مثلاً) يجب قتل الزاني والزانية». على الرغم من أنّ الرجم نفسه لم يرد، فقد ورد العقاب بالموت، وربما يكون التصريح بالرجم قد ورد في النسخة التي كانت موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولعلّ القصد من «الأيام المعدودات» هي الأربعون يوماً التي عبدوا فيها العجل في غياب موسى عليه السلام، وكان هذا ذنباً لم يكونوا هم أنفسهم قادرين على إنكاره. أو لعلّها أيام قليلة من أعمارهم ارتكبوا فيها ذنباً كبيرة غير قابلة للإنكار، ولم يستطيعوا حتى على إخفائها.

هذه الامتيازات الكاذبة المصطنعة، التي أسبغوها على أنفسهم ونسبوا إلى الله، صارت شيئاً فشيئاً جزءاً من معتقداتهم بحيث إنهم اغتروا بها وراحوا يخالفون أحكام الله ويخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأة لا مزيد عليها «وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون». تدحض الآية الثالثة كلّ هذه الخيالات الباطلة وتقول: لا شك أنّ هؤلاء سوف يلاقون يوماً يجتمع فيه البشر أمام محكمة العدل الإلهي فيتسلّم كلّ فرد قائمة أعماله، ويحصدون ناتج مازرعوه، ومهما يكن عقابهم فهم لا يُظلمون لأنّ ذلك هو حاصل أعمالهم «ووقيت كلّ نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون».

يتضح من «ما كسبت» أنّ عقاب المرء وثوابه يوم القيامة وفوزه وخذلانه في العالم الآخر إنّما يرتبط بأعماله هو، ولا يؤثر فيه شيء آخر. هذه حقيقة أشير إليها في كثير من الآيات الكريمة.

### سؤالان

١ - أيمنك للانسان أن يختلق كذباً أو افتراءً وينسبه إلى الله، ثم يتأثر به هو ويعتوره الغرور إلى تلك الدرجة التي أشار إليها القرآن في الآيات السابقة بالنسبة لليهود؟  
ليس من العسير الردّ على هذا السؤال، وذلك لأنّ قضية خداع النفس من القضايا التي يعترف بها علم النفس المعاصر. إنّ العقل الانساني يسعى أحياناً إلى استغفال الضمير بأن يغيّر وجه الحقيقة في عين ضميره. كثيراً ما نشاهد أناساً ملوثين بالذنوب الكبيرة، كالقتل والسرقة وأمثالها، على الرغم من إدراكهم تماماً قبح تلك الأعمال يسعون لإظهار ضحاياهم بأنهم كانوا يستحقّون ما أصابهم لكي يسبغوا هدوءاً كاذباً على ضمائرهم، وكثيراً ما نرى المدمنين على المخدرات يبرّرون فعالهم بأنهم يستهدفون الفرار من مصائب الدنيا ومشاكلها.  
ثم إنّ هذه الأكاذيب والافتراءات عن تفوّقهم العنصري التي حاكبتها الأجيال السابقة من أهل الكتاب وصلت بالتدرّج إلى الأجيال التالية التي لم تكن تعرف الكثير عن هذا الموضوع - ولم تكن بالبحث عن الحقيقة - بصورة عقائد مسلّم بها.

٢ - يمكن أن يقال إن الاعتقاد «بالعذاب لأيام معدودات» منتشر بيننا نحن المسلمين أيضاً، لأننا نعتقد أن المسلمين لا يخلّدون في العذاب الإلهي، إذ أن إيمانهم سوف ينجيهم أخيراً من العذاب.

ولكن ينبغي التوكيد هنا أننا لا يمكن أن نعتقد بأن المسلم المذنب والملوث بأنواع الآثام يعذب بضعة أيام فقط، بل أننا نعتقد أن عذاب هؤلاء يطول لسنوات وسنوات لا يعرف مداها إلا الله، إلا أن عذابهم لا يكون أبدياً خالداً. وإذا وجد حقاً بين المسلمين من يحسبون أنهم بالاحتماء بالاسلام والايان والنبي صلى الله عليه وآله والأسمّة الأطهار يجوز لهم أن يرتكبوا ما يشاؤون من الذنوب، ثم لا يصيبهم من العقاب سوى بضعة أيام من العذاب، فإنهم على خطأ كبير ويجهلون تعاليم الاسلام وروح تشريعاته.

ثم إننا لا نعترف بأيّ امتياز خاص للمسلمين، بل نعتقد أن كلّ أمة اتبعت نبيها في زمانها ثم أذنبت مشمولة بهذا القانون أيضاً، بغض النظر عن عنصرها. أما اليهود فيخصون أنفسهم بهذا الامتياز دون غيرهم بزعم تفوقهم العنصري. وقد ردّ عليهم القرآن زعمهم الكاذب هذا في الآية ١٨ من سورة المائدة: «بل أنتم بشر من خلق».



## الآيتان

- ٢٦ - «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».
- ٢٧ - «تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

## النزول

يذكر المفسر المعروف الطبرسي في «مجمع البيان» سببين لنزول هاتين الآيتين يتناولان حقيقة واحدة:

١ - عندما فتحت مكة، بشر رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين بأن دولة الفرس ودولة الروم سرعان ما ستضويان تحت لواء الاسلام. غير أن المنافقين الذين لم تكن قلوبهم قد استنارت بنور الإيمان ولم يدركوا روح الاسلام، اعتبروا ذلك مبالغة، وقالوا بدهشة: لم يقنع محمد صلى الله عليه وآله بالمدينة ومكة، وهو يطمع الآن بفتح فارس والروم، فنزلت الآية المذكورة.

٢ - كان رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون مشغولون بحفر الخندق في أطراف المدينة، وانتظم المسلمون في جماعات يحفرون بسرعة وجدّ لكي ينجزوا هذا الحصن الدفاعي قبل وصول جيش الأعداء. وفجأةً ظهرت صخرة كبيرة بيضاء صلدة وسط الخندق عجز المسلمون عن كسرها أو تحريكها. فجاء «سلمان» إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعرض عليه الأمر. فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الخندق وتناول المعول من سلمان وأنزل ضربة شديدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح النبي صلى الله عليه وآله مكبراً تكبيراً الانتصار، فردّد المسلمون التكبير وراح صوتهم يدوي في كلّ مكان. ومرة أخرى أنزل رسول الله صلى الله عليه وآله معوله على الصخرة، فانبعث الشرر وكسرت قطعة منها، وارتفع صوت تكبير الانتصار من النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين بعده. وللمرة الثالثة ارتفع معول النبي صلى الله عليه وآله ونزل على الصخرة، و للمرة الثالثة انبعث الشرر من الضربة

وأضاء ماحولها، وتحطمت الصخرة، وارتفع صوت التكبير بين جنبات الخندق.  
فقال سلمان: بأبي أنت وأمِّي يارسول الله، لقد رأيت شيئاً ما رأيت منك قط.  
فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى القوم وقال: رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم  
يارسول الله. قال: ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة  
ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبرئيل أن أمِّي ظاهرة عليها، ثم ضربت  
ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب  
الكلاب، وأخبرني جبرئيل أن أمِّي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم  
أضاءت لي قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرئيل أن أمِّي ظاهرة عليها.  
فابشروا، فاستبشر المسلمون وحمدوا الله. أما المنافقون فقد عيسوا وقالوا بلهجة المعترض: أمل  
باطل ووعد مستحيل! هؤلاء يخفرون الخنادق خوفاً على أرواحهم من جيش صغير يخشون  
مواجهته، ثم يحلمون فتح أعظم دول العالم. وعندئذ نزلت الآيات المذكورة.

### التفسير

دار الكلام في الآيات السابقة حول المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يخضون  
أنفسهم بالعزة وبالملك، وكيف أنهم كانوا يرون أنفسهم في غنى عن الإسلام. فنزلت هاتان  
الآيتان فتفقدان مزاعم المنافقين الباطلة وتقولان إن مالك كل شيء هو الله، وكل خير بيده،  
وهو مطلق القدرة، وإليه ينبغي اللجوء.

إن المالك الحقيقي للأشياء هو خالقها، كما جاء في الآية الثانية من سورة المؤمن:  
«ذلكم الله ربكم خالق كل شيء». وهو الذي يعطي لمن يشاء الملك والسلطان، أو يسلبها  
ممن يشاء، فهو الذي يعز، وهو الذي يذل، وهو القادر على كل هذه الأمور، وكلها تجري  
بأمره، ليس مكرهاً على عمل، فهو فاعل بالاختيار، لا بالإجبار؛

ولا حاجة للقول بأن مشيئة الله في هذه الآيات لا تعني أنه يعطي بدون حساب ولا  
موجب، أو يأخذ بدون حساب ولا موجب، بل أن مشيئته مبنية على الحكمة والنظام ومصلحة  
عالم الخلق وعالم الانسانية عموماً. وبناءً على ذلك فإن أي عمل يقوم به إنما هو خير عمل وأصحته.

«بيدك الخير»

«خير» صيغة تفضيل يقصد بها تفضيل شيء على شيء، والكلمة تطلق أيضاً على

كلّ شيء حسن. ففي الآية ٢٢١ من سورة البقرة نقراً: «ولعبد مؤمنٌ خيرٌ من مشرك»، فمن الواضح هنا أنّ المشرك ليس فيه شيء حسن حتى يكون المؤمن خيراً منه.

وقد يأتي هذا المعنى بلفظة أخرى من صيغ التفضيل، كما جاء في الآية ٣٣ من سورة يوسف: «ربّ السجن أحبُّ إليّ ممّا يدعونني إليه»، فبديهي أنّ الزنا ليس فيه شيء يحبّه يوسف حتى يقول إنّ السجن أحبّ إليه من الزنا. وبناءً على ذلك فإنّ صيغة التفضيل هذه تستعمل للمقارنة فقط، حتى وإن كان أحد طرفي المقارنة مفتقراً إلى الصفة كلياً، بل كانت كلّها الطرف الآخر.

وعبارة «بيدك الخير» تحصر كلّ الخير بيد الله من جهتين:

- ١ - الألف واللام في «الخير» هما للاستغراق.
  - ٢ - أنّ تقديم الخبر «بيدك» وتأخير المبتدأ «الخير» دليل على الحصر كما هو معلوم.
- فيكون المعنى: «كلّ الخير بيدك وحدك لا بيد غيرك».
- كذلك يستفاد من «بيدك الخير» أنّ الله هو منبع كلّ خير وسعادة فإذا أعزّ أحداً أو أذّله، فذلك قائم على العدل، ولا شرف فيه.

### «إنك على كلّ شيء قدير»

هذه الآية جاءت دليلاً على الآية السابقة. أي مادام الله ذا قدرة مطلقة، فليس ثمة ما يمنع أن يكون كلّ خير خاضعاً لمشيئته.

### الحكومات الصالحة وغير الصالحة

يُطرح هنا سؤال هام يقول: قد يستنتج بعضهم من هذه الآية أنّ من يصل إلى مركز الحكم، أو يسقط منه، فذلك بمشيئة الله. ومن هنا فلا بدّ من قبول حكومات الجبّارين والظالمين في التاريخ مثل حكومات جنكيزخان، وهتلر وغيرهما. بل أننا نقراً في التاريخ أنّ «يزيد بن معاوية» - تبريراً لحكمه الشائن الظالم - استشهد بهذه الآية<sup>١</sup>. لذلك نرى في كتب التفسير توضيحات مختلفة بشأن هذه الشبهة. من ذلك أنّ الآية تختصّ بالحكومات الإلهية، أو أنّها تقتصر على حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله التي أنهت حكم جبّاري قريش.

١ - إرشاد المفيد: نقلاً عن تفسير الميزان.



ولكن الآية تطرح في الواقع مفهوماً عاماً يقضي أن جميع الحكومات الصالحة وغير الصالحة مؤطرة بقانون مشيئة الله، ولكن ينبغي أن نعلم أن الله قد أوجد مجموعة من الأسباب للتقدم والنجاح في العالم، وأن الاستفادة من تلك الأسباب هي نفسها مشيئة الله. وعليه فإن مشيئة الله هي الآثار مخلوقة في تلك الأسباب والعوامل. فاذا قام ظلمة وطماعة - مثل جنكيز ويزيد وفرعون - باستغلال أسباب النجاح، وخضعت لهم شعوب ضعيفة وجبانه، وتحملت حكمهم الشائن، فذلك من نتائج أعمال تلك الشعوب وقد قيل: كيفما كنتم يولّي عليكم. ولكن إذا كانت هذه الشعوب واعية، وانتزعت تلك الأسباب والعوامل من أيدي الجبارة وأعطتها بيد الصالحاء، وأقامت حكومات عادلة، فإن ذلك أيضاً نتيجة لأعمالها وطريقة استفادتها من تلك العوامل والأسباب الإلهية.

في الواقع، أن الآية دعوة للأفراد والمجتمعات إلى اليقظة الدائمة والوعي واستفادة من عوامل النجاح والنصر، لكي يشغلوا المواقع الحساسة قبل أن يستولي عليها أناس غير صالحين. خلاصة القول: إن مشيئة الله هي نفسها عالم الأسباب، إنها الاختلاف في كيفية استفادتنا من عالم الأسباب هذا.

### «تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل»

«الولوج» بمعنى الدخول. والقصد من الآية هو هذا التغيير التدريجي الذي نراه بين الليل والنهار طوال السنة. هذا التغيير ناشئ عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ٢٣ درجة واختلاف زاوية سقوط أشعة الشمس عليها. لذلك نرى الشتاء في النصف الشمالي من خط الاستواء تطول أيامه تدريجياً، وتقصّر ليلاته تدريجياً، حتى أوائل الصيف، حيث ينعكس التغيير فتقصّر أيامه وتطول ليلاته حتى أوائل الشتاء. أما في جنوب خط الاستواء فالتناظر يكون معكوساً.

وبناءً على ذلك فإن الله يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، دائماً، أي أنه ينقص هذا ليزيد ذاك وبالعكس.

قديقول قائل إن الليل والنهار في خط الاستواء الحقيقي وفي نقطتي القطبين في الشمال والجنوب متساويان وليس ثمة أيّ تغيير فيها، فالليل والنهار في خط الاستواء متساويان ويمتد كلّ منهما اثنتي عشرة ساعة على امتداد السنة، وفي القطبين يمتد الليل ستة أشهر ومثله النهار، لذلك فإن الآية ليست عامة.

في الجواب على هذا التساؤل نقول: إنَّ خطَّ الاستواء الحقيقي خطَّ وهمي، والناس عادةً يعيشون على طرفي الخط. كذلك الحال في القطبين فهما نقطتان وهميتان، وسكَّان القطبين - إن كان فيها سكَّان - يعيشون في مناطق أوسع طبعاً من نقطة القطب الحقيقية، وعليه فالاختلاف موجود في كلِّ الحالات.

وقد يكون للآية معنى آخر بالإضافة إلى ما ذكر، وهو أنَّ الليل والنهار لا يحدثان فجأةً في الكرة الأرضية بسبب وجود طبقات «الجو» حولها. فالنهار يبدأ بالتدريج من الفجر وينتشر، ويبدأ الليل من حمرة الأفق الغربي والغسق، ثم ينتشر الظلام حتى يعمَّ جميع الأرجاء. إنَّ للتدرج في تغيير الليل والنهار - بأي معنى كان - آثاراً مفيدة في حياة الانسان والكائنات الأخرى على الأرض. لأنَّ نموَّ النباتات وكثير من الحيوانات يتمُّ في إطار نور الشمس وحرارتها التدريجيَّة. فمن بداية الربيع حيث يزداد بالتدريج نور الشمس وحرارتها، تطوي النباتات وكثير من الحيوانات كلَّ يوم مرحلة جديدة من تكاملها. ولما كانت هذه الموجودات تحتاج بمرور الأيام إلى مزيد من النور والحرارة، فإنَّ حاجتها هذه تلبَّى عن طريق التغييرات التدريجيَّة لليل والنهار، لتصل إلى نقطة تكاملها النهائيَّة.

فلو كان الليل والنهار كما هما دائماً، لاختلَّ نموُّ كثير من النباتات والحيوانات، ولاخفتت الفصول الأربعة التي تنشأ من اختلاف الليل والنهار ومن مقدار زاوية سقوط نور الشمس، ولخسر الانسان فوائد ذلك.

كذلك هي الحال إذا أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الثاني في تفسير الآية أي أنَّ حلول الليل والنهار تدريجي، لا فجائي، وأنَّ هناك فترة بين الطلوعين تفصل بينهما، فمن ذلك يتضح أنَّ هذا التدرج في حلول الليل والنهار نعمة كبرى لسكنة الأرض، لأنَّهم يتعرفون بالتدريج على الظلام أو الضياء، وبذلك تتطابق قواهم الجسمية وحياتهم الاجتماعية مع هذا التغيير، وإلاَّ حدثت حتماً مشاكل لهم.

«وَنُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ»

إنَّ معنى خروج «الحيِّ» من «الميتِّ» هو ظهور الحياة من كائنات عديمة الحياة. فنحن نعلم أنه في اليوم الذي استعدت فيه الأرض لاستقبال الحياة، ظهرت كائنات حية من كائنات عديمة الحياة. أضف إلى ذلك أنَّ مواد لا حياة فيها تصبح باستمرار أجزاءً من خلايانا الحية وخلايا جميع الكائنات الحية في العالم، وتبدل إلى مواد حية.



أما خروج «الميت» من «الحي» فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا. إن الآية - في الواقع - إشارة إلى قانون التبادل الدائم بين الحياة والموت، وهو أعم القوانين التي تحكمنا وأعقدها، كما أنه أروعها في الوقت نفسه. هذه الآية تفسير آخر أيضاً - لا يتعارض مع التفسير السابق - وهو مسألة الحياة والموت المعنويين. فنحن كثيراً ما نرى أن بعض المؤمنين - وهم الأحياء الحقيقيون - يخرجون من بعض الكافرين - وهم الأموات الحقيقيون - وقد يحدث العكس، حين يخرج الكافر من المؤمن.

إن القرآن يعبر عن الحياة والموت المعنويين بالإيمان والكفر في كثير من آياته. وبموجب هذا التفسير يكون القرآن قد ألغى قانون الوراثة الذي يعتبره بعض العلماء من قوانين الطبيعة الثابتة. فالإنسان يتميز بجزية الإرادة وليس مثل الكائنات غير الحية في الطبيعة التي تقع تحت تأثير مختلف العوامل وقوعاً إجبارياً. وهذا بذاته مظهر من مظاهر قدرة الله التي تغسل آثار الكفر في نفوس أبناء الكافرين - أولئك الذين يريدون حقاً أن يكونوا مؤمنين - ويغسل آثار الإيمان من أبناء المؤمنين - الذين يريدون حقاً أن يكونوا كافرين - وهذا الاستقلال في الإرادة، القادر على الانتصار، حتى في ظروف غير مواتية، من مظاهر قدرة الله أيضاً.

هذا المعنى يرد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، كما جاء في تفسير «الدر المنثور» عن سلمان الفارسي أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله فسر الآية «يخرج الحي من الميت...» فقال: أي أنه يخرج المؤمن من صلب الكافر، والكافر من صلب المؤمن.

#### «وترزق من تشاء بغير حساب»

هذه الآية تعتبر من باب ذكر «العام» بعد «الخاص»، إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج من الرزق الإلهي، أما هنا فالآية تشير إلى جميع النعم على وجه العموم، أي أن العزة والحكم والحياة والموت ليست هي وحدها بيد الله، بل بيده كل أنواع الرزق والنعم أيضاً. وتعبير «بغير حساب» يشير إلى أن بحر النعم الإلهية من السعة والكبر بحيث إنه مهما أعطى منه فلن ينقص منه شيء ولا حاجة به لمسك الحساب. فالتسجيل في دفاتر الحساب من عادة ذوي الثروات الصغيرة المحدودة التي يخشى عليها من النفاذ والنقصان. فهؤلاء هم



الذين يحسبون حسابهم قبل أن يهبوا لأحد شيئاً، لئلا تتبدد ثروتهم. أما الله فلا يخشى النقص فيما عنده، ولا أحد يحاسبه، ولا حاجة له بالحساب. يتضح مما قلنا أن هذه الآية لا تتعارض مع الآيات التي تبين التقدير الإلهي وتطرح موضوع لياقة الأفراد وقابليتهم ومسألة التدبير في الخلقة.

### ليس في الأمر إجبار

لابد هنا من الإشارة إلى هذه النقطة ولو باختصار: إننا نعلم أن الانسان حرّ في كسب رزقه بغير إجبار، وذلك بموجب قانون الخلق وحكم العقل ودعوة الأنبياء، فكيف تقول هذه الآية أن كلّ هذه الأمور بيد الله؟

في الجواب نقول: إن المصدر الأوّل لعالم الخلق وجميع العطايا والإمكانات الموجودة عند الناس هو الله، فهو الذي وضع جميع الوسائل في متناول الناس لبلوغ العزة والسعادة. وهو الذي وضع في الكون تلك القوانين التي إذا لم يلتزمها الناس انحدروا إلى الذلّ والتعاسة. وعلى هذا الاساس يمكن إرجاع كلّ تلك الامور اليه، وليس في ذلك أيّ تعارض مع حرّية إرادة البشر، لأنّ الانسان هو الذي يتصرّف بهذه القوانين والمواهب والقوى والطاقات تصرفاً صحيحاً أو خاطئاً.

## الآية

٢٨ - «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ».

## التفسير

### العلاقة مع الأجنبي

«الولي» هنا بمعنى الصديق والحمي والرفيق والعون والحليف.

هذه الآية درس سياسي واجتماعي مهم للمسلمين، فتحذّرهم من اتّخاذ الأجنبي صديقاً أو حامياً أو عوناً ورفيقاً، في أيّ عمل من أعمالهم، ومن الاتّخاذ بكلامه المعسول وعروضه الجذّابة وتظاهره بالحبّة الحميمة، لأنّ التاريخ قد أثبت بأنّ أفسى الضربات التي تلقّاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

لو أنّنا طالعنا تاريخ الاستعمار للاحظنا أنّ المستعمرين جاءوا دائماً في لبوس الصداقة والترحم وحبّ الإعمار والبناء فتغلغلوا بين طبقات المجتمع.

إنّ كلمة «استعمار» التي تعني الإعمار والبناء دليل على هذا الخداع، فهم بعد أن يتمكّنوا من إنشابه مخالهم في جذور المجتمع المستعمر، يبدأون بامتصاص دماثة بكلّ قسوة وبغير رحمة.

ولأهميّة الموضوع تورد الآية تهديداً شديداً، فتقول: من يفعل ذلك يقطع كلّ علاقة

له بالله.

«من دون المؤمنين» إشارة إلى أنّ الناس في حياتهم الاجتماعية لابدّ لهم من اتّخاذ الأولياء والأصدقاء، فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين، لا من بين الكافرين.

«ليس من الله في شيء»

تقول الآية: إن الذين يعقدون أواصر صداقتهم وولاءهم مع أعداء الله، ليسوا من

الله في أي شيء من الأشياء، أي أنهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعة أوامر الله وقطعوا علاقتهم بالجماعة المؤمنة الموحدة، وانقطعت ارتباطاتهم من جميع الجهات.

«إلّا أن تتقوا منهم تقاة»

هذا استثناء من الحكم المذكور، وهو أنه إذا اقتضت الظروف - التقية - للمسلمين أن يظهروا الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم. ولكن الآية تعود في الختام لتؤكد الحكم الأوّل فتقول: «يخذركم الله نفسه وإلى الله المصير»، فالله ينذر الناس أولاً بغضب منه وبعقاب شديد، ثم إن مرجع الناس جميعاً إلى الله. وإن تولّوا أعداء الله نالوا عاجلاً نتيجة أعمالهم.

التقية أو الدرع الواقي

صحيح أنّ الانسان قد يضحي حتى بحياته من أجل هدف كبير ولصيانة الشرف ونصرة الحق وقمع الباطل، ولكن هل يميز عاقل لنفسه أن تتعرض للخطر دون أن يكون أمامه هدف هام؟

الاسلام يميز الانسان صراحة أن يمتنع عن إعلان الحق مؤقتاً وأن يؤدي واجبه في الخفاء حين يعرضه ذلك لخطر في النفس والمال والعرض وحين لا يكون للإعلان نتيجة مهمة وفائدة كبيرة. كما جاء في هذه الآية، وكما جاء في الآية ١٠٦ من سورة النحل حيث يقول: «إلّا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان».

إن كتب التاريخ والحديث الاسلامي مازالت تحفظ حكاية «عمار» وأبيه وأمه إذ وقعوا في قبضة عبدة الأصنام الذين راحوا يعدّبونهم لكي يرتدوا عن الاسلام. فرفض والدا عمار ذلك فقتلها المشركون. غير أنّ عماراً قال بلسانه ما أرادوا أن يقوله، ثم هرع باكياً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله خوفاً من الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن عادوا لك فعد لهم» أي إذا قبضوا عليك مرة أخرى وطلبوا منك أن تقول شيئاً فقله، وهذا هدأ روعه وزال عنه خوفه.

لابد من الإشارة إلى أن حكم التقية يختلف باختلاف الظروف، فهي قد تكون واجبة، وقد تكون حراماً، وقد تكون مباحة.

تجب التقية حينما تتعرض حياة الانسان للخطر دونما فائدة تذكر. أما إذا كانت



التقية سبباً في ترويح الباطل وضلالة الناس وإسناد الظالم فهي هنا حرام. وهذا جواب لجميع الاعتراضات التي ترد بهذا الشأن. لو أنّ المعارضين دققوا في البحث لأدركوا أنّ الشيعة ليسوا منفردين بهذا الاعتقاد، بل أنّ التقية في موضعها حكم عقلي قاطع ويتفق مع الفطرة الانسانية.

فجميع عقلاء العالم - حين يرون أنفسهم أمام طريقتين: إمّا الإعلان عن عقيدتهم والمخاطرة بالنفس والمال والكرامة، أو إخفاء معتقداتهم - يعنون النظر في الظروف القائمة. فإن كان الإعلان عن العقيدة يستحقّ كلّ هذه التضحية بالنفس والمال والكرامة اعتبروا إعلانها عملاً صحيحاً، وإن لم يكن للإعلان نتيجة تذكر تركوا ذلك.

#### التقية أو تغيير اسلوب النضال

في تاريخ النضالات الدينية والاجتماعية والسياسية حالات إذا أراد فيها المدافعون عن الحقّ أن يناضلوا علانية، فإنهم يتعرّضون للإبادة هم ومبادئهم أو يواجهون الخطر على الأقلّ، مثل الحالة التي مرّ بها شيعة علي عليه السلام على عهد بني أمية. في مثل هذه الحالة يكون الطريق الصحيح والمعقول هو أن لا يبذّوا قواهم، وأن يواصلوا نضالهم غير المباشر في الخفاء. التقية في مثل هذه الحالات أشبه بتغيير اسلوب النضال الذي يجنبهم الفناء ويحقّق لهم النصر في الكفاح. إنّ الذين يرفضون التقية كلّية ويفتون بطلانها لا ندري ما الذي يقترحونه في مثل هذه الحالات؟ أيرون الفناء خيراً، أم استمرار النضال بشكل صحيح ومنطقي؟ هذا الطريق الثاني هو التقية، وأمّا الطريق الأوّل فليس بمقدور أحد أن يجيزه.

## الآية

٢٩ - «قُلْ إِنْ تُخْضُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلمَهُ اللهُ وَتَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

### التفسير

نهت الآية السابقة عن الصداقة والتعاون مع الكافرين والاعتماد عليهم نهياً شديداً، واستثنت من ذلك حالة «التقية».

إلا أن بعضهم قد يتخذ من «التقية» في غير محلها ذريعة لمد يد الصداقة إلى الكفار أو الخضوع لولايتهم وسيطرتهم. وبعبارة أخرى أنهم قد يستغلون «التقية» ويتخذونها مبرراً لعقد أواصر العلاقات مع أعداء الاسلام. فهذه الآية تحذر أمثال هؤلاء وتأمروهم أن يضعوا نصب أعينهم علم الله المحيط بأسرار القلوب والعالم بما ظهر وما خفي. في الواقع أن هذه الآية لكي تنبّه الناس إلى إحاطة الله بأسرارهم الخفية، تشير إلى أن معرفة الله بأسرارهم إنما هي جانب صغير من مدى علمه اللامحدود الذي يسع السماوات والأرض. وهو إضافة إلى علمه الواسع قادر على معاقبة المذنبين: «والله على كل شيء قدير».

## الآية

٣٠ - «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا أَمَدًا يَبْعِدُهَا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ».

## التفسير

تشير هذه الآية إلى حضور الأعمال الصالحة والسيئة يوم القيامة، فيرى كل امرئ ما عمل من خير وما عمل من شر حاضراً أمامه. فالذين يشاهدون أعمالهم الصالحة يفرحون ويستبشرون، والذين يشاهدون أعمالهم السيئة يستولي عليهم الرعب ويتمنون لو أنهم استطاعوا أن يبتعدوا عنها.

«الأمدة» في اللغة الزمان المحدود، و«الأبد» اللامحدود، والأمدة يقصد من استعماله غالباً انتهاء الزمان، وإن استعمل أحياناً أيضاً في مطلق الزمان المحدود.

بناءً على ذلك، فإن المذنبين - كما تقول الآية - يتمنون أن يمتد الفاصل الزمني بينهم وبين ذنوبهم طويلاً، وهو تعبير عن ذروة ما يشعرون به من تعاسة جراء أعمالهم السيئة، لأن طلب البعد الزمني أبلغ في التعبير عن هذا الاستياء من طلب البعد المكاني، فاحتمال الحضور موجود في الفاصل المكاني، بينما ينتفي هذا الاحتمال تماماً في الفاصل الزمني.

فإذا عاش أحد - مثلاً - في فترة الحرب العالمية، شمله القلق والاضطراب وإن ابتعد مكانياً عن منطقة الحرب، لكن الشخص الذي يعيش في فترة زمنية بعيدة عن الحرب لا يشعر بذلك القلق.

هذا مع أن بعض المفسرين احتملوا أن يكون للفظ «الأمدة» معنى البعد المكاني أيضاً، غير أن هذا لم يرد في اللغة على الظاهر.

إن كان المذنبون يتمنون لو كان بينهم وبين أعمالهم السيئة فاصلاً زمنياً طويلاً، فالصالحون على العكس منهم يتمنون - حين يشاهدون أعمالهم - لو أنهم كانوا أسرع للوصول إليها، ولم يكن بينهم وبينها أي فاصل زمني.



### «ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد»

في الجزء الأول من هذه العبارة يحذّر الله الناس من عصيان أوامره، وفي الجزء الثاني يذكرهم برأفته. ويبدو أنّ هذين الجزئين هما - على عادة القرآن - مزيج من الوعد والوعيد. ومن المحتمل أن يكون الجزء الثاني «والله رؤوف بالعباد» تأكيداً للجزء الأول «ويحذركم الله نفسه»، وهذا أشبه بمن يقول لك: إنّي أحذرك من هذا العمل الخطر، وإنّ تحذيري إياك دليل على رأفتي بك، إذ لولا حبتي لك لما حذرتك.

### القرآن وتجسيد الأعمال وحضورها

هذه الآية تبيّن بكل وضوح تجسّد الأعمال وحضورها يوم القيامة. كلمة «تجد» من الوجود ضدّ العدم. ولفظنا «خير» و«سوء» وردتا نكرتين لتفيدا العموم. أي أنّ الانسان يجد أعماله الحسنة والقبيحة يوم القيامة مهما تكن قليلة.

بعضهم أوّل هذه الآية وأشباهاها وقال إنّ القصد من حضور الأعمال هو حضور ثوابها أو عقابها، أو حضور سجلّ الأعمال الذي دوّنت فيه الأعمال كلّها.

ولكن من الجلي أنّ ذلك لا ينسجم وظاهر الآية، لأنّ الآية تقول بوضوح إنّ الانسان يوم القيامة «يجد» عمله. وتقول: إنّ المسيء يودّ لو أنّ بينه وبين «عمله» القبيح فواصل مديدة. فهنا «العمل» نفسه هو الذي يدور حوله الكلام. لا سجلّ الأعمال، ولا الثواب والعقاب.

كذلك نقرأ في الآية أنّ المسيء يودّ لو بعدّ عنه عمله، ولكنّه لا يتمتّي زوال عمله إطلاقاً. وهذا يعني أنّ زوال الأعمال غير ممكن، ولذلك فهو لا يتمتّاه.

هناك آيات كثيرة أخرى تؤيد هذا الأمر، كآية ٤٩ من سورة الكهف:

«وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» والآيات ٨٧ و٨٨ من سورة الزلزال

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

سبق أن قلنا إنّ بعض المفسرين يرون أنّ لفظ «الجزاء» هو التقدير وهذا خلاف

ظاهر الآية.

يستفاد من بعض الآيات أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، وأنّ عمل الانسان أشبه بالحبّ الذي يُزرع في التربة، فتنمو تلك الحبة، ثم يحصد الانسان معها حبةً كثيراً. كذلك هي

أعمال الانسان التي تجري عليها تبدلات وتغيرات تناسب يوم القيامة، ثم تعود إلى الانسان نفسه، كما جاء في الآية ٢٠ من سورة الشورى: «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه».

ويستفاد من آيات أخرى أنّ الأعمال الصالحة في هذه الدنيا تأتي في الآخرة بصورة نور وضياء، فيطلبه المنافقون من المؤمنين: «انظرونا نقتبس من نوركم»، فيقال لهم: «ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا»<sup>١</sup>.

هذه الآيات وغيرها العشرات تدلّ على أننا يوم القيامة نجد العمل عينه بشكل أكمل، وهذا هو تجسيد الأعمال الذي يقول به علماء الاسلام. هناك روايات كثيرة أيضاً عن أئمة الاسلام تؤكد هذا المعنى، من ذلك: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن طلب أن يعظه:

«لابد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ، وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لثيماً أسلمك، لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه، ولا تُبعث إلا معه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإنه إن كان صالحاً لم تستأنس إلا به، وإن كان فاحشاً لا تستوحش إلا منه، وهو عملك»<sup>٢</sup>.

ولإلقاء الضوء على هذا البحث لابدّ من معرفة كيفية الإثابة والعقاب على الأعمال.

### رأي العلماء في الثواب والعقاب

للعلماء آراء مختلفة في الثواب والعقاب:

١ - يعتقد بعض أنّ جزاء الأعمال، مثل الثواب والعقاب، في هذه الدنيا مسألة توافق، أي كما أنّ هناك في هذه الدنيا عقاباً على كلّ عمل سيّء أقره القانون الوضعي، كذلك وضع الله لكلّ عمل ثواباً أو عقاباً معيّنين. وهذه هي نظرة الأجر المعين والجزاء القانوني.

٢ - ثمة آخرون يعتقدون أنّ الثواب والعقاب من خلق الانسان نفسه وروحه، فالنفس الانسانية تخلق ذلك في العالم الآخر دون اختيار، أي أنّ الأعمال الحسنة والأعمال

السيئة في هذا العالم تخلق في النفس صفات حسنة أو سيئة، وهذا الصفات تصبح جزءاً متمكناً من ذات الانسان، وتبدأ هذه بإيجاد صورة تناسبها من السعادة أو العذاب. فذوو الباطن الحسن في هذا العالم يتعاملون مع مجموعة من الأفكار والتصورات الحسنة، وذوو الباطن الخبيث يشتغلون بأفكارهم الباطلة وتصوراتهم الذنبيّة في نومهم ويقظتهم.

وفي يوم القيامة تقوم هذه الصفات نفسها بخلق السكينة والعذاب أو الشقاء والسعادة. وبعبارة أخرى أنّ مانقرأه عن نعم الجنة وعذاب جهنم ليس سوى ما تخلقه هذه الصفات الحسنة أو السيئة في الانسان.

٣- فريق ثالث من كبار علماء الاسلام اتخذوا سبيلاً آخر دعموه بكثير من الآيات والأحاديث. يقول هؤلاء: إنّ لكل عمل من أعمالنا - حسناً كان أم سيئاً - صورة دنيوية هي التي نراها، وصورة أخروية كامنة في باطن ذلك العمل. وفي يوم القيامة، وبعد أن تكون قد طرأت عليه تحولات كثيرة، يفقد صورته الدنيوية ويظهر بصورته الأخروية فيبعث على راحة فاعله وسكينته، أو شقائه وعذابه.

هذه النظرة، من بين النظرات الأخرى، تتفق مع كثير من آيات القرآن، وبناءً على ذلك، فإنّ أعمال الانسان - وهي مظاهر مختلفة من الطاقة - لا تفتى بموجب قانون بقاء «المادة/الطاقة» وتبقى أبداً في هذه الدنيا، على الرغم من أنّ الناظر السطحي يظنها قد تلاشت.

إنّ بقاء هذه الأعمال بقاءً أبدياً يتيح من جهة أن يراها الانسان عند محاسبته يوم القيامة ولا يبقى له مجال للإنكار، كما يتيح للانسان من جهة أخرى أن يعيش يوم القيامة بين أعماله، فيشقى أو يسعد. وعلى الرغم من أنّ علم الانسان لم يبلغ، بعد مرحلة اكتشاف الماضي، إلاّ للحظات قليلة سابقة<sup>١</sup>، فما لا شك فيه أنه لو تمّ صنع جهاز أدقّ وأكمل، أو لو كانت لنا «رؤية» و«إدراك» أكمل لاستطعنا أن نرى وندرك كلّ ما حدث في الماضي. (ليس، هناك ما يمنع أن يكون جانب من الثواب والعقاب ذا طابع توافقي).

١ - اكتشف العلماء جهاز تصوير يعمل بالأشعة ما تحت الحمراء تستطيع أن تصوّر حدثاً لم يمس عليه أكثر من بضع لحظات، إنّ الجهاز يعمل وفق نظام حراري يجتذب الأمواج الصادرة عن الأجسام، ويحوّلها بوساطة جهاز يدعى «ثرموگرام» إلى سالب وموجب، ثم يصوّرها بالأبيض والأسود والأبيض - كما ذكرت وسائل الإعلام - وهذا يمكن أن نعرف كيفية وقوع جريمة وتصوير أعمال المجرمين السابقة ثم عرضها عليهم وكشف كذبهم.



### العلم وتجسيد الأعمال

لإثبات إمكانية تجسيد الأعمال الماضية، يمكن الاستناد إلى مبادئ الفيزياء الثابتة اليوم، فقوانين الفيزياء تقول إنّ المادة تتحوّل إلى طاقة، وذلك لأنّ «المادّة» و«الطاقة» مظهران لحقيقة واحدة، كما تقول أحدث النظريات بهذا الخصوص، وأنّ المادة طاقة متراكمة مضغوطة، تتحوّل إلى طاقة في ظروف معينة. وقد تكون الطاقة الكامنة في غرام واحد من المادّة تعادل في قوة انفجارها أكثر من ثلاثين ألف طن من الديناميت.

ملخص القول: إنّ المادّة والطاقة مظهران لحقيقة واحدة، وبالنظر لعدم فناء الطاقة والمادّة، فليس هناك ما يحول دون تراكم الطاقات المنتشرة مرة أخرى وتتخذ صورة مادّة أو جسم، فإذا كانت نتيجة الأعمال صالحة ظهرت بصورة نعم مادّية جميلة، وإذا كانت شرّاً وسيئة فإنّها تتجسّد في وسائل عذاب وعقاب.

\*\*\*

## الآيتان

- ٣١ - «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .
- ٣٢ - «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» .

## النزول

لهاتين الآيتين روايتان في سبب نزولهما: إحداهما في تفسير «مجمع البيان» والأخرى في تفسير «المنار» .

الأولى تقول: ادعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله أنهم يحبون الله، مع أنّ العمل بتعاليم الله كان أقلّ ظهوراً في أعمالهم. فنزلت هاتان الآيتان بشأنهم .

وتقول الأخرى: حضر فريق من مسيحيي نجران مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وزعموا في حديثهم أنّ مبالغتهم في تقديس المسيح عليه السلام إنّما ينطلق من حبّهم لله . فنزلت الآيتان تردان عليهم .

## التفسير

### الحب الحقيقي

تقول الآية الأولى إنّ الحب ليس بالعلاقة القلبية فحسب، بل يجب أن تظهر آثاره في عمل الانسان. إنّ من يدعي حبّ الله، فعليه أولاً اتّباع رسوله: «إن كنتم تحبون الله فاتبعوني» .

في الواقع أنّ من آثار الحب الطبيعية انجذاب المحب نحو المحبوب والاستجابة له . صحيح أنّ هناك حباً ضعيفاً لا تتجاوز أشعته جدران القلب، إلّا أنّ هذا من التفاهة بحيث لا يمكن اعتباره حبّاً. لا شك أنّ للحب الحقيقي آثاراً عملية، تربط المحب بالمحبيب وتدفعه

للسعي في تحقيق طلباته.

الدليل على ذلك واضح، فحب المرء شيئاً لا بد أن يكون بسبب عثوره على أحد الكمالات فيه. لا يمكن أن يحب الانسان مخلوقاً ليس فيه شيء من قوة الجذب، وعليه فإن حب الانسان لله ناشيء من كونه منبع جميع الكمالات وأصلها. إن محبوباً هذا شأنه لا بد أن تكون أوامره كاملة أيضاً، فكيف يمكن لإنسان يعشق الكمل المطلق أن يعصي أوامر الحبيب وتعاليمه، فإن عصي فذلك دليل على أن حبه غير حقيقي.

هذه الآية لا تقتصر في ردها على مسيحيي نجران والذين ادعوا حب الله على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، بل هذا الرد أصيل وعمّ في منطق الاسلام موجّه إلى جميع العصور والقرون. إن الذين لا يفتأون - ليلَ نهار - يتحدثون عن حبه الله ولأئمة الاسلام وللمجاهدين في سبيل الله وللصالحين والأخيار، ولكنهم لا يشبهون أولئك في العمل، هم كاذبون.

أولئك الغارقون في الذنوب من قبة الرأس حتى أخمص القدم، ومع ذلك فهم يرون أن قلوبهم مليئة بحب الله ورسوله وأمير المؤمنين والأئمة العظام، أو الذين يعتقدون أن الايمان والحب والمحبة قلبية فحسب، إنما هم غرباء على منطق الاسلام تماماً.

جاء في «معاني الأخبار» عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما أحب الله من عساه». ثم قرأ الأبيات:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه      هذا العمرك في الفعال بديع  
لو كان حبك صادقاً لأطعته      إن المحب لمن يحب مطيع

«يُحِبُّكُمْ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

تقول هذه الآية: إذا كنتم تحبّون الله، وبدت آثار ذلك في أعمالكم وحياتكم، فإن الله سيحبّكم أيضاً، وسوف تظهر آثار حبه أنه سيغفر لكم ذنوبكم، ويشملكم برحمته.

والدليل على هذا الحب المتقابل من قبل الله واضح أيضاً، لأنه سبحانه موجود كامل ولا متناه من كلّ الجهات، وسيرتبط - على أثر السنخية - بكل موجود يقطع خطوات على طريق التكامل برباط الحب.

يتبين من هذه الآية أن ليس هناك «حب من طرف واحد» لأن الحب يدفع المحب إلى أن يحقق عملياً رغبات حبيبه. وفي هذه الحالة لا يمكن للمحجوب إلا أن يرتبط بالمحب.



قد يسأل سائل: إذا كان المحب دائم الإطاعة لأوامر المحبوب، فلا يبقى له ذنب فيغفر له، ولذلك فإن جملة «ويغفر لكم ذنوبكم» ليست ذات موضوع.  
في الجواب نقول: أولاً يمكن أن تعني هذه الجملة غفران الذنوب السابقة. وثانياً أن المحب لا يستمر في عصيان المحبوب، ولكن قد يزل أحياناً بسبب طغيان الشهوات، وهذا هو الذي يغفره الله سبحانه.

### الدين والحب

جاء في كثير من الأحاديث أن أئمة الاسلام كانوا يقولون: ما الدين إلا الحب. ومن ذلك ما جاء في «الخصال» و«الكافي» عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «وهل الدين إلا الحب؟» ثم تلا هذه الآية «إذ كنتم تحبون الله فاتبعوني». هذه الأحاديث تريد أن تبين أن حقيقة الدين وروحه هي الإيمان بالله وحبّه، ذلك الإيمان والعشق اللذين يعمّ نورهما كلّ الوجود الانساني ويضيئانه، وتتأثر بها الأعضاء والجوارح، ويظهر أثرهما في اتباع أوامر الله.

### «قل أطيعوا الله والرسول»

هذه الآية تتابع حديث الآية السابقة، وتقول: مادمتم تدعون الحب لله، إذا أتبعوا أمر الله ورسوله، وإن لم تفعلوا فلستم تحبون الله، والله لا يحب هؤلاء «فإن تولّوا فإن الله لا يحب الكافرين».

ويستفاد من «أطيعوا الله والرسول» أن إطاعة الله وإطاعة رسوله لا تنفصلان، وأن إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله هي إطاعة الله، وإطاعة الله هي إطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله لذلك فالآية السابقة تحدّثت عن إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله فقط، وهنا دار الكلام على إطاعتها كليهما.

### «فإن تولّوا فإن الله لا يحب الكافرين»

فإذا عصوا ولم يعملوا حسبها تمليه أحكام الحب، فإنهم فيما يظهره من حب كاذبون، وما آمنوا بالله، وطبيعي أن الله لا يحب أمثال هؤلاء.

## الآيتان

- ٣٣ - «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ» .
- ٣٤ - «ذُرِّيَّتَهُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» .

## التفسير

في مبتدأ هذه الآية يشرع القرآن بسرد حكاية مريم وأجدادها .  
«اصطفى» من الصفو، وهو خلوص الشيء من الشوائب، ومنه «الصفاء» للحجارة الصافية . وعليه فالاصطفاء هو تناول صفو الشيء .  
تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ جَمِيعًا .  
هذا الاختيار قد يكون «تكوينياً» وقد يكون «تشريعياً» أي أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَلَقَ هَؤُلَاءِ مِنْذُ الْبَدْءِ خَلْقًا مَتَمِّيزًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْاِمْتِيَازِ مَا يَجْبِرُهُمْ عَلَى اخْتِيَارِ طَرِيقِ الْحَقِّ، بَلْ أَنَّهُمْ بِلِئْلِ اخْتِيَارِهِمْ وَحَرِّيَّةِ إِرَادَتِهِمْ اخْتَارُوهُ . غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ التَّمْيِيزَ أَعَدَّهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَدَايَةِ الْبَشَرِ ثُمَّ عَلَى أَثَرِ إِطَاعَتِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ، وَالتَّقْوَى وَالسَّعْيِ فِي سَبِيلِ هَدَايَةِ النَّاسِ نَالُوا نَوْعًا مِنَ التَّمْيِيزِ الْاِكْتِسَابِيِّ، الَّذِي اِمْتَرَجَ بِتَمْيِيزِهِمُ الذَّاتِي، كَانَوْنَا مِنَ الْمُصْطَفِينَ .

## تمييز الأنبياء

هنا يبرز هذا السؤال: على الرغم من أَنَّ هَذَا التَّمْيِيزَ لَمْ يَجْبِرِ الْأَنْبِيَاءَ عَلَى السَّرِّ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ، وَأَنَّهُ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ حَرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ وَالْاِخْتِيَارِ، وَلَكِنْ أَلَا يَعْتَبَرُ نَوْعًا مِنَ التَّمْيِيزِ؟  
في الجواب نقول: إِنَّ خَلْقًا مَصْحُوبًا بِنِظَامِ سَلِيمٍ يَسْتَتِيعُ بِالضَّرُورَةِ مِثْلَ هَذَا التَّمْيِيزِ، فَتَأَمَّلْ جِسْمَ الْاِنْسَانِ - مِثْلًا - مَخْلُوقَ مَنْظَّمٍ، وَلِلْحِفَافِ عَلَى هَذَا التَّنْظِيمِ لِابْتَدَاءِ مِنَ الْاِعْتِرَافِ بِالتَّمْيِيزِ بَيْنَ عَضْوٍ وَعَضْوٍ، إِذْ لَوْ كَانَتْ جَمِيعُ الْخَلَايَا فِي جِسْمِ الْاِنْسَانِ تَشْبِهُ فِي لَطَافَتِهَا خَلَايَا شَبَكِيَّةِ الْعَيْنِ، أَوْ تَشْبِهُ فِي صَلَابَتِهَا وَقُوَّتِهَا خَلَايَا عِظَامِ السَّاقِ، أَوْ تَشْبِهُ خَلَايَا

الدماغ في حساسيتها، أو تشبه خلايا القلب في حركتها، لاختلّ حتماً نظام الجسم. إذ لا بد من وجود خلايا مثل خلايا الدماغ لكي تتولّى إدارة سائر أعضاء الجسم وعضلاته، وخلايا العظام المتينة لتحفظ استقامة الجسم وخلايا الأعصاب الحساسة لتتسلّم أبسط الإيعازات، والخلايا المتحرّكة لتخلق الحركة في الجسم.

ما من أحديستطيع أن يقول لماذا ليس الجسم كلّه دماغاً؟ أو في النباتات، لماذا لا تكون الخلايا كلّها بلطفة خلايا أوراق الورد؟ إنّ حالة كهذه ستهدم بناء النبات وتعرضه للفناء.

النقطة المهمّة هي أنّ هذا التميّز الذاتي الضروري لإيجاد بناء منظم ليس بسيطاً، بل هو مصحوب بمسؤولية عظيمة هذا «الامتياز»، وهذه المسؤولية الثقيلة نفسها تحفظ توازن كفتي ميزان الخلق. أي أن نسبة تميّز الأنبياء على سائر البشر تتناسب مع أهميّة المسؤولية التي يضطلعون بها. كما أنّ الاختلاف في تميّز الآخرين يتناسب مع مسؤولياتهم.

فضلاً عن ذلك فإنّ التميّز الذاتي لا يكفي للاقتراب من الله، بل لا بدّ معه من التميّز المكتسب.

في الآية بعض النقاط ينبغي ذكرها:

١ - ليست الآية بصدد ذكر جميع الذين اصطفاهم الله، بل تعدّد بعضاً منهم، فإذا لم يكن بعض الأنبياء من بين هؤلاء، فلا يعني ذلك أنهم ليسوا مصطفين. ثم إنّ «آل ابراهيم» يشمل موسى بن عمران ونبيّ الاسلام والمصطفين من أهل أيضاً لأنهم جمعاً من «آل ابراهيم».

٢ - يقول «الراغب» في كتابه «المفردات» إنّ «الآل» مقلوب عن «الأهل»، ولكنّه خصّ بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة. وهو يضاف إلى الأشرف. ولكن «الأهل» يضاف إلى الكل، كالزمان والمكان وغير ذلك، فيقال: أهل المدينة الفلانية، ولكن لا يقال: آل المدينة الفلانية.

٣ - غتّي عن القول أنّ اصطفاء آل ابراهيم وآل عمران لا يعني اصطفاء جميع أبناء ابراهيم وعمران، إذ يحتمل أن يكون بينهم حتى من الكفّار. إنّما المقصود هو «بعض» من آل ابراهيم وآل عمران.

٤ - «عمران» في هذه الآية هو أبو مريم، لا أبو موسى، إذ كلّما ورد في القرآن اسم عمران كان المعنى به هو أبو مريم، كما يستدل على ذلك أيضاً من الآيات التالية التي تخصّ شرح حال مريم.

٥ - في الأحاديث العديدة عن أهل البيت عليهم السلام اعتبرت هذه الآية دليلاً على عصمة الأنبياء والأئمة، وذلك لأنّ الله لا يمكن أن يصطفي المذنبين الملوّثين بالشرك والكفر والفسق. بل لا بدّ أن يقع اختياره على المطهرين المعصومين. (يستدلّ كذلك من الآية أنّ هناك مراتب للعصمة).



٦ - يستدلّ بعض الكتاب المحدثين بهذه الآية على نظرية النشو والارتقاء، معتقدين أنّ الآية تدلّ على أنّ «آدم» لم يكن هو الانسان الأوّل، بل كان هناك أناس كثيرون فاصطفى الله من بينهم آدم الذي خلّف نسلًا متميزًا من أبنائه، وأنّ تعبير «على العالمين» دليل على ذلك. يقول هؤلاء: كان في عصر آدم «عالمون» أي مجتمع انساني، ولذلك فليس ثمة ما يمنع من أن يكون الانسان الأوّل - الذي وجد قبل ذلك بملايين السنين - قد نشأ وتطوّر من حيوانات أخرى متطوّرة، ويكون «آدم» وحده الذي اصطفاه الله.

ولكن في مقابل هذا الرأي يمكن القول أن ليس هناك أيّ دليل على أنّ «عالمين» هم أناس عاصروا آدم، بل قد يكون القصد هو مجموع المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ. وعلى هذا يكون معنى الآية: إنّ الله اصطفى من بين جميع المجتمعات البشرية على امتداد التاريخ أفراداً كان أوّلهم آدم، فنوحاً، فآل إبراهيم، فآل عمران. وبما أنّ كلّ واحد من هؤلاء كان يعيش في عصر غير عصر الآخر نفهم من ذلك أنّ القصد من «عالمين» هو البشر عموماً على اختلاف عصورهم وأزمانهم. لذلك ليس ثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأنّ آدم كان يعاصره أناس آخرون فاصطفاه الله من بينهم، فتأمل.

### «ذرية بعضها من بعض»

«الذرية» أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في المتعارف. والكلمة من «الذرع»، يقال: ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم. تشير هذه الآية إلى أنّ هؤلاء المصطفين كانوا - من حيث الاسلام والطهارة والتقوى والجهاد في سبيل هداية البشر - متشابهين، بمثل تشابه نسخ عدة من كتاب واحد، يقتبس كلّ من الآخر: «بعضها من بعض».

### «والله سميعٌ علم»

في النهاية تشير الآية إلى حقيقة أنّ الله كان يراقب مساعيهم ونشاطهم، ويسمع أقوالهم، ويعلم أعمالهم. وفي هذا إشارة أيضاً إلى مسؤوليات المصطفين الثقيلة نحو الله ومخلوفات الله. في هذه الآية إشارة إلى جميع الأنبياء من أولي العزم، فبعدنوح الذي صرح باسمه، يأتي آل إبراهيم الذين يضمّنون نوحاً نفسه وموسى وعيسى ونبي الاسلام. وذكر آل عمران تكرر للإشارة إلى السيّد مريم والمسيح، بالنظر لكون هذه الآية مقدّمة لبيان حالها.

## الآيتان

٣٥ - «إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»<sup>١</sup>.  
٣٦ - «فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدهَا بِكَ وَذَرَّيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

## التفسير

### كيفية ولادة مريم

تعقيباً على ما جاء في الآية السابقة من إشارة إلى آل عمران، تشرع هاتان الآيتان بالكلام على مريم بنت عمران وكيفية ولادتها وتربيتها وما جرى لهذه السيدة العظيمة. جاء في التواريخ والأخبار الاسلامية وأقوال المفسرين أنّ «حنة» و«اشيع» كانتا أختين. تزوجت الأولى «عمران»<sup>١</sup> أحد زعماء بني إسرائيل، وتزوجت الأخرى «زكريا» النبي.

مضت سنوات على زواج «حنة» بغير أن ترزق مولوداً. وفي أحد الأيام بينما هي جالسة تحت شجرة، رأت طائراً مع فراخه يطعمون. فأشعل مشهد حنان الأم نار حب الأمومة في قلبها، فتوجهت إلى الله بمجامع قلبها طالبةً منه أن يرزقها مولوداً، فاستجاب الله دعاءها الخالص ولم تمض مدة طويلة حتى حملت.

ورد في الأحاديث أنّ الله قد أوحى إلى «عمران» أنّه سيبه ولدًا مباركاً يشفي المرضى الميؤوس من شفائهم، ويحيي الموتى بإذن الله، وسوف يرسله نبياً إلى بني إسرائيل. فأخبر عمران زوجته «حنة» بذلك. لذلك عندما حملت ظنّت أنّ ما تحمله في بطنها هو الابن

١ - يفيد بعض الأحاديث أنّ عمران كان نبياً ويوحى إليه. وعمران هذا غير عمران والد

موسى، إذ بينها ١٨٠٠ سنة من الزمان.

الموعود، دون أن تعلم أنّ ما في بطنها أمّ الابن الموعود «مريم» فنذرت ما في بطنها للخدمة في بيت الله «بيت المقدس». ولكنها إذ رأتها أنثى ارتبكت ولم تدر ما تعمل، إذ أنّ الخدمة في بيت الله كانت مقصورة على الذكور، ولم يسبق أن خدمت فيه أنثى.

والآن نباشر بالتفسير ومن خلاله نتعرّف على تتمة الأحداث:

### «إذ قالت امرأة عمران...»

هذه إشارة إلى النذر الذي نذرتة امرأة عمران وهي حامل بأنّها تهب ابنها خادماً في بيت المقدس، لأنّها كانت تظنه ذكراً، بموجب البشارة التي أتاها بها زوجها، ولذلك قالت «محرراً» ولم تقل «محررة» ودعت الله أن يتقبل نذرها: «فتقبل مني إنك أنت السميع العليم». «المحرر» من التحرير، وكانت تطلق في ذلك الزمان على الأبناء المعيّنين للخدمة في المعبد ليتولّوا تنظيفه وخدماته، وليؤدّوا عباداتهم فيه وقت فراغهم. ولذلك سمي الواحد منهم «المحرر»، إذ هو محرر من خدمة الأيوين، وكان ذلك مدعاة لافتخارهم.

قيل إنّ الصبيان القادرين على هذه الخدمة كانوا يقومون بها بإشراف الأيوين إلى سنّ البلوغ، ومن ثمّ كان الأمر يوكل إليهم، إن شاءوا بقوا، وإن شاءوا تركوا الخدمة.

### «فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى»

هذه الآية تشرح حال أمّ مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد أنثى، وراحت تخاطب الله قائلة: إنها أنثى، وأنت تعلم أنّ الذكر ليس كالأنثى في تحقيق النذر، فالأنثى لا تستطيع أن تؤدّي واجبها في الخدمة كما يفعل الذكر.

### «وليس الذكر كالأنثى»

يظهر من القرائن في الآية والأحاديث الواردة في التفسير أنّ هذا القول «وليس الذكر كالأنثى» قول أمّ مريم، لا قول الله. ولكن كان ينبغي أن تقول «وليس الأنثى كالذكر» باعتبارها قد ولدت أنثى لا ذكراً. لذلك يمكن أن يكون في الجملة تقديم وتأخير، كما نلاحظه في كلام العرب وغير العرب. ولعلّ ما انتابها من الكدر والحزن لوضعها أنثى جعلها تنطق بهذا الشكل، إذ كانت شديدة الاعتقاد بأنّ ماستلده ذكر وأنّها ستفي بنذرها في جعله خادماً في بيت المقدس. وهذا الاعتقاد والتوقع جعلها تقدّم الذكر على الأنثى، على



الرغم من أن أصول تركيب الجمل وجنس المولود يقتضيان تقديم الأنثى.  
والجملة المعترضة «والله أعلم بما وضعت» من قول الله. أي لم يكن يلزم أن تقول إنها  
ولدت أنثى، لأن الله كان أعلم منها بمولودها منذ انعقاد نطفته وتعاقب مراحل تصوّره في  
الرحم.

«وإني سمّيتها مريم...»

يتّضح من هذه الجملة أنّ أم مريم هي التي سمّتها بهذا الاسم عند ولادتها.  
و«مريم» بلغتني «العابدة». وفي هذا يظهر منتهى اشتياق هذه الأمّ الطاهرة لوقف ليدها  
على خدمة الله. لذلك طلبت من الله - بعد أن سمّتها - أن يحفظها ونسلها من وسوسة  
الشياطين، وأن يرعاهم بحمايته ولطفه «وإني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم».

## الآية

٣٧ - «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّنِي لَكَ هَذَا قَالَتَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

## التفسير

تواصل هذه الآية سرد حكاية مريم. لقد أشرنا من قبل أن أم مريم لم تكن تصدق امكان قبول الأنثى خادمة في بيت الله، لذلك كانت تتمنى أن تلد مولوداً ذكراً، إذ لم يسبق أن اختيرت أنثى لهذا العمل. ولكن الآية تقول إن الله قد قبل قيام هذه الأنثى الطاهرة بهذه الخدمة الروحية والمعنوية، لأول مرة.

يقول بعض المفسرين: إن دليل قبولها لهذه الخدمة أنها لم تكن ترى العادة الشهرية أثناء خدمتها في بيت المقدس لكي لا تضطر إلى ترك الخدمة، وقد يكون قبول النذر وقبول مريم قد أبلغ للأُم عن طريق الإلهام.

واستعمال «الإنبات» إشارة إلى تكامل مريم أخلاقياً وروحياً. كما أنه يتضمن نكتة لطيفة هي أن عمل الله هو «الإنبات» والإتمام. أي كما أن بذور النباتات تنطوي على استعدادات كامنة تظهر وتنمو عندما يتعهد المزارع، كذلك توجد في الإنسان كل أنواع الاستعدادات السامية الانسانية التي تنمو وتتكامل بسرعة أن خفضت لمنهج المرئين الإلهيين ولمزارعي بستان الانسانية الكبير، ويتحقق الإنبات بمعناه الحقيقي.

## «وكفَّلها زَكَرِيَّا»

«الكفالة» ضم شيء إلى آخر. لذلك يطلق على من يلتزم رعاية شؤون أحد الأطفال اسم «الكافل» أو «الكفيل»، أي أنه يضم الطفل إليه. إذا استعملت الكلمة ثلاثية مجردة كانت فعلاً لازماً، وتعدى بنقلها إلى باب الثلاثي المزيد «كفل» أي انتخاب

الكفيل لشخص آخر.

في هذه الآية يقول القرآن: اختار الله زكريا كمي يتكفل مريم، إذ أن أباهما عمران قد ودع الحياة قبل ولادتها، فجاءت بها أمها إلى بيت المقدس وقدمتها لعلماء اليهود وقالت: هذه البنت هدية لبيت المقدس، فليتعهدوا أحدهم. فكثر الكلام بين علماء اليهود، وكان كل منهم يريد أن يحظى بهذا الفخر، وفي احتفال خاص - سيأتي شرحه في تفسير الآية ٤٤ من هذه السورة - اختير زكريا ليكفلها.

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً»

«المحراب» هو الموضع الذي يخصص في المعبد لإمام المعبد أو لأفراد من النخبة. وقيل: إن المحراب سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والأهواء. وقيل: إن المحراب صدر المجلس، ثم أطلق أيضاً على صدر المعبد. (كان بناء المحراب عند اليهود يختلف عن بنائه عندنا، فأولئك كانوا يبنون المحراب مرتفعاً عن سطح الأرض بعدة درجات بين حائطين مرتفعين يحفظانه، بحيث كانت تصعب رؤية من بداخل المحراب من الخارج).

كبرت مريم تحت رعاية زكريا، وكانت غارقة في العبادة والتعبّد. بحيث إنها - كما يقول ابن عباس - عندما بلغت التاسعة من عمرها كانت تصوم النهار وتقوم الليل بالعبادة، وكانت على درجة كبيرة من التقوى ومعرفة الله حتى أنها فاقت الأحبار والعلماء في زمانها. وعندما كان زكريا يزورها في المحراب يجد عندها طعاماً خاصاً، فيأخذه العجب من ذلك. سأها يوماً: «يا مريم أتى لك هذا». فقالت: «هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب».

الآية لا تذكر شيئاً عن ماهية هذا الطعام ومن أين جاء، لكن بعض الأحاديث الواردة في تفسير العياشي وغيره من كتب الشيعة والسنة تفيد أنه كان فاكهة من الجنة في غير فصلها تحضر بأمر الله إلى المحراب. وليس ما يدعو إلى العجب في أن يستضيف الله عبداً تقياً. كما أن اعتبار «الرزق» طعاماً من الجنة يتبين من القرائن التي نراها في ثنايا الآية. فأولاً كلمة «رزقاً» النكرة دليل على أن زكريا لم يعرف نوع هذا الرزق. وثانياً جواب مريم التي قالت «من عند الله» دليل آخر. وثالثاً انفعال زكريا وطلبه ولدًا من الله - كما نقرأ في



الآية التالية - دليل ثالث على ذلك .

يَبْدُ أَنْ بعض المفسرين - مثل صاحب المنار - يرون أنّ «رزقاً» تعني هذا الطعام الدنيويّ المألوف. يقول ابن جرير: إنّ قحطاً أصاب بني اسرائيل يوماً، ولم يعرف زكريّا قادراً على سدّ جوعه مريم. لذلك اقترعوا فكانت من نصيب رجل نجار، فأخذ هذا يقتطع من كسبه الطيب الحلال لهيئة الطعام لها، فكان هذا هو الطعام الذي يراه زكريّا في محرابها ويعجب من وجوده في تلك الظروف الصعبة. وكان جواب مريم يعني أنّ الله قد سخّر لي مؤمناً فأحبّ القيام بهذه الخدمة الشاقة.

ولكن - كما قلنا - هذا التفسير لا يتسق مع القران الموجودة في الآية، ولا مع الأحاديث الواردة في تفسيرها، ومنها ماورد في تفسير العياشي عن الامام الباقر عليه السلام ما ملخصه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل يوماً على ابنته فاطمة عليها السلام وهو يعلم أنّها لم تكن تملك طعاماً يذكر منذ أيام، فوجد عندها طعاماً وافراً خاصاً، فسألها عنه، فقالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلّي عليه السلام: ألا أحدثك بمثلك ومثلها؟ قال: بلى، قال: مثل زكريّا إذ دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقاً، قال: يا مريم أتني لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب...<sup>١</sup>.

وفيما يتعلّق بعبارة «بغير حساب» فقد شرحنا ذلك في تفسير الآية ٢٠٢ من سورة البقرة، والآية ٢٧ من هذه السورة.

\*\*\*

## الآيات

- ٣٨ - «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ».
- ٣٩ - «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ».
- ٤٠ - «قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنُّ لِي غَلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

## التفسير

قلنا إن زوجة زكريا وأم مريم كانتا أختين، وكانتا عاقرين، وعندما رزقت أم مريم بلطف من الله هذه الذرية الصالحة، ورأى زكريا خصائصها العجيبة، تمتنى أن يرزق هو أيضاً ذرية صالحة وطاهرة وتقيّة مثل مريم، بحيث تكون آية على عظمة الله وتوحيده. وعلى الرغم من كبر سن زكريا وزوجته، وبُعدهما من الناحية الطبيعية عن أن يرزقا طفلاً، فإن حب الله ومشاهدة الفواكه الطرية في غير وقتها في محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملاً بإمكان حصوله في فصل شيخوخته على ثمرة الأبوة، لذلك راح يتصرّع إلى الله «قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء».

## «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب»

لم يمتد وقت طويل حتى أجاب الله دعاء زكريا، وفيما كان يعبد الله في محرابه، نادته ملائكة الله وقالت له إن الله يبشرك بمولود اسمه يحيى يمتاز بالصفات التالية:

أولاً: سوف يؤمن بالمسيح ويشد أزره بهذا الايمان: «مصدقاً بكلمة من الله».

و«كلمة الله»: هنا وفي مواضع أخرى من القرآن سيرد شرحها - تعني المسيح عليه السلام. وقد جاء في التاريخ أن يحيى كان يكبر عيسى بستة أشهر، وكان أول من آمن به. وإذا كان قد

اشتهر بين الناس بالطهر والزهد، فقد كان لإيمانه هذا بالمسيح تأثير كبير على الناس، في توجيههم وحثهم على الإيمان به.  
وثانياً: سيكون من حيث العلم والعمل قائداً للناس «وسيداً»، كما أنه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة وعن التلوث بحب الدنيا.

### «وحصوراً»

«الحصور» من الحصر، أي الذي يضع نفسه موضع المحاصرة، أو الذي يمتنع عن الزواج، وإلى هذا ذهب بعض المفسرين، كما أشير إليه في بعض الأحاديث. ومن مميزاتة أيضاً أنه سيكون من الأنبياء والصالحين.

### هل العزوبة فضيلة؟

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: إذا كان «الحصر» هو العزوف عن الزواج، فهل هذا محمّدة يمتاز بها الانسان، بحيث يوصف بها بحبلى؟  
في الجواب نقول: ليس هناك ما يدل على أنّ «الحصر» المذكور في الآية يقصد به العزوف عن الزواج، فالحديث المنقول بهذا الخصوص ليس موثقاً به من حيث أسانيدِهِ. فلا يُستبعد أن يكون المعنى هو العزوف عن الشهوات والأهواء وحب الدنيا، وفي صفات الزاهدين.

ثانياً من المحتمل أن يكون يحبلى - مثل عيسى - قد عاش في ظروف خاصة اضطرتّه إلى الترحال من أجل تبليغ رسالته، فاضطرّ إلى حياة العزوبة. وهذا لا يمكن أن يكون قانوناً عاماً للناس. فاذا مدحه الله لهذه الصفة فذلك لأنه تحت ضغط ظروفه عزف عن الزواج، ولكنّه استطاع في الوقت نفسه أن يحصن نفسه من الزلل وأن يحافظ على طهارته من التلوث. إنّ قانون الزواج قانون فطري، فلا يمكن في أيّ دين أن يشرع قانون ضده. وعليه فالعزوبة ليست صفة محمودة، لا في الاسلام ولا في الأديان الأخرى.

### يحبلى وعيسى

«يحبلى» من الحياة وتعني البقاء حياً، وقد اختيرت هذه الكلمة اسماً لهذا النبي العظيم، والمقصود بالحياة هنا هي الحياة المادية والحياة المعنوية في نور الإيمان ومقام النبوة



والارتباط بالله. هذا الاسم قد اختاره الله له قبل أن يولد، كما جاء في الآية ٧ من سورة مريم «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً» ومن هذا يتبين أيضاً أنّ أحداً لم يسبق أن سمي بهذا الاسم.

قلنا فيما سبق أنّ زكرياً طلب من ربّه الذرية بعد أن شاهد ما نالته مريم من عطاء معنوي سريع. وعلى أثر ذلك وهب الله له ولداً شبيهاً بعيسى بن مريم في كثير من الصفات: في النبوة وهما صغيران، وفي معنى اسميهما (عيسى ويحيى كلاهما بمعنى البقاء حيّاً)، وفي سلام الله عليهما في المراحل الثلاث: الولادة، والموت، والحشر.

«قال رب أنى يكون لي غلام...»

استولى العجب على زكرياً لدى سماعه ما بشرته به الملائكة، فقال لله: كيف يمكن أن يولد لي ولد وأنا في هذا السنّ من الشيخوخة، ثم إنّ زوجتي عاقراً لا تلد. فجاءه الجواب: إنّ الله يفعل ما يشاء بهذا الشكل.

في هذه الآية يصف زكرياً شيخوخته بقوله «وقد بلغني الكبر» ولكنه في الآية ٩ من سورة مريم يقول «وقد بلغت من الكبر عتياً». فالعبرة الأولى تعني أنّ الكبر قد وصلني والثانية تعني أنّي وصلت الكبر، ولعلّ هذا الاختلاف في التعبير يعود إلى أنّ الانسان - كلّما تقدّم نحو الكبر - يتقدّم الكبر والموت نحوه أيضاً. كما قال عليّ عليه السلام «إذا كنت في إدبار والموت في إقبال فما أسرع الملتقى»<sup>١</sup>.

«الغلام» الفتى الذي طرّ شاربه. و«عاقراً» من عقر الشيء: أصله، أو بمعنى الحبس. ووصف المرأة التي لا تلد بأنّها عاقرة يعني أنّها وصلت إلى عقرها وانتهت، أو أنّها حبست عن الولادة.

وقد يسأل. سائل: لماذا استولى العجب على زكرياً مع أنّه عالم بقدره الله التي لا تنتهي؟

يتّضح الجواب بالرجوع إلى الآيات الأخرى. كان يريد أن يعرف كيف يمكن لامرأة عاقرة خلفت وراءها سنوات عديدة بعد سنة اليأس - أن تحمل وتلد؟ ما الذي يتغيّر فيها؟ أترجع إليها العادة الشهرية كسائر النساء المتوسّطات العمر؟ أم أنّها ستحمل بصورة

أخرى؟

ثم إنَّ الإيمان بقدره الله غير الشهود والمشاهدة. زكرياً كان يريد أن يبلغ إيمانه مبلغ الشهود، مثل إبراهيم الذي كان مؤمناً بالمعاد، ولكنه طلب المشاهدة. كان يريد أن يصل إلى هذه المرحلة من الإيمان. وأنه لأمر طبيعي أن يفكر الانسان، إذا ما صادفه أمر خارق للقوانين الطبيعية في كيفية حصول ذلك، ويودّ لو آتته رأى دليلاً حسيّاً على ذلك.

\*\*\*

## الآية

٤١ - «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ».

## التفسير

يطلب زكرياً من الله اشارة على بشارته بمجيء يحيى . إن إظهار دهشته - كما قلنا - وكذلك طلب علامة من الله، لا يعينان أبداً أنه لا يثق بوعد الله، خاصة وأن ذلك الوعد قد تؤكد بقوله: «كذلك الله يفعل ما يشاء». إنما كان يريد زكرياً أن يتحول إيمانه بهذا إيماناً شهودياً. كان يريد أن يتليء قلبه بالاطمئنان، كما كان إبراهيم يبحث عن اطمئنان القلب وأهدوء الناشئين عن الشهود الحسي .

«قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً»

«الرمز» إشارة بالشفة، والصوت الخفي. ثم اتسع المعنى في الحوار العادي، فأطلق على كل كلام وإشارة غير صريحة إلى أمر من الأمور.

أجاب الله طلب زكرياً هذا أيضاً، وعين له علامة، وهي أن لسانه كفت عن الكلام مدة ثلاثة أيام، بغير أي نقص طبيعي، فلم يكن قادراً على المجاداة العادية. ولكن لسانه كان ينطلق إذا ما شرع يسبح الله ويذكره. هذه الحالة العجيبة كانت علامة على قدرة الله على كل شيء. فالله القادر على فك لجام اللسان عند المباشرة بذكره، قادر على أن يفك عقم رحم امرأة فيخرج منه ولداً مؤمناً هو مظهر ذكر الله. وهكذا تتضح العلاقة بين هذه العلامة وما كان يريده زكرياً.

هذا المضمون يرد في الآيات الأولى من سورة مريم أيضاً.

وفي الوقت نفسه يمكن أن تحمل هذه العلامة معنى آخر في طياتها، وهو أن إلحاح زكرياً على طلب العلامة والآية - وإن لم يكن أمراً محرمًا ولا مكروهاً - كان من نوع «ترك



الأولى». لذلك قرّر له علامة، إضافة إلى ما فيها من بيان لقدرة الله، طافحة بالإشارة إلى تركه، للأولى.

يتبادر هنا للذهن سؤال: أيتسق بكم نبيّ مع مقام النبوة وواجب الدعوة والتبليغ؟

ليس من الصعب الإجابة على هذا السؤال، إذ أنّ هذه الحالة لا تتّسق مع مقام النبوة عند استمرارها مدّة طويلة. أمّا حدوثها لفترة قصيرة يستطيع النبيّ خلالها اعتزال الناس والتوجّه إلى عبادة الله، فلامانع فيه، كما أنّه خلال هذه المدة يستطيع أن يخاطب الناس بالإيماء في الأمور الضرورية، أو بتلاوة آيات الله، التي تعتبر ذكراً لله، وتبليغاً للرسالة الإلهية. وهذا ما قام به فعلاً، إذ كان يدعو الناس إلى ذكر الله بالإشارة.

«واذ كررتك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار»

«العشي» تطلق عادة على أوائل ساعات الليل، كما يقال «الإبكار» للساعات الأولى من النهار. وقيل إنّ «العشي» هو من زوال الشمس حتى غروبها، و«الإبكار» من طلوع الفجر حتى الظهر.

والراغب الاصفهاني يقول في «المفردات»: إنّ «العشي» من زوال الشمس حتى الصباح، و«الإبكار» أوائل النهار.

وفي الآية يأمر الله زكريّا بالتسبيح. إنّ هذا التسبيح والذكر على لسان لا ينطق موقّناً دليل على قدرة الله على فتح المغلق، وكذلك هو أداء لفريضة الشكر لله الذي أنعم عليه بهذه النعمة الكبرى.

من الآيات الأولى لسورة مريم يستفاد أنّ زكريّا لم ينفذ هذا البرنامج وحده، بل طلب من الناس إيماءً أن يسبحوا الله صباح مساء شكراً على ما أنعم عليهم من موهبة ترتبط بمصير مجتمعتهم ومن قائد كفوء مثل يحيى. وأضحت هذه الأيام أيام شكر وتسبيح عام.

## الآيات

- ٤٢ - «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ  
عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ».
- ٤٣ - «يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ».

## التفسير

بعد الاشارات العابرة إلى مريم في الآيات السابقة التي دارت حول عمران وزوجته،  
هذه الآية تتحدث بالتفصيل عن مريم.

تقول الآية إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا يَكْلَمُونَ مَرْيَمَ: «وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ...».

وهذا يدل على إمكان تكلم الملائكة مع الناس، لا الأنبياء وحدهم، ويشير أيضاً  
إلى علو مقام مريم.

يبشّرها الملائكة أَنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَهَا وَطَهَّرَهَا، أي أنها أصبحت من المصطفين  
الأطهار على أثر تقواها وإيمانها وعبادتها. لقد اصطفاها الله لتكون أمّاً لنبِيِّ مثل عيسى عليه  
السلام.

## «واصطفاكِ على نساء العالمين»

هذا تكرار لما سبق وتوكيد على أَنَّ اللَّهَ اصطفاها من بين جميع نساء العالم فهي  
فُضِّلَتْ.

الجملة الأولى كانت إشارة إلى الصفات الانسانية السامية في مريم، فهي إنسان قد  
اصطفاه الله. وفي الجملة الثانية تتكرر لفظة «اصطفاكِ» إشارة إلى أفضليتها على سائر نساء  
العالم المعاصرة لها.

هذا يعني أَنَّ مريم كانت أعظم نساء زمانها، وهو لا يتعارض مع كون سيّدة الاسلام  
فاطمة الزهراء عليها السلام سيّدة نساء العالمين، فقد جاء في أحاديث متعدّدة عن رسول الله

صلى الله عليه وآله والإمام الصادق عليه السلام قولها:  
 «أما مريم فكانت سيّدة نساء زمانها. أما فاطمة فهي سيّدة نساء العالمين من الأولين  
 والآخرين»<sup>١</sup>.

كما أنّ كلمة «العالمين» لا تتعارض مع هذا الكلام أيضاً، فقد وردت هذه الكلمة  
 في القرآن وفي الكلام العام بمعنى الناس الذين يعيشون في عصر واحد، كما جاء بشأن  
 بني إسرائيل «وإني فضلتكم على العالمين»<sup>٢</sup>. فلا شك أنّ تفضيل مؤمني بني إسرائيل كان على  
 أهل زمانهم.

### «يا مريم اقنتي لربك»

هذه الآية تكلمة لكلام الملائكة مع مريم. فبعد أن بشرها بأنّ الله قد اصطفاها، قالوا  
 لها: الآن اشكري الله بالركوع والسجود والخضوع له اعترافاً بهذه النعمة العظمى.  
 نلاحظ هنا أنّ الملائكة يصدرون إلى مريم ثلاثة أوامر:  
 الأول: القنوت أمام الله. والكلمة - كما سبق أن قلنا - تعني الخضوع ودوام الطاعة.  
 والثاني: السجود، الذي هو أيضاً دليل الخضوع الكامل أمام الله.  
 والثالث: الركوع، وهو أيضاً خضوع وتواضع.  
 أمّا القول: «واركعي مع الراكعين» فقد يكون إشارة إلى صلاة الجماعة، أو طلب  
 التحاقها بجموع المصلين الراكعين أمام الله. أي اركعي مع عباد الله المخلصين الذين يركعون لله.  
 في هذه الآية، الإشارة إلى السجود تسبق الإشارة إلى الركوع، وليس معنى هذا أنّ  
 سجودهم قبل ركوعهم في صلاتهم، بل المقصود هو أداء العبادتين دون أن يكون القصد ذكر  
 ترتيبهما، كما لو كنّا نطلب من أحدهم أن يصلي، وأن يتوضأ، وأن يتطهر، إذ يكون قصدنا أن  
 يقوم بكلّ هذه الأمور. إنّ العطف بالواو لا يقتضي الترتيب. ثم إنّ الركوع والسجود أصلاً  
 بمعنى التواضع والخضوع، وما حركتنا الركوع والسجود المألوفان سوى بعض مصاديق ذلك.

\*\*\*

١ - نور الثقلين: ج ١ ص ٣٣٦، والبحار: ج ١٠ ص ٢٤.

٢ - البقرة: ٤٧.



## الآية

٤٤ - «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ».

## التفسير

سبق أن قلنا إن أمّ مريم بعد أن وضعتها لفتها في قطعة قماش وأتت بها إلى المعبد وخطبت علماء بني إسرائيل وأشرفهم بقولها: هذه المولودة قد نذرت لخدمة بيت الله، فليتعهد أحدكم بتربيتها. ولما كانت مريم من أسرة معروفة «آل عمران»، أخذ علماء بني إسرائيل يتنافسون في الفوز بتعهد تربيتها. وأخيراً اتفقوا على إجراء القرعة بينهم، فجاءوا إلى شاطئ نهر وأنحسروا معهم أقلامهم وعصيتهم التي كانوا يقتربون بها. كتب كل واحد منهم اسمه على قلم من الأقلام، وألقوها في الماء، فكل قلم غطس في الماء خسر صاحبه، والرابح يكون من يطفو قلمه على الماء. غطس القلم الذي كتب عليه اسم زكريا، ثم عاد وطفأ على سطحه، وبذلك أصبحت مريم في كفالته، وقد كان في الحقيقة أجددهم بذلك، فهو نبيٌّ وزوج خالة مريم.

هذه الآية تشير إلى جانب من هذه القصة، وتقول إن ما قصصناه عليك من أمر مريم إنما هو من أخبار الغيب، لأن الحكاية بهذا الشكل الخالي من التحريف والتزييف لم ترد في أي كتاب من كتب السابقين، إنما سندها الوحي السماوي فقط «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك».

ثم تقول: إنك لم تكن حاضراً عندما ألقوا أقلامهم في الماء ليقتربوا على من يتكفل مريم «ما كنت لديهم إذ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ» إنما جاءك خبر ذلك عن طريق الوحي.

## الاقتراع الحَلِّ الأخير

يستفاد من هذه الآية والآيات الأخرى الخاصة بيونس في سورة الصافات أن من

الممكن اللجوء إلى القرعة لحلّ النزاع والخصام الذي يصل إلى طريق مسدود بحيث لا يكون هناك أيّ حلّ مقبول من أطراف النزاع. هذه الآية بالإضافة إلى الأحاديث الواردة عن أنمة الاسلام كانت سبباً في اعتبار القرعة قاعدة فقهية يجري بحثها في الكتب الاسلامية. ولكن شرط الإلتجاء إلى القرعة هو الوصول إلى طريق مسدود تماماً، كما قلنا. لذلك إذا كان من الممكن العثور على طريق حلّ مشكلة ما فلا يجوز اللجوء إلى القرعة.

ليس للاقتراع طريقة خاصة في الاسلام، فيجوز اتّخاذ العصي، أو الحصى، أو الورق وغير ذلك وسيلة له، على أن لا يكون فيه أيّ تواطؤ.

من الواضح أنّ الاسلام لا يجيز الريح والخسارة عن طريق القرعة، لأنّ الريح والخسارة ليسا من المشاكل التي يستعصي حلّها ليلجأ فيها إلى القرعة. لذلك فالريح الناشئ عن القرعة غير مشروع في الاسلام.

لابدّ من الإشارة أيضاً إلى أنّ القرعة لا تقتصر على حلّ المنازعات والاختلافات بين الناس، بل يمكن بها حلّ المشاكل المستعصية الأخرى أيضاً. فمثلاً، كما جاء في الأحاديث: إذا اتّصل شخص شاذّ بشاة اتّصلاً جنسياً، ثم أطلقها بين الغنم بحيث لا يمكن التعرف عليها، فيجب عندئذٍ إخراج واحدة منها بطريق القرعة والامتناع عن أكل لحمها، وذلك لأنّ الامتناع عن أكل لحمها جميعاً يشكل ضرراً كبيراً، كما أنّ أكل لحومها جميعاً غير جائز. فهنا تحلّ القرعة المشكلة.

## الآية

٤٥ - «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

## التفسير

هذه الآية تبين حادث ولادة المسيح الذي يبدأ بتقديم الملائكة البشارة لمرم بأمر من الله قائلين لها إِنَّ الله سوف يهب لك ولداً اسمه المسيح عيسى بن مريم، وسيكون له مقام مرموق في الدنيا والآخرة، وهو مقرب عند الله.

«إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ»

لابد من الإشارة هنا إلى بضع مسائل:

١ - في هذه الآية وفي آيتين أخريين يوصف المسيح بأنه «الكلمة» وهو تعبير موجود في كتب العهد الجديد أيضاً.

كلام المفسرين كثير في بيان سبب إطلاق هذه الكلمة على المسيح. إلا أن أقرها إلى الذهن هو ولادة المسيح الخارقة للعادة والتي تقع ضمن: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»<sup>١</sup>.

أولاًن البشارة بولادته قد جاءت في كلمة إلى أمه.

كما أن لفظة «الكلمة» وردت في القرآن بمعنى «المخلوق»: «قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً»<sup>٢</sup>.

في هذه الآية «كلمات ربّي» هي مخلوقات الله. ولما كان المسيح أحد مخلوقات الله العظيمة فقد سمّي بالكلمة، وهذا يتضمّن أيضاً رداً على الذين يقولون بالوهية المسيح عليه



السلام.

٢ - «المسيح» إقما بمعنى الماسح أو الممسوح. فقد تكون لآته كان يمسح بيده على المرضى الميؤوس منهم فيشفهم بإذن الله، إذ كانت هذه الموهبة قد خصصت له منذ البداية، ولذلك أطلق الله عليه اسم المسيح قبل ولادته.

أو لأنّ الله قد مسح عنه الدنس والإثم وطهره.

٣ - يصرّح القرآن في هذه الآية بأنّ عيسى هو ابن مريم، وهو تصرّيح يدحض مفتريات المفترين عن الوهية المسيح. إذ أنّ من يولد من امرأة وتطراً عليه جميع التحولات التي تطراً على الجنين البشري والكائن المادي لا يمكن أن يكون إلهاً، ذلك الإله المنزه عن كلّ أنواع التغيّرات والتحوّلات.

\*\*\*

## الآية

٤٦ - «وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ».

### التفسير

تشير هذه الآية إلى تكلم عيسى عليه السلام وهو في المهد. فقد جاء في سورة مريم أنه لدفع التهمة عن أمه تكلم في المهد كلاماً فصيحاً أعرب فيه عن عبوديته لله، وعن كونه نبياً. ولما لم يكن من الممكن أن يولد نبي من رحم غير طاهرة، فإنه يؤكد بهذا الاعجاز طهارة أمه.

«المهد» هو كل مكان يعدّ لنوم المولود حديثاً، سواء أكان متحركاً أم ثابتاً. وتشير الآية كذلك إلى أن المسيح لا ينطق إلا بالحق منذ ولادته حتى كهولته، وأنه يواصل الدعوة إلى الله وإرشاد الناس ولا يفتر عن ذلك لحظة واحدة. «الكهولة» هي متوسط العمر، وقيل إنها الفترة ما بين السنة الرابعة والثلاثين حتى الحادية والخمسين، وما قبلها «شاب» وما بعدها «شيخ».

ولعلّ إيراد هذا التعبير عن المسيح ضرب من التنبؤ بعودة المسيح إلى الدنيا، إذ أننا نعلم من كتب التاريخ أنّ عيسى عليه السلام قد رُفِعَ من بين الناس إلى السماء وهو في الثالثة والثلاثين من عمره. وهذا يتفق مع كثير من الأحاديث الواردة عن عودة المسيح في عهد الامام المهدي عليه السلام ويعيش معه بين الناس ويؤيده. وبعد ذكر مناقب المسيح المختلفة يضيف إليها «ومن الصالحين». ومن هذا يتضح أنّ الصلاح من أعظم دواعي الفخر والاعتزاز، وتنضمّ تحت لوائه القيم الانسانية الأخرى.

## الآية

٤٧ - «قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

## التفسير

إننا نعلم أن هذه الدنيا هي دنيا العلل والأسباب، وأن الله قد دبر أمر الخلق بحيث إن خلق كلّ كائن يتم ضمن سلسلة من العوامل. فليكني يولد إنسان قرّر الله أن يكون ذلك عن طريق الاتصال الجنسي، ونفوذ الحيمن في البويضة. لذلك حقّ لمريم أن تصيها الدهشة وأن تتقدّم بسؤالها: كيف يمكن أن تحمل وتلد ويكون لها ولد بغير أن يكون لها أيّ اتصال جنسي مع أيّ بشر؟ «قالت رب أنتى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر».

فجاءتها الملائكة بأمر ربّها تخبرها بأنّ الله يخلق ما يشاء وكيفما يشاء، فنظام الطبيعة هذا من خلق الله وهو يأتمر بأمره، والله قادر على تغيير هذا النظام وقتما يشاء، فيخلق وفق أسباب وعوامل أخرى غير عادية ما يشاء: «كذلك الله يخلق ما يشاء».

ثم لتوكيد هذا الأمر وإنهائه يقول «إذا قضىٰ أمراً فإنها يقول له كُن فيكون».

إنّ تعبير «كن فيكون» إشارة إلى سرعة الخلق.

بديهي أنّ لفظة «كن» تشير في الحقيقة إلى إرادة الله الحاسمة التي لا يعتمورها الأخذ والرد. أي أنه ما أن يشاء أمراً ويصدر أمره بالخلق حتى تتحقّق مشيئته في عالم الوجود. من الجدير بالالتفات أنه بشأن خلق عيسى قال: «يخلق» ولكنه بشأن خلق يحيى قبل بضع آيات قال: «يفعل». ولعلّ هذا الاختلاف في التعبير ناشىء من اختلاف طريقة خلق هذين النبيين، فأحدهما خلُق بطريقة طبيعية، والآخر خلُق بطريقة خارقة للطبيعة.



## الآياتان

٤٨ - «وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ».

٤٩ - «وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

### التفسير

إنَّ الذين يختارهم الله لقيادة الناس وهدايتهم، لابد أن يكونوا في أعلى درجة من العلم والمعرفة وأن يقدموا أسْمَى التعاليم والقوانين البناءة، ثم بعد ذلك عليهم أن يظهروا أدلة واضحة على علاقتهم بالله، لتوكيد مهمتهم.

ولهذا كان الأنبياء مزودين بخوارق للعادة متقدمة على أحدث علوم زمانهم، لكي تتضح علاقتهم بما وراء الطبيعة، ويخضع لهم علماء زمانهم ويعترفوا بصدق رسالتهم. وقد جاء هذا في حديث عن الامام الرضا عليه السلام إذ سئل عن سبب اختلاف أنواع معجزات الأنبياء فأوضح أنَّ ذلك يعود إلى اختلاف عصورهم، وبين أنَّ السحر شاع في عصر موسى عليه السلام، فكانت معجزة موسى تعجيز السحرة. وفي زمن عيسى عليه السلام شاعت مهارة الطب فجاءت معجزة عيسى في معالجة الأمراض المستعصية. وشاعت الفصاحة والبلاغة في عصر خاتم النبيين، وكلَّ الفصحاء والبلغاء طأطأوا رؤوسهم أمام بلاغة القرآن وفصاحته<sup>١</sup>.

تشير هذه الآية أولاً إلى مهمة السيد المسيح عليه السلام ولذلك فقد زوده الله بالعلم: «ويعلمه الكتاب والحكمة» وتشير إلى مصداق هذا الكتاب والحكمة «والتوراة والإنجيل» ثم تبين الهدف من كل ذلك وهو هداية بني إسرائيل المنحرفين «ورسولاً إلى

بني إسرائيل».

من الجدير بالذكر أنّ الآية تفيد أنّ رسالة عيسى كانت موجهة إلى بني إسرائيل فقط. وهذا لا يتنافى مع كونه من أولي العزم، لأنّ أولي العزم هم الأنبياء الذين جاءوا بدين جديد، حتى وإن لم يكن عالمي الرسالة. وقد جاء في تفسير «نور الثقلين» حديث عن اقتصار رسالة عيسى على بني إسرائيل<sup>١</sup>.

إلّا أنّ بعض المفسرين يرون احتمال عالمية رسالة المسيح، وأنها لم تكن محصورة ببني إسرائيل، على الرغم من أنّ بني إسرائيل كانوا على رأس الذين أرسل اليهم هدايتهم. يورد المرحوم العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» أخباراً عن أولي العزم من الأنبياء تؤيد أنّها كانت رسالات عالمية<sup>٢</sup>.

لما كانت دعوة الأنبياء في الحقيقة دعوة إلى حياة حقيقية، فإنّ هذه الآية - عند بيان معجزات السيّد المسيح عليه السلام - تبدأ بذكر بثّ الحياة في الأموات بإذن الله، وتقول على لسان المسيح عليه السلام «أتى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله».

إنّ قضية إحياء الموتى بإذن الله ليست عويصة، لأننا نعلم أنّ جميع الكائنات الحيّة مخلوقة من التراب والماء، إلّا أنّ هذا الخلق تدريجي وتحقّق على امتداد سنوات طويلة. فما الذي يمنع من أن يكثّف الله تلك العوامل والأسباب بحيث تتمّ مراحل الخلق بسرعة فائقة، ويتحوّل الطين إلى كائن حي؟

بديهي أنّ تحقّق هذا الأمر في ذلك المحيط، وفي أيّ محيط آخر، سند حيّ ودليل واضح على علاقة صاحب المعجزة بعالم ما وراء الطبيعة، وعلى قدرة الله اللامتناهية. ثمّ تشير إلى معالجة الأمراض الصعبة العلاج أو التي لا علاج لها، وتقول على لسانه: «وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله». لا شك أنّ القيام بكلّ هذه الأعمال تحت أنظار علماء الطبّ في ذلك الزمان كان من المعجزات التي لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك تشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافية، فلكلّ امرئ في حياته بعض الأسرار التي لا يعرف الآخرون شيئاً عنها. فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما أدخروه، فهذا يعني أنّه يستقي معلوماته من مصدر غيبي: «وأنتبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم».

وأخيراً يقول إنَّ هذه كلها دلائل صادقة للذين يؤمنون منكم: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ».

### أكانت معجزات المسيح عجيبة؟

يصرّ بعض المفسرين - مثل صاحب المنار - على تأويل المعجزات التي ذكرها القرآن للمسيح بشكل من الأشكال. من ذلك قولهم إنَّ المسيح اكتفى بمجرد الادّعاء بأنّه يفعل كذا وكذا بإذن الله، ولكنّه لم يفعل منها شيئاً أبداً! فإذا كان هذا الرأي قابلاً للنقاش هنا، فإنَّ ما جاء في الآية ١١٠ من سورة المائدة لا مجال فيه لأيّ نقاش: «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ...» لأنَّ الآية تقول صراحةً إنَّ واحدة من نعم الله عليك أنك كنت تصنع من الطين طيراً حياً بإذن الله.

إنَّ الإصرار على أمثال هذه التأويلات لا موجب له أبداً. لأنّه إذا كان الهدف إنكار أعمال الأنبياء الخارقة للعادة، فإنَّ القرآن يصرّح بها في كثير من المواضع، فإذا استطعنا - فرضاً - أن نؤوّل المعجزات فكيف بسائر المعجزات التي لا يمكن تأويلها؟! ثم إننا إذا كنا نقول إنَّ الله هو الذي يحكم قوانين الطبيعة، وليست هي التي تحكمه، فما الذي يمنع هذه القوانين الطبيعية أن تتغير بأمر منه في ظروف استثنائية، فتظهر حوادث بطرق غير طبيعية.

أما إذا تصوّر هؤلاء أنّ ذلك يتعارض مع وحدة أفعال الله وخالفته وكونه لا شريك له، فإنَّ القرآن قد أجاب على هذا. فوقع هذه الحوادث أينما وقعت مشروط بأمر الله، أي أنّ أحداً بقواه الخاصّة غير قادر على القيام بأعمال هذه الأعمال إلّا إذا شاء، وبإمداد من قدرته اللامتناهية وهذا هو التوحيد عينه، لا الشرك.

### الولاية التكوينية

تفيد هذه الآية وآيات أخرى سوف نتطرّق إليها - إن شاء الله - أنّ رسل الله وأوليائه يستطيعون بإذن منه وبأمره - إذا اقتضى الأمر - أن يتدخلوا في عالم الخلق والتكوين، وأن يحدثوا ما يعتبر خارقاً للقوانين الطبيعية. فاستعمال أفعال مثل «أبريء» و«أحيي الموتى» وبضمير المتكلم تدلّ على أنّ هذه الأفعال من عمل الأنبياء أنفسهم، وأنّ القول بأنّ هذه الأفعال كانت تقع بسبب دعائهم فقط، إنّما هو قول لا يقوم عليه دليل، بل أنّ ظاهر الآيات



يدل على أنهم كانوا يتصرفون بعالم التكوين ويقومون بتلك الأفعال .

ولكن لكي لا يتصور أحد أنّ الأنبياء والأولياء كان لهم استقلال في العمل، وأنهم أقاموا جهازاً للخلق في مقابل جهاز خلق الله، وكذلك لكي لا يكون هناك أي احتمال للشرك وللعبادة المزدوجة، تكرر قول «بإذن الله»، (تكرر في هذه الآية مرتين، وفي الآية ١١٠ من سورة المائدة أربع مرات).

وما الولاية التكوينية إلا القول بأنّ الأنبياء والأئمة يستطيعون - إذا لزم الأمر - أن يتصرفوا في عالم الخلق بإذن الله. وهذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أي إدارة الناس وحكمهم ونشر قوانين الشريعة بينهم ودعوتهم إلى الله وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

في هذا الذي قلناه جواب الذين ينكرون ولاية أهل الله التكوينية يعتبرونها ضرباً من الشرك . فما من أحد يقول بأنّ للأنبياء والأئمة جهازاً للخلق مستقلاً في قبال الله. إنّما هم يفعلون ما يفعلون بإذن الله وبأمر منه. غير أنّ منكري الولاية التكوينية يقولون إنّ مهمة الأنبياء تنحصر في الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته وأحكامه، وقد يتوسلون أحياناً بالدعاء إلى الله في بعض الأمور التكوينية، وأنّ هذا هو كلّ ما يقدرون عليه، مع أنّ هذه الآية والآيات الأخرى تقول غير ذلك .

كما يُستنتج من هذه الآية أنّ كثيراً من معجزاتهم - على الأقل - قد فعلوها بأنفسهم، وإن كان ذلك بإذن الله وبعون من القدرة الإلهية. في الواقع يمكن القول بأنّ المعجزة من عمل الأنبياء - لأنهم هم الذين يقومون بها - كما هي من عمل الله لأنها تتمّ بإذنه وبالاستعانة بقدرته .

## الآية

٥٠ - «وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا».

## التفسير

هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السلام الذي يقول: جئت أؤكد لكم التوراة وأثبت أصولها ومبادئها، كما جئت لأرفع الحظر الذي فرض عليكم، بالنسبة لبعض الأشياء، في دين موسى بسبب عصيانكم - مثل منع لحم الأباعر، وبعض شحوم الحيوانات، وبعض الطيور، والأسماك ..

سوف نجد في تفسير الآية ١٦٠ من سورة النساء أنه بسبب عناد بعض جماعات اليهود وطغيانهم حرّم الله عليهم بعض الطيبات من النعم: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ».

إلا أن هذه المحظورات أُحِلَّتْ لهم مرة أخرى ببركة ظهور المسيح عليه السلام هذا النبي العظيم.

ثم مرة أخرى تتكرّر الجملة التي قرأنا على لسان المسيح في الآية السابقة: «وجئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا».

\*\*\*

\*\*\*

## الآية

٥١ - «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

### التفسير

يتضح من هذه الآية ومن آيات أخرى أنّ السيد المسيح، لكي يزيل كلّ إبهام وخطأ فيما يتعلق بولادته الخارقة للعادة، ولكي لا يتخذونها ذريعة لتأليهه، كثيراً ما يكرّر القول «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» و«إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»<sup>١</sup>، بخلاف ما نراه في الأناجيل المحرّفة الموجودة التي تنقل عن المسيح أنّه كان يستعمل «الأب» في كلامه عن الله. إنّ القرآن يذكر «الرب» بدلاً من ذلك: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ». وهذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح في محاربة من يدّعي بالوهيته. بل لكي يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس «فاعبدوه» أي اعبدوا الله ولا تعبدوني، وأنّ الصراط المستقيم هو هذا التوحيد وعبادة الواحد الأحد: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

\*\*\*



## الآية

٥٢ - «فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ  
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

## التفسير

كان اليهود ينتظرون مجيء المسيح بموجب ما بشرهم به موسى، قبل أن يولد. ولكنهم عندما ظهر، وتعرضت مصالح جمع من الظالمين والمنحرفين من بني إسرائيل للخطر، لم يبق معه إلا نفر قليل، بينما تركه الذين احتملوا أن يؤدي قبولهم دعوة المسيح والتقيد بالقوانين الإلهية إلى ضياع مصالحهم.

بعد أن أعلن عيسى دعوته وأثبتها بالأدلة الكافية، أدرك أن جمعاً من بني إسرائيل يصرون على المعارضة والعصيان ولا يتركون المعاندة والانحراف، فنادى في أصحابه «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ»، فاستجاب لندائه نفر قليل. كانوا أظهاراً ستمهم القرآن بـ«الحواريين». لبوا نداء المسيح ولم يبخلوا بشيء في سبيل نشر أهدافه المقدسة.

أعلن الحواريون استعدادهم لتقديم كل عون للمسيح، وقالوا: «نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون».

لاحظ أن الحواريين لم يقولوا: نحن أنصارك. بل لكي يعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيد وليؤكدوا إخلاصهم، ولكن لا يشتم من كلامهم أي رائحة للشرك، قالوا: نحن أنصار الله، نصر دينه، ونريدك شاهداً على هذه الحقيقة. لعلهم قد شتموا منذ ذلك اليوم رائحة الانحراف في المستقبل وأن هناك من يستدعي الوهية عيسى من بعده، فسعوا ألا يكون في كلامهم ما يمكن أن يتذرعوا به.

من هم الحواريون؟

«حواريون» جمع حوري من مادة «حور» بمعنى الغسل والتبييض، وقد تطلق على

الشيء الأبيض. لذلك يطلق العرب على الطعام الأبيض «الحواري». و«حور» جمع حوراء وهي البيضاء البشرة.

أما سبب تسمية تلامذة المسيح بالحواريين فقد ذكرت له احتمالات كثيرة ولكن الأقرب إلى الذهن، وهو الوارد في أحاديث أئمة الدين، هو لأنهم فضلاً عن طهارة قلوبهم وصفاء أرواحهم، كانوا دائبي السعي في تطهير الناس وتنوير أفكارهم وغسلهم من أدران الذنوب.

وهذا ما أكدته حديث عن الامام الرضا عليه السلام في «عيون أخبار الرضا».

### الحواريون في القرآن والإنجيل

تكلم القرآن على الحواريين في سورة الصف، الآية ١٤، مشيراً إلى إيمانهم. ولكن يتبين مما نقرأه في الإنجيل بشأن الحواريين أنهم جميعاً ارتكبوا بعض الزلل بالنسبة للمسيح.

أما أسماؤهم كما جاءت في إنجيل متى ولوقا، الباب السادس، فهي:

- ١ - بطرس، ٢ - اندرياس، ٣ - يعقوب، ٤ - يوحنا ٥ - فيلبس، ٦ - برتولوما،
- ٧ - توما، ٨ - متى، ٩ - يعقوب بن حلفا، ١٠ - شمعون «الغيور»، ١١ - يهوذا أخو يعقوب،
- ١٢ - يهوذا الاسخريوطي الذي خان المسيح.

يذكر المفسر المعروف المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» أنّ الحواريين كانوا يرافقون المسيح في رحلاته. كلما عطشوا أو جاعوا رأوا الماء والطعام مهياً أمامهم بأمر الله، فكانوا يرون في ذلك فخراً لهم أيّ فخر، وسألوا المسيح: أهنك من هو أفضل منا؟ فقال: نعم، أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه.

وعلى أثر ذلك اشتغلوا بغسل الملابس للناس لقاء أجر، وانشغلوا بذلك؛ فكان ذلك درساً عملياً للناس بأنّ العمل ليس عيباً أو عاراً.

## الآية

٥٣ - «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ».

### التفسير

بعد أن قبل الحواريون دعوة المسيح الى التعاون معه واتخاذهم شاهداً عليهم في إيمانهم، اتجهوا إلى الله يعرضون عليه إيمانهم قائلين: «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ». ولكن لما كانت دعوى الإيمان لا تكفي وحدها، فقد اتبعوا ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر الله واتباع رسوله المسيح، وقالوا مؤكدين: «وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ». عندما يتغلغل الإيمان في روح الانسان لا بد أن ينعكس ذلك على عمله، فبدون العمل يكون ادعائه الإيمان تقوُّلاً، لا إيماناً حقيقياً. بعد ذلك طلبوا من الله قائلين «فاكتبنا مع الشاهدين». والشاهدون هم أولئك الذين لهم صفة قيادة الأمم، ويوم القيامة يشهدون على أعمال الناس الحسنة والسيئة.

\*\*\*



## الآية

٥٤ - «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

## التفسير

### ما المكر الإلهي؟

بعد أن انتهى الحواريون من شرح إيمانهم، أشاروا إلى خطط اليهود الشيطانية، وقالوا: إنَّ هؤلاء - لكي يقضوا على المسيح، وعلى دعوته، ويصدّوا انتشار دينه - وضعوا الخطط الماكرة. إلا أن ما رسمه الله من مكر فاق مكرهم وكان أشدَّ تأثيراً. في القرآن آيات مشابهة لهذه ينسب فيها المكر الى الله<sup>١</sup>. كلمة «المكر» بالمصطلح المعاصر تختلف كثيراً عن معناها اللغوي. فالمكر بالمعنى المعاصر هو وضع الخطط الشيطانية الضارة. ولكن معناها بلغة العرب هو البحث عن العلاج لأمرٍ ما، وقد يكون حسناً أو سيئاً. في كتاب «المفردات» للراغب نقرأ: المكر: صرف الغير عمّا يقصد - خيراً كان أم شراً<sup>٢</sup>.

وفي القرآن وردت كلمة «المكر» مقرونة بكلمة «الخير»، إذ يقول «والله خير الماكرين»، كما وردت مع «السيء»: «ولا يحق المكر السيء إلا بأهله»<sup>٢</sup>. وعليه يكون المقصود من الآية هو أنّ أعداء المسيح وضعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه هذه الدعوة الإلهية. ولكن الله لكي يحفظ حياة نبيه ويصون الدعوة مكرّاً أيضاً فأحبط كلّ ما مكرّوه.

\*\*\*

١ - أنظر الآية ٣٠ من سورة الأنفال، أو الآية ٥٠ من سورة النمل وغيرهما.

٢ - فاطر: ٤٣.



بالنهار»<sup>١</sup>. فهنا عبر عن النوم بكلمة «يتوفاكم».

هذا المعنى نفسه يرد في الآية ٤٢ من سورة الزمر، كما ترد كلمة «توفى» في آيات

أخرى بمعنى الأخذ.

صحيح أن «توفى» قد تأتي أحياناً بمعنى الموت، ولكنها حتى في تلك المواضع لا تعني

الموت حقاً، بل بمعنى قبض الروح. والواقع أن مادة «فوت» ومادة «وفي» منفصلتان تماماً.

مما تقدّم يكون تفسير الآية واضحاً.

يقول الله: يا عيسى إني سوف استوفيك وأرفعك إليّ. وهذا يعني حياة عيسى،

لاموته، فتأمل بدقّة.

### «ومطهرك من الذين كفروا»

هذا جانب آخر من خطاب الله إلى المسيح. والقصد من التطهير هنا هو إنقاذه من

يد عديمي الإيمان الخبثاء البعيدين عن الحق والحقيقة، الذين كانوا يوجهون إليه التهم

الباطلة، ويحكون حوله المؤامرات، ساعين إلى تلوّث سمعته، فنصر الله دينه، وطهره من

تلك التهم، بمثل ما نقرأه عن نبيّ الاسلام صلى الله عليه وآله في أول سورة الفتح «إنا فتحنا

لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر». أي أننا هيأنا لك نصراً واضحاً كي

يغفر لك الله ذنوبك السابقة واللاحقة (ويطهرك من التهم التي ألصقوها بك على شكل ذنوب).

كما يحتمل أن يعني التطهير إخراج المسيح من ذلك المحيط الملوّث. وهذا يناسب

الآية السابقة.

### «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة»

وهذه بشارة يبشّر بها الله المسيح وأتباعه لتشجيعهم على المضيّ في الطريق الذي

اختاروه. والواقع أن هذه واحدة من آيات الإعجاز ومن تنبؤات القرآن الغيبية التي تقول إن

أتباع المسيح سوف يكونون دائماً متفوقين على اليهود الذين عادوا المسيح.

وها نحن اليوم نرى هذه الحقيقة رأيّ العين، فاليهود الصهاينة، - بغير الاستناد إلى

المسيحيين - غير قادرين على إدامة حياتهم السياسية والاجتماعية يوماً واحداً. بديهي أن



«الكافرين» هنا هم اليهود الذين كفروا بالمسيح.

### هل الديانتان اليهودية والمسيحية باقيتان؟

هنا يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو أن اليهود والنصارى - بموجب هذه الآية - سيبقون في الدنيا حتى يوم القيامة، وأن أتباع هاتين الديانتين سيبقون أيضاً، مع أن الأخبار الخاصة بظهور المهدي عليه السلام تبين أنه يخضع جميع الأديان ويحكم العالم كله.

يتضح جواب هذا السؤال بالتدقيق في الأحاديث. فنحن نقرأ في الأحاديث عن المهدي عليه السلام أنه لا يبقى بيت في البدو ولا في الحضرة إلا ويدخله التوحيد، أي أن الاسلام سيكون الدين الرسمي في العالم كله، وتكون الحكومة حكومة إسلامية، ولا يحكم العالم سوى القوانين الاسلامية. ولكن هذا لا يمنع من وجود أقلية من اليهود والنصارى تعيش تحت ظل حكومة المهدي عليه السلام وفق شروط «أهل الذمة».

إننا نعلم أن حكومة المهدي عليه السلام لا تجبر الناس على اعتناق الاسلام، بل تتقدم بالمنطق. أما التوسل بالقوة العسكرية فلبسط العدالة، وللإطاحة بالحكومات الظالمة، ولانضواء العالم تحت لواء الاسلام، لا لإجبار الناس على قبول الاسلام، وإلا فلن يكون هناك أي معنى لحرية الإرادة والاختيار.

«ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون»

كل ما قيل في الآيات السابقة كان يخص الانتصارات في الدنيا. أما المحاكمة النهائية وتلقي نتائج الأعمال فتناولته هذه الآية.

## الآيات

- ٥٦ - «فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ».
- ٥٧ - «وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ».
- ٥٨ - «ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ».

## التفسير

«فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَاهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ»  
بعد ذكر رجوع الناس إلى الله ومحاسنتهم - في الآية السابقة - يأتي في هذه الآية ذكر نتيجة تلك المحاكمة. فالكافرون والمعارضون للحق والعدالة سيلاقون في الآخرة من العذاب الأليم مثل ما يلاقون في الدنيا، ولن يكون لأئبي منهم حام ولا نصير.

«وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ»  
من إشارة الآية الأولى إلى عذاب الدنيا نفهم أن الكافرين - وهم هنا اليهود - لا ينجون من العذاب. وهذا ما يؤكده تاريخ اليهود، ومن ذلك تفوق الآخرين عليهم كما جاء في الآيات السابقة.

«ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ»

بعد ذكر تاريخ المسيح وبعض ما جرى له، يتجه الخطاب إلى رسول الإسلام صلى الله عليه وآله فيقول: كل هذا الذي سردناه عليك دلائل صدق لدعوتك ورسالتك، وكان تذكيراً حكيماً جاء بصورة آيات قرآنية نزلت عليك، تبين الحقائق في بيان محكم وخالٍ من كل هزل وباطل وخرافة.

## الآيتان

- ٥٩ - «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».
- ٦٠ - «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

## النزول

قلنا في بداية هذه السورة أنّ الكثير من آياتها كانت ردّاً على محاورات مسيحيّ نجران الذين جاءوا في وفد مؤلّف من ٦٠ شخصاً وفيهم عدد من زعمائهم بقصد التحوار مع رسول الله صلّى الله عليه وآله.

من بين المواضيع التي طرحت في ذلك الاجتماع مسألة الوهيّة المسيح التي رفضها رسول الله واستدلّ بأنّ المسيح وُلد وعاش كبقية الناس ولا يمكن أن يكون إلهاً، لكنهم استدلّوا على الوهيّة بولادته من غير أب، فنزلت الآية ردّاً عليهم، ولما رفضوا ذلك، دعاهم إلى المباحلة، وسوف يأتي ذكرها قريباً إن شاء الله.

## التفسير

الآية الأولى تورد استدلالاً قصيراً وواضحاً في الردّ على مسيحيّ نجران بشأن الوهيّة المسيح: إنّ ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلاً على أنّه ابن الله أو أنّه الله بعينه، لأنّ هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب ولا أم. وعليه، فكما أنّ خلق آدم من تراب لا يستدعي التعجب، لأنّ الله قادر على كلّ شيء، ولأنّ «فعله» و«إرادته» متناسقان، كذلك ولادة عيسى من أمّ وبغير أب، ليست مستحيلة.

وخلق آدم من تراب أعجب من ذلك بكثير. فإذا كانت ولادة عيسى دليلاً على الوهيّة، فأدم أولى بالالوهية.

تبدأ الآية بذكر خلق آدم من تراب «خلقه من تراب». تدلّ القرائن المستقاة من



الآيات التالية أن هذه الآية تقصد خلق جسم آدم من الناحية المادية. وفي الجملة الثانية إشارة إلى خلق الروح والحياة «ثم قال له كن فيكون»، أي بصدور أمر الخلق تظهر الروح والحياة في الجسد. من هنا قسّم بعض «العوالم» إلى عالمين: عالم «الخلق» وهو عالم المادة، وعالم «الأمر» وهو عالم ما وراء المادة، وكلا العالمين يأتمران بأمر الله: «ألا له الخلق والأمر»<sup>١</sup>.

### «الحق من ربك»

هذه الآية تؤكد الموضوع وتقول: إن ما أنزلنا عليك بشأن المسيح أمر حقيقي من الله ولا يعتوره الشك، فلا تتردد في قبوله.

في تفسير «الحق من ربك» للمفسرين رأيان: الرأي الأول يقول: إن الجملة مبتدأ وخبر، وبذلك يكون المعنى: الحق دائماً من ربك، وذلك لأن الحق هو الحقيقة، والحقيقة هي الوجود، وكل وجود ناشئ من وجوده. لذلك فكل باطل عدم، والعدم غريب على ذاته.

الرأي الثاني يقول: إن الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره «تلك الأخبار». أي تلك الأخبار التي أنزلناها عليك حقائق من الله. وكل من التفسيرين ينسجم مع الآية.

\*\*\*

## الآية

٦١ - «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

## التفسير

### ما المباهلة؟

«المباهلة» من البهل بمعنى الترك ورفع القيد. ومن ذلك كانت الباهل هي الناقة المخلى ضرعها مكشوفاً يرضع منه وليدها كيفما يشاء. و«الابتهال» في الدعاء الاسترسال فيه والتضرع إلى الله.

أما تفسير الابتهال باللعن والموت والبعد عن الله، فذلك لأن هذه الأمور من نتائج ترك الله العبد وشأنه. هذا هو معنى المباهلة من حيث أصلها. أما المفهوم المستفاد من الآية فهو تبادل اللعن، وذلك بأن يجتمع المتجادلون في أمر ديني في مكان ما ويتضرعون إلى الله أن يفضح الكاذب وينزل عقابه به.

### الدعوة إلى المباهلة

في هذه الآية يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وآله قائلاً: إذا استمر أحد في مجادلتك بعد هذه الاستدلالات البيّنة بشأن عيسى، فادعه إلى المباهلة حتى يأتي بأبنائه ونسائه، وادع أنت أيضاً أبناءك ونساءك وتضرعوا إلى الله أن يفضح الكاذب.

لعل قضية المباهلة بهذا الشكل لم تكن معروفة عند العرب، بل كانت اسلوباً يبين صدق النبي وإيمانه بشكل قاطع. إذ كيف يمكن لمن لا يؤمن كل الإيمان بعلاقته بالله أن يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضيه أن يتقدموا معه إلى الله يدعونه أن ينزل لعناته على الكاذب، وأن يروا سرعة ما يحل بالكاذب من عقاب؟! لا شك أن دخول هذا الميدان خطر

جداً، لأن المبتهل إذا لم يجد استجابة لدعائه ولم يظهر أي أثر لعقاب الله على معارضيه، فلن تكون النتيجة سوى فضيحة المبتهل. فكيف يمكن لإنسان عاقل ومدرك أن يخطو مثل هذه الخطوة دون أن يكون مطمئناً إلى أن النتيجة في صالحه؟ لهذا قيل إن دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المباهلة تعتبر واحداً من الأدلة على صدق دعوته وإيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التي كانت ستكشف عنها المباهلة

تقول الروايات الإسلامية: عند عرض هذا الاقتراح للمباهلة، طلب ممثلو مسيحيي نجران من رسول الله أن يمهلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأي مع شيوخهم. فكان لهم ما أرادوا. وكانت نتيجة مشاورتهم - التي تعتمد على ناحية نفسية - هي أنهم أمروا رجالهم بالدخول في المباهلة دون خوف إذا رأوا محمداً قد حضر في كثير من الناس ووسط جلبة وضوضاء، إذ أن هذا يعني أنه بهذا يريد بث الرعب والخوف في النفوس وليس في أمره حقيقة. أما إذا رأوه قادمًا في بضعة أنفار من أهله وصغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنه نبي الله حقاً، وليتجنبوا مباهلته.

وقد حضر المسيحيون إلى المكان المعين، ثم رأوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله أقبل يحمل الحسين على يد ويمسك الحسن باليد الأخرى ومن خلفه علي وفاطمة، وهو يطلب منهم أن يؤمنوا على دعائه عند المباهلة. وإذا رأى المسيحيون هذا المشهد استولى عليهم الفرع، ورفضوا الدخول في المباهلة، وقبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمة.

### التفسير

«فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم...»

بعد الآيات التي استدلت فيها على بطلان القول بالوهية عيسى بن مريم، يأمر الله نبيه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاء من العلم والمعرفة. وأمره أن يقول لهم: إني سأدعو أبنائي، وأنتم ادعوا أبناءكم، وأدعو نسايتي، وأنتم ادعوا نساءكم، وأدعو نفسي، وتدعون أنتم أنفسكم، وعندئذ ندعو الله أن ينزل لعنته على الكاذب متاً.

لا حاجة للقول بأن القصد من المباهلة لم يكن إحضار جمع من الناس لللعن، ثم ليتفرقوا كل إلى سبيله، لأن عملاً كهذا لن يكون له أي تأثير، بل كان المنتظر أن يكون لهذا الدعاء واللعن أثر مشهود عياناً فيحقيق بالكاذب عذاب فوري.

وبعبارة أخرى: فإن المباهلة - وإن لم يكن في الآية ما يشير إلى تأثيرها - كانت بمثابة



«السهم الأخير» بعد أن لم ينفع المنطق والاستدلال، فإنّ الدعاء وحده لم يكن المقصود بها، بل كان المقصود منها هو «أثرها الخارجي».

### أحد أدلة عظمة أهل البيت

يصرّح المفسرون من الشيعة والسنة أنّ آية المباهلة قد نزلت بحق أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ الذين اصطحبهم النبي صلى الله عليه وآله معه للمباهلة بهم هم: الحسن والحسين وفاطمة وعليّ عليهم السلام. وعليه، فإنّ «أبناءنا» الواردة في الآية ينحصر مفهومها في الحسن والحسين عليهما السلام، ومفهوم «نساءنا» ينحصر في فاطمة عليها السلام، ومفهوم «أنفسنا» ينحصر في علي عليه السلام. وهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص. حاول بعض أهل السنة أن ينكر وجود أحاديث في هذا الموضوع، فصاحب تفسير المناري يقول في تفسير الآية:

الروايات متفقة على أنّ النبي صلى الله عليه وآله اختار للمباهلة علياً وفاطمة وولديهما ويحملون كلمة «نساءنا» على فاطمة وكلمة «أنفسنا» على عليّ فقط، ومصادر هذه الروايات شيعية، ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهدوا في ترويحها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة. ولكن بالرجوع إلى مصادر أهل السنة الأصلية يتضح أنّ الكثير من تلك الطرق لا تنتهي بالشيعة وبكتب الشيعة، وإنكار هذه الأحاديث الواردة بطريق أهل السنة، يسقط سائر أحاديثهم وكتبهم من الاعتبار.

لكي نلقي الضوء على هذه الحقيقة، نورد هنا بعضاً من رواياتهم ومصادرهم:

القاضي نورالله الشوشتري في المجلد الثالث من كتابه النفيس «إحقاق الحق»، الطبعة الجديدة، ص ٤٦، يتحدّث عن اتفاق المفسرين في أنّ «أبناءنا» في هذه الآية إشارة إلى الحسن والحسين، و«نساءنا» إشارة إلى فاطمة، و«أنفسنا» إشارة إلى عليّ عليه السلام. ثم يشير في هامش الكتاب إلى نحو ستين من كبار أهل السنة من الذين قالوا إنّ آية المباهلة نزلت في أهل البيت، ويذكر أسماء هؤلاء العلماء بالتفصيل في الصفحات ٤٦ - ٧٦. ومن المشاهير الذين نقل عنهم هذا التصريح:

- ١ - مسلم بن الحجاج النيسابوري، صاحب أحد الصحاح الستة المعروفة التي يعتمد عليها أهل السنة. المجلد ٧ ص ١٢٠ (طبعة محمد علي صبيح - مصر).
- ٢ - أحمد بن حنبل في كتابه «المسند» ج ١ ص ١٨٥ (طبعة مصر).

- ٣ - الطبري في تفسيره المعروف، ج ٣ ص ١٩٢ (المطبعة الميمنية - مصر).
- ٤ - الحاكم في كتابه «المستدرک» ج ٣ ص ١٥٠ (طبعة حيدرآباد الدکن).
- ٥ - الحافظ أبونعيم الاصفهاني في كتابه «دلائل النبوة» ص ٢٩٧ (طبعة حيدرآباد).
- ٦ - الواحدي النيسابوري في كتابه «أسباب النزول» ص ٧٤ (المطبعة الهندية - مصر).
- ٧ - الفخر الرازي في تفسيره المعروف، ج ٨ ص ٨٥ (المطبعة الهيئة - مصر).
- ٨ - ابن الأثير في كتابه «جامع الأصول» ج ٩ ص ٤٧٠ (مطبعة الستة المحمدية - مصر).
- ٩ - ابن الجوزي في كتابه «تذكرة الخواص» ص ١٧ (طبعة النجف).
- ١٠ - القاضي البيضاوي في تفسيره ج ٢ ص ٢٢ (مطبعة مصطفى محمد - مصر).
- ١١ - الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» ج ٣ ص ١٦٧ (المطبعة المنيرية - مصر).
- ١٢ - الطنطاوي في تفسيره المعروف «الجواهر» ج ٢ ص ١٢٠ (مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر).
- ١٣ - الزمخشري في تفسيره «الكشاف» ج ١ ص ١٩٣ (مطبعة مصطفى محمد).
- ١٤ - الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه «الأصابة» ج ٢ ص ٥٠٣ (مطبعة مصطفى محمد).
- ١٥ - ابن الصبّاغ في كتابه «الفصول المهمة» ص ١٠٨ (طبعة النجف).
- ١٦ - العلامة القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ج ٣ ص ١٠٤ (طبعة مصر سنة ١٩٣٦).
- جاء في كتاب «غاية المرام» عن صحيح مسلم في باب (فضائل علي بن أبي طالب) أنّ معاوية قال يوماً لسعد بن أبي وقاص: لِمَ لا تسب أبا تراب (علي عليه السلام)؟! فقال: «تركت سبّه منذ أن تذكرت الأشياء الثلاثة التي قالها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي حَقِّ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام (وأحدها) عندما نزلت آية المباهلة لم يدع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سِوَى فَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَعَلِيٍّ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي.
- صاحب «الكشاف» وهو من كبار علماء أهل السنة، يذهب إلى أنّ هذه الآية أقوى دليل على فضيلة أهل الكساء.
- يتفق المفسرون والمحدثون والمؤرخون الشيعة أيضاً أنّ هذه الآية قد نزلت في أهل البيت، وقد أورد صاحب تفسير «نور الثقلين» روايات كثيرة بهذا الشأن.
- من ذلك أيضاً ما جاء في كتاب «عيون أخبار الرضا» عن المجلس الذي عقده

المأمون في قصره للبحث العلمي. وجاء فيه عن الامام الرضا عليه السلام قوله: ...مير الله الطاهرين من خلقه، فأمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالمباهلة بهم في آية الابتهاال. فقال عزوجل: يا محمد «فن حاجك فيه...» الآية. فأبرز النبي صلى الله عليه وآله علياً والحسن والحسين وفاطمة صلوات الله عليهم....

وقال عليه السلام: فهذه خصوصية لا يتقدمهم فيها أحد، وفضل لا يلحقهم فيه بشر، وشرف لا يسبقهم إليه خلق<sup>١</sup>.  
كذلك وردت روايات بهذا المضمون في تفسير البرهان وبحار الأنوار وتفسير العياشي، وكلها تقول إنّ الآية قد نزلت في أهل البيت.

### اعتراض

هنا اعتراض مشهور أورده الفخر الرازي وآخرون على نزول هذه الآية في أهل البيت. يقول هؤلاء: كيف يمكن أن نعتبر أنّ القصد من «أبناءنا» هو الحسن والحسين عليهما السلام مع أنّ «أبناء» جمع ولا تطلق على الاثنين؟ وكذلك «نساءنا» جمع، فكيف تطلق على سيّدة الاسلام فاطمة عليها السلام وحدها؟ وإذا كان القصد من «أنفسنا» علياً عليه السلام وحده فلماذا جاء بصيغة الجمع؟

### الجواب

أولاً: كما سبق أن شرحنا بإسهاب، أنّ هناك أحاديث كثيرة في كثير من المصادر الاسلامية الموثوق بها - شيعية وسنية - تؤكد نزول هذه الآية في أهل البيت، وهي كلّها تقول إنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يدع للمباهلة غير علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هذا بذاته قرينة واضحة لتفسير الآية، إذ أنّ من القرائن التي تساعد على تفسير القرآن هي «السنّة وما ثبت من أسباب النزول».

وعليه، فإنّ الاعتراض المذكور ليس موجّهاً للشيعيّة فقط، بل أنّ على جميع علماء الاسلام أن يجيبوا عليه، بموجب ما ذكرناه آنفاً.

ثانياً: إطلاق صيغة الجمع على المفرد أو المثني ليس أمراً جديداً فهو كثير الورد في

١ - نور الثقلين: ج ١ ص ٣٤٩، البرهان: ج ١ ص ٢٩٠، تفسير العياشي: ج ١ ص ١٧٧، البحار:



القرآن وفي غير القرآن من الأدب العربي، وحتى غير العربي.

من ذلك مثلاً أنه عند وضع قانون، أو إعداد اتفاقية، تستعمل صيغة الجمع على وجه العموم. فمثلاً، قد يقال في اتفاقية: إن المسؤولين عن تنفيذها هم الموقعون عليها وأبنائهم. في الوقت الذي يمكن أن يكون لأحد الأطراف ولد واحد أو اثنين. فلا يكون في هذا أي تعارض مع تنظيم الاتفاقية بصيغة الجمع. وذلك لأنّ هناك مرحلتين، مرحلة «الاتفاق» ومرحلة «التنفيذ». ففي المرحلة الأولى قد تأتي الألفاظ بصيغة الجمع لكي تنطبق على جميع الحالات. ولكن في مرحلة التنفيذ قد تنحصر الحالة في فرد واحد، وهذا لا يتناقض مع عمومية المسألة.

وبعبارة أخرى: كان على رسول الله صلى الله عليه وآله بموجب اتفائه مع مسيحيي نجران، أن يدعو للمباهلة جميع أبنائه وخاصة نسائه وجميع من كانوا بمثابة نفسه. إلا أن صدق الاتفاق لم ينطبق إلا على ابنين وامرأة ورجل (فتأمل!).

في القرآن مواضع متعددة ترد فيها العبارة بصيغة الجمع، إلا أن مصداقها لا ينطبق إلا على فرد واحد. فمثلاً نقرأ: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم»<sup>١</sup> المقصود من «الناس» في هذه الآية هو «نعم بن مسعود» حسب قول فريق من المفسرين، لأنّ هذا كان قد أخذ أموالاً من أبي سفيان في مقابل إخافة المسلمين من قوة المشركين.

وأيضاً نقرأ: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء»<sup>٢</sup>. فهنا المقصود بـ«الذين» في هذه الآية، على رأي كثير من المفسرين، هو «حي بن أخطب» أو «فنحاص». وقد يطلق الجمع على المفرد للتكريم، كما جاء عن إبراهيم: «إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله»<sup>٣</sup>. فهنا أطلقت كلمة «أمة» وهي اسم جمع، على مفرد.

كما أن آية المباهلة تفيد بأن أبناء البنت يعتبرون أبناء أبيها أيضاً، بخلاف ما كان سائداً في الجاهلية في اعتبار أبناء الابن فقط هم أبناء الجد، إذ كانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد  
هذا اللون من التفكير كان من بقايا التقاليد الجاهلية الخاطئة التي لم تكن ترى المرأة عضواً من أعضاء المجتمع، بل كانت تنظر إليها على أنها وعاء لنمو الأبناء فقط، وترى أن النسب يلحق بالأباء لا غير. يقول شاعرهم:

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات ولأنساب آباء

غير أن الإسلام قضى على هذا اللون من التفكير، وسأوى بين أبناء الابن وأبناء البنت. نقرأ في الآية ٨٤ و٨٥ من سورة الأنعام بشأن أبناء إبراهيم: «من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين \* وذكراً ونحياً وعيسى وإلياس كل من الصالحين». فالمسيح عيسى بن مريم عدّ هنا من أبناء إبراهيم مع أنه كان ابناً من جهة البنت. الأحاديث والروايات الواردة عن طريق الشيعة والسنة بشأن الحسن والحسين عليهما السلام تشير إلى كلّ منهما بـ «ابن رسول الله صلى الله عليه وآله» كراراً. وفي الآيات التي تحرم الزواج ببعض النساء نقرأ: «وحلائل أبنائكم». يتفق علماء الإسلام على أن الرجل يحرم عليه الزواج من زوجة ابنة وزوجة حفيده سواء أكان من جهة الابن أم البنت، باعتبار شمولهم بالآية المذكورة.

### هل المباهلة تشريع عام؟

لا شك أن هذه الآية ليست دعوة عامة للمسلمين للمباهلة، إذ أن الخطاب موجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وحده. ولكن هذا لا يمنع من أن تكون المباهلة مع المعارضين حكماً عاماً، وأن الأتقياء من المؤمنين الذين يخشون الله، لهم أن يطلبوا من الذين لم ينفع فيهم المنطق والاستدلال التقدّم للمباهلة.

وتظهر عمومية هذا الحكم في بعض الروايات الإسلامية، فقد جاء في تفسير نور الثقلين، ج ١ ص ٣٥١ عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: إذا كان كذلك (أي إذا لم يقبل المعاند الحق) فادعهم إلى المباهلة... اصلح نفسك ثلاثاً... وبرز أنت وهو إلى الجبان (الصحراء) فشبك أصابعك من يدك اليمنى في أصابعه، ثم انصفه وابدأ بنفسك وقل: اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم إن كان (فلاناً) جحد حقاً وادعى باطلاً فانزل عليه حسبانياً (بلاءً) من السماء وعذاباً أيماً. ثم ردّد الدعوة عليه... فإنك لا تلبث أن ترى ذلك فيه.

يتضح أيضاً من هذه الآية أنه - خلافاً للحملات التي يشهها الزاعمون أن الإسلام دين الرجال وليس للمرأة فيه أي حساب - قد ساهمت المرأة المسلمة مع الرجل خلال اللحظات الحساسة في تحقيق الأهداف الإسلامية ووقفت معه ضدّ الأعداء. إن الصفحات المشرفة التي تمثل سيرة سيّدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السلام وابنتها السيّدة زينب الكبرى، وغيرهما من نساء الإسلام اللاتي سرن على طريقهما دليل على هذه الحقيقة.

## الآية

٦٢ - «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

### التفسير

«الْقَصَصُ» مفرد، تعني القصة، وهي في الأصل من «القص» بمعنى تعقب الأثر. في موضع آخر من القرآن قالت أم موسى لابنتها «قَصِيهِ» أي عَقِيهِ وابعثي عنه «وقالت لأخته قَصِيهِ» وقولهم لثأر الدم «القصاص» لأنه تتبع لحقوق أصحاب الدم. و«القصة» تعني بتاريخ القدماء والبحث في سير حياتهم. تقول هذه الآية - بعد شرح حياة المسيح عليه السلام -: إِنَّ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قِصَّةِ عِيسَى حَقِيقَةٌ أَنْزَلْنَاهَا اللَّهُ عَلَيْكَ. وعليه، فإن المزاعم الباطلة القائلة بالوهية المسيح، أو اعتباره ابن الله، أو بعكس ذلك اعتباره لقيطاً، كلها خرافات باطلة. ثم تضيف للتوكيد: إِنَّ الَّذِي يَلْبِقُ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللَّهُ «العزیز الحكيم» وحده، وَأَنْ اتَّخَذَ مَعْبُودًا آخَرَ دُونَهُ عَمَلٌ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ.

\*\*\*



## الآية

٦٣ - «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ».

### التفسير

تقول الآية: إذالم يستسلم هؤلاء للحق بعد الاستدلالات المنطقية في القرآن بشأن المسيح عليه السلام، وكذلك إذا لم يخضعوا للمباهلة واستمرّوا في عنادهم وتعصّبهم، فذلك دليل على أنّهم ليسوا طلاب حقّ، بل هم مقيدون بأغلال تعصّبهم المجحف، وأهوائهم الجامحة، وتقاليدهم المتحجرة. وبذلك يكونون من المفسدين في المجتمع. في الواقع، إنّ الذين تتّضح لهم الحقيقة، ثم لا ينفكّون عن عنادهم ولجاجتهم، لا يبحثون عن الحقّ، بل ينشدون الافساد، هدفهم هدم قواعد الدين السليم.

\*\*\*

## الآية

٦٤- «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

## التفسير

### الدعوة إلى الاتحاد

بدأ القرآن في الآيات السابقة بدعوة المسيحيين إلى الاستدلال المنطقي، وإذ رفضوا، دعاهم إلى المباحلة، فكان لهذا أثره في نفوسهم، فرفضوها ولكنهم رضخوا لشروط اعتبارهم ذميين. فانتَهز القرآن هذه الفرصة من استعدادهم النفسي، وعاد إلى طريقة الاستدلال. غير أن الاستدلال هذه المرة يختلف عن الاستدلال السابق اختلافاً كبيراً.

في الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الإسلام (بكل تفاصيله). ولكن الدعوة هذه المرة تتجه إلى النقاط المشتركة بين الإسلام وأهل الكتاب. وهذا يعلمنا القرآن درساً، مفاده: أنكم إذا لم توقفوا في حل الآخرين على التعاون معكم في جميع أهدافكم، فلا ينبغي أن يقعد بكم اليأس عن العمل، بل اسعوا لإقناعهم بالتعاون معكم في تحقيق الأهداف المشتركة بينكم، كقاعدة للانطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدسة.

هذه الآية تعتبر نداء «الوحدة والاتحاد» إلى أهل الكتاب، فهي تقول لهم: إنكم تزعمون - بل تعتقدون - أن التثليث (أي الاعتقاد بالآلهة الثلاثة) لا ينافي التوحيد، لذلك تقولون بالوحدة في التثليث. وهكذا اليهود يدعون التوحيد وهم يتكلمون بكلام فيه شرك ويعتبرون «العزير» ابن الله.

يقول لهم القرآن: إنكم جميعاً ترون التوحيد مشتركاً، فتعالوا نضع يداً بيد لنحيي هذا المبدأ المشترك بدون لفت أو دوران، ونتجنب كل تفسير يؤدي إلى الشرك والابتعاد عن التوحيد.

«ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً»

في بداية الآية تكررت قضية التوحيد مرتين: في «لا نعبد إلا الله» وفي «لا نشرك به شيئاً».

في هذه الآية يتكرر هذا للمرة الثالثة، ولكن بصراحة أكثر، وبتشخيص موضع الداء. لأن مفاد الآية هو: لا ينبغي لبعض متا أن يجعل من بعض آخرها يعبد من دون الله. ولعل في هذا إشارة إلى أحد موضوعين: «الأول»: أنه لا يجوز تأليه المسيح، وهو بشر مثلنا ومن أبناء نوعنا.

«والثاني»: أنه لا يجوز الاعتراف بالعلماء المنحرفين الذين يستغلون مكانتهم ويغيرون حلال الله وحرامه كيفما يحلو لهم، ولا يجوز اتباع هؤلاء.

يتضح مما سبق من الآيات القرآنية أنه كان هناك بين علماء أهل الكتاب جماعات يحرفون أحكام الله بحسب «مصالحهم» أو «تعصّبهم». إن الإسلام يرى أن من يتبع أمثال هؤلاء دون قيد أو شرط وهو يعلم بهم، إنما هو يعبدهم بالمعنى الواسع لكلمة العبادة. إن سبب هذا الحكم واضح، فإن حق وضع القوانين والتشريعات يعود إلى الله، فإذا قرّر أحد هذا الحق لغير الله فقد أشرك.

يقول المفسرون في ذيل تفسير هذه الآية إن (عدي بن حاتم) الذي كان نصرانياً ثم أسلم، عندما سمع هذه الآية، فهم من كلمة «أرباب» أن القرآن يقول إن أهل الكتاب يعبدون بعض علمائهم. فقال للنبي صلى الله عليه وآله: ما كنا نعبدهم يارسول الله. فقال صلى الله عليه وآله: أما كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟

فقال: نعم

فقال النبي صلى الله عليه وآله: هو ذلك<sup>١</sup>.

في الواقع يعتبر الإسلام الرق والاستعمار الفكري نوعاً من العبودية والعبادة لغير الله، وهو كما يحارب الشرك وعبادة الأصنام، يحارب كذلك الاستعمار الفكري الذي هو أشبه بعبادة الأصنام.

ولابد من الإشارة إلى أن «أرباب» جمع، لذلك لا يمكن أن نقول إن المقصود هو



النهي عن عبادة عيسى وحده. ولعلّ النهي يشمل عبادة عيسى وعبادة العلماء المنحرفين.

«فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»

لو أنهم - بعد دعوتهم دعوة منطقية إلى نقطة التوحيد المشتركة - أصرّوا على الإعراض، فلا بدّ أن يقال لهم: اشهدوا أننا قد أسلمنا للحق، ولم تسلموا. وبعبارة أخرى: فاعلموا من يطلب الحق، ومن يتعصب ويعاند. ثم قولوا لهم «اشهدوا بأنا مسلمون» فلا تأثير لعنادكم وعصيانكم وابتعادكم عن الحق في أنفسنا، وإنّا مازلنا على طريقنا - طريق الاسلام - سائرون، لا نعبد إلاّ الله، ولا نلتزم إلاّ الشريعة الاسلام، ولا وجود لعبادة البشرييننا.

رسائل النبيّ إلى رؤساء العالم

يقول التاريخ: عندما استقرّ الاسلام نسبياً في الحجاز، أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله رسائل إلى عدد من كبار رؤساء العالم في ذلك العصر. في بعض هذه الرسائل استند إلى هذه الآية الداعية إلى التوحيد - المبدأ المشترك بين الأديان السماوية - ولأهميّة الموضوع ندرج بعضاً من تلك الرسائل:

رسالة إلى المقوقس<sup>١</sup>

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الاسلام، أسلم تسلم، يؤتكَ الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم القبط<sup>٢</sup>. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»<sup>٣</sup>.

حمل «حاطب بن أبي بلتعة» رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المقوقس حاكم مصر، فوجده قد رحل إلى الاسكندرية، فركب إليه، وسلّمه الرسالة، ثم قال لحاطب: مامنعه

١ - المقوقس: حاكم مصر من قبل هرقل ملك الروم، وكان نصرانياً.

٢ - الاقباط: أقوام كانت تقطن مصر.

٣ - مكاتيب الرسول: ج ١ ص ٩٧.

إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده إلى غيرها أن يسَلط عليهم؟ فقال له حاطب: أأست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله؟ فقال له حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يقتلوه، أن لا يكون دعا عليهم، أن يهلكهم الله تعالى، حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت أنت حكيمٌ من عند حكيم.

ثم قال له حاطب: إنه كان قبلك من يزعم أنه الربّ الأعلى - يعني فرعون - فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بغيرك بك. إن هذا النبيّ دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصراني، ولعمري، ما بشاره موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام، إلاّ كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وآله، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن، إلاّ كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكلّ نبيّ أدرك قوماً فهم أمته، فالحقّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبيّ، ولسنا نهاك عن دين المسيح بل نأمرك به.

بقي حاطب بن أبي بلتعة أياماً ينتظر جواب المقوقس على رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعدها استدعاه المقوقس إلى قصره واستزاده معرفة بالاسلام وقال له: إلى ما يدعو محمد؟

قال حاطب: إلى أن نعبد الله وحده، ويأمر بالصلاة، خمس صلوات في اليوم والليلة، ويأمر بصيام رمضان، وحجّ البيت، والوفاء بالعهد، وينهي عن أكل الميتة، والدم.. ثم شرح له بعض جوانب حياة النبيّ صلى الله عليه وآله.

فقال المقوقس: هذه صفته، وكنت أعلم أن نبياً قد بقي، وكنت أظنّ أن مخرجه بالشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج من أرض العرب.

ثم دعا كاتبه الذي يكتب له بالعربية فكتب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله: «بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظنّ أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك...».

ثم عدّد له الهدايا التي بعثها إليه وختم رسالته بعبارة «والسلام عليك»<sup>١</sup>. تقول كتب التاريخ إن المقوقس أرسل نحو أحد عشر نوعاً من الهدايا وبينها طيب

أرسله لمعالجة مرضى المسلمين. فقبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْهُدَايَا، لَكِنَّهُ أَرْجَعَ الطَّيِّبَ قَائِلاً «إِنَّا قَوْمٌ لَا نَأْكُلُ حَتَّى نَجُوعَ، وَإِذَا أَكَلْنَا لَا نَشْبَعُ» مُشِيرًا بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ فِي تَنَاوُلِ الطَّعَامِ كَافِيَةٌ لِحِفْظِ صِحَّةِ الْمُسْلِمِينَ (وَلَعَلَّهُ - إِضَافَةٌ إِلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الصَّحِيَّةِ الْعَظِيمَةِ - لَمْ يَكُنْ يَأْمَنُ جَانِبَ الطَّيِّبِ الَّذِي كَانَ مَسِيحِيًّا وَرَبَّمَا كَانَ الطَّيِّبُ مَتَعَصِّبًا أَيْضًا، فَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرَكَ أَرْوَاحَ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ).

إِنَّ إِكْرَامَ الْمُتَوْقَّسِ سَفِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَالْهُدَايَا الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ، وَتَقْدِيمِ اسْمِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى اسْمِهِ، تَدَلُّ كَلِّهَا عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَدْ قَبِلَ دَعْوَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ، أَوْ أَنَّهُ - عَلَى الْأَقْلِ - مَالَ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَلَكِنَّهُ لَكِنِّي لَا يَهْتَرُ مَرْكَزَهُ امْتَنَعَ عَنِ إِظْهَارِ ذَلِكَ عَلَنًا.

### رسالة إلى قيصر الروم

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللهِ إِلَى هِرْقَلِ عَظِيمِ رُومٍ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ تَبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ. أَسْلَمْتُ تَسْلِمَ يُوْتِكُ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيْسِيِّينَ! يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

كَانَ حَامِلَ رِسَالَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى الْقَيْصِرِ رَجُلٌ اسْمُهُ «دَحِيَّةُ الْكَلْبِيِّ». وَتَهَيَّأَ السَّفِيرُ لِلانْتِقَالِ نَحْوِ أَرْضِ رُومٍ. وَلَكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، عَاصِمَةَ الْقَيْصِرِ، عَلِمَ أَنَّ الْقَيْصِرَ قَدْ يَتِمُّ شَطْرَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِلزِّيَارَةِ. فَاتَّصَلَ بِحَاكِمِ «بَصْرِيِّ» الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرٍ وَكَشَفَ لَهُ عَنِ مَهْمَتِهِ. وَيَبْدُو أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ قَدْ أَجَازَ دَفْعَ الرِّسَالَةِ إِلَى حَاكِمِ (بَصْرِيِّ) لِيُوصِلَهَا هَذَا إِلَى الْقَيْصِرِ.

بَعْدَ أَنْ اطَّلَعَ الْحَاكِمُ عَلَى الْأَمْرِ، اسْتَدْعَى عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ وَكَلَّفَهُ أَنْ يَسَافِرَ مَعَ دَحِيَّةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيُوصِلَ الرِّسَالَةَ إِلَى الْقَيْصِرِ. التَّقَى السَّفِيرُ قَيْصَرَ فِي حِمصٍ. وَكَانَتْ الْحَاشِيَّةُ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ أَفْهَمُوا دَحِيَّةَ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَسْجُدَ أَمَامَ الْقَيْصِرِ، وَأَنْ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ أَبَدًا حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ. فَقَالَ دَحِيَّةُ: لَا أَفْعَلُ هَذَا أَبَدًا، وَلَا أَسْجُدُ لِغَيْرِ اللَّهِ. فَأَعْجَبُوا بِمَنْطِقِهِ الْمَتِينِ. وَقَالَ لَهُ أَحَدٌ



رجال البلاط: إذْ لك أن تضع الرسالة تجاه منبر قيصر وتنصرف، إنْ أحداً غير القيصر لا يمسيها. فشكره دحية على ذلك، وترك الرسالة في ذلك المكان، وانصرف.

فتح قيصر الرسالة، وجلب انتباهه افتتاحها باسم الله، وقال: أنا لم أر رسالة مثل هذه غير رسالة سليمان. ثم طلب مترجمه ليقرأ له الرسالة ويترجمها. احتمال قيصر أن يكون كاتب الرسالة هو النبي الموعود في التوراة والإنجيل. فعزم على معرفة دقائق حياة هذا النبي. فأمر بالبحث في الشام لعلهم يعثرون على من يعرف شيئاً عن محمد صلى الله عليه وآله. واتفق أن كان أبو سفيان وجمع من قريش قد قدموا إلى الشام - التي كانت الجناح الشرقي للروم - للتجارة، فاتصل بهم رجال القيصر وأخذوهم إلى بيت المقدس، فسأهم القيصر: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا.

ثم قال القيصر للقريشيين - على طريق ترجمانه - : إني سائل (أبا سفيان) عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي. فإن كذبتني فكذبوه. فقال أبو سفيان: وإيم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت.

ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

أبو سفيان: هو فينا ذو حسب.

القيصر: هل كان من آباءه ملك؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: من يتبعه أشرف الناس أم ضعفاؤهم؟

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

القيصر: أيزيدون أم ينقصون؟

أبو سفيان: بل يزيدون.

القيصر: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: فهل قاتلتموه؟

أبو سفيان: نعم.. ثم استمر الحوار بين الاثنين عن موقف قريش من النبي صلى

الله عليه وآله وعن سجاياه ثم قال القيصر:

إن يكن ما تقول حقاً فإنه نبيّ، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أنّي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه - حسب تقاليد الاحترام يومئذٍ - وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، ثم دعا بكتاب رسول الله فقرأه<sup>١</sup>.

\* \* \*

## الآيات

- ٦٥ - «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».
- ٦٦ - «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يُعَلِّمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».
- ٦٧ - «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».
- ٦٨ - «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ».

## التفسير

«يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم...»

بالرجوع إلى التاريخ يتبين لنا أن جماعة اليهود حملوا العداة للاسلام منذ ظهوره. وبعد انتشار الاسلام واتساع نفوذه ونسخ الدين المسيحي بهذا الدين الجديد، حذا بعض المسيحيين حذو اليهود في معاداة الاسلام وأخذوا يؤلبون عليه. وكانوا أحياناً يرسلون الطييعين من أفرادهم لمحاججة الرسول صلى الله عليه وآله والتجادل معه، ولا يتركون وسيلة للدفاع عن دينهم إلاّ توسلوا بها.

من ذلك مثلاً أنهم كانوا يحاولون أن يظهرُوا إبراهيم - نبي الله العظيم الذي كان معظماً بين أتباع جميع الأديان - على أنه منهم. كان اليهود يقولون إنه منهم وإنه يدين باليهودية. وكان المسيحيون يقولون إنه منهم وإنه مسيحي.

هذه الآية ترد عليهم مزاعمهم، وتقول: إن جدلكم بشأن إبراهيم النبي المجاهد في سبيل الله جدل عقيم، لأنه كان قبل موسى والمسيح بسنوات كثيرة، والتوراة والإنجيل نزلا بعده بسنوات كثيرة «وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده» أيعقل أن يدين نبي سابق



بدين لاحق؟ «أفلا تعقلون»؟

«ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم»  
 هنا يوبخهم الله قائلاً إنكم قد بحثتم فيما يتعلق بدينكم الذي تعرفونه (وشاهدتم  
 كيف أنكم حتى في بحث ما تعرفونه قد وقعتم في أخطاء كبيرة وكم بعدتم عن الحقيقة، فقد  
 كان علمكم، في الواقع، جهلاً مركباً)، فكيف تريدون أن تجادلوا في أمر لا علم لكم به، ثم  
 تدعون ما لا يتفق مع أي تاريخ؟  
 وفي نهاية الآية يقول: «والله يعلم وأنتم لا تعلمون» توكيداً للموضوع السابق، وتمهيداً  
 لبحث الآية التالية.

«ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً...»

وهذا رد صريح على هذه المزاعم يقول إن إبراهيم لم يكن من اليهود ولا من  
 المسيحيين، وإنما كان موثقاً طاهراً مخلصاً أسلم لله ولم يشرك به أبداً.  
 «الحنيف» من الحنف وهو الميل من شيء إلى شيء، وهو في لغة القرآن ميل عن  
 الضلال إلى الاستقامة.

يصف القرآن إبراهيم أنه كان حنيفاً لأنه شقّ حجب التعصب والتقليد الأعمى،  
 وفي عصر كان غارقاً في عبادة الأصنام، نبذ هو عبادة الأصنام ولم يطأطأ لها رأساً.  
 إلا أن العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام في العصر الجاهلي كانوا يعتبرون  
 أنفسهم حنفاء على دين إبراهيم. وقد شاع هذا شيوفاً حداً بأهل الكتاب إلى أن يطلقوا عليهم  
 اسم «الحنفاء». وهذا اتخذت لفظه «الحنيف» معنىً معاكساً تماماً لمعناها الأصلي، غدت  
 ترادف عبادة الأصنام. لذلك فإن القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنه كان «حنيفاً» أضاف  
 «مسلياً» ثم أردف ذلك بقوله «وما كان من المشركين» لإبعاد احتمال آخر.

كيف كان إبراهيم مسلياً؟

قديسأل سائل: إذالم نكن نعتبر إبراهيم من أتباع موسى ولا من أتباع عيسى فنحن  
 بطريق أولى لا نستطيع أن نعتبره مسلياً أيضاً، لأنه كان قبل كل هذه الأديان. فكيف  
 يصفه القرآن بأنه كان مسلياً؟

جواب هذا السؤال هو أن «الاسلام» في القرآن لا يعني أتباع رسول الاسلام فقط، بل الكلمة بالمعنى الأوسع تعني التسليم المطلق لأمر الله للتوحيد الكامل الخالص من كل شرك وثنوية، وكان إبراهيم حامل لواء ذلك الاسلام.

### ارتباط المدرسة الكفرية بالهدف

«إن أولى الناس بإبراهيم للذين أتبعوه...»

لوضع حدّ لجدل أهل الكتاب حول إبراهيم، نبيّ الله العظيم، الذي كانت كلّ جهة تدّعي أنه منها، وكانوا يستندون غالباً إلى قرابتهم منه، أو اشتراكهم معه في العنصر، أعاد القرآن مبدأ رئيساً إلى الأذهان وهو أنّ الارتباط بالأنبياء والولاء لهم إنّما يكون عن طريق الإيمان وأتباعهم فقط. وبناءً على ذلك، فإنّ أقرب الناس لإبراهيم هم الذين يتبعون مدرسته ويلتزمون أهدافه، سواء بالنسبة للذين عاصروه «للكذين أتبعوه» أو الذين بقوا بعده أوفياء لمدرسته وأهدافه، مثل نبيّ الاسلام صلّى الله عليه وآله وأتباعه «وهذا النبيّ والذين آمنوا». والسبب واضح، فاحترام الأنبياء إنّما هو لمدرستهم، لا لعنصرهم وقبيلتهم ونسبهم. وعليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركة قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادئ دعوة إبراهيم، فقد بقى رسول الاسلام صلّى الله عليه وآله والمسلمون - بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه وتعميمه على جميع أصول الاسلام وفروعه - من أوفى الأوفياء له، فلا بدّ أن نعترف بأنّ هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا أولئك.

ترى هذه الآية أنّ الرابط الوحيد الذي يربط الناس بالأنبياء هو أتباع مدرستهم وأهدافهم، ليس غير.

لذلك نجد أنّ النصوص المروية عن أئمة الاسلام تؤكد هذا الموضوع بصراحة تامّة. من ذلك أنه جاء في تفسير مجمع البيان ونور الثقلين، نقلًا عن الامام عليّ عليه السلام أنه قال: «إنّ أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاءوا به - ثم تلا الآية المذكورة ثم قال: - إنّ وليّ محمّد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإنّ عدوّ محمّد من عصى الله وإن قربت قرابته».

«والله وليّ المؤمنين»

في الختام يبشّر الذين يتبعون رسالة الأنبياء العظام بأنّ الله وليّهم يرعاهم ويحفظهم

ويعينهم.

## الآية

٦٩ - «وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

## النزول

يقول بعض المفسرين إن فريقاً من اليهود سعوا أن يستميلوا إلى اليهودية بعض الشخصيات الاسلامية المجاهدة، مثل «معاذ» و«عمار» وغيرهما مستعينين بالوساوس الشيطانية وغير ذلك. فنزلت هذه الآية تنذر المسلمين مما يبيت لهم اليهود.

## التفسير

«وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ»

سعى أعداء الاسلام، وعلى الأخص اليهود، كما جاء في سبب النزول أن يباعدوا بين المسلمين والاسلام، ولم يتوانوا في سبيل ذلك في بذل كلّ جهد، حتى أنهم طمعوا في إغراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله المقربين لعلمهم يستطيعون صرفهم عن الاسلام. ولا شكّ أنهم لو نجحوا في التأثير على عدد منهم، أو حتى على فرد واحد منهم، لكان ذلك ضربة شديدة على الاسلام تمهد الطريق لتضليل الآخرين أيضاً.

هذه الآية تكشف خطة الأعداء، وتندرهم بالكف عن محاولاتهم العقيمة استناداً إلى التربية التي نشأ عليها هذا الفريق من المسلمين في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله بحيث لا يمكن أن يكون هناك أيّ احتمال لارتدادهم. إنّ هؤلاء قد اعتنقوا الإسلام بكلّ وجودهم، ولذلك فإنهم يعشقون هذه المدرسة الانسانية بجماع قلوبهم ويؤمنون بها. وبناءً على ذلك لا سبيل للأعداء إلى تضليلهم، بل أنهم إنّما يضلّون أنفسهم. وذلك لأنهم بإلقاء الشبهات حول الاسلام وعلى رسول الاسلام واتهامها بشتى التهم، إنّما يربّون في أنفسهم روح سوء الظن. وبعبارة أوضح: إن العياب الذي يتصيّد الهفوات يعمى عن رؤية نقاط



القوة، أو بسبب تعصبه وعناده يرى النقاط المضيئة الإيجابية نقاطاً مظلمة سلبية، وكلما ازداد إصراراً على هذا، إزداد بُعداً عن الحق. ولهذا يقول القرآن «وما يُضِلُّون إلا أنفسهم وما يشعرون».

ولعلّ تعبير «وما يشعرون» إشارة إلى هذه الحالة النفسية، وهي أنّ الانسان يقع دون وعي منه تحت تأثير أقواله هو أيضاً، وفي الوقت الذي يحاول فيه بالسفسطة والكذب والافتراء أن يضلّ الآخرين، لا يكون هو نفسه بمنأى عن التأثير بأكاذيبه، فتروح هذه الاختلافات تؤثر بالتدريج في روحه وتتمكّن فيه بعد فترة وجيزة بصورة عقيدة راسخة، فيصدّقها ويضلّ نفسه بها.

\*\*\*

## الآيتان

- ٧٠ - «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» .  
٧١ - «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .

## التفسير

«يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون»  
السؤال هنا أيضاً موجه إلى أهل الكتاب عما يدعوهم إلى العناد واللجاجة والإصرار عليها بعد أن قرأوا علامات نبي الإسلام في التوراة والإنجيل ويعلمون ما فيها، فلماذا ينكرونها؟

«يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل»  
مرة أخرى يستنكر القرآن قيامهم بالخلط بين الحق والباطل، وإخفاءهم الحق مع علمهم به، فهم على علمهم بالأمارات الواردة في التوراة والإنجيل عن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله يخفونها.  
إنه يوبخهم أولاً على انحرافهم عن طريق الحق مع علمهم به، ثم يوبخهم في الآية الثانية على تضليلهم الآخرين<sup>١</sup>.

\*\*\*

١ - في تفسير الآية ٤٢ من سورة البقرة المشابهة لهذه الآية تحدثنا عن هذا الموضوع - انظر الجزء

## الآيات

٧٢ - «وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكُفِّرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

٧٣ - «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

٧٤ - «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

## النزول

يقول بعض المفسرين القدامى إن اثني عشر من يهود خيبر وغيرها وضعوا خطة ذكّية لزعزعة إيمان بعض المؤمنين، فتعاهدوا فيما بينهم أن يصبحوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله ويتظاهروا باعتناق الاسلام، ثم عند المساء يرتدون عن إسلامهم، فاذا سئلوا لماذا فعلوا هذا، يقولون: لقد راقبنا أخلاق محمد عن قرب، ثم عندما رجعنا إلى كتبنا وإلى أحبارنا رأينا أن ما رأيناه من صفاته وسلوكه لا يتفق مع ما هو موجود في كتبنا، لذلك ارتدنا. إن هذا سيحمل بعضهم على القول بأن هؤلاء قد رجعوا إلى كتبهم السماوية التي هم أعلم متابعيها، إذاً لابد أن يكون ما يقولونه صحيحاً. وهذا تنزعع عقديتهم.

هناك سبب نزول آخر، إلا أن ما ذكرناه أقرب إلى معنى الآية.

## التفسير

تكشف هذه الآية عن خطة هدامة أخرى من خطط اليهود، وتقول إن هؤلاء لكي يزلزلوا بُنية الإيمان الاسلامي توسلوا بكل وسيلة ممكنة. من ذلك أن «طائفة من أهل الكتاب» اتفقوا أن يؤمنوا بما انزل على المسلمين في أول النهار ويرتدوا عنه في آخره. (لعل المقصود من أول النهار وآخره قصر المدة بين إيمانهم وارتدادهم، سواء أكان ذلك في أول النهار



حقاً أم في أي وقت آخر). أما قصر هذه المدة يوحي إلى الآخرين أن يظنوا أن هؤلاء كانوا يرون الاسلام شيئاً عظيماً قبل الدخول فيه، ولكنهم بعد أن أسلموا وجدوه شيئاً آخر قد خيب آمالهم، فارتدوا عنه.

لا شك أن مثل هذه المؤامرة كانت ستؤثر في نفوس ضعفاء الإيمان، خاصة وأن أولئك اليهود كانوا من الأخبار العلماء، وكان الجميع يعرفون عنهم أنهم عالمون بالكتب السماوية وبعلائم خاتم الأنبياء. فإيمانهم ثم كفرهم كان قادراً على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد. لذلك كانوا يعتمدون كثيراً على خطتهم الماهرة هذه، و«لعلهم يرجعون» دليل على أملهم هذا.

«ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم»

كانت خطتهم تقتضي أن يكون إيمانهم بالاسلام ظاهرياً، وأن يبقى ارتباطهم باتباع دينهم. يستفاد من بعض الروايات أن يهود خيبر أوصوا يهود المدينة بذلك لئلا يقع القريبون من رسول الله صلى الله عليه وآله تحت تأثيره فيؤمنوا به حقاً، لأنهم كانوا يعتقدون أن النبوة يجب أن تكون في العنصر اليهودي، فإذا ظهر نبي فلا بد أن يكون يهودياً.

يرى بعض المفسرين أن جملة «لا تؤمنوا» من الإيمان الذي يعني «الوثوق والاطمئنان» كما هو أصل الكلمة اللغوي. وبناءً على ذلك يكون المعنى: هذه المؤامرة يجب أن تبقى مكتومة وسرية، وأن لا يعلم بها أحد من غير اليهود، حتى المشركين، لئلا تنكشف وتحبط، ففضح الله هذه المؤامرة في هذه الآيات وفضحهم، ليكون ذلك درس عبرة للمؤمنين، ودرس هداية للمعاندين.

«قل إن الهدى هدى الله»

هذه جملة معترضة، يقولها الله، ضمن كلام على لسان اليهود في ما قبلها وما بعدها

من الآيات.

في هذه الآية التي تقع بين كلام اليهود، يرد الله عليهم رداً قصيراً ولكنه عميق المعنى. فأولاً: الهداية مصدرها الله، ولا تختص بعنصر أو قوم بذاته، فلا ضرورة في أن يجيء النبي من اليهود فقط. وثانياً: إن الذين شملهم الله بهديته الواسعة لا تززعهم هذه المؤامرات ولا تؤثر فيهم هذه الخطط.

«أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم أو يحاجوكم عند ربكم»

هذه الآية استمرار لأقوال اليهود، بتقدير عبارة «ولا تصدقوا»<sup>١</sup> قبلها.

وعلى ذلك يصبح معنى الآية هكذا: «لا تصدقوا أن ينال أحد ما نلتُم من الفخر وما نزل عليكم من الكتب السماوية، وكذلك لا تصدقوا أن يستطيع أحد أن يجادلكم يوم القيامة أمام الله ويدينكم، لأنكم خير عنصر وقوم في العالم، وأنتم أصحاب النبوة والعقل والعلم والمنطق والاستدلال!» .

بهذا المنطق الواهي كان اليهود يسعون لنيل ميزة يتميزون بها، من حيث علاقتهم بالله، ومن حيث العلم والمنطق والاستدلال، على الأقسام الأخرى. لذلك يردّهم الله في الآية التالية بقوله:

«قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ علم»

أي: قل لهم إنّ المواهب والنعم، سواء أكانت النبوة والاستدلالات العقلية المنطقية، أم المفاخر الأخرى، هي جميعاً من الله، يسبغها على من يشاء من المؤهلين اللاتئنين الجديرين بها. إنّ أحداً لم يأخذ عليه عهداً ووعداً، ولا لأحد قرابة معه. إنّ جوده وعفوه واسعان، وهو علم بمن يستحقّها.

«يخصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم»

هذا تأكيد لما سبق أيضاً: إنّ الله يخصّ من عباده من يراه جديراً برحمته - بما في ذلك مقام النبوة والقيادة - دون أن يستطيع أحد تحديده فهو صاحب الأفضال والنعيم العظيمة.

#### خطط قديمة

تعتبر هذه الآيات، في الواقع، من آيات اعجاز القرآن، لأنها تكشف أسرار اليهود وأعداء الاسلام وتفضح خططهم لزراعة مسلمي الصدر الأول، فتيقظ المسلمون ببركتها،

١ - إذا كانت «لا تؤمنوا» في الآية السابقة بمعنى «لا تطمئنوا» فإنّ الآية «أن يؤتى أحد مثل ما أُوتيتُم...» يمكن أن تكون معطوفة على تلك .

ووعوا وساوس الأعداء المغرية. ولكننا لو دققنا النظر لأدركنا أن تلك الخطط تجري في عصرنا الحاضر أيضاً بطرق مختلفة. إن وسائل إعلام الأعداء القوية المتطورة مستخدمة الآن للغرض نفسه، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية في عقول المسلمين، وبخاصة الجيل الشاب. وهم في هذا السبيل لا يتورعون عن كلّ فرية، ويلجأون إلى كلّ السبل ويتلبسون بلبوس العالم والمستشرق والمؤرخ وعالم الطبيعيات والصحفي، بل حتى الممثل السينمائي. إنهم يصرحون أن هدفهم ليس التبشير بالمسيحية وحمل المسلمين على اعتناقها، ولا اعتناق اليهودية، بل هدفهم هو هدم أسس المعتقدات الإسلامية في أفكار الشباب، وجعلهم غير مهتمين بدينهم وتراثهم. إن القرآن اليوم يحذر المسلمين من هذه الخطط كما حذرهم في القديم.



## الآيتان

٧٥ - «وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُقِنُّنَّارِ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ بَانْتَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» .  
٧٦ - «بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» .

## النزول

نزلت هذه الآية بشأن يهوديين أحدهما أمين وصادق، والآخر خائن منحط. الأول هو «عبدالله بن سلام» الذي أودع عنده رجل ١٢٠٠ أوقية من الذهب أمانة. ثم عندما استعادها ردها إليه. والله يثني عليه في هذه الآية لأمانته. واليهودي الثاني هو «فناص بن عازورا»، ائتمنه رجل من قريش بدينار، فخانه فيه. والله يذمه في هذه الآية لخيانته الأمانة. وقيل إنَّ القسم الأول من الآية يقصد جمعاً من النصارى، وأمّا الذين خانوا الأمانة فهم جمع من اليهود. وقد تشير الآية إلى الحالتين، إذ أننا نعلم أنّ الآيات - وإن كان لبعضها سبب نزول خاص - لها طابع عامّ وسبب النزول لا يخصّها.

## التفسير

ترسم الآية ملامح أخرى لأهل الكتاب. كان جمع من اليهود يعتقدون أنّهم لا يكونون مسؤولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحقّ في تملك أماناتهم! كانوا يقولون: إنّنا أهل الكتاب، وأنّ النبيّ والكتاب السماوي نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محرّمة عندنا. لقد تغلّغت فيهم هذه الفكرة بحيث غدت عقيدة دينية راسخة. وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله «يقولون على الله الكذب» قال اليهود: إنّ لنا حق التصرف بأموال

العرب واغتصابها لأنهم مشركون ولا يتبعون دين موسى .  
 وقيل أيضاً إن اليهود كانت لهم مع العرب اتفاقات اقتصادية وتجارية. وعندما  
 أسلم العرب، امتنع اليهود عن ردّ حقوقهم، قائلين: إنكم عند عقد الاتفاق لم تكونوا من  
 مخالفتنا. أما وقد اتخذتم ديناً جديداً فقد سقط حقكم!.  
 من الجدير بالذكر أن هذه الآية تعلن أن أهل الكتاب لم يكونوا جميعاً يهجون هذا  
 الطراز من التفكير غير الانساني، بل كان فيهم جماعة ترى أن من واجبها أن تؤدي حقّ  
 الآخرين. ولذلك فإنّ القرآن لم يدينهم جميعاً ولم يلق تبعه أخطاء بعضهم على الجميع، ولذلك  
 يقول «ومن أهل الكتاب من إن نامته بقنطاراً يؤدّه إليك ومنهم من إن نامته بدناراً يؤدّه إليك إلا  
 ما دمت عليه قائماً».

إنّ تعبير «إلا ما دمت عليه قائماً» أي واقفاً ومسيطرأ، يشير إلى مبدأ أصيل في نفسية  
 اليهود، فكثير منهم لا يجدون أنفسهم ملزمين برّد حقّ إلا بالقوة. ليس أمام المسلمين  
 لاسترجاع حقوقهم منهم سوى هذا السبيل، سبيل السعي للحصول على القوة التي تجعلهم  
 يردّون حقوقهم.

إنّ الحوادث التي جرت في الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة أثبتت بما لا يدع  
 مجالاً للشكّ أنّ القرارات الدولية والرأي العام العالمي، وقضايا الحقّ والعدالة وأمثالها، لا  
 قيمة لها في نظر أعدائنا ولا معني، وما من شيء يحملهم على الخضوع للحقّ سوى القوة. وهذه  
 من المسائل التي تنبأ بها القرآن.

«ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل»

هذه الآية تبيّن منطقهم في أكل أموال الناس، وهو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب»  
 أفضلية على «الأميين» أي على المشركين والعرب الذين كانوا أميين غالباً، لذلك يحقّ لهم  
 أن يستولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحقّ أن يؤاخذهم على ذلك، حتى أنّهم ينسبون  
 إلى الله تقرير هذا التفوق الكاذب.

لا شكّ أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرد خيانة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون  
 هذا حقاً من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلاً:

«ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»

هؤلاء يعلمون أنه ليس في كتبهم السماوية أي شيء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس في أموالهم، ولكنهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يخلقون الأكاذيب وينسبونها إلى الله.

«بلى من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين»

«بلى» تستعمل في اللغة العربية رداً على النفي أو جواباً على استفهام مقترن بالنفي، كقوله تعالى: «أأستبرأ بربكم قالوا بلى»<sup>١</sup> و«نعم» جواباً للاستفهام المثبت، مثل «فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم»<sup>٢</sup>.

هذه الآية تنفي مقولة اليهود «ليس علينا في الأميين سبيل» التي قرروا فيها لأنفسهم حرية العمل، فاستندوا إلى هذا الزعم المزيف للاعتداء على حقوق الآخرين بدون حق. ولعل الذين يتلاعبون اليوم بمصائر شعوب العالم، ولا يتورعون عن ارتكاب كل اعتداء على حقوق الانسان، ويرون القوانين مجرد العوبة بيدهم لتحقيق مصالحهم، يستندون أيضاً إلى مثل هذا الاستدلال الاسرائيلي.

بينما القرآن لا يعترف بالتفوق العنصري ولا الشخصي، ويرى أن أولياء الله الحقيقيين هم أولئك الذين يتجنبون الإثم، ويعترفون بحقوق المجتمع، ولا يستغلون مراكزهم لتحقيق مصالحهم الشخصية.

تقرر الآية أن مقياس الشخصية والقيمة الانسانية ومحبة الله يتمثل في الوفاء بالعهد وفي عدم خيانة الأمانة خاصة، وفي التقوى بشكل عام، فتقول: «من أوفى بعهده وأتقى فإن الله يحب المتقين».

واليوم أيضاً تتوافر الأدلة على أن فريقاً من أتباع هذا الدين يحملون العقيدة نفسها تجاه سائر شعوب العالم، فيسيحون لأنفسهم أن يمدوا أيدهم إلى ثروات الشعوب وأموالها وكل شيء يخصها. وهذه كلها تشير إلى عظمة القرآن وأصالة منطقه.

إن الأدلة المذكورة قد جمعت في بروتوكولاتهم وكتبهم الخاصة بهذا الموضوع، وهي



متاحة لمن يريد الاطلاع عليها.

#### اعتراض:

قد يقول قائل إنّ الاسلام قرّر أيضاً مثل هذا الحكم بالنسبة لأموال الأجانب، إذ أنه يحيز الاستيلاء على أموالهم.

#### الجواب:

إنّ اتّهام الاسلام بهذا افتراء لاشكّ فيه، إذ أنّ من أحكام الاسلام القاطعة الواردة في كثير من الأحاديث، هو «ليس من الجائز خيانة الأمانة سواء أكانت الأمانة تخصّ مسلماً أم غير مسلم، وحتى المشرك وعباد الأصنام».

في حديث معروف عن الامام السجاد عليه السلام قال: «عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمّداً بالحقّ نبياً لو أن قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب ائتمني على السيف الذي قتله به لأدّيته إليه»<sup>١</sup>.

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ الله لم يبعث نبياً قط إلاّ بصدق الحديث وأداء الأمانة مؤدّاة إلى البرّ والفاجر»<sup>٢</sup>.

بناءً على ذلك فإنّ ماجاء في هذه الآية عن اليهود وخيانتهم الأمانة ومنطقهم في تسوية تلك الخيانة لم يسمح به الاسلام بأيّ شكل من الأشكال، فالمسلمون مكلفون أن لا يخونوا الأمانة في جميع الأحوال.

\*\*\*

١ - أمالي الصدوق: ص ١٤٩.

٢ - مشكاة الأنوار، عن سفينة البحار.

## الآية

٧٧ - «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

## النزول

جمع من أبحار اليهود وعلماهم مثل «أبي رافع» و «حي بن أخطب» و«كعب بن أشرف» حين لاحظوا أنَّ مراكزهم الاجتماعية بين اليهود معرضة للخطر، عمدوا إلى العلامات الموجودة في التوراة بشأن خاتم الأنبياء والتي كانوا هم أنفسهم قد دونوها بأيديهم في نسخ التوراة، فحرقوها وأقسموا على أنَّ تلك الكتابات المحرقة من الله. لذلك نزلت هذه الآية وفيها إنذار شديد لهم.

وهناك مفسرون آخرون ذهبوا إلى أنَّ هذه الآية نزلت في «أشعث بن قيس» الذي كان يريد استملاك أرض لغيره عن طريق الكذب والتزوير. وعندما تهباً لأداء اليمين لتوثيق ادعائه نزلت الآية، فاستولى الخوف على أشعث واعترف بالحق وأعاد الأرض لصاحبها.

## التفسير

تشير الآية إلى جانب آخر من آثام اليهود وأهل الكتاب. ولكونها وردت بصيغة عامة، فإنها تشمل كلَّ من تنطبق عليه هذه الصفات.

تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ عَهودَهُمْ مَعَ اللَّهِ وَالْقَسَمَ بِاسْمِ الْمَقْدَسِ مَوْضِعَ بَيْعٍ وَشَرَاءٍ لِقَاءِ مَبَالِغِ مَادِيَّةٍ، سَيَكُونُ عِقَابُهُمْ كَالتَّالِي:

أنهم سوف يُجرمون من نعم الله التي لا نهاية لها في الآخرة «أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ». ثم إِنَّ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِكُنْتَهُ لَا يَكَلِّمُ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ «وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ». كما إِنَّ اللَّهَ سَوْفَ يَشِيحُ بِنَظَرِهِ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ولا يطهرهم من ذنوبهم «ولا يزكّهم».

وأخيراً سيُعذبهم عذاباً شديداً «ولهم عذاب أليم».

المقصود من «الثلث القليل» هو أيّ ثمن ما ذى يعطى مقابل ارتكاب هذه الذنوب

الكبيرة، حتى وإن كان هذا الثمن يتمثل في رئاسات كبيرة وواسعة، فهي مع ذلك قليلة.

بديهي أنّ كلام الله ليس نطق اللسان، لأنّ الله منزّه عن التجسّد، إنّما الكلام عن

طريق الإلهام القلبي، أو عن طريق إحداث أمواج صوتية في الفضاء، كالكلام الذي سمعه

موسى عليه السلام من شجرة الطور.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه العواقب الخمس المترتبة على «نقض العهد» و«الأيمان

الكاذبة» المذكورة في هذه الآية ربما تكون إشارة إلى مراحل «القرب والبعد» من الله.

إنّ من يقترب من الله ويدنو من ساحة قربه تشمله مجموعة من النعم الإلهية

المعنوية، فإذا ازداد اقترباً كلمه الله، وإنّ دنا أكثر نظر إليه الله نظرة الرحمة، وإنّ اقترب

أكثر طهره الله من آثار ذنوبه، وأخيراً ينجو من العذاب الأليم وتغمره نعم الله، أمّا الذين

يسبرون في طريق نقض العهود واستغلال اسم الله بشكل غير مشروع، فيحرمون من كلّ تلك

النعم ويتراجعون مرحلة بعد مرحلة. في تفسير الآية ١٧٤ من سورة البقرة، المشابهة لهذه الآية،

شرح أوفى للموضوع.



## الآية

٧٨ - «وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

## التفسير

«يلوي» من اللي وهو الامالة. ولوى لسانه كناية عن الكذب.

هذه الآية التي تؤكد ما بحثته الآيات السابقة بشأن خيانة اليهود (وهي شبيهة بها في سبب نزولها) تقول: إِنَّ فَرِيقًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِمُ الْكِتَابِ. وهذا كناية عن تحريفهم كلام الله.

وتضيف: إِنَّهُمْ فِي تَحْرِيفِهِمْ هَذَا مِنَ الْمَهَارَةِ بَحِيثٍ إِنَّكُمْ تَحْسَبُونَ مَا يَقْرَأُونَهُ آيَاتٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ «لنحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب». ولكنهم لا يقنعون بذلك، بل يشهدون علانية بأنه من كتاب الله، وهو ليس كذلك «ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله».

مرة أخرى يقول القرآن: إِنَّهُمْ فِي عَمَلِهِمْ هَذَا لَيْسُوا ضَحِيَّةَ خَطَأٍ، بَلْ هُمْ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ بَعِيًّا وَبِتَقْصُدٍ، وَيَنْسِبُونَ إِلَيْهِ هَذِهِ التَّهْمَ الْكَبِيرَةَ وَهُمْ عَالِمُونَ بِمَا يَفْعَلُونَ «ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون».

## الآيتان

٧٩- «مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالثَّبُوتَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتَيْنِ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ».

٨٠- «وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

## النزول

في سبب نزول هذه الآية روايتان:  
الأولى - أنّ رجلاً قال: يا رسول الله نحن نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، ألا نسجد لك؟  
قال: لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله، ولكن اكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله، فأنزل الله الآية.  
الثانية - أنّ أبا رافع من اليهود ومعه رئيس وفد نجران قالاً للنبي: أتريد أن نعبدك ونتخذك إلهاً؟  
فقال: معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فأنزل الله الآية.

## التفسير

سبق أن قلنا إنّ واحدة من عادات أهل الكتاب القبيحة - اليهود والنصارى - كانت تزيف الحقائق. من ذلك قولهم بالوهية عيسى، زاعمين أنه هو الذي أمرهم بذلك، وكان هذا ما يريد بعضهم أن يحققه بشأن رسول الاسلام أيضاً، للأسباب التي ذكرناها في نزول الآية.

إنّ الآية ردّ حاسم على جميع الذين كانوا يقترحون عبادة الأنبياء. تقول الآية: ليس لكم أن تعبدوا نبيّ الاسلام ولا أيّ نبيّ آخر ولا الملائكة. ويخطىء من يقول إنّ عيسى قد دعاهم إلى عبادته.

«ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحُكْم والنُبوّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله» الآية تنفي نفيّاً مطلقاً هذا الأمر. أي أنّ الذين أرسلهم الله وأتاهم العلم والحكمة لا يمكن - في أية مرحلة من المراحل - أن يتعدّوا حدود العبودية لله. بل أنّ رسل الله هم أسرع خضوعاً له من سائر الناس، لذلك فهم لا يمكن أن يخرجوا عن طريق العبودية والتوحيد ويجرّوا الناس إلى هوة الشرك .

«ولكن كونوا ربّانين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرون»

«الربّاني» هو الذي أحكم ارتباطه بالله. ولما كانت الكلمة مشتقة من «ربّ» فهي تطلق أيضاً على من يقوم بتربية الآخرين وتدير أمورهم وإصلاحهم، والكلمة من حيث اللغة منسوبة إلى الربّ بزيادة الألف عند إضافتها إلى ياء النسبة، كما في النسبة إلى «بحرين» نقول «بحراني».

يقول القرآن في هذه الآية: إنّ هذا العمل (دعوة الأنبياء الناس إلى عبادتهم) لا يليق بهم، إنّ ما يليق بهم هو أن يجعلوا الناس علماء إلهيين في ضوء تعليم آيات الله وتدرّيس حقائق الدين، ويصيّروا منهم أفراداً لا يعبدون غير الله ولا يدعون إلّا إلى العلم والمعرفة. يتضح من ذلك أنّ هدف الأنبياء لم يكن تربية الناس فحسب، بل استهدفوا أكثر من ذلك تربية المعلمين والمرتبين وقادة الجماعة، أي تربية أفراد يستطيع كلّ منهم أن يضيء بعلمه وإيمانه ومعرفته محيطاً واسعاً من حوله.

تبدأ الآية بذكر «التعليم» أولاً ثم «التدرّيس». تختلف الكلمتان من حيث اتّساع المعنى، فالتعليم أوسع ويشمل كلّ أنواع التعليم، بالقول وبالعمل، للمتعلّمين وللأمّيين. أمّا التدرّيس فيكون بالكتاب والمطالعة، فهو أخصّ والتعليم أعمّ.

«ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً»

هذه تكملة لما بحث في الآية السابقة، فكما أنّ الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم،



فإنهم كذلك لا يدعونهم إلى عبادة الملائكة وسائر الأنبياء. وفي هذا جواب لمشركي العرب الذين كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات الله، وبذلك يسغون عليهم نوعاً من الألوهية، ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم من أتباع دين إبراهيم. كذلك هو جواب للصابئة الذين يقولون إنهم أتباع يحيى، وكانوا يرفعون مقام الملائكة إلى حدّ عبادتهم. وهو أيضاً ردّ على اليهود الذين قالوا إنّ «عزيراً» ابن الله وأضفوا عليه طابعاً من الربوبية، وكانوا ينسبون ذلك إلى الأنبياء. فالآية تردّ هؤلاء جميعاً وتقول إنه لا يليق بالأنبياء أن يدعوا الناس إلى عبادة غير الله.

«أيا مكرم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون»

وفي الختام يقول: أيمكن أن يدعوك نبيّ إلى الكفر بعد أن اخترتَ الاسلام ديناً؟ واضح أنّ «الاسلام» هنا يقصد به معناه الأوسع، كما هي الحال في مواضع كثيرة من القرآن، وهو التسليم لأمر الله والإيمان والتوحيد. أي كيف يمكن لنبيّ أن يدعو الناس أولاً إلى الايمان والتوحيد، ثم يدلّهم على طريق الشرك؟ أو كيف يمكن لنبيّ أن يهدم ما بناه الأنبياء في دعوتهم الناس إلى الاسلام. فيدعوهم إلى الكفر والشرك؟ تنوّه الآية ضمناً بعصمة الأنبياء وعدم انحرافهم عن مسير إطاعة الله<sup>١</sup>.

### منع عبادة البشر

تدين هذه الآيات بصراحة كلّ عبادة، وخاصة عبادة البشر، سوى عبادة الله، وترتبي في الانسان روح الحرّيّة واستقلال الشخصية، تلك الروح التي لا يكون بدونها جديراً بحمل اسم إنسان.

نعرف من خلال التاريخ العديد من الأشخاص الذين كانوا، قبل الوصول إلى السلطة، يتميّزون بالبراءة ويدعون الناس إلى الحقّ والعدالة والحرّيّة والإيمان. ولكنهم ما أن صدعوا عروش السلطة والهيمنة على المجتمع غيروا سيرتهم شيئاً فشيئاً وانحازوا إلى فكرة عبادة الشخصية ودعوا الناس إلى عبادتهم.

١ - في القراءة المعروفة التي اعتمدها طبعة القرآن السائدة، تأتي «ولا يا مكرم» في حالة نصب - بفتح الراء - وهي معطوفة على «أي يؤتبه الله» في الآية السابقة. و«لا» توكيد لـ«ما» النافية في الآية السابقة. وعليه تكون الآية بهذا المعنى: وما كان لبشر أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً.

في الواقع، أن من أساليب تمييز «دعاة الحق» عن «دعاة الباطل» هو هذا. فدعاة الحق - وعلى رأسهم الأنبياء والأئمة - كانوا وهم في قمة السلطة، كما كانوا قبل أن تكون لهم أية سلطة، يدعون إلى الأهداف الدينية المقدسة والانسانية والتوحيد والحرية. أما دعاة الباطل، فإن أول ما يبادرون إليه عند وصولهم السلطة هو الدعوة لأنفسهم وحب الناس على نوع من عبادتهم، نتيجة تملق الناس الضعفاء المحيطين بهم، وكذلك نتيجة ضيق أفاقهم وغرورهم.

هناك حديث عن الامام علي عليه السلام تظهر من خلاله شخصيته الكبيرة الفذة، ويعتبر دليلاً وشاهداً على هذا البحث.

عند وصول الامام عليه السلام إلى أرض الأنبار - إحدى مدن العراق الحدودية - حُرِّج جمع من الدهاقين ساجدين أمامه، بحسب التقاليد التي اعتادوا عليها، فغضب الامام من فعلتهم هذه وصرخ فيهم:

«ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خُلِّقَ مَتَا نَعْظَمَ بِهِ أَمْرَانَا. فقال: والله ما ينتفع بهذا أُمْرَاؤُكُمْ، وَأَنْكُمْ لَتَشَقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَتَشَقُّونَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ، وَمَا أُخْسِرُ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابَ، وَأُرْبِحُ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانَ مِنَ النَّارِ».

## الآية

٨١ - «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

## التفسير

«وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ»

هذه الآية تشير إلى مبدأ عام، وهو أنّ الأنبياء السابقين وأتباعهم قد أبرموا مع الله ميثاقاً بالتسليم للأنبياء الذين يأتون بعدهم، وبالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشيء في مساعدتهم على تحقيق أهدافهم.

في الواقع، مثلما أنّ الأنبياء والأمم التالية تحترم الأنبياء السابقين ودياناتهم، فإنّ الأنبياء السابقين والأمم السابقة كانوا يحترمون الأنبياء الذين يأتون بعدهم. وفي القرآن إشارات كثيرة على وحدة الهدف عند أنبياء الله. وهذه الآية نموذج حيّ على ذلك.

تقول الآية: إنّ الله قد أخذ من الانبياء «ميثاقاً». والميثاق من الوثوق، أي ما يدعو إلى الاطمئنان به والاعتماد عليه. و«الميثاق» هو الاتفاق المؤكّد. وأخذ الميثاق من الأنبياء مصحوب بالطبع بأخذ الميثاق من أتباعهم أيضاً. كان موضوع هذا الميثاق هو أنّه إذا جاء نبيّ تنسجم دعوته مع دعوتهم (وهذا ما يثبت صدق دعوته) فيجب الإيمان به ونصرته.

إذاً، لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآية:

«قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري»<sup>١</sup>

هل اعترفتم بهذا الميثاق وقبلتم عهدي وأخذتم من أتباعكم عهداً بهذا الموضوع؟

١ - الإصر: العهد المؤكّد الذي يستوجب نقضه العقاب الشديد.



وجواباً على ذلك «قالوا أقرنا».

ثم لتوكيد هذا الأمر المهم وتثبيته يقول الله: كونوا شهداء على هذا الأمر وأنا شاهد عليكم وعلى أتباعكم «قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين».

هنا ثلاث نقاط لا بد أن ننتبه لها:

١ - هل هذه الآية مقصورة على بشارة الأنبياء السابقين وميثاقهم بالنسبة لنبي الاسلام صلى الله عليه وآله، أم أنها تشمل كل نبي يبعث بعد نبي قبله؟ يظهر من الآية أنها تعبر عن مسألة عامة، وإن كان خاتم الأنبياء مصداقها البارز. كما أن هذا المعنى الواسع يتسق مع روح مفاهيم القرآن. لذلك إذا ما رأينا في بعض الأخبار أن المقصود هو نبي الاسلام الكريم، فما ذلك إلا من قبيل تفسير الآية وتطبيقها على أجل مصدايقها، وليس لأن المعنى جاء على سبيل الحصر.

ينقل الفخر الرازي في تفسيره عن الامام علي عليه السلام قال: «إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد عليه الصلاة والسلام وهو حي، ليؤمننَّ به ولينصرنَّه»<sup>١</sup>.

٢ - بعد أخذ مضمون الآية بنظر الاعتبار، يبرز هذا السؤال: أيمن أن يظهر نبي من أولي العزم في زمان نبي آخر من أولي العزم حتى يتبعه؟

يمكن القول في جواب هذا السؤال: إن الميثاق لم يؤخذ من الأنبياء وحدهم، بل ومن أتباعهم أيضاً، كما قلنا في تفسير الآية، والواقع أن القصد من أخذ الميثاق من الأنبياء وأخذهم من أممهم والأجيال التي تولد بعدهم وتدرج عصر النبي التالي. كما أن الأنبياء أنفسهم يؤمنون أيضاً إذ أدركوا - فرضاً - عهد الأنبياء التاليين. أي أن أنبياء الله لا ينفصلون إطلاقاً في أهدافهم وفي دعوتهم ولا صراع أو خلاف بينهم.

٣ - والقول الأخير بشأن هذه الآية هو أنها وإن تكن بخصوص الأنبياء، فهي تصدق طبعاً بحق خلفائهم أيضاً، إذ أن خلفاءهم الصادقين لا ينفكون عنهم، وهم جميعاً يسعون لتحقيق هدف واحد. ولذلك كان الأنبياء يعينون خلفاءهم، ويبشرون الناس بهم ويدعونهم إلى الإيمان بهم وشد أزهم.

ولئن وجدنا بعض الروايات الواردة في تفاسيرنا لهذه الآية وكتب أحاديثنا بشأن

نزول عبارة «ولتَنْصِرَنَّهُ» في عليّ عليه السلام وأنها تشمل قضية الولاية، إنها هُوَ إشارة إلى هذا المعنى. ولا بدّ أن نشير إلى أنّ هذه الآية - من حيث تركيبها النحوي - كانت موضع بحث بين المفسرين ورجال الأدب<sup>١</sup>.

### التعصّب المقيت

يحدّثنا التاريخ أنّ أتباع دين من الأديان لا يتخلّون بسهولة عن دينهم ولا يستسلمون للأتبياء الجدد المبعوثين من قبل الله، بل يتمسكون بدينهم القديم تمسكاً جافاً جامداً، ويدافعون عنه كأنه جزء من وجودهم، ويرون تركه إبادة لقوميتهم.

لذلك يشقّ عليهم القبول بالدين الجديد. إنّ منشأ الكثير من الحروب الدينية التي وقعت على امتداد التاريخ - وهي من أفظع حوادث التاريخ - هو هذا التعصّب الجاف والجمود على الأديان القديمة.

غير أنّ قانون الارتقاء والتكامل يقول: هذه الأديان يجب أن تأتي الواحد تلو الآخر، وتتقدّم بالبشرية في سيرها نحو معرفة الله والحقّ والعدالة والإيمان والأخلاق والانسانية والفضيلة، حتى تصل إلى الدين النهائي، خاتم الأديان، كالطفل الذي يتدرّج في مراحل الدراسة ويطوياً الواحدة بعد الأخرى حتى يتخرّج من الكلية والجامعة.

فاذا أحبّ التلاميذ جوّ مدرستهم الابتدائية ذلك الحبّ الذي يربطهم بمدرستهم إلى درجة أنّهم يرفضون الانتقال إلى المدرسة الثانوية، فبديهي أنّ لا يكون نصيب هؤلاء سوى التخلف عن ركب السائرين نحو التقدّم والارتقاء.

إنّ إصرار الآية على أخذ الميثاق والعهد المؤكّد من الأنبياء والأمم الماضية نحو الأنبياء التاليين لهم قد يكون من أجل اجتناب أمثال هذا التعصّب والجمود والعناد.

ولكنّ الذي يؤسف له أننا - بعد كلّ هذا التأكيد - مازلنا نرى أتباع الأديان القديمة لا يسلمون بسهولة أمام الحقائق الجديدة. سوف نشرح إن شاء الله في تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب كيف يكون الاسلام آخر الأديان وخاتمها ولماذا؟

١ - في «لما آتيتكم» يعتبر بعضهم «ما» موصولة ومبتدأ، واللام موطئة للقسم، وجملة «لتؤمننّ به» خبر. وقال فريق آخر «ما» شرطية زمانية وجزاؤها «لتؤمننّ به ولتَنْصِرَنَّهُ». وهذا الاحتمال الثاني أقرب إلى معنى الآية.

## الآية

٨٢- «فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

## التفسير

يقول القرآن في هذه الآية: لو أنّ أحداً - بعد كلّ هذا الإصرار والتأكيد وأخذ المواثيق والعهود المؤكّدة - أعرض عن الإيمان بنبيّ كنبّي الاسلام الذي بشرت به الكتب القديمة وذكّرت علاماته، فإنّه فاسق وخارج على أمر الله.

\*\*\*



## الآيات

- ٨٣ - «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ».
- ٨٤ - «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».
- ٨٥ - «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

## التفسير

«أفغير دين الله يبغون»

مرّت بنا حتى الآن بحوث مسهية في الآيات السابقة عن الأديان الماضية. وابتداءً من هذه الآية يدور البحث حول الاسلام وفيها إلفات لأنظار أهل الكتاب وأتباع الأديان السابقة إلى الاسلام.

تبدأ الآية بالتساؤل: أيريد هؤلاء ديناً غير دين الله؟ وما دين الله سوى التسليم للشرائع الإلهية، هي كلها قد جمعت بصورتها الكاملة الشاملة في دين نبي الاسلام صلى الله عليه وآله. فإذا كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحقيقي فعليهم أن يسلموا.

الاسلام دين كل الكائنات

«وله أسلم من في السماوات والأرض»

يبدأ القرآن بتفسير الاسلام بمعناه الأوسع، فيقول: كل من في السماوات والأرض، أو جميع الكائنات في السماوات والأرض، مسلمون خاضعون لأوامره «طوعاً وكرهاً». هذا الاستسلام والخضوع يكون «طوعاً» أو اختيارياً أحياناً، إزاء القوانين التشريعية، ويكون

«كرهاً» أو إجبارياً أحياناً أخرى، إزاء القوانين التكوينية.

ولتوضيح ذلك نقول: إنَّ الله نوعين من الأمر في عالم الوجود. فبعض أوامره يكون بشكل (قوانين طبيعية وماوراء طبيعية) تحكم على مختلف كائنات هذا العالم، فهي خاضعة لها خضوع إكراه وليس لها أن تخالفها لحظة واحدة، فإن فعلت - فرضاً - يكتب لها الفناء والزوال. هذا نوع من «الاسلام والتسليم» أمام أمر الله. وبناءً على هذا فإنَّ أشعة الشمس التي تسطع على البحار، وبخار الماء الذي يتصاعد منها، وقطع السحاب التي تتواصل، وقطرات المطر التي تنزل من السماء، والنباتات التي تنموها، والزهور التي تتفتح لها، جميعها مسلمة، لأنَّ كلاً منها قد أسلم للقوانين التي فرضها عليها قانون الخليفة.

والنوع الآخر من أوامر الله هي «الأوامر التشريعية» وهي القوانين التي ترد في الشرائع السماوية وتعاليم الأنبياء. إنَّ التسليم أمامها تسليم «طوعي» أو اختياري. فالمؤمنون الذين يسلمون لها إنما هم وحدهم المسلمون. إنَّ مخالفة هذه القوانين والشرائع لا تقل - على كلِّ حال - عن مخالفة القوانين التكوينية، لأنَّ مخالفتها تبعث على الانحطاط والتخلف والعدم.

ولما كانت «أسلم» مستعملة في هذه الآية بالمعنى الأوسع للاسلام أي المعنى الذي يشمل النوعين من أوامر الله، لذلك فهي تقول إنَّ فريقاً يسلم طوعاً - كالمؤمنين - وفريقاً يسلم كرهاً - كالكافرين - أمام القوانين التكوينية. وهكذا نجد أنَّ الكافرين الذين يتمتعون عن التسليم أمام بعض أوامر الله مجبرين على التسليم أمام بعض آخر من أوامر الله. فلماذا إذاً لا يسلمون لجميع قوانين الله ودين الحق؟<sup>١</sup>

هناك احتمال آخر في تفسير هذه الآية ذكره كثير من المفسرين، وإن لم يتعارض مع ما قلناه آنفاً، وهو: أنَّ المؤمنين وهم في حال من الرفاه والهدوء يسرون نحو الله بملء اختيارهم. أما غير المؤمنين فلا يسرون نحو الله إلاَّ عندما تحيق بهم البلايا والمشكلات التي لا تطاق، فيدعون ويتوسلون إليه، فمع أنَّهم في الظروف العادية يشركون به، فإنَّهم في الشدائد والمللمات لا يتوجهون إلاَّ إليه.

١ - لابد من الانتباه إلى أنَّ «طوعاً وكرهاً» في هذه الآية تعني ذوي العقول من الناس، بعكس «طوعاً أو كرهاً» في الآية ١١ من سورة فصلت التي تحدت عن غير ذوي العقول. وسوف نتناول الموضوع خلال تفسير الآية المذكورة إن شاء الله.

«وإليه يُرجعون»

في الآية السابقة كان الكلام على التوجّه إلى المبدأ سبحانه، باعتباره أمراً فطرياً. هنا الإشارة إلى المعاد، وهو أمر فطري أيضاً، لأنّ جميع الأقسام والملل تعترف بالموت. فإذا أخذنا في اعتبارنا أصل التوحيد، وهدف الخلق، وحكمة الله، فإنّ الموت لا يكون أن يعني الفناء والعدم، بل هو نوع من التكامل والتقدّم نحو محيط أوسع، وبعبارة أخرى: إنه رجوع إلى الله.

«قل آمنا بالله وما أنزل...»

في هذه الآية يأمر الله النبيّ والمسلمين بأنهم، فضلاً عن إيمانهم بما أنزل على رسول الاسلام، عليهم أن يظهروا إيمانهم بكلّ الآيات والتعليمات التي نزلت على الأنبياء السابقين، وأن يقولوا: إننا لا نفرق بينهم من حيث صدقهم وعلاقتهم بالله. إننا نعترف بالجميع، فهم جميعاً كانوا قادة إلهيين، وهم جميعاً بُعثوا لهداية الناس. إننا نسلم بأمر الله من جميع النواحي، وبذلك نقطع أيدي المفرقين.

في تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة، الشبيهة بهذه الآية، أوردنا شرحاً أوفى<sup>١</sup>.

ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه»

«يتبع» من الابتغاء بمعنى الطلب والسعي، ويكون في الأمور المحمودة وفي الأمور المذمومة. هنا يختتم البحث المذكور باستنتاج نتيجة كليّة، وهي أنّ الدين الحقيقي هو الاسلام، أي التسليم لأمر الله. وهذه حقيقة تسمو على المفاهيم القبلية والعنصرية والقومية. أمّا الذين يتخذون غير هذه الحقيقة ديناً، فلن يقبل منهم هذا أبداً، ولهم على ذلك عقاب شديد «وهو في الآخرة من الخاسرين» ذلك لأنّه تاجر بشرة وجوده مقابل بضع خرافات وتقاليد بالية، وعصبيّات جاهلية وعنصرية، ولاشكّ أنّه هو الخاسر في هذه الصفقة. وإذا ما خسر الانسان ثروة وجوده، وجد نتيجة ذلك حرماناً وعذاباً وعقاباً يوم القيامة.

فيما يتعلّق باختلاف «الاسلام» عن «الإيمان» سوف يأتي شرحه في تفسير الآية ١٤ من سورة الحجرات إن شاء الله.



## الآيات

٨٦ - « كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .  
٨٧ - « أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

٨٨ - « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » .  
٨٩ - « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

## النزول

كان «الحارث بن سويد» من الأنصار، ارتكب قتل شخص بريء اسمه «المجنون زياد»، فارتد عن الاسلام خوفاً من العقاب، وفر من المدينة الى مكة. ولكنه في مكة ندم على فعلته، وراح يفكر فيما يصنعه. وأخيراً استقر رأيه على أن يبعث بأحد أقاربه في المدينة يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله عما إذا كان له سبيل للرجوع. فنزلت هذه الآيات، تعلن قبول توبته بشروط خاصة. فقتل الحارث بن سويد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وجدد إسلامه، وظل ملتزماً وقياً لإسلامه حتى آخر رمق فيه. غير أن أحد عشر شخصاً ممن ارتدوا عن الاسلام معه بقوا مرتدين.  
في تفسير الدر المنثور وفي تفاسير أخرى، سبب نزول للآيات المذكورة لا يختلف كثيراً عما أوردناه.

## التفسير

« كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات »  
هذه الآية تشير إلى الذين اعتنقوا الاسلام، ثم ارتدوا. فالآية تقول: إن الله لا يعين أمثال هؤلاء الأشخاص على الاهتداء، إذ أن هؤلاء قد عرفوا النبي بدلائل واضحة وقبلوا

رسالته، فبعدولهم عن الاسلام أصبحوا من الظالمين، والله لا يهدي الظالم «والله لا يهدي القوم الظالمين».

«أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحق بعد معرفتهم له، كما هو مبين في الآية، أن تلعنهم الملائكة وأن يلعنهم الناس.

«اللعن» في الأصل الطرد والإبعاد على سبيل السخط، من هنا فلعن الله هو إبعاد الشخص عن رحمته، أما لعن الملائكة والناس فقد يكون السخط والطرده المعنوي، وقد يكون الابتعاد عن رحمة الله. هؤلاء الأشخاص يكونون في الواقع غارقين في الفساد والإثم إلى درجة أنهم يصبحون مورد استنكار كل عاقل هادف في العالم، من البشر كان أم من الملائكة.

«خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون»

تضيف الآية هنا أنهم فضلاً عن كونهم موضع لعن عام، فإنهم سيبقون في هذا اللعن إلى الأبد، فهم في الواقع كالشيطان الخالد في اللعن الأبدي. ولا شك أن نتيجة ذلك هو أن يكونوا في عذاب شديد ودائم بغير تخفيف ولا إمهال.

«إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم»

إن هذه الآية التي تعتبر استثناء من الأحكام السابقة، تفتح طريق العودة أمام أمثال هؤلاء. ولكنها - مثل الكثير من آيات القرآن، وبعد الإشارة إلى التوبة - تشير إلى التفكير عن الذنوب السابقة وبجملتها «وأصلحوا» تبين أن التوبة لا تعني مجرد الندم على ما مضى والعزم على تجنب ارتكاب الذنوب في المستقبل، بل شرط قبولها هو أن يمحو التائب بأعماله الصالحة في المستقبل جميع أعماله القبيحة الماضية.

لذلك نجد في كثير من الآيات أن التوبة يرافقها العمل الصالح، مثل: «إلا من تاب وعمل صالحاً»<sup>١</sup> وإلا فإن التوبة لن تكون كاملة. فهؤلاء إن فعلوا ذلك نالوا رحمة الله ومغفرته «فإن الله غفور رحيم».

## هل تقبل توبة المرتد؟

يبدو من الآية أعلاه ومن سبب نزولها أن قبول توبة المرتد (وهو الذي أسلم ثم عاد عن إسلامه) يرتبط بنوع الارتداد. فثمة «المرتد الفطري» وهو المرتد الذي ولد من أبوين مسلمين، أو انعقدت نطفته حين كان أبواه مسلمين، ثم قبل الإسلام وعاد عنه بعد ذلك. وهناك (المرتد الملبّي) وهو الذي لم يولد من أبوين مسلمين.

توبه المرتد الملبّي تقبل، وعقوبته في الواقع خفيفة لأنّه ليس مسلماً بالمولد، لكن حكم المرتد الفطري أشد. هذا المرتد - وإن قبلت توبته لدى الله سبحانه - يُحكم بالإعدام إن ثبت ارتداده. وتوزّع أمواله على ورثته المسلمين، وتنفصل عنه زوجته، ولا تحول توبته دون إنزال هذه العقوبة بحقه.

لكن هذه الشدة تخصّ - كما قلنا - المرتد الفطري، وبشرط أن يكون رجلاً. قد تعجّب بعضهم لهذا التشدد، وربما اعتبر نوعاً من الفضاضة القاسية البعيدة عن الرحمة، الأمر الذي لا يتسق مع روح الإسلام.

غير أن لهذا الحكم فلسفة أساساً، وهي حفظ الجبهة الداخلية في بلاد الإسلام ضدّ نفوذ المنافقين والأجانب، وللحيلولة دون تفككها واضمحلالها. إنّ الارتداد ضرب من التمرد على نظام البلد الإسلامي، وحكمه الإعدام في أنظمة الكثير من قوانين العالم اليوم. إذ لو أُجيز لمن يشاء أن يعتنق الإسلام متى شاء وأن يرتد عنه متى شاء، لتحطمت الجبهة الداخلية سريعاً، ولانفتحت أبواب البلد أمام الأعداء وعملائهم، ولساد المجتمع الإسلام المهرج والمرج. وبناءً على ذلك فإنّ هذا الحكم حكم سياسي في الواقع، ولا بدّ منه لحماية الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامي وللضرب على أيدي العملاء والأجانب.

أضف إلى ذلك أن من يتقبّل الإسلام بعد التحقق والتدقيق، ثم يتركه ليعتق ديناً آخر، لا يمتلك دوافع سليمة ومنطقية، وهو بذلك يستحقّ أشدّ العقوبات. أمّا تخفيف هذا الحكم بالنسبة للمرأة، فلأنّ جميع العقوبات تخفّف بشأنها.



## الآية

٩٠ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ».

## النزول

سبقت الإشارة في نزول الآيات السابقة أنّ الحارث بن سويد وأحد عشر آخرين قد ارتدوا عن الاسلام لأسباب. ثم تاب وعاد إلى الاسلام. أما الآخرون فقد رفضوا دعوته للعودة، وقالوا: سنبقى في مكة ونواصل مناوئة محمد انتظاراً لهزيمة. فإذا تحقّق ذلك فخير، وإلّا فإنّ باب التوبة مفتوح، نتوب وقتما نشاء ونرجع إلى محمد، وسوف يقبل توبتنا! فنزلت الآية. روى المفسرون سبباً آخر لنزول هذه الآية، وهو أنّها نزلت في أهل الكتاب الذين كانوا يبشرون بظهور نبيّ الاسلام قبل بعثته، ويبدون الإيمان به والإخلاص له. ولكنّه بعد أن بعث، لم يكتفوا برفض رسالته بل تجهّزوا لمحاربتة.

## التفسير

### التوبة الباطلة

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ»

كان الكلام في الآيات السابقة يدور حول الذين يندمون حقّاً على انحرافهم عن طريق الحقّ فيتوبون توبةً صادقة. في هذه الآية يدور الكلام على الذين لن تُقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا أولاً، ثم ارتدوا وكفروا، وأصرّوا على كفرهم، ورفضوا الانصياع لأوامر الله، حتى إذا اشتدّ عليهم الأمر اضطروا إلى العودة للاسلام. إنّ الله لن يقبل توبة هؤلاء، لأنّهم لن يتخذوا باختيارهم خطوة في سبيل الله، بل هم مجبرون على إظهار الندم والتوبة بعد رؤيتهم انتصار المسلمين. لذلك فتوبتهم ظاهرية ولن تُقبل.

وثمة احتمال آخر في تفسير هذه الآية هو: أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص عندما يرون

أنفسهم على أعتاب الموت ونهاية العمر قد يندمون ويتوبون حقاً. غير أنّ توبتهم لن تُقبل، لأنّ وقت التوبة يكون قد انتهى، كما سيأتي شرحه.

وقيل: من المحتمل أن يكون معنى الآية: إنّ التوبة عن الذنوب العادية في حال الكفر لن تقبل. أي إذا أصرّ أحدهم على المضيّ في طريق الكفر، ثم تاب عن ذنوب معينة كالظلم والغيبة وأمثالهما، فإنّ توبته هذه لا طائل وراءها ولن تُقبل، وذلك لأنّ غسل التلوّث الظاهر عن الروح والنفس، مع بقاء التلوّث الأعمق في الباطن، لا فائدة منه.

لابدّ أن نضيف هنا أنّ التفاسير المذكورة آنفاً لا تعارض بينها، وقد تشملها الآية جميعاً، وإن يكن التفسير الأول أقرب إلى الآيات السابقة وإلى سبب نزول هذه الآية.

### «وأولئك هم الضالّون»

إنّهم الضالّون التائهون حقاً، لأنّهم أضاعوا طريق التوبة كما أضاعوا طريق الله وطريق الإيمان، وهم يظنون أنّهم بغير التهيؤ الكافي، وبغير الإخلاص، وبغير تطهير القلب والروح تطهيراً حقيقياً في الوقت المناسب قادرون على نيل التوبة. لكنّهم مخطئون.

## الآية

٩١ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلُّ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ».

## التفسير

### الكفارة الباطلة

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلُّ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ»  
تخصّ الآية أولئك الذين يقضون أعمارهم كافرين في هذه الدنيا، ثم يموتون وهم على تلك الحال. يقول القرآن، بعد أن اتّضح لهؤلاء طريق الحق، يسبّرون في طريق الطغيان والعصيان، وهم في الحقيقة ليسوا مسلمين، ولن يُقبل منهم كلّ ما ينفقونه، وليس أمامهم أيّ طريق للخلاص، حتى وإن أنفقوا ملء الأرض ذهباً في سبيل الله.  
من الواضح أنّ القصد من القول بإنفاق هذا القدر الكبير من الذهب إنّما هو إشارة إلى بطلان إنفاقهم مهما كثر، لأنّه مقرون بتلوّث القلب والروح بالعداء لله، وإلّا فن الواضح أنّ ملء الأرض ذهباً يوم القيامة لا يختلف عن ملئها تراباً. إنّنا قصد الآية هو الكناية عن أهمية الموضوع.  
أما بشأن مكان هذا الإنفاق، أي الدنيا أم في الآخرة؟ فقد ذكر المفسرون لذلك احتمالين اثنين، ولكن ظاهر الآية يدلّ على العالم الآخر، أي كانوا كافرين «وماتوا وهم كفّار»، فلو كانوا يملكون ملء الأرض ذهباً، وظنّوا أنّهم بالاستفادة من هذا المال، كما هي الحال في الدنيا، يستطيعون أن يدروا العقاب عن أنفسهم، فهم على خطأ فاحش، إذ أنّ هذه الغرامة المالية والفدية ليست قادرة على التأثير في ماسيوا جههم من عقاب.

«أولئك هم عذاب أليم وما لهم من ناصرين»

لا شكّ في أنّهم سينالون عقاباً شديداً مؤلماً، ولن يكون باستطاعة أحد أن ينتصر

أو يشفع لهم.





## فهرس الجزء الثاني

٣	تفسیر الآیة: ١٨٨
٤	وباء الرشوة
٦	تفسیر الآیة: ١٨٩
٧	المقاييس الطبيعية؟
٨	تفسیر الآیة: ١٩٠
٨	لماذا الحرب؟ ومن نحارب؟
١٠	تفسیر الآيتين: ١٩١-١٩٢
١٢	تفسیر الآیة: ١٩٣
١٢	الجهاد الابتدائي التحرري
١٣	الجهاد الدفاعي
١٣	الجهاد من أجل دحر الشرك
١٤	لماذا شرع الجهاد في المدينة؟
١٤	معنى الفتنة في القرآن
١٥	تفسیر الآیة: ١٩٤
١٧	تفسیر الآیة: ١٩٥
١٧	الإفناق يمنع الهلاك الإجتماعي
١٩	تفسیر الآیة: ١٩٦
٢٠	موجز أعمال الحج والعمرة
٢٤	تفسیر الآیة: ١٩٧
٢٥	تفسیر الآيتين: ١٩٨-١٩٩
٢٥	النشاط الاقتصادي في موسم الحج
٢٦	لماذا سمي الموقف عرفات؟

٢٩	تفسير الآيات: ٢٠٠-٢٠٢
٣٢	تفسير الآية: ٢٠٣
٣٣	تفسير الآيات: ٢٠٤-٢٠٦
٣٥	تفسير الآية: ٢٠٧
٣٨	تفسير الآيتين: ٢٠٨-٢٠٩
٣٨	السلام العالمي في ظل الإيمان فقط
٤٠	تفسير الآية: ٢١٠
٤١	تفسير الآية: ٢١١
٤٢	تفسير الآية: ٢١٢
٤٤	تفسير الآية: ٢١٣
٤٤	سبب بعثة الأنبياء
٤٦	الدين والمجتمع
٤٧	تفسير الآية: ٢١٤
٤٧	الصعاب والمشاق سنة إلهية
٤٩	تفسير الآية: ٢١٥
٥٠	تفسير الآية: ٢١٦
٥١	تفسير الآيتين: ٢١٧-٢١٨
٥٢	الحبط والإحباط والتكفير
٥٥	تفسير الآية: ٢١٩
٥٦	ما هو الإثم؟
٥٦	أضرار المشروبات الكحولية
٥٦	أثر الكحول في العمر والنسل
٥٧	أثر الكحول في الأخلاق
٥٧	أضرار الكحول الاجتماعية والاقتصادية
٥٨	آثار القمار المشؤومة
٥٨	القمار أكبر عوامل الهياج
٥٩	علاقة القمار بالجرائم



- ٥٩ الأضرار الاقتصادية والاجتماعية للقمار
- ٦٠ المقصود بالعفو
- ٦١ ملاحظتان
- ٦٣ تفسير الآية: ٢٢٠
- ٦٤ تفسير الآية: ٢٢١
- ٦٤ من هم المشركون؟
- ٦٦ تفسير الآيتين: ٢٢٢-٢٢٣
- ٦٧ أضرارالجماع في أيام العادة الشهرية
- ٦٨ الجماع المجاز
- ٦٩ وسيلة لحفظ بقاء النوع البشري
- ٧١ تفسير الآيتين: ٢٢٤-٢٢٥
- ٧٢ الأيمان المعتبرة
- ٧٣ تفسير الآيتين: ٢٢٦-٢٢٧
- ٧٣ القضاء على تقليد جاهلي
- ٧٤ الايلاء في الجاهلية الحديثة
- ٧٥ تفسير الآية: ٢٢٨
- ٧٥ المقصود من القروع
- ٧٦ العدة وسيلة للصلح والعودة
- ٧٦ العدة وسيلة لحفظ النسل
- ٧٧ الحق والواجب
- ٧٩ قصة المرأة وحقوقها
- ٨٠ المرحلة الجديدة في حياة المرأة
- ٨١ المفهوم الصحيح للمساواة
- ٨٣ تفسير الآية: ٢٢٩
- ٨٤ شيخ الأزهر يأخذ برأي الشيعة
- ٨٥ الحدود الإلهية
- ٨٧ تفسير الآية: ٢٣٠

٨٨	المحلل أو العائق
٩٠	تفسير الآية: ٢٣١
٩١	لا تهزأوا بأحكام الله
٩٢	تفسير الآية: ٢٣٢
٩٤	تفسير الآية: ٢٣٣
٩٤	أحكام الرضاعة السبعة
٩٧	تفسير الآية: ٢٣٤
٩٧	خرافات تبعث على تعاسه المرأة
٩٩	تفسير الآية: ٢٣٥
١٠١	تفسير الآية: ٢٣٦
١٠٣	تفسير الآية: ٢٣٧
١٠٥	تفسير الآيتين: ٢٣٨ - ٢٣٩
١٠٥	أي الصلاة هي الوسطى؟
١٠٨	تفسير الآية: ٢٤٠
١٠٩	هل هذه الآية منسوخة؟
١١١	تفسير الآيتين: ٢٤١ - ٢٤٢
١١٣	تفسير الآية: ٢٤٣
١١٧	تفسير الآيتين: ٢٤٤ - ٢٤٥
١١٧	الله يستقرض من عباده!
١١٩	تفسير الآيات: ٢٤٦ - ٢٥٢
١٢٠	حادثة ذات عبرة
١٢١	من هو طالوت؟
١٢٢	طالوت في الحكم
١٢٥	شروط الحكم
١٢٦	التابوت أو صندوق العهد
١٢٨	اختبار واضح
١٣١	فرضية تنازع البقاء

١٣٤	تفسير الآية: ٢٥٣
١٣٦	هل الأديان تسبب الاختلافات؟
١٣٨	تفسير الآية: ٢٥٤
١٤٠	تفسير الآية: ٢٥٥
١٤٠	آية الكرسي
١٤١	ما مفهوم «الله حي»؟
١٤١	للخالق خالق؟
١٤٢	القيوم
١٤٣	مالكية الله المطلقة
١٤٤	الشفاعة ليست محسوبة
١٤٧	ما العرش والكرسي؟
١٥٠	تفسير الآية: ٢٥٦
١٥١	الدين لا يفرض
١٥٤	تفسير الآية: ٢٥٧
١٥٦	تفسير الآية: ٢٥٨
١٥٨	تاريخ عبادة الأصنام
١٦٠	تفسير الآية: ٢٥٩
١٦٥	تفسير الآية: ٢٦٠
١٦٧	ملاحظات حول معجزة عودة الطيور
١٦٨	المعاد الجسماني
١٦٩	شبهة الأكل والمأكل
١٧٢	تفسير الآية: ٢٦١
١٧٥	تفسير الآية: ٢٦٢
١٧٥	الإنفاق المأجور
١٧٧	تفسير الآية: ٢٦٣
١٧٩	تفسير الآيتين: ٢٦٤ - ٢٦٥
١٧٩	دوافع الإنفاق ونتائجه



١٨٠	مثال رائع آخر
١٨١	تفسير الآية: ٢٦٦
١٨١	مثال آخر
١٨٣	تفسير الآية: ٢٦٧
١٨٣	ما الأموال التي يمكن إنفاقها؟
١٨٦	تفسير الآية: ٢٦٨
١٨٦	مكافحة موانع الإنفاق والأفكار الشيطانية
١٨٨	تفسير الآية: ٢٦٩
١٩٠	تفسير الآية: ٢٧٠
١٩١	تفسير الآية: ٢٧١
١٩٣	تفسير الآية: ٢٧٢
١٩٤	أنواع الهداية
١٩٦	أثر الإنفاق في حياة المنفق
١٩٨	تفسير الآية: ٢٧٣
١٩٨	خير مواضع الإنفاق
٢٠٠	تفسير الآية: ٢٧٤
٢٠٠	الإنفاق بكلّ صورته
٢٠١	تفسير الآيات: ٢٧٥ - ٢٧٧
٢٠١	الرباني القرآن
٢٠٤	منطق المرابين
٢٠٧	تفسير الآيات: ٢٧٨ - ٢٨٠
٢١٠	تفسير الآية: ٢٨١
٢١٠	أضرار الربا
٢١٢	تفسير الآية: ٢٨٢
٢١٢	تدوين الأوراق التجارية
٢١٦	تفسير الآية: ٢٨٣
٢١٨	تفسير الآية: ٢٨٤

٢١٩	تفسير الآية: ٢٨٥
٢١٩	الاعتراف بالعبودية
٢٢١	تفسير الآية: ٢٨٦
٢٢١	أداء الواجب في حدود القدرة
٢٢٢	العقاب على النسيان والخطأ

### سورة آل عمران

٢٢٦	تفسير الآيات: ٣-١
٢٢٨	تفسير الحروف المقطعة بالعقول الالكترونية
٢٣٧	تفسير الآية: ٤
٢٣٨	تفسير الآية: ٥
٢٣٩	تفسير الآية: ٦
٢٣٩	مراحل تطوّر الجنين من روائح الخلق
٢٤١	تفسير الآية: ٧
٢٤٢	الآيات المحكمة والمتشابهة
٢٤٣	لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟
٢٤٤	ما هو التأويل؟
٢٤٥	من هم الراسخون في العلم؟
٢٤٩	تفسير الآيتين: ٨-٩
٢٥٠	تفسير الآيتين: ١٠-١١
٢٥٢	تفسير الآية: ١٢
٢٥٢	تنبؤ صريح
٢٥٣	تفسير الآية: ١٣
٢٥٦	تفسير الآية: ١٤
٢٥٦	من الذي جعل الماديات زينة؟
٢٥٧	ما هي القناطر المنطرة والخيل المسومة؟
٢٥٨	ما هو متاع الحياة الدنيا؟

٢٥٩	تفسير الآيات: ١٥-١٧
٣٦٠	هل في الجنة لذائذ مادية أيضاً؟
٢٦١	متى السحر؟
٢٦٢	تفسير الآية: ١٨
٢٦٢	كيف يشهد الله على وحدانيته؟
٢٦٣	ما هو القيام بالقسط؟
٢٦٣	مركز العلماء
٢٦٥	تفسير الآية: ١٩
٢٦٥	روح الدين التسليم للحق
٢٦٦	منشأ الاختلافات الدينية
٢٦٨	تفسير الآية: ٢٠
٢٧٠	تفسير الآيتين: ٢١-٢٢
٢٧٢	تفسير الآيات: ٢٣-٢٥
٢٧٤	جواب على سؤالين
٢٧٦	تفسير الآيتين: ٢٦-٢٧
٢٧٨	الحكومات الصالحة وغير الصالحة
٢٨٢	ليس في الأمر إجبار
٢٨٣	تفسير الآية: ٢٨
٢٨٣	العلاقة مع الأجنبي
٢٨٤	التقية أو الدرع الواقي
٢٨٥	التقية أو تغيير أسلوب النضال
٢٨٦	تفسير الآية: ٢٩
٢٨٧	تفسير الآية: ٣٠
٢٨٨	القرآن وتجسيد الأعمال وحضورها
٢٨٩	رأي العلماء في الثواب والعقاب
٢٩١	العلم وتجسيد الأعمال
٢٩٢	تفسير الآيتين: ٣١-٣٢



٢٩٢	الحب الحقيقي
٢٩٤	الدين والحب
٢٩٥	تفسير الآيتين: ٣٣-٣٤
٢٩٥	تميز الأنبياء
٢٩٨	تفسير الآيتين: ٣٥-٣٦
٢٩٨	كيفية ولادة مريم؟
٣٠١	تفسير الآية: ٣٧
٣٠٤	تفسير الآيات: ٣٨-٤٠
٣٠٥	هل العزوبة فضيلة؟
٣٠٥	يحيى وعيسى
٣٠٨	تفسير الآية: ٤١
٣١٠	تفسير الآيتين: ٤٢-٤٣
٣١٢	تفسير الآية: ٤٤
٣١٢	الاقتراع الحل الأخير
٣١٤	تفسير الآية: ٤٥
٣١٦	تفسير الآية: ٤٦
٣١٧	تفسير الآية: ٤٧
٣١٨	تفسير الآيتين: ٤٨-٤٩
٣٢٠	أكانت معجزات المسيح عجيبة؟
٣٢٠	الولاية التكوينية
٣٢٢	تفسير الآية: ٥٠
٣٢٣	تفسير الآية: ٥١
٣٢٤	تفسير الآية: ٥٢
٣٢٤	من هم الحواريون؟
٣٢٦	تفسير الآية: ٥٣
٣٢٧	تفسير الآية: ٥٤
٣٢٧	ما المكر الإلهي؟

٣٢٨	تفسير الآية: ٥٥
٣٣٠	هل الديانتان اليهودية والمسيحية باقيتان؟
٣٣١	تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٨
٣٣٢	تفسير الآيتين: ٥٩ - ٦٠
٣٣٤	تفسير الآية: ٦١
٣٣٤	ما المباهلة؟
٣٣٤	الدعوة الى المباهلة
٣٣٦	أحد أدلة عظمة أهل البيت
٣٣٨	اعتراض وجواب
٣٤٠	هل المباهلة تشريع عام؟
٣٤١	تفسير الآية: ٦٢
٣٤٢	تفسير الآية: ٦٣
٣٤٣	تفسير الآية: ٦٤
٣٤٣	الدعوة الى الاتحاد
٣٤٥	رسائل النبي إلى رؤساء العالم
٣٤٥	رسالة الى المقوقس
٣٤٧	رسالة الى قيصر الروم
٣٥٠	تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٨
٣٥١	كيف كان إبراهيم مسلماً؟
٣٥٢	ارتباط المدرسة الفكرية بالهدف
٣٥٣	تفسير الآية: ٦٩
٣٥٥	تفسير الآيتين: ٧٠ - ٧١
٣٥٦	تفسير الآيات: ٧٢ - ٧٤
٣٥٨	خطط قديمة
٣٦٠	تفسير الآيتين: ٧٥ - ٧٦
٣٦٣	اعتراض وجواب
٣٦٤	تفسير الآية: ٧٧

٣٦٦

تفسير الآية: ٧٨

٣٦٧

تفسير الآيتين: ٧٩ - ٨٠

٣٦٩

منع عبادة البشر

٣٧١

تفسير الآية: ٨١

٣٧١

الميثاق المقدس

٣٧٣

التعصّب المقيت

٣٧٤

تفسير الآية: ٨٢

٣٧٥

تفسير الآيات: ٨٣ - ٨٥

٣٧٥

الاسلام دين كل الكائنات

٣٧٨

تفسير الآيات: ٨٦ - ٨٩

٣٨٠

هل تقبل توبة المرتد؟

٣٨١

تفسير الآية: ٩٠

٣٨١

التوبة الباطلة

٣٨٣

تفسير الآية: ٩١

٣٨٣

الكفارة الباطلة









PRINCETON  
UNIVERSITY  
LIBRARY





Princeton University Library



32101 057499368

کتابخانه ملی  
۲۰۰۰ میلادی